غالب هلسا

سلطانة



ISBN 978-9953-0-2824-8

سلطانة

غالب هلسا

سلطانة

دار الحقائق

الطبعة الأولى
١٩٨٧

دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب ١٤/٥٥٢٨
دمشق - سوريا. ص.ب ٥٦٧٩ / ت ٧٧٥١٩٦

القسم الأول

القرية

الفصل الأول

ـ ١ ـ

بقايا أحلام ، تسبق الصحو عـادة . رغبات ملتاعة وأحلام يقظة تهـاجمه في اللحظات المترددة بـين النوم واليقـظة . أحلام تلك اللحـظات تكون سـريعة ، غائمة ، مجرد أمثلة توضيحية للرغبات . آنذاك ، يكون الجسد ذاتاً وموضوعاً ، إذ يخلق التلامس بين أعضاء الجسد، ما ينوب عن جسد آخر في حـالة اليقـظة . . يخلق متعة محرّمة . تصبح المخدة واللحاف ، وكل ما يمكن الامسـاك به وتحـريكه جزءاً من الجسـد ، امتدادا له .

تلك لحظات متعة خالصة (بالطبع ، يقبع على حدودها ، منتظراً ، صغيـراً جداً ، وقائماً : الوعي بأن تلك المتعة وهم).

الاستيقـاظ لحظة انفصـال مؤلم ، لحظة يتحـدد الجسد ويشعـر انـه مستقـل ـ مستقل عن ذلك الدفـء الحنـون الذي يحيـطه به الفـراش ، عن ذلك الملمس الذي للحاف والبيجامة والذي يشبه جسداً يحتويه ، عن ذلك الأمان التام الخالي من كل خوف ـ . الاستيقاظ ، بمعنى من المعاني ، عمليـة جراحية يتم فيها بـتر امتدادات الجسـد (لا استمدادتها) .

الاستيقاظ لا يأتي فجأة ، ولكنه يصارع محاولات العودة الى الخدر . الرغبات وأحلام اليقظة والدفـء تندفع باغواء محاولة احتواء اليقظة ، ولكن طابعها المكرر والممل يجعل هجمتها ضعيفة الأثر . اليقظة واجب اجتماعي تدوس تحت قدميها

لحظات الضعف .

هكذا استيقظ جريس .

-٢-

صحوت من النوم على عالم بلا أصوات . الصمت فقط ، وفضاء أسمر . كان ذلك مخيفاً بعض الشيء ، ومليئاً باحتمالات متعددة . اليقظة أصبحت ، بالنسبة لي ، قفزة الى المجهول . تساءلت ، وأنا في خدر النوم : أين أنا ؟ في عمان ، أم في القرية ؟ أم هل تحقق أحد الأحلام المستحيلة ؟ حاولت العودة الى النوم ، ولكنني لمحت القنطرتين الكبيرتين ، اللتين يرتكز عليهما سقف الدار ، وسواد مخازن الحبوب والتبن الذي يتوه في ظلمة لانهائية ، والسقف الأسود حاولت ألاّ التزم بتحديد المكان ، فشددت اللحاف على رأسي ، ومنحت منفذاً صغيراً لدخول الهواء ، وناديت النوم ليحتويني . ولكنني كنت سائراً في طريق التنبه . اقتنعت بعد قليل أن لا فائدة . كان ذلك حين حزمت أمري وقررت : أنا في القرية .

درت في الدار بلا هدف ، كأنني أحاول استكشافها . كانت حزمة من ضوء الشمس تنساب من طاقة في السقف ، راسمة بقعة شبه مستديرة على أرضية الدار الطينية . كانت تزحف ببطء نحو البساط الصوفي ، الذي تتخلله خطوط عريضة سوداء وبنية وبيضاء . كثيراً ما انحنيت فوق هذه البقعة الضوئية ، أراقبها . أدهشتني انها ترتعش طيلة الوقت .

كنت أتمدد على البساط وأجعل البقعة الضوئية تسقط في عيني ، وأحاول أن أرى السماء :

كانت البقعة تقوم ، بالنسبة لي ، مقام الساعة . كان نصفها على البساط والنصف الآخر كان محنياً على الأرض. إذاً ، فالساعة قد تجاوزت التاسعة ، والشمس الآن تغمر الحوش كله ، وأمي قد انصرفت منذ ساعة ، على الأقل

لتشرب القهوة المرة وتتبادل الأحاديث مع نساء القرية . كن في كل يوم يتجمعن في بيت من البيوت ، وكانت الأحاديث تدور حتى وقت الغداء . عندها يتذكرن بيوتهن وأعمالهن المنزلية ، فيغادرن .

سرت نحو باب الدار الكبير . فتحته ، فصرّ صُريره المعتاد ـ في البداية يكون كصرخة ثم يتحول الى أنين ـ. كانت السماء عالية ، شديدة اللمعان ، تكاد تكون بيضاء . بعض الحدادي تحلق في السماء . بدت متوقفة عن الحركة ، تعاين الأرض تحتها . هوت واحدة منها بسرعة هائلة ، ورأيت بعين الخيال العصفور بين مخالبها . حاولت أن أحدد حوش البيت الذي هوت اليه ، ولكنني لم أستطع .

على قمة الجبل ، الذي تكوّن القرية نطاقاً حوله ، كان قبر علي ، جد الحارة الاسلامية ، ينهض مستطيلاً ، وفي قاعدته درجتان ، كنا نجلس عليهما في فترة الصباح . بجواره تقع كنيسة الروم الارثوذكس ، وهي شبه مهجورة ، عدا يوم الأحد . لقد تحوّل معظم السكان الارثوذكس الى الكاثوليكية . كان بيتنا يلي الكنيسة مباشرة .

عندما فتحت باب الدار بدت أمامي بوضوح الهضبة المقابلة ، التي يفصلها عن قريتي سهل ضيق ووادي. على الهضبة يكوّم الفلاحون حصادهم من القمح والشعير . شاهدت البيادر ، وفوقها خيول ربط خلفها لوح الدراس . وفوق اللوح يقف الدراس والفرس تجر الاثنين . كان هنالك بغال وحمير ونساء وأطفال وصلتني أصواتهم بمجرد وقوعهم في مجال النظر .

تجمع الدجاج حولي وعلا زعيقه . أمسكت عصا القصيب الطويلة وأخذت ألوّح بها في الهواء وأصيح : كش ، كش ، فتح الكلب عينين دامعتين ، أطلق همهمة حلقية خافتة ، ثم عاد الى نومه .

عدت إلى الداخل ، فتحت درج المائدة . لقيت ثلاث بيضات ، وحبة طماطم كبيرة ، وكأساً فيه حليب ، وقطعة من الجبن المالح . أخذت أعد افطاري ببطء واستمتاع . أشعلت وابور الجاز ووضعت سمناً في الغلاية ، وعندما أخذ السمن يتفرز ويصخب وضعت قطعة الجبنة فيه ، وشرائح عريضة من

الطماطم ، ثم فقست البيضات الثلاث . عندما أصبح الطعام جاهزاً وضعت ابريق الشاي فوق الوابور .

تناولت الافطار ، وشربت الشاي ، وأنا أعيش أحلام يقظة ممتعة . يحدث ذلك كلما تناولت الافطار وحدي . كان حلم اليقظة إعادة صياغة لأحداث لم تصل الى نهايتها بسبب ترددي وخوفي من الفضيحة . في هذه المرة رأيتني أجلس عندما دعتني فدوى لدخول الدار والجلوس، ولكنني اعتذرت ومضيت . أرى نفسي وقد دخلت وجلست ، وهي تجلس أمامي ، وأقول لها حديثاً تعلم منه أنني أحبها . سوف أحكي لها عن الرواية التي أقرأها ، وسوف أحدثها عن المدرسة الداخلية في عمان التي أدرس فيها .

-٢-

استمرت أحلام اليقظة طويلاً ، وكذلك تناولي الافطار . وعندما انتهيت أخذت أذرع أرض الدار . أخذ حلم اليقظة يفقد حدته ، ووددت لو أنني أستطيع الخروج .

لا يوجد مكان أذهب اليه . فأصحاب الدكاكين الذين كانوا يرحبون بزيارتي عند بداية قدومي من عمان ، فيضعون صندوقاً من الخشب أمام باب الدكان ، وينادون زوجاتهم ليعددن لي الشاي ، ويقدمون لي سيجارة ، قد تعوّدوا علي الآن . اصبحوا يعاملونني كواحد منهم . بل ان بعضهم ألمح بشكل غير مباشر ان الجلوس على أبواب الدكاكين يقطع الرزق .

كما امتنعت عن زيارة أصدقائي ، في مثل هذا الوقت ، واكتفيت بالمرور عليهم ساعة العصر لنقوم بنزهتنا اليومية على الطريق الرئيسي الذي يخترق حقول الحنطة ، ويمتد غرباً ، لنصل الى حافة الجبل المطل على الأغوار . شعرت بأن زيارتي لهم تحرجهم . ربما كان سبب ذلك اضطرارهم لتقديم الشاي ، وكان ذلك يثير مشاحنات صغيرة مع امهاتهم ، تصلني أطراف منها ، وأنا جالس على حصيرة في الحوش ؛ أو ربما لأنني كنت أحملق في نساء البيت برغبة لا أستطيع اخفاءها . أو

ربما لكوني لا أمتّ ـ أنا وعائلتي ـ بصلة قربى الى احد في القرية . كل ما أعلمه انني اخذت أشعر أن تكرار زياراتي غير مرغوب فيه تماماً .

تصاعد البخار كثيفاً من ابريق الشاي ، وأخذ غطاؤه يرقص ويطقطق بايقاع متسارع ، فأنزلته عن الوابور ووضعت فيه السكر والشاي ، واخفضت شعلته ، حتى يغلي ببطء .

أخذت أشرب الشاي ، وأنا أذرع الدار . اشعلت سيجارة فأحدثت دواراً ممتعاً . وأخذت أحلم بخضرا . كان المشهد يبدأ ببطء ، ثم ينتهي الى الالتحام الجسدي . انتبهت فجأة الى المرأة التي تقف بباب الدار . كانت خضرا . ثقل تنفسي وخشن صوتي . قلت :

ـ تفضلي .

قالت :

ـ صباح الخير يا أستاذ .

قررت ان أكون حازماً هذه المرة . اقتربت منها وأنا ابتسم ، وقلت :

ـ ما فيه حدا في الدار .

كانت عيناها السوداوان تضيئان بتعبير لم أفهم الى مآ يشير ، اقتربت منها حتى أصبحت أمامها وكررت :

ـ ما فيه حدا في الدار .

كان حلقي جافاً ، وخرج كلامي بتأتأة خشنة . كنت أنتظر استجابة فورية ، كأن تحتضنني وتعلن عن رغبتها . ما زالت البسمة المضيئة ، الملتبسة تشع من عينيها ، وظلت صامتة ، قلت :

ـ فيه شاي . . .

واختنق الكلام في فمي .

قالت انها تريد اقتراض ثلاثة ارغفة خبز . لمست يدها وأنا أعطيها الخبز . استدارت وانصرفت . تبعتها الى الحوش وأنا أنوي أن أقول لها أنني أحبها ، أو شيئاً كهذا . لما رأتني اتبعها نظرت إليّ بعينين لعوبتين وقالت بلهجة ودودة :

ـ خليك جوه يا خوي عن هالنار .

قلت :

ـ بدي اسكر باب الحوش وراكي .

أغلقت باب الحوش ، وأنا ألوم نفسي لأنني أضعت فرصة كنت أحلم بها منذ زمن .

-٢-

ما الذي حدث لخضرا ؟ كانت هي البادئة .

كان أهل القرية قد اتجهوا كلهم غرباً ، أعني الحارة الغربية التي تقطنها قبائل العوازم . فقد كان هنالك عرس تخللته معركة ، فمضى أهل حارتنا ، وأهل الحارة القبلية ليصلحوا المتعاركين ، أو للفرجة . وكنت وحيداً .

حدث ذلك قبل أسبوعين . كنت وحيداً في الدار ، أقرأ رواية « العبرات » للمنفلوطي . وهي ، كما هو معروف ، مأخوذة عن رواية الكسندر دوما « سيدة الكاميليا». حتمية انتهاء العلاقة بين السيدة وحبيبها كان يعتصر قلبي بالألم . أما مشهد موت السيدة فقد جعلني حزيناً حتى الاختناق . كانت « عبراتي » تتساقط دون محاولة لايقافها أو كفكفتها .

ثم أخذت أذرع الدار وأعيد بناء الرواية ، متقمصاً شخصية الحبيب . من خلال أحلام اليقظة خلقت نهاية سعيدة . لم يزل حزن النهاية المأساوية بل تحوّل الى شفافية . ثم رأيت خضرا تقف أمامي قالت :

ـ ما فيه حدا في الدار .

لم يكن سؤالاً ، بل تقريراً لواقع . وأضافت بصوت غريب هامس ، مختنق :

ـ سكّرت باب الحوش بالزند .

كان وجهها مخطوفاً . أعني عيناها معلقتان بعيني ، ووجهها قد هرب منه الدم ، وشفتاها تنفرجان قليلاً . وكانت تتنفس بصعوبة ، وبتلاحق سريع . كنت انظر اليها ، وأقول لنفسي « انها خائفة ». كانت تقف هكذا ، دون حركة ، تتوقع شيئاً مني لم أكن أدركه على وجه اليقين . هل . . .؟ وفاجأني الخوف . كان

خوفاً من سقوط مريع ، من القيام بخطوة لا سبيل للتراجع عنها .

قلت :

ــ ايش بدك ؟

كنت أريد الوضوح قبل كل شيء .

أصبح وجهها قانياً ، له لمعة ، وأسبلت عينيها ، قالت :

ــ سلامتك .

واستدارت متجهة الى باب الدار . وفجأة خطر لي انني فقدتها ، وان علي أن أسرع خلفها قبل أن تصل باب الحوش . ولكنني بقيت في مكاني مشلول الحركة .

استعدت قدرتي على الحركة . توقعت ان أراها واقفة في الحوش تنتظر . لم يكن هنالك احد في الحوش ، وكان بابه مفتوحاً . منذ تلك اللحظة ، ورغم العديد من النساء اللواتي عرفتهن ، ظلت خضرا في داخلي رغبة لا تنطفىء .

الفصل الثاني

عادت أمي عند الظهر لتعدّ لي طعام الغـداء . خلال ذلـك كانت تحكي لي أنباء القريـة . كنت في العادة استمـع اليها دون أن أعلق ، أو حتى وأنـا أواصل القراءة . سألتها :

ــ عند مين كان الاجتماع ؟ .

وكان ذلك أسلوباً في التهكم يرفعني في نظرها ، ويتحـول الى طرفـة تحكيها لصديقاتها . قالت :

ــ عند الحوارنة . بنتهم إجت من عمان . اللي بتشتغل عنـدهم بصيّفوا في رام الله .

كانت تضع اللحمة على الوابور . وجاءت جارتنا صبحا وجلست عـلى عتبه الباب . كانت قصيرة وسمينة ، ووجهها دائماً أحمر وعرقان ، كأنها سارت مسافة طويلة . قالت لأمي :

ــ شفت البنت الخدامة ! يا خيتي صايرة مثل القمر .

قالت أمي :

ــ خشي اقعدي جوه .

ــ خليني هون . بدي شوية هوا .

قالت أمـي مــوجهــة الكــلام لي :

ــ جابية معاها كلب زغير ، وقال ما بوكل غير لحمة . قال لها أبوهـا : « يا ست اميرة ، احنا مش لاقيين الخبز ، نقوم نطعم الكلب لحمة ! » .

ضحكت صبحا وهي منصرفة الى مراقبة البيادر . قالت بعد قليل :
ـ بيدر أبو حبة متل ما هوه .
ضحكت أمي وقالت :
ـ قعدت معانا البنت شوية ، وبعدين قامت وقالت : « أنا عندي صناع » قال يعني راسها بوجعها .
قلت :
ـ صداع .
سألت صبحا :
ـ ايش هيه ؟
قلت وأنا أحاول أن أؤكد كل حرف :
ـ صوداع ، صداع .
ضحكت صبحا وقالت :
ـ انتو أهل عمان .
ثم توجهت الى أمي وقالت :
ـ قال الكلب اسمه ، ايش اسمه ؟
ـ ماكس .
قالت أمي . ثم قالت لي بحنو وكأنها تناغي طفلاً :
ـ وزغير الكلب . قد القطة . وشعره أبيض وطويل مثل صوف الخروف . شعره مغطي عيونه .
نهضت صبحا . دعتها امي للبقاء للغداء ، فقالت :
ـ وأنا عندي عيال يا اختي ، وصار وكت غداهم .
وانصرفت .
قلت لأمي ان خضرا اقترضت ثلاثة أرغفة . فقالت :
ـ البنت الدايرة ، ليش تعطيها ؟

غضبت . أمي دائماً توجه الاهانات الى كل فتاة تشعر أنني أميل اليها . تخاف علي من السقوط كأنني فتاة بكر ، وكان ذلك يثير أعصابي : تريدني أن أكون دائماً

بنها الصغير . قلت :

ــ أكذب يعني ؟

ــ خبزهم وسخ .

ــ أطعميه للكلب .

لم تردّ . وواصلت القراءة متجهماً . حاولت أمي أن تسترضيني . قالت :

ــ سألتني أميرة عنك « كيف حال المستر ؟ » وقالت انها شافتك في السوق ، ب عمان ، وكان بدها تسلم عليك ، لكنك ما شفتها .

ــ حصل الشرف يا ستي .

سرت أمي للطريقة المتعالية التي قلت بها ذلك . ضحكت وقالت :

ــ قلت لها مستحيل لو جريس شافك ما يسلم عليك . قالت « سلمي على لستر وخلينا نشوفه » .

وضحكت أمي ، لتستثير ضحكي . لم أضحك ، رغم أنني نسيت هُجومها لى خضرا ، لأنني كنت أشعر بالاشمئزاز .

الفصل الثالث

- ١ -

نبح الكلب نباحاً متزناً ، ليس فيه ذلك التلاحق الذي يتوجه به الى الغرباء .
سمعت صوت بطرس يقول :

ـ اخص ، اخص من كلب . ما أنت عارفني .

يبدو أنهما تعارفا ، فقد أخذ الكلب يطلق نبحات قصيرة ، متألمة معتذرة . ثم ركن الى الصمت . ثم رأيت بطرس يقف بباب الدار طويلاً ، نحيلاً ، أسمر ، له عينان سوداوان جميلتان تظللهما رموش طويلة غزيرة ، وشارب صغير أسود في وجه مستطيل . كان يضحك . قال :

ـ قال مش عارفني قال .

أشعلت وابور الجاز ووضعت ابريق الشاي عليه . أخذ بطرس يتحدث مع أمي عن أميرة :

ـ هذي يا خالتي لابسة على آخر موضة .

سألته :

ـ أنت شفتها ؟

ـ لا . بقولوا .

وحكت له أمي عن كلب أميرة الصغير وانه لا يأكل الا اللحم ، وسؤالها عني ، موردة تفصيلات جديدة لم أسمعها من قبل ، فتوجه الي وهو يضحك :

ـ بتسأل عن المستر ، هاه ؟
ضايقني ذلك . فانصرفت الى اعداد الشاي . سمعته يقول :
ـ والله يا خالتي لو بناتنا يتعلمـن ويلبسن على الموضة ، والواحدة منهن تتغندر غير يصيرن احلى من بنات عمان .
تذكرت ما قالته أمي عندما رأت امرأة طلت شفتيها بالروج . قالت :
ـ مثل القطة اللي أكلت عيالها .
امسك بطرس بالكتاب الذي كنت أقرأه وأخذ يتهجى :
ـ مدام بوفاري . عن ايش الكتاب هذا ؟
ـ كتاب تاريخ .
كـان به نهم للمعـرفة التي لا تكلف جهـداً ، ويفضـلها عـلى شكل حكـاية يستطيع أن يرويها ، ليبهر بها اقرباءه الكثيرين . قال :
ـ ما أنا عارف . لكن عن تاريخ العصر الوسيط ؟
قالت أمي :
ـ يا ابني يا بطرس ، جريس خلّي شغلته وعملته القراية .
قال بطرس :
ـ والله يا خالتي لو اهلنا فتّوا علينا نص المصاري اللي صرفتوها على جريس كان الواحد طلع يعرف انجليزي .
كان بطرس يدرس في الثانـوية الحكـومية في عمـان ،والتي أعلم ان مستوى تدريسها للغة الانجليزية كان جيداً . ان قدرة بطرس على الاستيعاب كانت هي المشكلة .

بعد أن شربنا الشاي ، ارتديت ملابسي وسـرنا في الشـارع الرئيسي للقـرية الذي يتخللها من بدايتها حتى نهايتها من الشرق الى الغرب . البيوت على الجانبين تختفي وراء أسوار من الحجارة والطين ، وأمامها أو تحتها الدكاكين . كنت أتمنى أن نقطع هذه المسافة عبر القرية صامتين ، حتى اتملّى النساء الجالسـات على أبـواب الحيشـان . والأطفال وهم يمـارسون ألعـابهم . ولكن بطرس كـان يبدأ حـديثاً بصوت مرتفع ، يحتكره وحده . وكان يستعمل تعابيـر مثل (الحيـاة الاجتماعيـة

والسياسية)، أو يذكر كتّاب أعلم انه لم يقرأ لهم الا القليل : طه حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، والعقاد الذي كان يقول عنه انه معقد مثل اسمه . وكنت أعلم أننا بمجرد أن نغادر القرية ، ويختفي جمهور المستمعين من أهل القرية فسوف يسألني بالحاح ولهفة عن الكتاب الذي كنت أقرأه ، وسوف يطلب مني أن الخّصه له .

كان مستمراً في حديثه الذي لم أكن أصغي اليه . وكنا نقترب من مجموعة من النساء يجلسن على بوابة حوش تنفتح على الشارع . نادتنا امرأة منهن :

ــ تعالوا انتو المتعلمين اللي قارين في عمان .

أدار بطرس وجهه بعيداً . قلت :

ــ خير إن شا الله !

قال بطرس :

ــ امشي يا شيخ .

قالت المرأة :

ــ شفتو المدمزيل بنت الأكابر فايدة كلبها ؟

ضحكت بقية النساء . كانت خضرا تصوّب نحوي نظرات تبرق بضحكة خجولة . هل تعود غداً لرد الأرغفة الثلاثة ؟ كنت أرتعش .

قالت المرأة :

ــ ايش فايدة علمكو ، لما الواحد منكو يطلع مشوار ويخلّي كلبه وراه .

نظرات خضرا أفقدتني التركيز ، فلم أجد ما أقوله . كان بطرس ينظر الى الجهة الأخرى . خرج سمعان من دكانه وقال :

ـ محسوبك مسكت الكلب ورميت له خبزة . المدمزيل المتربية في مطابخ عمان قالت لي (واخذ يقلد صوتها) بلاش بياخة يا سمعان. الكلب مش متعود على الخبز الناشف .

قالت احدى النساء :

ــ احنا ما بطلع لنا نصير كلاب .

وقالت أخرى :

ـ يا ريتك يا سمعان كلب عند أميرة .

قال :

ـ من فمك لباب السما يا خيّ .

اقترب سمعان مني ومن بطرس وهو يكوّر يديه على صدره وقال :

ـ اما بزاز يا اخوان الصفا . . .

ارتفعت أصوات النسوة :

ـ اخص ، اخص . .

وعلا ضحكهن . كانت خضرا تبتسم وقد تضرج وجهها بحمرة لامعة ، جعلت عينيها أشد حلكَة . لمح بطرس نظرة خضرا اليّ ، فقال :

ـ ييه ! ياللا يا شيخ .

كان كأم غيورة .

ـ ٢ ـ

دخلنا الحارة الغربية . رجال يتجمعون أمام الدكاكين ردوا تحيتنا دون تعليق . امرأتان تجلسان على عتبة دار تنفتح على الشارع . ردتا على تحيتنا بتحفظ . يبدو أن حكاية أميرة لم تصلهم ، أو ربما اعتبروها شأناً خاصاً بالحارة الشرقية .

خلّفنا القرية وراءنا . على يميننا كان ذلك المنخفض المحاط بالصخر ، والمحمي بأشجار صغيرة دائمة الخضرة من حرارة الشمس ، ونظرات العابرين . ومضة تذكّر لسعت القلب . هنا في هذا المنخفض ، عندما كنا أطفالاً ، اختبأت أنا وأميرة . نامت على ظهرها وقالت تمدد فوقي وسوف أنجب طفلاً . كانت تخيفني . قلت الطفل يأتي بعد الزواج . قالت : هكذا يتزوجون . ثم قالت :

ـ وجهك صار أحمر ، احمر ، مثل البنت .

لم احك ذلك لبطرس . لم يكن النمط الذي تروي له مثل هذه الحكايات . لن يرى فيها إلاّ بذاءة مطلقة .

سرنا بين حقول القمح . مساحات واسعة على اليمين قد حصدت ، تجوس فيها خراف بطيئة الحركة . الحقل الذي يليه كان يتم حصاده . الحصادون ينحنون بمناجلهم ويقطفون جرزة سنابل ، وأخرى ، حتى تصبح كومة صغيرة يسمونها الغمر . خلفهم لاقطات السنابل ، يجمعن ما يتخلف عن الحصادين .

عند مرورنا استقامت أجساد الحصادين ، وبدت وجوههم عرقانة ، سمراء ، مرهقة . وتوقفت اللاقطات ، وأخذ الجميع يراقبوننا . كانوا دائماً يتعجبون من مسيرتنا ، في هذا القيظ ، بلا سبب . لماذا تتعبون أنفسكم دون سبب ؟ كانوا دائماً يسألوننا .

ألقينا التحية عليهم بسرعة :

ــ الله يعطيهم العافية .

وردت أصوات متفرقة :

ــ الله يعافيهم .

ــ فاتكو الشر يا أساتذة .

قلت :

ــ خير ؟

قال :

ــ بنت مثل قرص الجبنة وكلبها معاها .

ضحكت الفتيات .

واصلنا السير . كان بطرس غاضباً. قال :

ــ عقليات تافهة يا أخي .

كنت أعجب للسبب الذي يدعو بطرس لكل هذا الترفع عن أهل القرية ، رغم ان عائلته تنتمي الى الفئات الفقيرة التي تشكّل أغلبية أهل القرية .

عند نهاية المنطقة الزراعية وبداية المرتفع الصخري كانت تقوم خيمة سوداء صغيرة . عندما اقتربنا خرج رجل من الداخل ودعانا لشرب الشاي . الحّ الرجل ، ولكننا رفضنا . وواصلنا السير .

بعد مسيرة قصيرة فوق أرض وعرة انتهت الهضبة فجأة الى انحدار طويل وسحيق يمتد عشرات الكيلومترات ، الى الأغوار ، أكثر مناطق العالم انخفاضاً . في القاع نهر الأردن يسرع نحو البحر الميت . ثم يعاود الغور الصعود حتى يصل الى جبال القدس .

جلسنا على الصخرة المعتادة نتأمل المشهد . رغم انني كل يوم أطالع هذا المشهد ولكن فرحي به لم يكن ينتهي . كنت أحلم انني في يوم ما ، سوف أعود لاستقر في القرية ، وأبني بيتاً ـ قلعة ـ على حافة الهضبة . كان البيت ـ في خيالي ـ يحتوي على أقبية ، وممرات سرية ، وتحيطه حديقة بها أشجار عملاقة وسور .

البحر الميت عند العصر مرآة مصقولة ، شديدة اللمعان ، أفرش كفي ـ عندما أطالعه ـ فوق عيني لأحميهما من قسوة الضوء . واتذكر الصادمة التي تشبه لطمة على العينين عندما سبحت في هذا البحر الكثيف الأملاح ، ثم وأنا أخرج منه بجسد لامع بالفسفور . تعيش عيناي الآن هذه الصدمة . أقول لنفسي : « فليكف بطرس عن الكلام . انه الغروب ». ولكنني لا اجرؤ على قول ذلك له .

تنحدر الشمس قليلاً فيتحول البحر الى مساحة حمراء كابية ، كأن الضوء يتولد من عمق الماء ، مبلولاً ، كابياً . ثم تغمره ظلال جبال القدس ليصبح صفحة سوداء .

الأفق الغربي ازدحم بغيوم وردية . روعة المشهد فرضت نفسها على بطرس فصمت . اختفت الغيوم الارجوانية ليحل محلها ضوء بلّوري أخذ يشحب ، ومعه تزاد السماء عمقاً ، والأفق اتساعاً . كان الليل بطيء القدوم ، اذ امتلأ الفضاء بهذا الضوء الشفاف الناعم .

ثم تغير المشهد . جبال القدس التي كانت كتلة سمراء صماء انفجرت بعشرات الأضواء الكهربائية . أضواء تتلاحق في خطوط مستقيمة ، وتتوزع في نقاط متباعدة . بدت كقطع كريستال في ضوء الغروب ، تضيء لذاتها .

حزن شفاف وأشواق الى عالم مليء بالحياة ، طاهر وجميل ، عالم لا يعرف الملل . اخذت احلم بمدن شوارعها من زجاج ، ببحر كبير وناعم ، ببهجة

الناس ، والتواصل الذي لا ينتهي .

وأطالع القدس واستعيد الحكايات التي سمعتها من العائدين منها ، حكايات الجنود ، والتجار ، وزوار كنيسة القيامة . هل أعود بعد هذا الى القرية ، والليل ، والوحدة ، والملل ؟

ننهض من فوق صخرتنا عائدين . اختنق فأجد متنفساً في الشعر . أخذت اتلو قصائد لقيس بن الملوّح وذي الرمة . كان بطرس يردد :

ـ بلاغة ، يا أخي ، بلاغة !

ويلح علي ان أعيد ما قلته حتى يحفظه . كنت أعرف الفكرة النفعية وراء لجاجته . كان يريد حفظ هذه الأبيات حتى يرصّع بها موضوعات الانشاء العربي في السنة الدراسية القادمة .

ودّعت بطرس عند باب داره ، دون أن نتفق على لقاء قادم . سيأتي غداً ، دون موعد ، على أية حال . لقد ملأني بالضجر وأثار أعصابي .

ـ ٢ ـ

ليل القرية مشحون بالخوف . انه جزء من تراث هذه القرية الجبلية التي كانت معرضة لغزوات البدو المحيطين بها . والليل مسكون . الموتى ينهضون من قبورهم عندما تغيب الشمس ويزحمون القرية . حضورهم أقوى ما يكون في الأحلام أو الصمت . وهم يأتون لأسباب متعددة : لمجرد معرفة ما يحدث ، الشكوى من الاهمال والنسيان ، التسرية عن الحزانى . . . او قد يجيئون لأسباب شريرة : وعد للأم أو الأخت أو الأب بلقاء قريب ودائم ، اتهام هذا أو ذاك بأنه سبب موته ، أو المطالبة بارواء العطش للدم . أهل القرية يسمعون انينهم يتخلل ليل القرية ، ويستمر الليلة بعد الليلة ، أنين من يتعذب ويعاني آلام الاحتضار ، أو هم قد يتقمصون كلباً ليبلغ رسالة عن موت قريب . يتوجه الكلب الى بيت المنذور للموت ويظل ينوح (في قريتي يقولون يجوح) دون انقطاع وأحيانا يتخذ

الذين ماتوا قتلا شكل (المفاول)، فمن الموقع الذي سقط فيه قتيلاً يمسك الدم المسكوب بالحجارة ويقذف المارة بها .

ويـزدحم الليل ، خـاصة الأمـاكن المهجورة ، والكهـوف ، بأرواح شـريرة ومزعجة ، تباغت من يقترب لترعبه ، أو لتقوده الى الجنون .

وأخوض في الليل ، متصوراً أن لكل من حولي من بشر وما حولي من أشياء عيـوناً تـراني ولا أراها . احســاس بالحصـار يتولاني ، احســاس بأن كـل خطوة مجازفة . يناديني صوت من جوف الليل :

ــ وش هالزول ؟

أرد :

ــ صاحب .

وأواصل السير مفتقداً بطرس بجواري . هنا يستعاد ليـل الطفولـة : زعب خالص ، وكل شيء يحمل تهديداً ما .

ادخل البيت . امي تفاجأني واقفاً . تشهق وتقول :

ــ باسم الصليب ورشم الصليب .

ــ مسا الخير .

ــ مسا الخير . ما حسيت فيك وأنت داخل .

السراج موضوعة فوق الخزانة التي يوضع فيها الخبز والطبيخ . الدار الواسعة بقنطرتيها العاليتين ، والمخازن التي يوضع فيها التبن والقمح والشعير ، والأقبيـة التي يخزّن فيها الحطب ، وفوقها المصاطب التي ننام عليها في الشتاء ، محتجبة وراء ستائر . . وأمي وهي جالسة بثيابها السوداء كل ذلك ولّد في داخلي احساس خانق بالوحدة .

قلت :

ــ وحدك ؟

لم يكن ضرورة للسؤال . في المساء نكون دائماً وحيدين .

ــ تعشيت ؟

سألتها . قالت :

ـ اتعشى من حالي ؟

على نحو ما ، كان ردها يحمل ريح الفاجعة . وكيف تتعشين عندما أكون في عمان ، في المدرسة ؟ كيف تمضين الليل وحيدة في هذه الدار الواسعة ، والحجرات المتناثرة في ثلاثة أحواش ؟

يخطر لي في مثل هذه اللحظات ان أعود للقرية ، وأتزوج ، وأملأ البيت عليها بالأطفال .

ـ ٤ ـ

عشائي كالافطار ، والغداء غالباً ، مكوّن من البندورة والبيض والجبن ، مع الشاي . هنالك بعض الاضافات احياناً : زيتون ، باذنجان مخلل ، خيار ، عنب . أكلت دون شهية ، بدافع الواجب فقط . أخذت أمي تغريني بأن أتم الرغيف ، وخلال ذلك تحكي حكايات عن القرية ايام زمان . آمنة ، التي أصبحت الآن عجوزاً ، عندما كانت فاتنة القرية . وروت قصائد شاعر القرية بها ، الزنجي الذي كان مملوكاً لأحد عشاقها .

حكايات آمنة لا تنتهي ، وأمي خلالها ترسم صورة لقرية ملأى بالفرسان ، وبالسهرات التي تمتد طويلاً ، والحكايات التي تروى . . . ليالي الشتاء التي يحلو فيها السهر .

هل هي ضجرة مثلي ؟

لا يبدو ذلك . لأنها أخذت تستعد للنوم دون توتر .

انتهينا من العشاء وذهبت أمي لتنام .

لم يكن هنالك من مكان أذهب اليه . فأخذت أذرع أرض الدار . استعدت مشهد الغروب ، ونهر الأردن يجري في ذلك القاع السحيق . والبحر الميت ، وعند استرجاع صورة القدس أحسست برغبة في مغادرة القرية بأسرع ما يمكن . ثم أخذت أفكر في خضرا (ستجيء غداً حتماً) . رأيتني استقبلها ، أمسك يدها ،

أضمها . . . وأحسست بانحلال في داخلي ، برغبة في الاسترخاء على الفراش . أحلام يقظة الجنس تزهر وتخصب في الفراش .

وأميرة ؟

أحسست بها منافسة ، لا حبيبة . ملابسها وكلبها المضحك ! أعود الى خضرا ، وخطواتي تثقل . تحول التفكير فيها الى عذاب لا يفضي الى شيء . أنظر الى الساعة . تقترب من التاسعة .

ثم أويت الى فراشي .

أعلم ان النوم بعيد . ولكن ماذا أفعل ؟ الليل مليء بالضجيج ، وأنا أنام على سطح الدكان المطل على الشارع . نباح الكلاب ، طنين البعوض ، صرخات الدجاج النائم في الخن ، في الحوش ، قصيرة جارحة ، وصراخ الدرّاسين على الهضبة المقابلة ، وظلالهم العملاقة تتحرك بسرعة البرق حول كلوبات الضوء الباهرة الضوء ، وهم ينتظرون هبوب الهواء لتذرية السنابل المدروسة ، وفصل القمح فيها عن التبن .

كان استجلاب النوم معاناة مؤلمة . نهاري الخالي من الفرح بدا لي يقظة قصيرة بين فترتي نوم تمتدان كدهر . لقد تكوّنت لدي عادات ثابتة في فترة الأرق هذه . ابدأ بتعداد النساء اللواتي رأيتهن . لا أذكر الأسماء كلها ، بل اكتفي بأن اذكر المرأة العابسة مثلاً ، أو ذات الثوب الأزرق ، أو تلك التي رايتها للمحة خاطفة وهي تمرق بسرعة . يختلط علي الحساب ، فأعيد العد . افعل ذلك أكثر من مرة ، وفي كل مرة تكون النتيجة مختلفة .

ثم تركزت أفكاري على خضرا . كانت أفكاراً طاهرة . نجلس في ذلك المنخفض الواقع غرب القرية ، مختفين بين الشجر . ألمسها فقط وأتحدث اليها . انظر الى العينين ، أرتوي بالضوء المتدفق منهما . ألمس الرموش بشفقي .

عند تلك الملامسة يتصاعد الوجد ليصبح نحيباً ، أشكو مرارة البعد ، العذاب الذي أعانيه حين لا أراها ، منتظراً انبجاس الدمع من عينيها . يتكرر المشهد مرات عديدة حتى يفقد حدته . وعندما استعيده من جديد يتحول الى

مشهد جنسي . انه يتصاعد، وينتهي بالعادة السرية. يعقب ذلك شعور بالتقزز من جسدي والندم . تظهر فدوى رقيقة صامتة ، تنظر بعينين واسعتين . استبعدها . انا لا استحقها . انني ملوّث . اتحوّل الى مشاهد العنف . فدوى شاهدة بعيدة ، محايدة . أعود جريحاً بعد المعركة ، فتقترب . تلمس وجهي بيدها ، فتبرز خضرا . . . يعود المشهد الجنسي ، وممارسة العادة السرية مرة أخرى .

ثم أتمدد مفرغاً وحزيناً ، وجسدي غريب عني ، ما زال النوم بعيداً . وماذا بعد ؟ لا شيء . لا شيء . ضجر حتى الموت .

اتكيء على كوعي وأواجه أمي التي تنام قريباً مني . استطيع أن أرى وجهها على ضوء النجوم . كانت تتمدد على ظهرها مفتوحة العينين . في الليل تنام مفتوحة العينين ، تسمع كل ما يدور حولها . عندما يكون هنالك خطر ما تنهض واقفة . حكت لي انها نهضت من فراشها ليلة مفزوعة . كان أبي مستيقظاً . سألها : ما لها ؟ قالت : رجل بين الخراف . وخرجت ، ورأت على التو رجلاً ينهض ويركض مبتعداً . قال أبي : لقد أحسست بحركة غريبة ، ولكنني ظننته كلباً .

احياناً تصحو بالليل فجأة . تجلس في فراشها تصغي بامعان . أسألها : ماذا حدث ؟ فتجيب أنها تسمع بكاء بنات غيث . وبنات غيث كائنات غريبة ، مبهمة ، تنتحب قبل ان يموت انسان ما . سمعتها أمي مرة قبل ان يموت أخي ، ومرة أخرى قبل أن يموت أبي . وتقول بوجه مرتعب :

ــ حوش يارب ، حوشي يا مريم العذرا .

عندها تدخل البيت وتضيء شمعة أمام ايقونة العذراء مريم ، وتتمتم « السلام عليك يا مريم ، يا ممتلئة نعمة ، الرب معك ، مباركة انتِ بين النساء ، ومباركة ثمرة بطنك يسوع . . . » .

يحيط بي الموت على شكل رائحة ـ رائحة بخور وجسد بدأ يتحلل ، ورائحة شموع . ويولد حلم اليقظة مستعاراً من مشاهد من أفلام ، وروايات ،

ذكريات . أعيش مع والدي " أبي أصبح فقيراً ، وحزيناً جداً ، لأن أمي لارستقراطية الجميلة تزوجت رجلاً آخر . وهي تتعذب بسببي ، لأن والدي منعها من رؤيتي . كل متع الحياة ، الثروة والمركز الاجتماعي ، والأولاد البنات ، لا تساوي شيئاً مقابل أن تراني .

بشكل غير مفهوم تصبح امرأة أخرى غير أمي . تصبح انسانة رقيقة تضحّي بكل شيء من اجل ان تتزوجني . زوجها القاسي وأهلها يمنعونها من رؤيتي . نهرب من باريس ـ كنا في باريس بلدة غادة الكاميليا ـ ونعيش في قرية أوربية صغيرة .

يصبح ذلك كله مملاً . تتوهج الرغبة في داخلي . غداً ، من المؤكد غداً سوف تأتي خضرا . يسرع الايقاع . لن أتردد . لن أتردد . لن أتردد . امسك يدها ، واضع يدي الأخرى على ظهرها . أداعب ظهرها . تضع رأسها في صدري . . .

ملمس جسدها يثيرني الى أقصى حد . أمارس العادة السرية مرة أخرى . شعور بالخواء والندم يعقب ذلك .

النجوم حوّلت مواقعها ، والصمت يعم القرية . انطفأت الكلوبات على الهضبة المقابلة .

صمت عميق كالموت .
وما زال النوم بعيداً .

الفصل الرابع

- ١ -

صحوت مبكراً . وجه خضرا ماثل أمامي نقي حلو ، امتداد لأحلامي . هبطت من سطح الدكان الى الحوش . الشمس لم تطلع بعد ، والعتمة ما تزال معلقة كأنها دخان على الجبال الغربية . الفجر فرح أحمر في الأفق الشرقي . وعود يوم جديد . هل يحدث شيئاً ؟ ماذا حدث للناس ، تناسوا كل شيء سوى جمع النقود ، والنزوح الى عمان ؟

لحن حزين كالبكائية يتردد في داخلي وأنا أسير في الحوش . حوش صامت كبير كأنه أطلال قوم مضوا . اسمع دقات المهباش عند جيراننا ، يتردد الايقاع في داخلي ، ينظّم خطواتي ، وعلى الفور اتخيل انني أشم رائحة القهوة . تصلني أصوات الاستيقاظ من النوم : صراخ الأطفال ، تذمر البنات ، والأم ترد زاعقة بأعلى صوتها .

حطّ علي ثقل كالبكاء المحتجز . أمي وانا نسكن وحدنا هذا الحوش الكبير بدوره الثلاث . منذ وقت ليس ببعيد ـ سبع سنين أو أكثر قليلاً ـ كان الحوش مزدحماً بالبقر والغنم ، وكان هنالك حصان ، وحمار ، وجمل ، وكثيراً ما تكون هنالك خيول الضيوف . والدور ممتلئة : أخي الأكبر وزوجته وبناته الثلاث . انه موظف في الكرك الآن ، وقد اشترى بيتاً ، وأرضاً بعد أن أخذ حصته من

لميراث . وأخي الثاني الذي غادر القرية منذ خمس سنوات ، ولم يعد ، ولم نسمع منه شيئاً . نعلم انه في مكان ما في الضفة الغربية . وكان هنالك مرابعان اثنان مع زوجتيهما ، يعملان في أرضنا مقابل الحصول على خمس المحصول . كانت لعائلتان تسكنان في الحجرات الصغيرة ، في الحوش الغربي .

كنت أصحو على دقات المهباش . أبي يطحن القهوة منغّماً دقاته ، وعلى صوت لضيوف وهم يتحدثون بأصوات خشنة . أطل من باب الدار المخصصة لمضيوف . يدعوني الضيوف للدخول :

ـ تعال يا وليد .

أنظر الى أبي . فيهز رأسه ، ويقول :

ـ خش سلم .

أصافح الضيوف المتكئين على الوسائد . يدخل أحد الضيوف ويخرج بعض قطع الحلوى ويضعها في يدي ، ويقول :

ـ خذ .

يطلب أحد الضيوف مني أن أتلو احدى القصائد التي تعلمتها في المدرسة . يهز أبي رأسه علامة الموافقة . فأقف في وسط المضافة ، وألقي :

رأيت أمس نحلة صفراء مثل الذهب

ألقيها على الطريقة التي تعودناها في المدرسة . أذكر عنوان القصيدة ، واسم الشاعر بصوت لا يكاد يسمع ثم يعلو صوتي علواً مفاجئاً ، والوّح بذراعي على استقامتها بسرعة وكأنني أمارس لعبة رياضية . يمتدحني الضيوف ، ويبشرون أبي بمستقبل عظيم لي .

كانت أمي تقف أمام باب الدار ترمي العلف للدجاج ، وتنادي : تيعة ، تيعة ، تيعة . فتقبل أفواج الدجاج متحمسة ، وهي تطلق صرخات قصيرة ، حادة ، متتالية . عندما رأتني أمي قالت :

ـ صاحي بكير يا بني .

ثم أردفت ضاحكة :

ـ نام بكّير ، وقوم بكير ، وشوف الصحة كيف بتصير .

قلت لها أنني سأذهب الى السوق لأشتري العنب والبندورة . قالت :

ـ الله يقويك يا بني .

قلت :

ـ استنيني لما أرجع نفطر مع بعضنا .

احتقنت عيناها بالانفعال ، ولم تقل شيئاً . امتلأ قلبي بالعطف عليها : وحيدة تعيش في هذه الدور الخالية ، حتى أعود اليها في الإجازة الصيفية . اية حياة !

سرت في الشارع . القرية استيقظت من سباتها . أعلى الأصوات في هذه الساعة أصوات النساء ، نحيلة ، حادة ، عصبية . تتطاير عبارات تصك السمع : يا بنت ما مسخّمة ، يا ملطّمة . . . يا ام عين بيضا . . . !

أغراني الصباح بمواصلة السير حتى وصلت طرف القرية الغربي . في الطريق كنت التقي ببعض النساء المسنات ، مسرعات بثيابهن السوداء ، وعصبة الرأس . عندما كن يرينني ، يلقين تحية الصباح ، ويتساءلن :

ـ خير ان شا الله . وين مبدّر ؟

أرد :

ـ خير . طالع مشوار .

يرمقنني بتعجب ويمضين .

والرجال يسيرون ثقال الخطى ، عيونهم نصف مغمضة بسبب ضوء الشمس ، والماء الذي غسلوا وجوههم به ما زال عالقاً بأطراف أنوفهم ، وبجويفي العينين ، وباللحي . يلح بعضهم في دعوتي لتناول الافطار ، أو شرب الشاي ، بعد ان يسألوني عن سبب تبكيري . كان من المستحيل مواصلة السير مع كل هذه الاستفسارات ، ونظرات التعجب . فعدت الى السوق .

حياة السوق على أشدها كأنها بدأت من ساعات . قرب أبواب الدكاكين يجلس لصق الحائط رجال مسنّون ، يفترشون الأرض ، ويتكئون على الجدار

حاذي للدكان . كانوا يتحدثون بأصوات مرتفعة ، وينادون المارة رجالاً ونساء ، سألونهم عن أي شيء يخطر لهم ، بلهجة آمرة ، شاكية ، مستنكرة .

استوقفني مزعل ، وقال لي عبر لحيته الكثيفة :

ـ صباح الخير يا أستاد . قرّب .

ـ صباح الخير .

قلت واقتربت . قال :

ـ شفتك مبدر رايح الحارة الغربية . عسى ما فيه شي ،

ـ لا ، كنت بتمشى .

ـ ومتعّب نفسك عالفاضي ؟

وانصرف عني .

تجار الخضار قد صفوا صناديقهم الخشبية الملأى بالبندورة والكوسا والعنب الخيار والفقوس ، ووضعوها خارج أبواب الدكاكين ، وأمامها وقف صبيان صرخون بأصواتهم الحادة : تفرج وشوف ، بندورة ، بندورة . التاجر اليمني كان قف قصيراً ، نحيلاً ، غامق السمرة ، ينظّم نداءه المعروف ، بلهجته الغريبة :

ـ حلاوة تعلك ، وراحة تهتف ، وبندورة كنّها خدود النصرانيات !

ويضحك بعض المارة .

بعض النساء ، يرتدين أثواباً سوداء ، تعلق بها أطفال صامتون ، كنّ يحملن سلالاً قديمة ، وبوجوه تلمع بالعرق يتصايحن مع الباعة ، مطالبات بتخفيض لأسعار ، متهمات أصحاب الدكاكين بأنهم يغشون في الوزن .

اشتريت حاجتنا من الخضار والفاكهة وعدت الى البيت . عندما دخلت من باب الحوش سمعت أمي تنوح ببكائيات وتبكي :

ـا غمر يا ابو عين حمرا   يا للي كلامك بيع وشرا

يا مربي قليلات الحيا

هل البلى ما اكثر عدمكو   حجاج مكة خير منكو

شهرين والثالث لفوا

وتتنهد وتنشج . أدركت انها انتظرتني طويلاً ، وعندما شعرت بالملل اخذت تكنس الدار وتنوح لتسلي نفسها . وهي لا تجيد من الأغاني سوى البكائيات . كان ذلك النواح يؤدي دائماً الى بكاء حقيقي . وعندما تكون في مثل هذه الحالة يصعب اسكاتها . تتوقف قليلاً ، ثم يغلبها اللحن فتستسلم له . كانت تلح علي :

ــ يا ابني خليني انوّح شوية ، من شان خاطر أبوك .

ولكنني امنعها من مواصلة البكاء بعصبية ، لأنني أعرف ان البكاء يعقبه صداع شديد يستمر طيلة اليوم . وأحياناً تلتهب عيناها . مسحت دموعها بكم ثوبها الواسع وقالت :

ــ طوّلت يا بنيي .

كان صوتها مختنقاً . قلت :

ــ طلعت مشوار زغير .

ــ ربنا يحنن عليك .

ـ ٢ ـ

عندما أصبحت وحيداً في الدار واصلت القراءة في رواية (مدام بوفاري) . كانت زوجة الصيدلي تشكو للطبيب أن زوجها يقضي وقتاً طويلاً في المطبخ ، ويكثر من تناول المأكولات الدسمة . قالت للطبيب انها تعتقد ان هذا سوف يجعل دم زوجها كثيفاً ، فيرد الطبيب :

ــ ليس الكثيف هو دمه يا سيدتي .

ويبتسم الطبيب لنكتته التي لم تفهمها السيدة .

اعجبني هذا الجزء من الرواية ، فاعدت قراءته مرة أخرى ، وأنا أضحك . ثم خجلت من ضحكي .

لم تعد بي رغبة في القراءة . وددت بقوة أن اكلم أحداً . لماذا لا يأتي بطرس ؟ أخذت اتمشى في الدار وأغني :

لـيـا ولـيـا يـا سـارة يـا عـلبـة الـعـطارة
بـكـرة بـتـصـير الـغـارة وكـل شـاب بـاخـد لـه بـنـيـه

وخضرا ؟ توقفت عن الغناء . أصبحتُ اصغاءً محضاً . أصغي بكل حواسي لصوت خطواتها في الحوش . هل باب الحوش مفتوح ؟ يغلق من الداخل ، ولا يوجد احد غيري في الداخل . قد تظنه مغلقاً ؟ بامكانها ان تدق الباب . تدق الباب ؟ والمارة ، والناس ؟ وأواصل السير بحذر حتى لا يفوتني الصوت . عدم مجيئها يعني انها غير مهتمة برد الأرغفة الثلاث . وما دام هنالك حجة لحضورها فامتناعها عن المجيء يدل انها لا ترغب بي .

أرهقني الحذر وارهاف السمع . هذا الانتظار السخيف لن يأتي بها ، حين تجيء ، وكما حدث في المرتين السابقتين ، سوف أجدها بباب الدار . التوتر جعلني أدور في الدار بلا هدف . أشد ستارة المصطبة وانظر خلفها لأتأكد ان المصطبة ما تزال هناك . هنا سنتمدد انا وخضرا .

خرجت الى الحوش . الكلب يغط في نعاسه . فتح عينيه عندما اقتربت . كانتا حمراوين بسبب النعاس والهرم . أنَّ أنّة نحيلة ، وهمهم ، حرّك ذيله ببطء شديد ، ثم عاد الى سباته المتمع . قمزت أمامي دجاجة وزعقت بعنف ، واستمرت في زعيقها دون توقف ، وكأن مطرقة من الحديد تدق لوحاً من الصفيح . حدثت ضجة عامة بين الدجاج . الرؤوس مرتفعة ، والريش منتفش ، والعيون شقراء تحدق بنظرات ثابتة ، وهي تنطلق مسرعة نحوي . صحت :

ــ كش ، كش .

ولكنها احاطت بي تكاكي مطالبة بالعلف . أبعدتها عني وأنا أشاركها الصراخ . هذا ما كان ينقصني .

سرت نحو باب الحوش . فتحته قليلاً حتى لا يحدث أي التباس . وانا عائد توقفت أمام باب المضافة المغلق (أكاد أسمع استعدادهم للحركة المتوقعة : يقفون ببطء ، حفيف القنابيز والعباءات وهي تهبط على أجسادهم عند النهوض ،

أقدامهم تدب بطيئة على الأرض . . . انفجار الترحيب الجماعي بالقادم الجديد ، رائحة القهوة في أنفي ، وطعم الحامض الحلو احسه في حلقي).

فتحت الباب ودخلت . وكأنني دخلت مكاناً لم أره من قبل . لم أكن اتصور ان تفعل العناكب كل هذا . خيوطها قد اخفت السقف بنسيج متداخل ، متواز ، ومتقاطع ، وانساب النسيج على الجدران ، واخفى الزوايا ؛ وما تزال العناكب دائبة تفرز خيوطها .

لم استطع ان اتقدم أكثر من خطوات قليلة . على الزاوية التي على يساري كومة تبن ، وفي صدر الحجرة ألواح خشبية يغطيها التراب ، وبعض أشولة الشعير المسندة الى الجدار . بدت المضافة صغيرة ومظلمة . بدا لي ذلك مستحيلاً وفاجعاً ، اذ كانت صورتها في خيالي واسعة جداً ، مضيئة ، ونظيفة . شعرت بالاختناق من الغبار ، وتعاسة الحجرة ، وهزيمة الذكرى . تبعتني دجاجة الى الحجرة ، مثيرة الغبار . طردتها وأغلقت الباب خلفي .

دخلت الدار . لم أكن أرغب في القراءة . مارست بعض التمارين الرياضية ، فانساب العرق داخل عيني . واجتاحني غضب واحتجاج هائلان : لن يمضي هذا اليوم كبقية الأيام ، لن يمضي بانتظار خضرا التي لا تأتي ، وبممارسة تفريج جنسي ميكانيكي ، يعقبه الندم ، والتقزز من جسدي ، والحلم الأبله بام ارستقراطية . سأذهب الى أي بيت ، وسأتحدث كما أشاء . لن اكترث بغضب الأصحاب لأنني أحدق في النساء . سوف أقول أشياء لم يسمعوا بها من قبل ، ولن أدع الحديث المكرور عن التجار الذين سافروا الى عمان ، وأثروا ، يدور بلا نهاية . سأعطي الأطفال بضعة قروش . لن يكونوا خاسرين . لم أعد أرغب في حضور خضرا . ولكنها ، إن جاءت ، فسوف أضمها ـ حتى لا أندم فيما بعد على إضاعة الفرصة ـ ثم أطلب اليها ان تأتي غداً ، وفي كل يوم . سوف أطلب ذلك منها بحسم . شعرت انني قادر على فعل أي شيء .

ارتديت ملابسي بسرعة . وأغلقت باب الدار ووضعت المفتاح في شق في الجدار تعرفه أمي .

في الشارع رأيت عدداً من الحمير يقف أمام باب الحوش . كانت حميراً هرمة ، رأيتها في الحارة الغربية في الصباح . واندهشت : إذ كيف استطاعت ان تقطع هذه المسافة كلها مع أنني لم أرها أبداً تسير ، وانما تدور حول نفسها ببطء مميت . أراها في بعض الأحيان ترعش جسدها لتطرد الذباب المتجمع على جروحها المتقيحة، فتبدو جلودها وكأنها ثياب تعبث بها ريح قوية. وكان جميل ينام أمام دكانه ، مفتوح الفم ، وقد وقفت بعض الذبابات على شفته المتدلية ، وعلى جفنيه . كان يمسك منشة في يده ، وقد مد قريباً من الباب ورقاً مصمغاً لاصطياد الذباب . في الطرف الآخر من الشارع ، المقابل للدكان أناخ بدوي جمله ، وأنزل شوالي ملح على الأرض وأخذ ينادي بصوت أجش :

ـ الملح ، الملح ، يا زينك يا الملح .

كان البدوي يلبس كوفية متسخة ، برز من مقدمتها شعر كثيف وخطه الشيب ، وعقالاً رفيعاً . وكان حافي القدمين يرتدي ثوباً يصل الى ركبته .

رجال مسنّون ، بيض اللحي ، جلسوا في ظل الدكان صامتين ، عيونهم تائهة ، ومغمضة . على الهضبة المقابلة كان الدارسون يقفون فوق الواح خشبية ، تجرها بغال أو خيول هرمة ، مكدّشة ، ويدورون فوق طرحة القمح ، ويغنون :

دوري يا حمرا يا لوّاحة   دوري ياما احلى خد الفلاحة

وصوت فتاة يرتفع من حيث لا أدري يغني :

يا ام الكندرة والكعب لولو   بطلت المجوز روحوا قولوا له

ـ ٢ ـ

رأيتها مقبلة من بعيد . نفذت اليّ كأنني لمست شريطاً مكهرباً . تسير وكأنها في طريقها الى فوق ، الى السماء . ليست كالأخريات تنجر أقدامهن على الأرض . والجسد الفارع تحس به تحت الثوب رشيقاً، متدفقاً ، صلباً ، بانحناءاته واستداراته المكتملة. بالعينين المشحونتين بمغناطيسية سائلة تدعوك الى الالتصاق تعلقت عيناي . في الوجه التائه دعوة بذيئة . ليست دعوة معابثة ، ولكنها توق الى

الالتحام بجسد آخر لا حيلة لها فيه . جسد يدعو باستسلام وكأنه قدر .

عندما اقتربت انجذبت اليها ومددت يدي لمصافحتها قبل ان احييها . تشبثت يديها بيدي . قلت :

ــ كيف حالك يا سلطانة ؟

كان علي أن أقول « أم أميرة » بدلاً من « سلطانة »، وان أضيف الى سؤالي السؤال عن أميرة . ولكن حلقي كان جافاً ، والكلام يخرج كالفحيح . يدها ما زالت في يدي تضغط عليها . قالت :

ــ الحمد لله . زينة .

قلت :

ــ وأميرة ؟

قالت بصوت مبحوح ، كأنها تشكو :

ــ ما زرتها .

ثم تأملتني وقالت بنفس الصوت المبحوح الشاكي ، ولكنه صوت خرج مع تنهيدة :

ــ صرت كبير ، زلمه .

ثم أضافت هامسة :

ــ زورنا . زورنا ؟

داعبت يدي ، ثم انفلتت يدها . توقفت قليلاً وبدت انها تريد ان تقول شيئاً . ترددت . ثم انصرفت .

كان علي ان اتكيء على جدار قريب . كنت ارتعش ، وكانت ركبتاي تنثنيان . عندما استدرت لأعود للبيت رأيتها تلتفت خلفها التفاتة سريعة ، ثم انحرفت يميناً الى الحارة العليا .

دخلت البيت . تمددت ، اذ لم استطع مواصلة الوقوف . احسست بالحمى تملأ رأسي ، ثم استغرقت في نوم مليء بالكوابيس .

الفصل الخامس

- ١ -

اليوم الأحد . استيقظت عند الفجر . حلقت لحيتي ، وأخرجت بذلتي الجديدة من الحقيبة ، وقميصاً نظيفاً ، استعداداً للذهاب الى الكنيسة . أمي أشعلت منذ الفجر شمعة موضوعة في قدح من الفخار به زيت امام ايقونة العذراء . وعند الفجر وقفت تصلي أمامها طالبة الرحمة لموتانا ، والرأفة بالأحياء . كان صوتها عميقاً يخيف .

كانت أمي منذ الصباح الباكر قد أعدت ذكرانية العذراء . سلقت القمح ، ووضعت السليقة في صينية كبيرة بعد ان مزجتها بالسكر الناعم ، ورصّعت سطحها بقطع الحلوى المختلفة الألوان ، وغرست عدداً من الشموع فيها . سوف يتم توزيعها على المصلين ليطلبوا الرحمة والمغفرة للأموات .

ايقونة العذراء يبدو فيها وجه العذراء بلون أسود تغشاه خضرة غامقة ، والهالة التي تحيط بالرأس مصنوعة من فضة قاتمة ، محفورة بنقاط تشكل دائرتين غير تامتين ، الواحدة في داخل الأخرى . والثوب الذي تلبسه يشبه أثواب القرويات الفلسطينيات ، طرّز صدره حتى العنق بخطوط حمراء مسودّة ، متقاطعة لتشكل مربعات ومعينات .

أجمل ما فيها يداها اللتان تضمان الطفل يسوع ، الذي يحدّق مندهشاً بعينين واسعتين . كانتا يدين كبيرتين ، ذات أصابع طويلة وأنيقة . أما وجهها بعيون

لوزية سوداء ، وفم صغير فقد كان يعبر عن الخوف : وجه قروية فلسطينية تعبر شارعاً مزدحماً بالسيارات المسرعة .

أدارت أمي وجهها نحويْ ، وهي ماضية في ترديد صلاتها : « يا والدة الإله ، صلي لأجلنا ، نحن الخطاة . . يا قديسة مريم . . . » ثم عادت بنظرتها الخاشعة وتلاوة صلاتها الى الأيقونة .

كانت الأيقونة من خشب أسود ، وقد أصبح أسود ، أملس . وقد علقتها أمي على جدار المصطبة الغربية ، فوق الموضع الذي تنام فيه في الأيام الباردة . وكانت أمي تخص العذراء بصلاتها ومطالبها . أما المسيح والخضر فكانت تقدم اليهما الزيت والشموع فقط . في ساعات الضيق كانت أمي تعاتب العذراء ، كما لو كانت صديقة مخلصة اخلّت بوعدها . وفي بعض الليالي كانت العذراء تظهر لأمي في أحلامها وتعتذر . وفي اليوم التالي تظل الشمعة مشتعلة طول النهار أمام الأيقونة .

شعرت بانقباض للظلمة وهذه الصلاة التي لا تنتهي . خرجت الى الحوش ووقفت خلف سوره أراقب الشارع والبيادر . رأيت الأب صليبا مقبلاً من طرف الحارة الشرقية ، حيث يسكن ، تتقدمه لحيته الهائلة التي تخللها الشيب ، وسرعة مشيه تجعل ثوبه الكهنوتي الأسود ينحسر ، فتبدو ، للحظات ، ساقاه القويتان . رآني ، فمال برأسه الى الوراء حتى خشيت أن تسقط كلوسته من على رأسه ، وناداني بصوت مرتفع ، عريض ، عميق :

ــ صباح الخير يا جريس .
ــ صباح الخير يا أبونا .

قال بلهجة آمرة :
ــ يالله ، قدامي على الصلاة .
ــ بكِّير يا أبونا .
أخذ يقلدني :
ــ بكّير يا أبونا ، بكّير يا أبونا . اسم الله واسم الصليب على الأمّ اللي

ابتك . يالله بقولك .

ثم قهقه وأضاف :

ــ قول لأمك تحضّر السليقة ، ذكرانية العذرا ، وخليها تشتري بخمس روش زيت ، والا والله ما بقول اسم واحد من موتاكم .

ومع علمي بأنه يمزح الا انني أجبته :

ــ كل شي حاضر يا أبونا ، وفطورك عندنا كمان .

قال بصوت صاخب :

ــ يا ولد يا جريس ، لا تتعلم البخل من أمك . بيض وغرّقه بالسمن ، سلاطه وطفّحها بالزيت . عمي يا عمي .

ثم استدار نحو الهضبة التي تتكون عليها البيادر ، وجعل من كفيه بوقاً ، أخذ يصيح بأعلى صوته :

ــ يا ولد يا فرحان ، وأنت يا فريح ، يا متري ، يا خليل ، يا عيسى ، كلكو فكوا عن الدواب . . سامعين ؟ فكوا عن الدواب ، وقدامي على الصلاة . اليوم الأحد . سامعين ؟ الأحد .

ثم التفت نحوي بوجه أحمر عرقان من الجهد ، وقال بنفس الصوت الذي كان ينادي به الدراسين :

ــ بعدك واقف ! قدامي .

قفزت من فوق السور وسرت الى جواره .

ــ ٢ ــ

منذ خمس عشرة سنة رُسم الأب صليبا قسيساً أمام دهشة الجميع . كانت فكرة الطائفة الارثوذكسية عن القسس قد تكوّنت عبر القسيس السابق ، الذي توفي عن عمر يزيد ــ في تقدير البعض ــ عن مائة عام . البعض يقولون انه مات وهو أكبر من ذلك بكثير . من يدري ؟ الرجل كان يونانياً ، وكان عجوز جداً منذ مجيئه للقرية . وظل قسيساً وعجوزاً جداً لمدة تزيد عن أربعين عاماً . حين كان أهل القرية يرونه في أواخر أيامه يمشي في الشارع ، متكئاً على عصاه ، التي تكاد

تبلغ طوله ، كان ـ أهل القرية ـ يقولون : « الرجل ألَف » أي بلغ الألف عام . وبالطريقة التي كانوا يقولون بها هذه العبارة تشعر وكأنهم يتساءلون : متى يموت ؟

كان في استمراره بالحياة على هذا النحو شيئاً غير مقبول . بل ان البعض قد قال ذلك صراحة : هل يريد هذا الرجل أن يعيش عمره وعمر غيره ؟ ولكن العقلاء كانوا يردون على ذلك باستنكار : خافوا ربكم يا عالم ، الأعمار بيد الله . ويذكّرون الجميع ان الله قد قدر الأعمار ، لا يوم زائد ، ولا يوم ناقص . ولكن هؤلاء أنفسهم كانوا يمازحون الخوري العجوز قائلين : هل نسي الموت طريقه اليك ؟ فكان يرد مبربراً كلاماً غير مفهوم .

هذه كانت فكرة الطائفة الارثوذكسية عن القسيس . أكّدها ان خوري الكاثوليك عجوز وجاف ، وصغير الجسد . لذلك رشّح أهل القرية الارثوذكس للمنصب شاباً اسمه خليل . كان يجيد القراءة والكتابة بخط جميل ، وكان يعمل خادماً في الكنيسة . كان يعيش هو وأمه العجوز من قطعة أرض صغيرة ، ومن اعطاء دروس خاصة لبعض الأطفال . وكان معروفاً عنه انه يستطيع رسم صورة أي شخص يطلب منه ذلك . له ، باختصار ، صفات رجل الدين ، كما يتصوره أهل القرية ؛ مسالم وساذج ، له صوت جميل يرتل فيه الأناشيد الكنسية باللغتين العربية واليونانية ـ دون أن يعرف اليونانية طبعاً ـ يحفظ مقاطع كاملة من الأناجيل .

كان ضعفه يغري الصبيةُ به ، وكثيراً ما شوهدت امه ، حاملة عصاها ، وهي تركض في طرقات القرية خلف الصبية ، شاتمة ذيول أمهاتهم ، مرددة :

ــ أبعدوا عن هاليتيم ربنا يسخطكوا .

ولم تكن الأم تقل سذاجة عن ابنها ، ولكن أهل القرية كانوا يعتقدون انها ماكرة .

حين شاع في القرية ان خليل سوف يرسم كاهناً أطلق لحيته ، وأصبح وقوراً جداً ، يمضي يومه ممارساً للطقوس الكنسية . جاء بمبخرة وبخور لا أحد يدري من أين ، وكان يقف في وسط الدار ، يؤرجح المبخرة الى الأمام والخلف ، راسماً

ارة الصليب في الهواء ، ويقول بصوته الجميل :

ـ ذو كسيس برو سخمن (السلام لجميعكم) .

فترد أمه :

ـ سيكريي . (ومع روحك ايضاً) .

وتكون الأم راكعة ، محنية الرأس تتمتم بصلاة غير مسموعة ، وهي ترسم ارة الصليب مرات لا حصر لها . واذا دخل عليهما احد الدار ، أومأ لـه خليل بوضع سبابته على شفتيه ـ ان يصمت ، ثم يعيد طقوس الصلاة أمامه .

أما الأب صليبا فقد كان مشهوراً عنه في ذلك الوقت بأنه لص ، وابن ليل ، رجل نساء ـ قيل ، همساً بالطبع ، انه كان له حكاية مع سلطانة قبل الزواج بعمله ـ وانه كان يشرب الخمر باسراف . حكي الكثير عنه شجاعته وقوته لجسدية الخارقة . حكى مرة أبي انهم كانوا يسمرون في احدى الليالي الباردة . ن تلك الليالي التي اذا ألقيت ماء خارج الشباك يتجمد قبل أن يصل الى أرض . وتراهن صليبا معهم ان يقدموا له رطل حلاوة (الرطل يساوي ثلاثة يلوغرامات) وهو مستعد مقابل ذلك أن يخرج عارياً ، ويفرك جسده بالثلج يعود ، الجميع قالوا سوف تموت حتماً . قال :

ـ انا ؟ .

وخلع ملابسه على الفور ، وخرج من الباب . غاب وقتاً طويلاً فقال الجميع رجل تيبس من البرد ومات . ونهضوا ليأتوا به ، واذا به داخل ينفض الثلج عن سده ، ثم توجه اليهم قائلاً :

ـ هاه ، وين رطل الحلاوة ؟

وأكلها على قعدة واحدة .

لذلك لم يصدق الناس آذانهم عندما سمعوا انه ينوي ان يصبح قسيساً .

ـ انت ؟ خوري ؟

قال انه تاب عن كل شيء ، ولكن ذلك لم يكن هنالك ما يؤكده . وكان

اعلانه عن رغبته غريباً حقاً . فقد دخل دار خليل الذي كان يمارس طقوس الصلاة . أوما خليل بوقار الى صليبا طالباً اليه ان يصمت ، وتأهب لتكرار الطقوس . ولكن صليبا تقدم منه ، وانتزع المبخرة من يده ، وانهال بسلسلتها الحديدية على مؤخرة خليل . هجمت عليه الأم وحاولت ان تبعده عن ابنها ، ولكنه ركلها بقدمه ، ثم امسك بأذن خليل وأرغمه على كتابة عريضة ـ لم يكن صليبا يجيد القراءة والكتابة ـ على لسان أهل الطائفة يطالبون فيها المطران برسم صليبا عبد المسيح قسيساً لقريتهم ، بعد وفاة القسيس السابق وخلو مكانه . أطاع خليل ووقع غالبية ابناء الطائفة على العريضة ، رجالاً ونساء . وهكذا اصبح أبونا صليبا خورياً لطائفة الروم الارثوذكس في القرية .

اما خليل فقد اختفى من مجالس القرية وطرقاتها . اغلق باب داره عليه وكانت أمه تشاهد وهي تغادر الدار بعد ان تغلق بابها خلفها وتعود مسرعة ، ومن شقوق الباب كان يُرى دخان المبخرة يتسرب ، وصوت خليل ينبعث من الداخل بقوة مردداً الأناشيد الكنسية . كان يبدو انه يتحدى صليبا الذي لم يعد يعيره اهتماماً . وإذا دقّ أحد عليه الباب، ترد الأم من خلف :

ــ مين ما تكون تكون ، ما بدنا حدا .

في البداية كان الخوري صليبا يعتقد ان مسيح الارثوذكس يعيش صراعاً مع مسيح الكاثوليك . وفي السهرات التي كانت تنعقد في بيته كان يبرهن للحضور على تفوق مسيحه باحداث قاطعة . فيقول ان سليم ، حداد القرية ، وهو كاثوليكي ، قال له الأب صليبا :

ــ بتباطح ؟

وتماسكا ، واستنجد كل منهما بمسيحه ، وفي ثوان قليلة كان سليم ملقى على الأرض . ورغم ان الجميع يعلمون ان الخوري صليبا كان قادراً على القاء كل من يعرفونه أرضاً . حين ينطلق الشبان ضاحكين ، كان بعض الرجال المسنين يبتهلون :

ــ قدوس ، قدوس .

وكانت عزيزة الملطوشة حاضرة عندما روى الخوري ما حدث ، فرفعت ؛اعيها الى أعلى وصاحت :

ــ يا رب اهدم صلاة الكاثوليك على روسهم ، يا قديسة مريم ، يا والدة ّله . . .

والملطوشة صفة لعزيزة وليست اسماً . وهي ، كما يقال اضطرب عقلها عندما ظرت في المرآة في الظلام .

ولكن الأب صليبا تغير مع الأيام . اقتحم بيت خليل واسترضاه وجعله ىدلفت . لبس وظيفته وأصبح لطيفاً مع الناس ، يستمع لمشكلاتهم ، ويسعى ىلها . وتخلى عن مهاجمة مسيح الكاثوليك . أصبح يقول هنالك مسيحاً واحداً ، ٰكن الكاثوليك خرجوا عن كنيسة الرب .

وارتفع قدر الأب صليبا عندما جاء جماعة من المبشرين الأمريكيين الى ىقرية . لم يكن أحد يعلم عنهم شيئاً سوى إشاعة تقول انهم يعتبرون العذراء ريم امرأة مثل بقية النساء . كان واحد منهم امريكياً يتكلم العربية برطانة ـربية . قابلهم الأب صليبا واستمع اليهم . أغرقوه بتفصيلات لم يفقه منها يئاً . الى أن قال لهم :

ــ ووالدة الآله ؟

قال الأمريكي :

ــ اننا نحترمها كثيراً .

ثم اخذ يقول كلاماً تصور الأب صليبا انه يشير الى ان العذراء امرأة كبقية لنساء . رسم الأب صليبا علامة الصليب على وجهه وأمسك بياقة المتحدث وقال ن عليه ان يغادر القرية ، ولا يعود أبداً ، والأمريكي ، بوجه محتقن وعينين جاحظتين ، يتساءل :

ــ ولكن ماذ حدث ؟ ولكن ماذا حدث ؟

قال الأب صليبا :

ــ مثل بقية النساء ؟ هاه ؟

ودفع الرجل الى سيارته ، وتبعته المجموعة .

وعندما انتقد الأب غريغوريوس الأسلوب الفظ الذي يعالج به الخوري الارثوذكسي الأمور ، ثارت عليه طائفته نفسها . قالوا له :

ــ كله الا مريم العذرا .

وكان شبان القرية يسهرون في بيت الخوري ، يسمرون ويشربون القهوة المرة . وعندما كانوا يروون له حكاية الخوري الذي وعد امرأة ان يزورها بالليل ، بعد أن قالت له إن زوجها مسافر . وعندما جاء طلبت إليه أن يخلع ملابسه ففعل . بعد قليل طرق زوجها الباب ، فاخفت القسيس في الخزانة ، وأخفت ملابسه . وظل سجيناً حتى الصباح . وفي الصباح أعلن الزوج أنه سيبيع الخزانة وان المشتري قادم بعد قليل . وظل الزوجان يعذبان القسيس ويسخران منه .

كان الأب صليبا يبتسم ويقول :

ــ هذا خوري الكاتوليك .

ويضحك الجميع ، ويروون حكايات مماثلة . أما خليل فيحتد ويطلب اليهم ان يتوقفوا عن العبث بالمقدسات ؛ فيهدىء الخوري ثورته ويقول :

ــ ليش تزعل يا خليل . هدول همه الكاثوليك هيك .

ــ ٣ ــ

عندما وصلت باب حوش الكنيسة كان الجرس الأول يدق . رأيت خليل واقفاً تحت قبته العالية . وجهه أحمر ، متقلص بالمجهود الذي يبذله ، لامع بالعرق ، وهو يمسك بحبل الجرس بكلتي يديه ويجذبه الى أسفل .

كان الأب صليبا قد سبقني ليستكمل ارتداء ملابسه الكهنونية ، البيضاء ، الموشاة بالقصب ، وكان قد طلب إليّ أن أمر ببيت متري الكسيح ، واستعجل ولديه ليشعلا الشموع ، ويقفان بها أمام الهيكل . وكانا يقومان ، أيضا ، باشعال الشموع أمام المذبح ، القائم خلف الهيكل . وعندما استدرت لأناديهما ، رأيتهما يتسابقان الى باب حوش الكنيسة .

أخذت الكنيسة تمتلىء بسرعة . الشيوخ يدخلونها متمتمين : « كيريا

يصون . يا رب ارحم ، يا رب ارحم » ويرسمون اشارة الصليب بأصابعهم ثلاثة مضمومة ـ الابهام والسبابة والوسطى ـ على الجبين ، ثم على الصدر ، ثم لجانب الايمن وبعده الأيسر . بعض العجائز كن يزدن على ذلك بالركوع أمام لهيكل ، ورسم اشارة الصليب عدة مرات ، ثم يقبلن الصليب ، ويرجعن الى لدكك الخشبية التي يجلس عليها المصلين .

بعض القادمين كانوا بملابس العمل ، ذرات التبن ما تزال ملتصقة وجوههم ، التي ينز العرق منها . فلاحون آخرون قد تأنقوا للمناسبة . لبسوا مبازاً نظيفاً ، وكوفية حريرية بيضاء تخالط لونها زرقة النيلة الخفيفة ، وقد تدلت نها أهداب على شكل كرات صغيرة ، يشدها الى الرأس عقال أسود ، رفيع .

أما النساء فقد ارتدين ثوب الطلعة الأسود ، أبو غزالين ، وجبة خضراء ، أو نحلية ، أو زرقاء ، واحطن نحورهن بالمقنع الأسود ؛ وعلى الرأس عصابة سوداء ، أو قد تكون على الطريقة الحورانية موشاة بقصب أحمر . الشابات الفتيات ارتدين فساتين من الحرير الصناعي ، فاقعة الألوان ، وقد ضاعت فاصيل الجسد بسبب الثوب الواسع . معظمهن عاريات الرؤوس ، وقد انساب لشعر ، الكستنائي غالباً ، على جانبي الوجه ، أو الى الخلف حراً ، أو على شكل جديلتين . المتزوجات منهن ، كن يضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء أو حمراء ، و خضراء ، لها أهداب كثيفة مطرزة بالخرز ـ الأزرق غالباً ، لأن الخرزة الزرقاء تحمي من العين الشريرة ـ . كانت عيونهن تتابع طقوس الصلاة بيقظة واحترام . بيد انه ، بين حين وآخر ، تصدر حركة التفاتة من رأس احداهن ، تواجه فيها نظرات الشبان المحدّقة . وتتظاهر الفتاة انها تطرد ذبابة أزعجتها ، أو انها تتابع مسيرة صبيان الهيكل ، يتقدمهم الخوري ، وهم يحملون الصليب الكبير لمذهب ، والشموع ، أما الخوري فيحمل المبخرة . . . تراقبهم وهم يدورون حول المصلين ، ابتداء من الهيكل ، وعودة اليه .

ثم تتابعت مجموعات الطلبة التي تدرس خارج القرية ، أو خارج البلاد ، الذين يقضون اجازاتهم الصيفية في القرية . وهم قد بالغوا في التأنق . فالبنطلون لواسع قد كوي وأصبحت ثنيته دقيقة كحد الموس . والقمصان البيضاء ، ذات

ياقات عريضة ، منشّاة وصلبة . واللحية التي ارخيت طيلة الأسبوع قد حلقت ، وأضفت على الوجوه مزيجاً غريباً من شحوب الجزء الأسفل من الوجه ، وسمرة الوجنتين والجبين . كانوا يرسمون اشارة الصليب مرة واحدة ، ويجلسون بعدها على أطراف الدكك الخشبية ، وعيونهم تتجه بنظرات جانبية سريعة نحو قسم النساء .

كانت موعظة الخوري مركزة على مد الخضر ، وهي كمية من القمح تساوي اثني عشر كيلوغراماً ونصف من القمح ، يتوجب على كل عائلة ان تقدمها للكنيسة . قال ان الحصاد انتهى ، والدراس قارب على الانتهاء ولم يقدم أي كان مد الخضر . قال ان الخضر الأخضر هو وراء القحط الذي اجتاح البلاد في عام ١٩٤٧ ، لأن الكثيرين قد امتنعوا عن تقديم حصة الخضر في السنة السابقة للقحط .

وأضاف أنه في هذه الأيام تتكرر نفس المسألة . فعندما ذهب خليل الى بعض التجار ، قالوا : لن ندفع . لن ندفع واذهب وبلّط البحر ؛ هذا ما قالوه . وعندما ألحّ خليل ، قالوا :

ــ ارسل إلنا الخضر واحنا بنحاسبه .

قال، أرسل إلنا الخضر ، قال . الخضر لا يحتاج الى قمحكم ، ولكنه يأمر بتوزيع القمح على المحتاجين ، وجزء منه يذهب لمصروفات الكنيسة (لم يسمع أحد ان الخوري قد وزّع قمحاً على المحتاجين) .

وأضاف ان الخضر الأخضر لا يعرف الرحمة اذا غضب ، وكما أغمد رمحه في قلب الحوت ، سوف يفعل الشيء ذاته بالساخرين به .

صدرت ضحكة من قسم الشبان ، وتلتها ضحكات . دارت عينا الخوري بغضب ، ثم زعق :

ــ بتضحك ؟ سوسة تكسّر سنانك .

دارت رؤوس الشيوخ باستنكار ، وقال أحدهم :

ــ لعنة الله عليكم من عيال .

استدارت رؤوس الفتيات ونظرن الى الشبان بتمعن . كن مبتسمات . رأيت خضرا تنظر الي بوجه ضاحك يحيطه شعرها الأسود الذي تسرّب من المنديل الحريري الأزرق . في وجهها كلام . اسبلت جفنيها للحظة بإشارة تواطؤ . ابتسمت لها وهززت رأسي . كان قلبي يدق بعنف .

زغدني بطرس الذي يجلس بجواري وهمس :

ــ شفتها ؟

قلت :

ــ أيوه .

دون أن أحاول أن أعرف عمن يتحدث . واصل الخوري موعظته ، لكنني لم أعد أصغي . التفتت خضرا نحوي وألقت نظرة سريعة ، برّاقة ، كأنها تقول : « لن نتردد الآن »، ثم عادت تنظر أمامها ، مقرّبة ما بين حاجبيها كأنها تخفي ضحكة . كنت أرتعش بالنظرة التي انغرست في قلبي كالخنجر .

قال بطرس هامساً :

ــ ملكة جمال العالم .

وعندما كنا نغادر الكنيسة أعاد بطرس سؤاله إن كنتُ قد رأيتها ، ورداً على نظرتي المتسائلة ، قال بحنق :

ــ أميرة يا زلمة .

وندمت فعلاً لأنني لم أرها .

ولكننا عندما توقفنا مع مجموعة من الطلبة اجتذبت انتباهي على الفور . كان لها ذاك القوام الفارع، والعنق الشامخ المستقيم، وقد برز النهدان بإثارة وبصنعة ابنة المدينة المدرّبة على ابراز مفاتنها . كان لها طلعة تبهر ، وتجعلك تتابعها . ولكن ما شدني اليها كان العينين . كانتا لوزيتين ، سوداوين ، تسطعان بقوة ، وفيهما تلك النظرة التي تنظر اليك مباشرة ، وقد استعدت لاستقبالك . في الأنف والفم ذلك الاسترخاء ، الذي يرافق انفعالاً يُسرع التنفس ويطبع الوجه بطابع الرغبة الجائعة ، بطابع الانتظار لعناقٍ والتحام بالجسد الآخر . فتاة تنتظر من يغتصبها . وأخذ قلبي يدق بعنف : « بحق الله ! أن لها وجه سلطانة ». كنت قد نسيت

سلطانة تماماً منذ ذلك اللقاء في الشـارع . أثارتني وأخـافتني الى حد أنني لم أعـد قادراً على استرجاع نظرة ذلك الوجه الملتاث بالرغبة، وحـركة اليـد وهي تداعب يدي .

وها هي أميرة . لم تعد تشبه في شيء الفتاة النحيلة السمراء التي كنت ألعب معها . هذه امرأة ينبعث منها ، بل يسيل منها ، شيء معيب وبذيء ، يلامس كل من يقع في دائرتهـا . لاحظت ان جميـع من معي قد تـوقفوا عن الكـلام وأخذوا ينظرون اليها مباشرة وبرغبة صريحة . كان بطرس ينظر اليها وإليّ وقد أخذ العرق يسيل على امتداد وجهه . التقت عيناي بعينيها ، فتجمدت أنا . لا أدري كم من الوقت مضى والعيون الأربع تتحاور ، وهي تقـول شيئاً أعجـز عن فهمه ، وأنـا عـاجز عن الحـركة والكـلام . ثم أضاء وجههـا فجـأة ورفعت يـدهـا ملوّحـة ، وصاحت :

ــ هاي جوني !

هل تحاول تذكيري بشيء ما ؟ انني أنا الذي علمتها على ترديد هذه العبارة ، كنت أقول لها : « هاي جوني » فتقول :

ــ اني زلمة ؟ جوني اسم زلمة .

تقدمت وصافحتها ، وقلت :

ــ كيف حالك يا أميرة ؟ كيف الصحة ؟

ابتسمت وقالت :

ــ منيحة .

لا أدري لماذا توقعت أن يكون صوتهـا مختنقاً ، فـاحاً ، كصـوت سلطانة ، وهي تدعوني لزيارتها . قلت :

ــ وكيف أحوالك ؟

قالت :

ــ زعلانة منك .

ــ ليش ؟

قالت إنها رأتني في الشارع ، في عمان ، ولم أسلم عليها . قلت : لم أرك ،

لماذا لم تسلمي أنت ؟ قالت : ولكنك لا تسير ، بل تطير . ثم همست لي :

ـ وقلت لماما رايح تزورنا وما زرتنا .

هذه امرأة أخرى مختلفة عن سلطانة ، امرأة تعلمت كيف تلعب بالرجال ، وتسيطر عليهم .

صافحت الفتيات الأخريات ، وكن يرددن بميكانيكية :

ـ الحمد لله ، الحمد لله . . .

ورغم ارتباكي الشديد ضغطت يد خضرا وابقيتها في يدي ، وأحسست باليد طرية ، تجاهد أن تنسحب .

وعندما انتهيت من مصافحة الفتيات اقتربت أميرة مني وهمست قرب أذني :

ـ هاي هيه معشوقتك ؟

اقترابها مني وكلماتها تمت بألفة وثقة أدهشاني .

سرت مع بطرس . لم يقل شيئاً . بدا كالغاضب . وعندما وصلنا بيته دخل دون أن يودعني . قلت :

ـ العصر .

هزّ رأسه ودخل .

الفصل السادس

- ١ -

عدت الى الدار . كانت أمي قد أعدت الدار : كنستها ، ورشتها بالماء ، فرشتها بالأبسطة الملونة . وألقت عدداً من الفرشات للضيوف المميزين . كما رت الوسائد في مختلف الأماكن حتى يستطيع الجالس ان يتكيء ، وقد بدأت في عداد القهوة المرة .

لن يأتي أحد ، عدا الأب صليبا ، بعد الصلاة مباشرة . ففي يوم الأحد لا كل الذاهب للكنيسة أو يشرب شيئاً استعداداً لتناول القربان المقدس ، حيث مس الخوري قطعة صغيرة جداً من الخبز بالنبيذ الذي في كأس القربان ذهب ، المزخرف ، ويقول - نيابة عن المسيح - :

- خذوا اشربوا ، هذا هو دمي ؛ خذوا وكلوا هذا هو جسدي .

ويضع قطعة الخبز الصغيرة في فم المتقدم لتناول القربان . بعد ذلك يحل سيح في جسد الذين تناولوا القربان .

بعد قليل دخل الأب صليبا بصخب . أجلسته أمي - بعد ان خلع حذاءه - صدر الدار ، فوق أحد المراتب . قال :

- بقول لجريس ، يا ولد يا جريس لا تتعلم البخل من أمك .

ردت أمي :

- احنا ناس على قد الحال يا خوري . لو ما دبرنا بنموت من الجوع .

قهقه الأب صليبا وقال :

ـ سياسية يا عم ، سياسية .

أشعلت أمي وابور الجاز ، وأعدت الشاي والبيض المقلي بالسمن ، وأعدت السلطة ووضعت الطعام أمامنا . أقسم عليها الأب صليبا ان تشاركنا الطعام ، فجلست بعد ممانعة .

قال الأب صليبا :

ـ إلك البيض يا جريس والي السمن .

بعد لقمات قليلة شبعت أمي ، فحملت كأس الشاي وجلست بعيداً عنا . وأخذ الخوري يغمس قطعة كبيرة من الخبز ، يرويها بالسمن ، ثم يلتهمها بسرعة فائقة ؛ وكان يخادعني وينهش قطعاً من البيض . على أية حال كان الطعام كثيراً . أحسست بانفتاح شهيتي للطعام ، وصرت أنافس الخوري ـ دون نجاح ـ في الإقبال على الأكل. أشارت أمي لي بأن أسرع في الأكل حتى لا يلتهم الأب المقدس الطعام كله . أبديت ضيقي من اشارات أمي بعبوس جعلها تكف .

ونحن ، الاثنين ، نتناول الطعام دخل عدد من العجائز ، يحملن غلايين ، طويلات القصبة ـ يبلغ طولها أكثر من متر بقليل ـ من الدفلاء ، وفي رأسها حجر أسود ، عليه نقوش ، يوضع في داخله الدخان المحلي ، الهيشي . دعاهن الأب صليبا لمشاركتنا الطعام ، وساندته أمي في دعوته ، ولكنهن اعتذرن ، وأقسمن انهن افطرن ، ورحن يحكين تفاصيل وحكايات تثبت ذلك .. « نفسي هفتني على المقطوع بالكبسة ، فقلت : يا بنت » . وهكذا .

ورغم ان الأب صليبا تناول كمية وافرة من الطعام إلّا أنه خلّف جزءاً من كل صنف . وكان هذا من آداب اللياقة في قريتنا .

شرب كوزاً من الماء بعد ان انتهى ، وتجشأ ، ثم أخذ يرشف الشاي بصوت مرتفع . قال :

ـ سفرة دايمة .

ثم :

ـ الحمد لله رب العالمين .
ورسم اشارة الصليب على وجهه .
وانصرف بعد قليل .

امتلأت الدار بالرجال والنساء . دارت عليهم القهوة ، فأبدوا اعجابهم بصنعها . ساد المرح والتعليقات عندما دخل صبح . كان يكفي أن يقول أي شيء لنضحك . وهو مع هذا لم يكن مهرجاً ، فقد كان أهل القرية يعاملونه باحترام ومودة .

دار الحديث في البداية حول الإشاعة التي ترددت في القرية مؤخراً حول ان الحكومة تنوي افتتاح مدرستين للطلاب والطالبات ، بالإضافة الى المدرستين الكاثوليكيتين . ولكن صبح ادار الحديث حول أميرة ، إذ قال :
ـ وين يبنوا ؟ في العرصة الي ورا القبور ؟
وابتسم . عندها أدرك الحاضرون انه يتحدث عن أميرة لأنها تسكن في المنطقة المحاذية للعرصة ، أخذوا يضحكون ، ثم يدارون ضحكهم لأن الخوض في الأعراض يثير خوف أهل القرية .

قالت عجوز :
ـ يا رب استر ولايانا .
ثم احنت رأسها وأخذت تجذب الأنفاس من غليونها . لقد أدركت انها قالت أكثر مما يجب .

قال صبح :
ـ والله يا عمي احنا تقلطنا كثير . واحد قال ، والعهدة عالقايل ، انه شاف واحدة من بناتنا ماشية في السوق مع واحد مدني .
حاول احد الحاضرين ان يغيّر الموضوع ، قال :

ـ المقصود . بعت حمارك يا صبح ؟
ـ لا .
رد صبح دون اهتمام ، فتبيّن للسائل ان صبح قد قرّر ان يستمر في

الموضوع ، فتثاءب ، مدارياً ارتباكه وقال :

ــ سترك يا رب .

قالت العجوز التي طلبت من الله ، منذ قليل ، ان يستر الله ولاياها ، بكشرة حجبها قليلاً دخان غليونها :

ــ والله غير ربنا يسخطنا .

ولم يكن واضحاً إن كانت تحتج على الحديث الدائر ، أم على مسلك أميرة .

هنا تدخلت الخورية صبحا زوجة الخوري صليبا ، قالت :

ــ الخوري بقول ، والله اذا الناس ما حسّنوا ممشاهم غير محلة السبعة واربعين ترجع مرة ثانية .

قال صبح :

ــ والخوري ايش عرّفه يا خورية ؟

ردت الخورية بعدوانية :

ــ لا ، أنت اللي بتعرف .

قال احد الحاضرين :

ــ الزلمة بسأل . حُرُم السؤال ؟

قالت الخورية :

ــ لا . بتمهزأ ، ما بسأل .

قال صبح :

ــ بسأل يا بنت الحلال . الخوري ، يعني ، عنده تليفون بكلم ربنا فيه ؟ والا ، يعني كيف بعرف ؟

كلمه « تليفون » جعلت الحاضرين يضحكون . كانت الخورية بلا أسنان ، فابتلعت شفتيها وجحظت عيناها . وارتفعت بعض الأصوات :

ــ جاوبي يا خورية . الزلمة بسأل . جاوبي .

أحست الخورية انهم يهزؤون بها فحاولت تغيير الموضوع . ولكن انسانة في سذاجة الخورية فقط تستطيع ان تعلن وتفجّر موضوعاً حسّاساً يحاول الجميع لمسه بحذر وتجنب الحديث الصريح فيه . قالت :

ـ والله البنت هذي أميرة غير ربنا يسخطها .
قالت أمي :
ـ انجنيت يا خورية ؟ ايش هذا الكلام ؟
ردت الخورية بعصبية :
ـ والله غير يسخطها ! والله غير يسخطها !
قال صُبح :
ـ ليش ؟
قالت امي :
ـ غيّروا هالسيرة .

قالت الخورية :
ـ اميرة بذخت . الفلسطينيين لما بذخوا ربنا سخطهم .

وكانت هذه الفكرة شائعة بين بعض افراد الجيل القديم في القرية . ففي القرية يوجد منذ زمن طويل عدد من الفلسطينيين الذين يمتلكون الأراضي الزراعية ، التي يزرعونها قمحاً ، ودوراً للسكن، كما ان لهم بيوتاً وأرضاً يزرعونها زيتوناً وتيناً وعنباً . وكانوا متوافقين مع أهل القرية في كل شيء . ولكن خلال الحرب العالمية الثانية أصبحت فلسطين مركزاً اقتصادياً هاماً بالنسبة لبريطانيا في فترة الحرب ، فارتفع المستوى الاقتصادي للفلسطينيين . اصبحوا يلبسون الأحذية في غير المناسبات ، ويأكلون بتأنق لم يعتده أهل القرية . لقد كانت أبسط مظاهر الترف في القرية تعتبر تحدياً للرب . ومن هنا شاعت فكرة أن الرب غاضب على الفلسطينيين .

قالت الخورية :
ـ آه ، الفلسطينيين بذخوا . بذخوا .
لاحقها صبح :
ـ كيف بذخوا ؟
قالت :
ـ بذخوا والسلام .

ــ كيف ؟

بدت المعاناة واضحة في وجهها المدور الصغير. صمتت فترة وفمها الخالي من الأسنان يتحرك في محاولة فاشلة للكلام . ثم جحظت عيناها وأخذ عنقها يتحرك كأنها تحاول ابتلاع شيء توقف في حلقها ، ولا تستطيع . أثارت شفقة البعض ، ولكن صبح ألحّ ، فقالت فجأة :

ــ بذخوا . بشربوا سكاير .

لم يضحك احد . حتى صبح بدا الذهول واضحاً على وجهه ، وقال بنبرة جادة :

ــ لكن الأردنيين بشربوا سكاير .

أوضحت الخورية رأيها . قالت ان الأردنيين يشربون السجاير من الدخان المحلي (الهيشي) بعد ان يلفوها بأيديهم ، بينما يشتريه الفلسطينيون ، حتى يومنا هذا ، وكأن الرب لم ينذرهم بما فيه الكفاية ، في علب جاهزة ، أنيقة .

وأكدت :

ــ بطروا .

اعترض عودة الله ، وأنا أعرف انه جاد في اعتراضه :

ــ طيب الموظفين في عمان بشربوا سكاير في علب .

فردت الخورية :

ــ مش كل الموظفين .

كان غباؤها يثير الضيق ، فحولوا الحديث الى موضوع آخر : المدرستان الموعودتان . ولكن أحد الحاضرين قال :

ــ مش كل الموظفين ؟ وكمان مش كل الفلسطينيين .

فالتقطت الخورية الخيط :

ــ والموظفين يعني هيك اللي بشربوا سكاير ، يعني ، هيك (وأشارت بكفيها انها تعني علب السجاير الجاهزة) كما ربنا سخطهم .

قال عودة الله :

ــ سخطهم ، سخطهم ، بلاش هالسيرة .

فقالت :

ــ سخطهم ، ماشيين في أسواق عمان مفاريع من غير حطة وعقال ، وراس الواحد مثل راس الحمار .

قالت أمي :

ــ فيه حدا بنادي عليك بره .

التفتت الخورية الى صبح وقالت :

ـ والله كلامي هذا على اذنك يا جارة . هذاك اليوم شفتك وسكارتك طولها شبر .

ضحك صبح باستغراق ، وسادت تعليقات مرحة . نهضت الخورية ، وهي تئن بسبب ألم مفاصلها ، وقالت :

ــ حدا بنادي علي ؟

وخرجت .

ـ ٢ ـ

كان زواج صليبا بصبحا مسألة غريبة . وحقيقة الأمر انه لم يتقدم هو للزواج ، وكيف له ذلك في مثل سنه ، بل ان امه هي التي زوّجته . كان وحيدها ـ خلّفت ثلاثة عشر صبياً وبنتاً ماتوا كلهم بالحصبة أبو طحيّل (الأغلب انها الزائدة الدودية) وبأمراض اخرى لا أسماء لها ـ فعزمت ـ الأم ـ ان تملأ بأولاده البيت . الأب لم يعترض .

كان عمر صليبا في ذلك الحين أحد عشر عاماً . زوّجته من بنت خالها صبحا التي بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً . بلغت هذا السن المتقدم دون زواج لسبب بسيط ، هو ان احداً لم يتقدم للزواج منها . كان الخال صاحب أملاك وكريماً ، وقد نال احترام القرية كلها ، ولكن احداً لم يطلب البنت ، التي بدا أنها سوف تعيش حتى نهاية حياتها عانساً ، الى ان خطرت الفكرة في ذهن أم صليبا .

لم يكن عند أم صليبا أية أوهام حول البنت . لم تكن جميلة ، وكانت خجولة الى حد لا يصدق . تتلعثم ويحمرّ وجهها ويغشاها العرق أمام حتى اخوتها وأخواتها

الأصغر سنا . يكفي ان تحدثها وتنظر في عينيها حتى تفقد القدرة على الكلام والحركة . ولكن للبنت حسناتها . فهي حمارة شغل . العمل داخل البيت لم يكن واجباً ، بل متعة تهرب اليها من الناس ، ومن كلام امها اللاذع « يا بايرة » تقول لها حين تغضب . وأمها امرأة ولّادة ، وهي سوف تكون كذلك دون شك .

وقبل الزواج بعدة أيام اختلت الأم بصبحا ، وقالت لها وهي تنظر اليها باستنكار وتهديد ـ كانت تتعمد اخافتها ـ : اسمعي يا بنت ، أنت لست جميلة ، ولم يعرف عنك رجاحة العقل . عيناك صغيرتان مثل خرزتين ، وفمك واسع ، وقصيرة ، وتكادين ان تكوني بلهاء . . . تسمعينني ؟

هزّت صبحا رأسها . كانت ترتعش وقد ابتلت ثيابهابالعرق . ومضت الأم تقول : لم ازوّجك لابني لأتباهى بك . فأنت والدابة سواء . والآن اسمعي كلامي جيداً . زوّجتك لابني حتى تملأي الدار علي بالأطفال . أريد كل سنة واحد . تفهمينني ؟

هزّت صبحا رأسها عدة مرات ، وقد أضيف الى العرق والارتباك دموع غزيرة تنساب على طرفي أنفها .

قالت الأم : أتعرفين كيف تفعلين ذلك ؟

قالت صبحا بصوت صغير :

ــ لا يا عمة .

قالت الأم :

ــ عمى يعميكِ . اسمعي .

وشرحت لها كل ما يتم بين المرأة وزوجها بوضوح وصراحة جارحة . وقد استعملت يداها في تلمس المواضع التي يتم فيها الاتصال بين المرأة والرجل ، وشرحت العملية بأصابع يدها . وسألتها إن كانت قد فهمت ؟

لم يكن الخجل والارتباك أو البكاء في وجه صبحا ، بل الرعب . ليس الخوف بل ذلك الفزع الذي يثيره جني يظهر لنا فجأة . كانت تنظر في وجه الأم دون أن تقول شيئاً . هل أصبت بالخرس ؟ زعقت الأم . تكلمي ! زعقت أيضاً . ولكن

الوجه ظل مثل القناع .

أدركت الأم انها أفزعت الفتاة حتى لم يبق لديها اذن تسمع بها ، أو عقل يفهم ما يقال . مسحت وجه الفتاة بكمها وضمتها اليها . وقالت :

ــ لا تخافي .

أخذ جسد الفتاة يهتز بالبكاء ، قالت الأم وهي تداعب ظهرها :

ــ يا حنونتي لا تبكي .

هدأت الفتاة قليلاً ، فسألتها الأم مرة أخرى :

ــ فهمت .

تأتأت الفتاة شيئاً غير مفهوم ، فقالت الأم انها لا تسمعها . يبدو أن الفتاة بذلت أقصى ما تستطيع من جهد حتى تقول :

ــ اسوي معاه كلام عيب ؟

قالت الأم ان المرأة لا تفعل عيباً مع زوجها . فتساءلت الفتاة : إذن تفعله مع من ؟

لا أحد . قالت الأم . المرأة حين تفعل ذلك مع زوجها . يسمى عيباً ، اذ هكذا يولد الأطفال . فسألت صبحا :

ــ وأنتِ بتسويه مع . . .

أكملت الأم :

ــ مع أبو صلبيا . كل ليلة .

ــ وأبوي وأمي ؟

قالت الأم ، هما أيضاً ، وكل النساء والرجال حين يتزوجون .

عندما عادت الأم الى البيت قال الأب وهو يطالع صلبيا الذي كان يبدو كطفل في السابعة من عمره ، وهو يلعب في الخارج :

ــ يا لاقية خير العيل زغير ، زغير . . .

قالت الأم :

ــ هذا زلمة ، بس جرمه زغير .

فصمت الأب . كان يعرفها عندما تصمم على شيء ؛ لا تتراجع عنه أبداً .

كانت الأم قد اشترت قمبازاً و نجراً وعباءة صغيرة لصليبا ، وصندلاً جديداً بدلاً من القديم المقطوع ، وكوفية وعقالاً . وعندما ألبسته اياها في يوم دخلتـه ، أشارت الى المهرة الأصيلة ، التي تقف بجوار أمها ، قالت :

ـ الكحيلة إلك .

وقـالت له أنت أصبحت الآن رجـلاً . عندك الـزوجة والخنجـر والفرس . وسـوف اشتري لـك بارودة مـوزر . لا ينقصك شيء . فلتكن رجـلاً منذ هـذه اللحظة .

وكان يوم الفرح مرهقاً للأم . أشرفت على كـل شيء ، وجهدت لأن تجعله يوماً مشهوداً . ولم ترتـح إلاّ بعد ان أدخلت العـريس على عـروسته . كـانت قد شرحت له كل ما عليه ان يفعله مع زوجته . كان في البداية مندهشاً من سماع أمه تقول هذه الأشياء . ثم سأل :

ـ اسوّي مع خالتي صبحا . .

ولم يتم كلامه ، بل أخذ يضحـك ، ويضحك دون أن يستـطيع التـوقف . قالت لنفسها بحزن « انه طفل ما يزال »، ويقول خلال ضحكه :

ـ اسوّي مع خالتي صبحا . . .

ويعاود الضحك . صبرت عليه الأم ، حتى انتهى من الضحك ، وقالت له ان صبحا لم تعد خـالتك ، سـوف تصبح زوجتـك . وهي على كـل حال ليست خالتك ، لأن الخالة تكون أخت الأم ، وهي ليست أختي .

أخذ الطفل يحس بالملل . كان يريـد أن يواصـل.لعبه مـع الأولاد ، فنهض واقفاً ، فقالت الأم :

ـ وين رايح .

فقال وهو يدير لها ظهره :

ـ العب مع العيال .

وسألته إن كان قد فهم كلامها ، فقال :

ـ فهمت ، فهمت .

وانطلق راكضاً .

وقفت الأم خلف الباب الذي دخل منه العريس تصغي . مضى وقت ، بدا لها طويلاً ، لا تسمع شيئاً . فكرت ان تدخل اليهما وتشاهد ما يحدث ، ولكن هل هذا معقول ؟

حلّ عليها التعب فجأة ، وأحست انها سوف تقع من طولها لو ظلت واقفة هكذا . ذهبت الى فراشها لتتمدد قليلاً ، ثم تعود الى الاصغاء . ولكن النوم غافلها على الفور ، وكأنها سقطت فيه سقوطاً .

عندما استيقظت في ساعات الفجر الأولى ، اكتشفت ان ابنها ينام بجوارها . بدا ذلك طبيعياً ، فهو منذ ولد وهو ينام في حضنها . وعاودت النوم . ولكنها استيقظت على الفور ، استيقظت واقفة ، فقد تنبهت الى ان هذا لم يعد الموضع الذي ينام فيه ابنها .

كانت تنام بملابسها كاملة ، لأن النوم غلبها قبل ان تخلع ملابسها وتلبس قميص النوم . تركت الصبي نائماً وسارت الى حجرة العروس . فوجئت ان الباب مفتوح نصف فتحة . كان ضوء المصباح قد أصبح ضعيفاً لأن الكاز فيه قارب على النفاذ . أسرعت الى الخارج وعادت بالكاز وملأت خزّان المصباح وأدارت الفتيل الى أعلى .

أخذت تنظر للعروس . كانت تنام على ظهرها ، فمها مفتوح ، والشعر قد اخفى جبينها وعينيها . وضع الفتاة ، واحدى ساقيها امتدت عارية خارج اللحاف ، جعلها تتساءل : هل فعلها الولد حقاً ؟ اقتربت من الفتاة وأخذت تهز كتفها برفق وتناديها بصوت خافت :

ــ صبحا ، صبحا ، يا صبحا . . .

همهمت صبحا ، وانقلبت على جانبها الأيمن ، فتعرى ظهرها . ظلّت ممسكة ببروز الكتف ، وضغطت عليه ، وأخذت تهزها بعنف وقد أخذت تفقد أعصابها :

ــ صبحا ، يا بنت يا صبحا . . .

قالت صبحا :

ـ يا ربي ! خليني نايمة .

قالت الأم بغضب :

ـ إن شا الله نومة من غير قومه . اصحي !

عـادت الى النوم عـلى ظهرهـا وفتحت عينين حمـراوين ، أخذت تجيلهـا في الحجرة ، ثم استقرت عيناها على وجه الأم . بدت المفاجأة واضحة على وجهها ، قالت :

ـ وين أنا ؟

صفعتها الأم على وجهها وقالت :

ـ اصحي يا مهبولة . وين جوزك ؟

ـ جوزي ؟

واخذت تجيل عينيها في الحجرة ، ثم قالت :

ـ مش هون .

ما اني عارفة انه مش هون .

احنت صبحا رأسها وغطت وجهها بيديها ، قالت الأم :

ـ سوّوتوا إشي ؟

كان في صوتها لهفة ، أمل ان يكون قد حدث شيء . تخيّلت ان الفتاة تخفي وجهها خجلاً . ولكن صبحا قالت :

ـ لا .

ـ لا ؟

وجذبتها من شعرها ، وقالت :

ـ قلتِ لا ؟ خليني أشوف وجهك .

رفعت رأسها وقالت :

ـ قلت له تعال نعمل . . .

ـ ايش قلتي إله ؟

تكلمت الفتاة بسرعة :

ـ قلت له تعال نعمل كلام عيب ، مثل ما قالت امك ، قال : يا خالة صبحا بدي أروح أنام عند أمي ، وطلع .

وأخذت تبكي .

قالت الأم :

ـ اسكتي ونامي .

وانصرفت . صعب عليها أن توقظ الصبي فتركته نائماً . هل تعجّلت في هذا الزواج ؟ راودها قلق . وأخذت تتقلب في فراشها . هل تظل الحيشان خالية من العقب ، يملؤها الرعاة وعوائلهم والمرابعية ، والخيول والدواب والغنم ؟ كم عمره الآن ؟ ولد سنة الهزة ، لا ، قبل ذلك بسنتين ، يصبح عمره . . نحن الآن في . . . لم تستطع تقدير سنه . وغشاها النوم .

ـ ٢ ـ

تكررت الحكاية لليال متتالية . تشرح للبنت وتشرح للصبي ما يجب عمله . تقف وراء الباب ، وتنظر أحياناً من ثقب الباب . تسمع حركات وكلام ، فتعتقد أن كل شيء قد تمّ على خير وجه. تعود الى فراشها تصلي وتنذر لمريم العذراء، وللخضر الأخضر . ويدهمها النوم . ثم تستيقظ لتجد الصبي نائماً في حضنها . تدخل الى صبحا فتجدها نائمة . طول النهار كالنحلة تدور في البيت والحيشان . لا تعرف ان تأمر زوجات الرعاة والمرابعية فتقوم بكل شيء وحدها . فتنام كالقتيلة . تستيقظ مذهولة ، فزعة على صفعات الأم ، وتقول :

ـ كان هون .

كان الأب يخشى غضب الزوجة . كان غضبها ، خاصة بعد أن تقدمت في السن ، جامحاً ، لا يتوقف عند حد . الا انه جازف ليلة ، بعد أن عادت من مراقبتها وراء باب العروسين ، وقال لها :

ـ خفي عن المسكينة .

قالت بضيق :

ـ سكينة تفتح بطنها .

وعندما لبست قميص النوم قالت : هذه الدابة تظن اننا جئنا بها لنطعمها ونسقيها . الا تعرف واجبها ؟

قال الأب :

ـ الولد بعده زغير . بعده ما بلغ .

ـ وايش عرّفك ؟ الولد كبير ، بس جرمه زغير .

قالت بتحدٍ .

قال :

ـ ودها معرفة . المدرك يبينّ من صوته ، بعده حسّه مسرسع مثل حس البنت ، وجوزته[1] بعدها ما طقت .

الغريب ان الأم لم تثر ، ولكن فكرة خطرت لها ، نفّذتها على الفور . سارت الى باب حجرة العروسين ، وأخرجت مفتاحها من كيس صغير تعلّقه في نحرها ، وأغلقت باب الحجرة من الخارج ، وعادت الى فراشها . سمعت صبحا تقول :

ـ امك سكرت الباب علينا .

بعد قليل سمعت الصبي يعالج الباب ، ثم سمعته يناديها . أحزنها ذلك ، ولكن ما قررته لا رجوع عنه .

لم تنم مباشرة . افتقدت الصبي في حضنها ، ولسعتها الغيرة . لقد توقف الصبي عن معالجة الباب وعن مناداتها . انه ينام الآن في حضن تلك البقرة . تصورت التحامهما عاريين فكادت ـ لولا شيء من عقل ـ ان تنهض وتدعو الصبي اليها . وكأن الزوج قد قرأ أفكارها . مد يده اليها فاستجابت له على الفور . هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك .

بعد ان انتهيا نامت بجواره ، ذراعها ممدودة فوق جسده . ظلت هكذا حتى الصباح .

قال الزوج لنفسه « سبحان مغيّر الأحوال » .

---

(١) الجوزة ، تعني الحنجرة .

لا وصايا الأم الصارمة ، ولا اغلاقها الباب بالليل هما اللذان جعلا صليبا يفتض بكارة صبحا . الصبية اصحابه هم الذين فتحوا عيونه على ما يجب فعله .

كانت القرية كلها والأراضي المحيطة بها هي ساحة لعب الأطفال . في بعض الأيام كان الأطفال يهبطون من الحارة الشرقية ، يمرون بين البستانين اللذين لم يعد أحد يعتني بهما ، ويغادرون القرية وراءهم . كان هنالك هربج آخر ، مثل ذاك القائم بعد نهاية الحارة الغربية ، وهو منخفض من الأرض تحيطه الصخور من كل جانب ، تنمو فيه أشجار برية ، دائمة الخضرة .

كان الصبيان يتسللون اليه ، وحين يريدون ذلك ، فانهم يستطيعون اخفاء أنفسهم دون أن يراهم أحد . كانوا يحبون ان يختفوا دون ان يراهم أحد . وكأن للهربجين - الشرقي والغربي - سمعة سيئة . تجد صبياً يقول لآخر : ماذا فعل بك فلان في الهربج ؟ أو قد تتشاجر امرأتان ، فتصيح احداهما : انني أعرف الذين سخّموكِ في الهربج . أو قد يقال ان فلانة رأيناها حاملة حمل الحطب على ظهرها ، وقد هبطت الى الهربج . ولما كان لكل حكاية بداية ونهاية ، فيقال انه شوهد فلان يهبط الهربج بعد قليل خلفها .

وليس بالضرورة ان تكون كل هذه الحكايات صحيحة . ولكن المكان كان يفوح برائحة الرغبة . أبسبب انخفاضه ، أم بسبب خضرته في وسط أرض صخرية ، جرداء معظم شهور السنة ؟ الأغلب انه الانخفاض ، لأنه في الأماكن الصحراوية المنبسطة لما لا نهاية لا يستطيع الانسان أن يختفي عن الأنظار الا في مكان مثل هذا .

يبدو ان الغواية كانت تفوح من هذه الأماكن منذ أقدم عصور التاريخ العربي . فلقد قالت صديقة امريء القيس عندما زارها في الليل :

فقالت يمين الله مالك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

فخرج معها الى منخفض من الأرض ، صخري :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى ... بنا بطن خبتٍ ذي حقاف عقنقلِ
هصرت بفودي رأسها فتمايلت ... علي هضيم الكشح ريّا المخلخلِ

المهم ان الصبية كانوا يجيئون الى هذا المكان ، وعندما يدخلونه كانوا يشعرون انهم قادرون ، هنا ، أن يمارسوا حرية لا يحدها رادع أو رقابة . وشيئاً فشيئاً يتحول اللعب البريء الى بذاءة تنفجر فجأة ، قد تتحول الى حكايات تكشف رغبات مقموعة ، أكثر مما تنبيء بوقائع صادقة . وكثيراً ما يحدث ، ان يتحولوا الى ممارسة جماعية للعادة السرية ، مبعثها غالباً الرغبة في البرهان ان الولد قد بلغ ، وانه يستطيع إن يقذف المني كالرجال .

في المربج الغربي كانت أول بذاءة ارتكبتها عندما قالت لي أميرة انها ستنام على ظهرها واذا نمت فوقها ، فلسوف تلد طفلاً عندما تكبر ، وسوف يكون ابني .

سألتها :

ـ كيف عرفتِ ؟

قالت :

ـ عرفت .

ـ كيف ؟

قالت

ـ كيف ؟ كيف ؟ عرفت .

الححت :

ـ كيف عرفتِ ؟

قالت :

ـ بعدك زغير . مش رايحة أقول إلك .

مع انها كانت أصغر مني . وقلت لها ذلك :

ـ أنا عمري تسع سنين .

المهم انها تمددت بملابسها الكاملة ، وتمددت فوقها . وماذا بعد ؟ قلت لنفسي . سمعتها تقول :

ـ انخنقت . ابعد .

بعد ذلك كانت تذكرني بما حدث بيننا بالاشارة ، فتضع راحة يدها اليمين فوق ظاهر يدها اليسرى .

ويقال ان أول لقاء تم بين سلطانة وصليبا كان في المربج الشرقي ، ثم أصبح احد أمكنة لقائهما .

في المربج الشرقي انفتحت عينا صليبا على الحقيقة . لم يفهم شيئاً عندما أخذ الصبية يشيرون تلميحاً الى السعادة التي يتقلب فيها . قال صبي في الخامسة عشرة من عمره ، وهو أكبرهم وأكثرهم قوة ، وقائدهم على نحو ما :

ــ مصت دمك .

احس ان هنالك شيئاً مخيفاً ومجهولاً تماماً يحدث له . وعندما استمر الحديث يدور حول هذا الشيء المخيف والمجهول سأل :

ــ بتحكوا عن خالتي صبحا ؟

انفجر الصبية بضحك طويل . ثم أفهمه قائد المجموعة بلهجة أبوية ، وبعد ان طلب من الصبية ان يكفوا عن الضحك ، ان صبحا زوجته وليست خالته . قال صليبا لنفسه : لا بد ان هذا صحيح لأن أمه قالت له نفس الشيء . واستفاض الصبي في شرح ما يجب ان يفعله صليبا مع زوجته .

قال صليبا :

ــ بس مش عيب اسوّي هيك ؟

قال له الصبي بلهجة رجل خبر الحياة :

ــ مرتك حلالك .

المهم ان الصبي القائد تهيج بسبب هذا الحوار وأخذ يمارس العادة السرية وحذا الصبية حذوه . عندما حاول صليبا ان يشاركهم أمره الصبي أن يتوقف . قال له : افعل ذلك مع زوجتك .

كان صليبا يستعجل الليل ليثبت رجولته . ولكنه كان قلقاً . وعندما أغلقت عليه وعلى صبحا حجرتها ، هاجمها دون روية . لم تقاوم لأنها أدركت مؤخراً ، لكثرة ما تلقت من صفعات وشتائم ، انه لا بد من فعل ذلك . كانت خائفة ، وكان خائفاً ، ولكن كل شيء تم . ولكنها صرخت فجأة عندما نهض الصبي . سمعت الأم الصرخة ، فهرولت ، وفتحت باب الحجرة بالمفتاح . قالت لصبحا :

ـ مالك ؟

كان وجه صبحا اصفر من الرعب . قالت :

ـ جرحني .

ـ جرحك ؟

قالت انه فعل ذلك الشيء ، فنزل الدم . لم تستطع الأم السيطرة على نفسها ، فأطلقت زغرودة ، وحملت الصبي الذي كان خائفاً ، ملطخ الساقين بالدم ، وعارياً ، حملته بين ذراعيها وهي تقول :

ـ سوّاها حبيبي ، سوّاها نور عيني .

وأغلقت عليهما الباب وخرجت .

ـ ٤ ـ

نما صليبا بسرعة أدهشت الجميع . فالصبي الذي كانت تصفه أمه بأنه مثل حبة الحمص أصبح طويلاً ، عريضاً ، مفتول العضلات ، حتى ان أمه تساءلت بزهو وقلق :

ـ ما له صار مثل المارد ؟

وأجابت على تساؤلها ان ذلك بسبب الزواج . قالت بفرح :

ـ مص عافية البنت .

ففي سن الثلاثين ضمرت صبحا ، وانحنى ظهرها ، في حين ان الصبي هاج وأصبح في سن السابعة عشرة من أطول رجال القرية ، ومن أقواهم جسداً ، وكانت صبحا قد جاءت له بثلاثة صبيان كانوا فرحة قلب الجدة . في سن العشرين كان حتماً أطول رجل في القرية ، وأقوى رجل .

أما صبحا فقد توقفت عن الانجاب في سن الثلاثين . عقمت وامتلأ رأسها الشيب ، وأضحت عجوزاً خرفة .

أما صليبا فلقد كانت مراهقته عنيفة . كان يفسّر كل ما يقال له تفسيراً خاطئ

فيتحول الى العنف . كان يعتقد أن الجميع يسخرون من طوله ، ولا يصدقون أنه رجل حقاً ، فأصبح يتعارك لأي سبب ، وأصبح الجميع يتجنبونه لأنه كان يستفز حتى من الذين ينظرون اليه . كان يشعر انهم ينظرون اليه بسخرية . الانسانة الوحيدة التي كان رقيقاً معها ، لم يحاول ان يؤذيها بكلمة ، ولم يرفع يده عليها قط هي صبحا .

ثم قيل فجأة انه عقل . لقد دمجت القبيلة عنفه في حياتها ومصالحها ، وأصبح أول المقاتلين دفاعاً عن القبيلة ، وعندما كانت القبائل البدوية تغزو القرية ، كان صليباً أمهر من يستعمل البندقية والعصا . وعندما تدور المعارك بالحجارة ، كانت حجرة لا تخطيء هدفها .

كان يغيب عن القرية كثيراً . لم يكن احد يعرف سبباً لغيابه ، واذا سئل لم يكن يجيب . كان يركب فرسه ويغادر القرية . تعود الناس ذلك ، وتعودوا الا يسألوه . قيل أنه أصبح ابن ليل ، يسرق البقر والأغنام ـ من القبائل الأخرى طبعاً ـ ويبيعها في عمان للحامين . وقيل انه قطع الطريق فترة من الزمن مع عصابة غير معروفة . وعندما مرّ زيّات بالقرية يقود بغلة محملة بقرب زيت الزيتون ، وغادرها بعد ان باع الجزء الأكبر من زيته ، وُجد في مساء اليوم نفسه مقتولاً ، وقد جُرّد من فلوسه . اتجه الاتهام ـ همساً ـ الى صليبا . وأخذ أهل القرية يدققون النظر في النقود التي تتداول بين أيديهم . فقد قال البعض ان نقود الزيات يمكن الاستدلال عليها بسهولة من خلال الزيت الذي يترك فيها أثراً لا يمحى . كما حاولت القرية ان تستجمع ذاكرتها ، رداً على سؤال : أين كان صليبا في الفترة التي غادر فيها الزيات القرية .

قال البعض انه غادر القرية في الصباح ، ولم يعد إلاّ في اليوم التالي : وقال آخرون انه غادرها في بداية الليل وعاد في منتصف الليل . وكثر الكلام ، ولكن صليبا ظلّ صامتاً .

بعد مضي فترة من الزمن أصبح نادراً ما يغادر القرية . وكان ذلك أمر غير طبيعي ، فقد أخذ أهل القرية يخمنون السبب . قيل ان الخوري اليوناني قد هداه

سواء السبيل . وقيل انها مريم العذراء بعد ان قدمت لها أم صليبا النذور ، شعلت الشموع أمام صورتها أياماً طويلة . وقيل ان السبب هو إصابة أولاده ثلاثة بالحصبة في نفس الوقت ، فنذر انه سوف يمتنع عن فعل الخطيئة إن شوا . وقد عاشوا فعلاً .

ولكن القرية اكتشفت حقيقة المسألة ببطء . لقد أصبح صليبا يشرب الخمر ، ا تحوّل الى زير نساء .

وكان اكتشافهم متأخراً جداً .

ـ ٥ ـ

حدث هذا التحوّل ، أو هذا الهوس بالنساء ، منذ فترة بعيدة . ولكن اهل قرية تنبهوا اليه بعد ان أصبح الهوس بالنساء هو كل حياته . بالطبع ، أصبح جل البيت . يساعد أبيه في الاشراف على الزراعة . كان يحرث الأرض مع لحراثين ، ويبذر ، ويحصد احياناً . كما كان يراقب الرعاة ، ويلاحقهم حتى لا يعوا بعض الخراف في السر ، مدعين ان الذئب قد أكلها .

ولكنه كان يفعل ذلك بنصف قلب ، يؤديه كواجب . ولذلك كانت الأحوال سوء . فأسعار الحاجيات كانت في ارتفاع مطّرد ، بينما أسعار الحبوب ، القمح خاصة ، في نقصان مستمر . وقد أصبح هنالك أولاد لهم مصاريفهم . فلا بدّ من لمدرسة ، وشراء الملابس والكتب ، ثم ارسالهم الى عمان ليواصلوا الدراسة .

وجاءت سنوات احتباس المطر (١٩٤٧ وما بعدها) فاضطر أن يبيع جزءاً من لغنم لأن المراعي شحّت ، ولكن ثمن الغنم انخفض بصورة غير معقولة . صبحت بنصف دينار تستطيع شراء خروف ابن حول ..

لم يستطع صليبا فهم ما يحدث ، ولا ما يجب عليه فعله . حين يبقى كل شيء على حاله فمعنى ذلك ان تزداد فقراً . على من يود ان يعيش ان يتوسع في شراء لأرض ، وان يدعم ذلك بالتجارة . والتجارة لا تعني البيع والشراء فقط ، بل

تعني الربا . أصبح البدو الذين تحوّلوا الى الزراعة بحاجة دائمة الى النقود والبضائع في فترة الشتاء. تبيعهم ديناً في الشتاء وتستعيد في الربيع كل دينار وقد أضيف اليه رطل (الرطل يساوي ثلاثة كيلوغرامات) سمن وجدي .

والتجارة ـ حتى تعطي كسباً وافراً ـ كانت بحاجة الى التهريب . قبل الحرب الأولى مع اسرائيل ـ عام ١٩٤٨ ـ كان يتم تهريب القمح والعدس والحمص والشعير والذرة الى فلسطين عبر الشريعة . والشريعة جزء من نهر الأردن يتسع فيه النهر ، ويبطيء جريانه . وكانوا يعودون من فلسطين بزيت الزيتون ، والتين المجفف ، والزبيب ، وغير ذلك . أما بعد حرب (١٩٤٨) فقد أصبحت التجارة الأساسية مع اسرائيل . وكانت ، في واقع الأمر تجارة من جانب واحد . حيث كانت تتسلل القوافل ليلاً ، حاملة معها الخراف والبقر والدجاج ، وبعض أنواع الحبوب كالحمص والعدس ، وتهبط الى الأغوار ، ومن هنالك تنحرف جنوباً ، ثم جنوب غربي الى ان تدخل اسرائيل . وكان الاسرائيليون يدفعون ثلاثة أو أربعة أضعاف الثمن الذي تباع فيه هذه الدواب والحبوب في الأردن .

وأخذت النقود تجري بكثافة بين أيدي أهالي القرية . وكان لها مسار محدد : التوسع في التجارة ، ثم محاولة فتح متاجر في عمان ، وبناء بيوت لسكنى الأبناء الذي يدرسون في عمان ، أو لتأجيرها .

حتى متع القرية تغيرت .. أصبحت المتعة الأساسية لعبة القمار ، واللعبة الأشهر كانت (التشيكت) .

الهوس الذي أصاب القرية أصاب صليبا قبل الجميع . ولكنه هوساً بالحركة والفعل . المجازفة والمواجهة العنيفة . كان يرافق ذلك ولعاً آخر ، ولعاً بالنساء . حين دلّه ذلك الصبي على ما يجب فعله مع صبحا ، اكتشف ببطء متعة مضاجعة المرأة . كان يهبط عليها أكثر من مرة في الليلة . وكانت هي تستقبله مفرودة الساقين ، وقد غطت عينيها بكفيها . تستقبله متخشبة ، دون استجابة ، وكأنها قطعة من حجر .

لم يكن ذلك يضايقه ، فقد كان يظن ان العلاقات الجسدية بين الرجال

والنساء تكون هكذا . كان عندما ينتهي تنقلب صبحا على جنبها وتستغرق فوراً في النوم . ولكنه بعد فترة يحسّ بالرغبة مرة أخرى ، فيقلبها على ظهرها ، ويعلوها ، لتعاود النوم مرة أخرى .

بعد مضي فترة من الوقت أخذ يزهد في صبحا . أصبحت خالته مرة أخرى ، ولم يعد يرغب فيها ، الا في حالات قليلة . لم تلاحظ صبحا شيئاً ، لأنها كانت تشعر ان ما يقوم به زوجها واجب ثقيل تؤديه بطاعة ، ولكن دون أية رغبة . وعندما ابتعد عنها قليلاً ارتاحت .

بدأ صليبا يلاحظ زوجة الراعي عندما بلغ السادسة عشرة من عمره . لم يكن يجد فيها شيئاً مثيراً ، ولكنها حين كانت تنظر اليه ، كان يشعر بقلق لا يتخلص منه الا بمضاجعة صبحا . في أحد الأيام رآها تجلس أمام طشت الغسيل ، تصبّن الملابس ، وقد تعرى فخذيها . وقف ينظر الى الفخذين . وعندما انتبهت اليه ضمت ركبتيها وقالت :

ـ يا وليد عيونك بتخوزق .

لا يدري . أكان ذلك بسبب فخذيها القويين اللامعين ، ام بسبب ذلك الصوت الذي نفذ الى قلبه كنصل سكين . ولكنه أحسّ ان ركبتيه أصبحتا كالماء ، وان ساقيه غير قادرتين على حمله .

عندما قدمت له صبحا الطعام لم يشعر برغبة فيه . تناول بضع لقيمات ثم طلب منها ان تبعده . ولأول مرة رأى زوجته بوضوح : امرأة دميمة ، ضامرة ، محنية الظهر ، وقد امتلأ رأسها بالشيب . شعر بالغثيان يصعد الى رأسه . ثم استعاد صوت البدوية « يا وليد ، عيونك تخوزق » وأدرك فجأة ما تعنيه بعبارتها . ودّ أن يراها ثانية . خرج ورآها تنشر الغسيل على الحبل . لاحظ على الفور الفارق بينها وبين صبحا . رأى جسدها المستقيم وعجيزتها المدوّرة ، والوجه ـ كيف لم ير هذا الوجه من قبل ؟

وكأنها كانت تعلم انه كان يراقبها . التفتت اليه فجأة ، ثم اخفت رأسها في صدرها وهي تضحك . اية حركة ! وغادر البيت وخرج .

حين جاء الليل لم يكن قد قرّر شيئاً . لكن النوم جافاه . وصبحا بجواره تنام كالقتيلة . لم يكن ينوي شيئاً . خرج الى الحوش يشم شيئاً من الهواء . وكان يلبس ثوب نومه الأبيض الطويل . ثم رأى البدوية ، التي كانت تنام على سطح الحجرة التي يخزّنون بها المحاريث والنير والركّاية ، تهمس شيئاً وهي تطل عليه من حافة السطح ، ثم تومىء بيدها .

كأن قوة خفية دفعته الى صعود الدرجات القليلة . وقف أمام فراشها يلهث . قالت :

أبو طويلة ، تمدد بمي .

وضحكت ضحكتها الغريبة . تمدد بجوارها وكأن المطلوب منه ان يتمدد وحسب . تمدد كلوح من الخشب : ضمته المرأة اليها ، وجسدها يهتز لصق جسده ، ثم قبلته . كانت القبلة شيئاً لم يتعوده من قبل . لم تكن قبلة الأم ، بل شيء حارق لامس شفتيه .

وعندما قالت له :

ــ علامك ؟

خطر له فجأة انه يتبادل الأدوار مع صبحا . المرأة مقبلة وهو كلوح الثلج . أرغم نفسه على مبادلة المرأة عناقها ، ثم اندمج في اللعبة الجديدة .

عندما غادرها قبل الفجر بقليل كان يشعر باسترخاء لم يعرفه من قبل . حين دخل الحجرة جذب لنفسه فرشة ونام عليها . لم يعد يطيق الاقتراب من صبحا . ومنذ تلك الليلة كان كل منهما ينام في فراش مستقل .

وأصبح كل ليلة يصعد الى فراش زوجة الراعي ، ويعود قبل طلوع الفجر . وكلما غادرها عائداً الى حجرته كان يقول لنفسه : « هكذا النساء اذن ؛ لماذا ابتلتني امي بهذه البقرة ؟ » وقد قال لها ذلك بصراحة فيما بعد عندما فاجأته في فراش البدوية ، وأخذت تلوّح بعصاها . قالت :

ــ جوزتك مرة ولا كل النسوان .

لم تكن هي تصدق ما تقوله .

قال :

ــ جوزتيني بقرة .

والبدوية خلال ذلك لا تقول شيئاً ، ولم يكن يبدو عليها انها مهتمة بما يحدث . قالت لها الأم بصوت الناصح ، لا الغاضب :

ــ الرجل مثل الكلب . لوّحي له بعظمة يركض وراكِ .

فتمطقت البدوية ، وكأنها تقول : هذا صحيح . وليلتها هزمت الأم . قالت له :

ــ ارجع لفراش مرتك .

قال :

ــ أنا هانا مستريح .

هل تقيم فضيحة ؟ على كل حال البنت بلهاء قد جفت ، أصبحت جيفة ومن حق الولد ان تزهد نفسه فيها . وقفت وشخصت عينيها الى السماء ، وقالت مخاطبة السماء :

ــ يا ريتني أشوف فيك يوم يا صليبا .

وهبطت الدرجات القليلة ، وعصاها تدق الأرض . عانقته البدوية ، وقالت :

ــ رجّال ولا كل الرجال . .

ولكن كان قلقاً . قالت له :

ــ علامك ؟

قال :

ــ خايف امي تطردك .

كانت تفهم شخصية الأم أكثر من صليبا . قالت له ان امه لن تفعل شيئاً من هذا . بل سنكون لبعضنا الآن أكثر من أي وقت مضى .

لقد أدركت المرأة ان الندم يأكل قلب الأم ، وان قلبها يقول لها أن للابن حقاً في أن يستمتع بالحياة .

أصبحت البدوية ، باتفاق ضمني مع الأم ، زوجة أخرى . أصبح ينالها في

جميع الأوقات . كل هذا وصبحا لا ترى ما يجري تحت أنفها . كانت الأم احياناً تخرج لشرب القهوة مع النساء ، والأب يخرج لبعض أعماله ، فيغلق صليبا عليه وعلى البدوية باب حجرة صبحا من الداخل ، ويستمتعان على فراش صبحا .

يسمعانها احياناً تنادي :

ــ يا كرما ، يا كرما ؛ وين راحت هذه ؟

وكانا يضحكان .

مضى على ذلك ستة شهور . وفي أحد الليالي نام في حجرته للصباح ، ولم يشارك البدوية فراشها . غفلت عينه ، وعندما استيقظ رأى ان الشمس قد طلعت ، وان صبحا قد غادرت الحجرة . كان يشعر بارتخاء لذيذ فعاود النوم . استيقظ ساعة الضحا . سمع أحداً يتحرك في الخارج فنادى :

ــ يا كرما ، يا صبحا .

فتحت صبحا عليه الباب ، فطلب ان تعد له كوب شاي . لم يكن ذلك من عادته ، ولكنه أحب الاسترخاء في الفراش . قال لنفسه : منذ سنة لم أنم هكذا ، ولم أشعر بهذه الراحة .

خرج من باب الدار فرأى المرأة جالسة في الطرف البعيد من الحوش . ظنها صبحا ، بل رغب ان تكون صبحا . اقترب وهو يدرك انها ليست صبحا ، فهي لا تكف عن الحركة والعمل حتى يحين موعد نومها . التفتت نحوه قبل ان يصل اليها . كانت تبكي دون صوت .

قال :

خير ؟

قالت :

ــ ما فيه غير الخير .

قال لها ولكنك تبكين . فلم ترد . اقترب أكثر وقال :

ــ ليش بتبكي ؟

قالت :

ـ ما ابكي .

وازدادت غزارة الدمع . وقف ينتظر ، وهي تنظر اليه بتلك العينين المبللتين بالدمع ، والوجه المبلل . لاحظ ان أنفها أصبح أحمر . ودّ لو ينصرف ، ولكنها كبّلته بدموعها وصمتها . استمر ذلك بعض الوقت ، وقد أصبح الموقف لا يطاق . سألها :

ـ وين أمي ؟

ـ طلعت .

فكّر : ذلك يسهّل الأمور . وعندما قرّر ان ينصرف ، وكأنها شعرت بذلك ، التفتت اليه ونظرت في عينيه مباشرة ، وقالت :

ـ ما خلتك تيجيني ؟

ـ مين اللي ما خلاني ؟

سأل مندهشاً . قالت :

ـ مرتك . لويش ما جيت لي البارحة ؟

قال :

ـ راحت علي نومة .

وعندما صمتت دون رد :

ـ كنت تعبان . صار لي ست شهور ما نمت زين .

وأحسّ وهو يدافع عن نفسه هكذا ، دون أن تستجيب له ، انها أصبحت عبئاً عليه . غادر الحوش وقد قرّر ان يبتعد عن النساء الى الأبد . لا يرحمنك أبداً .

في الخارج أحبّ الشمس والشارع والمارة وكل شيء . أحسّ انه انقطع عن عالم جميل ومريح وها هو يعود اليه . رأى بعض رجال جالسين في ظل حائط العماشنة . جلس معهم . ورأوه ودوداً على غير العادة ، محباً للأسئلة والاستفسار . همس رجل لآخر : « الولد عقل » .

لم يكن يرغب في العودة الى البيت عندما جاءت ساعة الغداء ، فذهب الى

انسبائه . تغدّى عندهم ، وقال ان به رغبة في النوم . وتمدد على البساط المطروح في صدر الدار . قالت له حماته :

ــ تغدى وتمدى يا ريته نوم الهنا .

وخرجت الى الحوش وتركته لينام .

وعندما استيقظ من النوم احس انه نام لحظات قصيرة . ولكن حماته قالت له ان الشمس قاربت على المغيب . أحسّ بجوع مهلك على الفور . عاد الى البيت وأكل بنهم . قرر ان ينام مبكراً حتى يصحو عند منتصف الليل ويذهب الى فراش البدوية . ولكنه عندما صحا كانت الشمس تغمر البيت . أحسّ بحاجة الى الجلوس مع أمه والتحدث اليها . ولكن العلاقة بينهما منذ تلك الليلة غشاها برود وتحرج . ثم رأى البدوية مقبلة عليه . كانت غاضبة . ليلتان لم تجيء ، قالت بصوت واضح قوي ، وبدا واضحاً انها لم تعد تخاف ان يسمعها احد .

أراد أن يقول لها انه لم يستطع الاستيقاظ ، ولكنه قد قال ذلك البارحة ، فلم تصدقه ، وهي لن تصدق الآن . قال :

ــ الليلة .

قالت :

ــ ما أريدك لا الليلة ولا غيرها .

قال :

ــ أنت حرة .

قالت :

ــ هذا اللي تريده ؟

وأخذت تسد عليه كل الطرق ، غاضبة حيناً ، باكية حيناً ، راجية حيناً . في تلك الفترة خطرت له فكرة السفر ، التي لم ينفذها الا بعد ان توفي والديه . كان للأم مهابة في نفسه ، وخاصة عندما اقتربت من النهاية . لقد كانت لعنتها معلقة فوق رأسه « يا ريتني شوف فيك يوم يا صليبا » .

انتهى موسم الحصاد والدراس ولم يعد أمام صليبا الا النوم والطعام .

استمرت فترة كمونه أربعة أسابيع . في أحد الأيام ، عند الظهر ، افتقد البدوية فلم يجدها . يسأل من عنها ؟ أمه ؟ لقد أصبح الحديث بينهما عن تلك المرأة مستحيلاً . صبحا ؟ وكيف لهذه الدابة أن تعرف !

بحث عنها في كل مكان ، في الدار ، في الحجرة الصغيرة ، خرج الى الشارع ، لم يعثر لها على أثر . بدا وكأنه أفاق من خدر طويل . لم يعد قادراً على الجلوس أو الاستقرار في مكان . عاود البحث عن المرأة في كل مكان يمكن ان توجد فيه ، ولكنها اختفت ، والأغرب من ذلك ان أمه لم تفتقدها . هل طردتها ؟ ولكن فراشها وملابسها ما تزال على سطح حجرة الخزين .

ومن يسأل عنها .

عند الغروب جاءت . لم تكلم احداً . صعدت ى فراشها وتمددت فيه . استعجل عشاءه ، وبمجرد ان دخلت صبحا الى حجرتها صعد الى فراش المرأة . كانت تتمدد على ظهرها . استطاع ان يرى عينيها مفتوحتين تنظران الى النجوم . بدا وكأنها لم تشعر باقترابه منها . همس :

ــ كرما .

لم ترد . تمدد الى جوارها فقالت :

ــ أريد أنام .

لم يكن في صوتها غضب . كانت تقرر واقعاً . قال وهو يضمها بذراعه بقوة يقاوم فيها رغبتها في الابتعاد :

ــ وين كنت ؟

قالت بضيق :

ــ كنت وين ما كنت . ابعد عني .

ــ لا ، بدي اعرف ، وين كنت ؟

قالت :

ــ ما اعلمك . ايدك تضايقني .

ــ خليها تضايقك . وين كنتِ ؟

قالت :

وش إلك عندي تسألني .

قال :

ــ احبك .

وضمها . قاومت بقوة في البداية ، ولكنها استسلمت ، واقبلت عليه . كانت تلك ليلة خاصة ، ليلة لا تتكرر كثيراً . أعطته وأعطاها دون تحفظ ، ودون خوف . كانت تئن وتتضرع متعة ، وكان يغرق معها . وفاجأهما الفجر . قالت :

ــ خليك شوية .

قال لها :

ــ النهار طلع .

وهبط محاذراً ان يراه أحد .

وعادا في علاقة ملتهبة .

الفصل السابع

- ١ -

هذا الأحد كان يوماً مليئاً . قررت ان أجعله أكثر امتلاء، بأن أزور أميرة في بيتها ، ولكن بطرس جاء مبكراً ، ولم تعد الزيارة ممكنة . اقترحت على بطرس ان نغيّر خط سير مشوارنا : نصعد من الحارة الشرقية الى الحارة القبلية ، ثم نهبط منها الى الحارة الغربية ، ونواصل مشوارنا العادي الى حافة الهضبة المطلة على الغور. اخترت هذا الطريق لأنه يمر أمام بيت أميرة . وهنالك احتمال كبير ان يرونا ، ويدعونا للدخول .

كان بطرس قاتماً . قال : لا داعي لذلك . ما داعي ذلك ؟ يبدو انه أدرك ما أهدف اليه من تغيير خط سيرنا . قلت :

ــ نشوف الناس . أنا ما عم بشوف حدا .

أصبحت أخشاه قليلاً . قال ان الناس سوف يفسّرون ذلك تفسيراً سيئاً . سيسألوننا : ماذا أتى بكم الى الحارة القبليّة ؟ فكيف نقنعهم اننا في مشوارنا اليومي ؟

خرجنا في مشوارنا المعتاد . كنا مبكرين ، فلم نجد نساء جالسات خارج أبواب الحيشان ، وأصحاب الدكاكين ما زالوا مرهقين بصهد بعد الظهر . لم نكلم أحداً ، وكان بطرس صامتاً . ظل صامتاً معظم الوقت . يبدو أننا تبادلنا الأدوار فأصبحت ثرثاراً . ثم خطر لي فجأة أن أتوقف عن الكلام ، ماذا فعلت له حتى

أحاول استرضاءه .

صمتنا .

بدأ هو الحديث :

ـ شفت أميرة اليوم ؟

قلت دون اكتراث :

ـ آه ، في حوش الكنيسة .

ـ لا . يعني زرتها في البيت..

ـ لا . .

حاولت افهامه انني لا أكترث لأميرة ، ولا له . وكنت أرغب ان ينتهي مشوارنا بسرعة . الرجل يريد أن يحقق معي .

في طريق عودتنا توقفت وتكلمت مع أصحاب الدكاكين ، مع المارة ، تجمعات الرجال أمام الدكاكين ، تجمعات النساء أمام أبواب الحيشان . حاول بطرس ان يستعجلني ، قلت :

ـ ايش فيه ورانا ؟

وأهملته .

غادرني غاضباً . لم أذرف الدموع على فراقه .

انتهت بي التتالي الذي لا بد منه : العشاء ، الحديث مع أمي ، تثاؤبها . . انتهى بي الى السرير ، فافزعني منظر الفراش . هنا يكمن الأرق ، أحلام اليقظة البلهاء ، العادة السرية ، ثم الاحساس بالقذارة والندم . لو تمددت في هذا الفراش لقتلت فرح اليوم كله . ليس هذا فقط ، بل ان صور سلطانة وأميرة وخضرا سوف تتحول الى عذاب حقيقي . سأقول لنفسي : امسكت يد خضرا أمام الناس ، وضغطت عليها ، وأبقيتها في يدي ؛ ولكنني عجزت حتى عن ذلك عندما كنا وحيدين ، وحين منحت لي نفسها . سيعذبني ذلك كثيراً في السرير .

سوف تتشوه صور النساء ، حين يصبحن موضوع إثارة ، وسوف يشحبن عندما يستولي علي النوم .

هذا الفراش .

جلست على رأس الفراش وأخذت تنظر الى النجوم والليل .لاحظت ان البيادر ، عدداً وحجماً قد تناقصت . قدّرت انه خلال أيام قليلة سوى تختفي تماماً . قد تزداد حيوية القرية عدة أيام والجميع يستعدون لتسيير القافلة الى سرائيل . البعض لا يسافر ، بل يضع غنمه أو بقرته في عهدة احد المسافرين . بعض العجائز الوحيدات سوف يقدمن الدجاج والبيض ، وسوف تصلهن نقودهن كاملة . هوى قلبي عندما استعدت وجه سلطانة ، بدت معشوقة تعطي دون حدود ، ولكنني لا أرتوي أبداً .

فاجأني صوت أمي :

ـ ليش ما بتنام يا بني ؟

قلت :

ـ مش نعسان يمه .

وفي لحظة خاطفة تقمصت مشاعر أمي . منذ تسع سنوات جلس أخي على رأس الفراش . نامت وهو جالس . استيقظت وقلبها منقبض باحساس مبهم بشيء مخيف . سألته :

ـ ليش ما بتنام يمه ؟

قال :

ـ مش نعسان .

قالت :

ـ تمدد في الفراش وبتنعس .

قال :

ـ لما ادخل تحت اللحاف بحس اني مختوق .

نامت واستيقظت . كان ما زال جالساً . سألته : لماذا لم ينم بعد ؟ رد بكلام ثقيل ، لم تفهمه . في الصباح كان أخي ميتاً . مال على جانبه ، وبدا كالنائم . عند الفجر اكتشفت ذلك .

روت أمي هذه الحكاية مرات عديدة جداً .

وأخي الآخر ، الذي غادر القرية ولم يعد اليها ، منذ خمس سنوات ، امضى

ليل يتمشى ، ثم يعود للجلوس على رأس الفراش ، ثم يتمشى . .هكـذا حتى
طلع الصباح .

أشفقت على أمي . تمددت في الفراش . أصبح اللحـاف جـداً يحتضنني .
جأت الى وصفة قرأتها في احدى المجلات لاستجلاب النوم . أن أتصور قطيعاً من
الخراف يمر أمامي ببطء ، وأعده . بدأت : انا جالس على الصخرة التي تطل على
المربج الشرقي من الشرق ، وها هو قطيع الغنم يمـر أمامي ، وأعـده ، واحد ،
اثنان ، ثلاثة . . . واتذكر ما يقـال ان أول لقاء تم بـين صليبا وسلطانـة كان في
المربج الشرقي . . . أربعة . . . استعيد وجهها وهي تقول :

ـ زورنا . . .

استعيد لفتة وجهها حين نظرت خلفها ، الي ، وهي تنحرف يميناً لتصعد الى
الحارة القبلية . يمرضني اشتياقي اليها . أفكر في ذلك وأنا ما زلت اعد الخراف .
خمسين ، واحد وخمسين . . يجب الا أفكر في سلطانـة . لماذا لا أفكـر في أميرة ؟
أركز ، يعود وجه سلطانة .

تـوقفت عن عـد الخـراف . نسيت انني بـدأت بـذلـك . أميـرة تؤدي الى
سلطانة ، فلأفكر في خضرا ، إذاً . كلما اقتربت من أميرة فاجأتني ، وأنا في قمة
حلم اليقـظة، بـردود فعـل غـير متـوقعـة ، لا يمكن التنبؤ بهـا . « هيـك »
مع كفها اليمنى فوق كفها اليسرى . . ثم « ابعد . انخنقت » . اقتـرب منها ،
ضمها ، ثم حكاية الكلب ، والاعلان أمام القرويين انه لا يـأكل الا اللحمـة
النيئة : « بلاش بياخة يـا سمعان . الكلـب مـا بوكـل خبز نـاشف » . . وخضرا
تجلس على طرف الفراش مبتسمة ، واثقة من عودتي اليها .

وكقبضة فولاذية تعتصر قلبي صورة وجه ، وجه سلطانة ، أشعر بـالاختناق
انهض . أهبط من سـطح الدكـان الى الحوش . اتـظاهر أمـام أمي ، التي تـرى
وتسمع كل شيء خلال نومها ، والتي تنام بعينين مفتوحتـين « تقول أمي : هـذا
يسمونه نـوم غزلاني » اتـظاهر انني ذاهب الى دورة المياه . أعـود الى فـراشي .
أستنجد بخضرا ، أنـاديها فتقتـرب ، أضمها . . . هـل تعـرف كيف تعـانق ؟

أضمها ، تنزلت مني وتميل على اذني هامسة : « هاي هيه معشوقتك ؟ » لقد كانت أميرة . هي التي كنت أضمها الي . من أين تعلمت كلمة « معشوقتك » هذه ؟

ويستمر العذاب لما لانهاية . وعند حدود الفراش كان التفريج الميكانيكي والندم ينتظرانني .

ولكنني لم استطع في تلك الليلة ان أمارس العادة السرية . أحلام اليقظة تتداخل ، تتكسر بتداخلها ، بتأنيب الذات : لقد اتيحت لي كل الفرص ، ولكنني أفقد القدرة على التصرف في اللحظة الحاسمة . ودخلت في حالة بين اليقظة والنوم ، اختلطت فيها الرؤى : أقرأ ، بمعاناة ، صفحات من كتاب لا أفهم منه شيئاً ، اتحاور مع آخر في داخلي ، يضايقني ، أود بتره والخلاص من عشرته ، آخر حين أحلم بامرأة ، يقول « انه يحلم بامرأة » فيتبدد الحلم ، يفقدني الاحساس بالصدق . . . رقابة دائمة . . . افلت منه . . الفراش واللحاف أجساد تحيطني من كل الاتجاهات . ثم أخرج من الكابوس ، وانظر للسماء : كانت نقية ، رمادية ، نجومها قليلة ، تشع كأنها أقمار .

أعادني صياح الديك الى وعيي . فتحت عيني فبدا لي الفجر ، وللحظة تخيلت ان الفجر قد انبثق من فم الديك . كنت مرهقاً من الليلة الطويلة التي مضت دون نوم ، عذاباتها في داخلي جراح طرية ، تسيل دماً لأقل لمسة . كان الفجر مشهداً احتفالياً جليلاً يصعد من وراء التلال الشرقية ، ينبيء ، يرهص بحياة أخرى نقية ، وخالية من الضجر . في تلك اللحظة احتواني النوم عميقاً ، أسود ، بلا أحلام . كان أشبه بالسقوط في هاوية لا قرار لها .

حين صحوت كان ظل الدار المجاورة قد انزاح عني ، والشمس تسقط فوقي مباشرة . كانت شمس الظهيرة . دخلت الدار ، وتمددت على الدكة الخشبية ، كأنني جريح . كان ذهني خالياً إلاّ من احساس بان شيئا ما ، حلواً حدث لي .

استعدت القدرة على الحركة بعد قليل ، فأخذت اعد طعام الافطار . بعد انتهائي من تناول الافطار واصلت القراءة في رواية (مدام بوفاري) .

- ٢ -

كـان غذاؤنـا صينية شـرائح بـاذنجان وشـرائح بنـدورة خارجـة لتـوهـا من الطابون . لطعام الطابون طعم خـاص ، وكذلـك خبزه ، لا يتكـرر . السماق والبصل والفلفل أعطاه نكهة . امتدحت الطعام ، فبدت أمي سعيدة . ما أقل ما تطلبه من هذه الدنيا . قلت :

ــ طعمه مثل تسافين الجاج .

ــ صحيح ، بتتمسخر ؟

قلت :

ــ أكلك دايماً طيب . بس اليوم طيب زيادة .

صمتنا . قالت بعد قليل :

ــ فيه العافية .

حديثي عن طعامها انساها ان تقول ذلك في البداية . قالت :

ــ أميرة مسافرة لعمان .

ــ بسرعة ؟

ــ بسرعة .

لماذا تحدثني دائماً عن أميرة ، وأنـا أعلم انها لا تهتم بها ؟ ربمـا لتسليني . أو تخفف علي جفاف الحياة التي أعيشها . وانقطع الحديث بيننا ، كما يحدث عادة . عليها هي أن تبدأه مرة أخرى . قالت :

ــ فريح خطبها .

ــ فريح !

قلت باستنكار . افلت ذلك مني دون قصد . كان علي ان اتـظاهر بـانني لا أكترث لأخبار أميرة . أضفت بلا مبالاة :

ــ أهلها وافقوا ؟

قالت :

ــ أنت عارف أبوها ما إله شور .

ــ الشور في ايد مين ؟

ــ عمها .
سألت :
ــ وافق ؟
قالت :
ــ والله ما بعرف . خليهم يجوزوها ويطفو عارها .
انتظرت ان تفسر ذلك ، ان تشرح . ولكنها صمتت . تذكرت ان أميرة قالت انها سوف تبقى مدة أطول ، فلم الاستعجال ؟ قالت ذلك بعد مجيئها مباشرة . وتخيلت ما حدث .

أعرف شعور العائد الى القرية بعد غيبة ، وأعرف خيبة أمله بعد مضي فترة من الوقت . أعرف سحر كلمات الترحيب الأولى ، والاعجاب ، والدهشة التي يثيرها الحديث عن عالم مختلف ، وأعرف كيف تبلى سريعاً جدة ذلك ، ويختفي سحر الدهشة الأولى . وأعرف كذلك الحسد الذي يختبىء في القلوب ، وكيف يتحول الى تجريح للقادم وتشنيع عليه . وأعرف الولائم التي يدعى اليها الضيف ، أعرفها معايشة واذلالاً ، وأعرفها معاناة جارحة للقلب :

ــ تفضل !

ويضعون الصينية أمامك . كمية كبيرة من الرز ، فوقها دجاجتان قطّعتا قطعاً صغيرة ، وثمانية أطفال على الأقل ، تتسابق أيديهم الى اللحم ، ورجال يرتسم على وجوههم جدّ مبهم ، قاتم ، عيونهم منسحبة الى الداخل ، لا ترى ، يحيط بهم عنف متوقع ، يكتلون الرز في أيديهم على شكل كرة ، حاذقون في حشوها باللحم دون أن يلاحظ ذلك أحد . وتمتد يد امرأة لتنقذ قطعة من اللحم لجارة مريضة ، أو لابن تغيب عن العشاء . وهكذا يختفي اللحم في لحظات ، والضيف ما زال جائعاً ، يدّعي انه اتخم ، ولا يستطيع أن يأكل لقمة أخرى .

ولا بد ان بعض الهمسات قد وصلت الى أذني أميرة ، همسات كالفحيح في احد أركان الدار . الفتاة التي دعت أميرة ترجو أمها وتنثر دمعتين مطالبة بتقديم الشاي بعد العشاء ، والأم مختنقة بالغضب ، تشتم ابنتها ، والضيفة ، وكل

الخلف ، وتندب حظها في الفرختين . وفي اليوم التالي يأتي أصحاب الدعوة ، وقورين ، جادين ، ينتظرون جزاء كرمهم . الكرماء حقاً أمثال العماشنة وصليبا والشيوخ الذين يقطنون الحارة القبلية لا يخطر لهم ان يدعوا أميرة ، او أية امرأة . هؤلاء يفيض كرمهم بكمية الطعام المقدمة ، بالفرح الحقيقي لوجود الضيف في بيتهم .

وهؤلاء ينقرضون الآن .

قلت لأمي الناس تغيّروا الآن . أصبحوا لا يفكرون الا في النقود ، وفتح دكان في عمان ، تعليم الأولاد ، بناء بيت في عمان أو الزرقاء . كيف كان يستمتع الناس ويتسلون ؟ انت تعرفين . أما الآن فتسليتهم الكسب والخسارة ، لعب القمار . الكل يلعبون التشيكت .

تعودت أمي أن أفاجأها بكلام لا علاقة له بموضوع حديثنا . ولكنها اندهشت لأنني لم أعوّدها أن أقول كلاماً بهذا الطول . قالت :

ــ الدنيا كلها تغيرت .

وتنهدت .

ــ ليش ؟

قالت :

ــ ليش ؟ الناس كثرت والطلبات كثرت . أيام زمان . . .

أصابتها عدوى الأحاديث الطويلة . أيام زمان كان الناس قلائل ، وكل شيء بسعر التراب . القمار ؟ لا . لم يكن موجوداً . كان الناس يجتمعون في مضافة العماشنة . وتدور الأحاديث الحلوة . عند العصر كان الشباب يركبون الخيول ويتسابقون . البنات يزغردن للفائز . عندما تطل آمنة تطير عقول المتسابقين .

آمنة ، أراها دائماً في هالة من الأساطير التي نسجت حولها ، والشعر الذي قيل فيها . أزورها الآن في بعض المناسبات . ما زالت تحمل ملامح ذلك الجلال الأسطوري ، رغم تقدمها في السن .

وأصغي باستمتاع . تتنهد أمي وتصمت .

انتهينا من الطعام وأكلنا العنب . ثم شربنا الشاي . فجأة قالت أمي : لماذا لا تسافر الى عمان ؟

قلت :

ــ يعني ؟

قالت :

ــ رفّه عن نفسك اسبوع ، عشر تيام ، وتعاود .

لقد اخفتها البارحة وأنا أجلس على رأس الفراش .

ــ ٣ ــ

هل يمكن ان التحدث عن آمنة بموضوعية ؟ لقد أصبحت مختلطة باسطورتها ، بحيث يستحيل فصل العناصر الواقعية عن الأسطورية . حتى في رؤيتي لها لا أستطيع أن أتأملها الا عبر هالة مجدها. الا يمكن ان نعتبر الأسطورة شكلاً يبلوّر شعوراً جماعياً تجاه ظاهرة ما ، في مرحلة معينة من مراحل التطور ؟ اذا أجبنا بالايجاب ، تصبح اسطورة آمنة جزءاً منها . حتى ما يقوله رجل خرِف مثل زعيّل السالم[1] يحتفظ بقيمة ما .

---

(١) اعتقد ان زعيّل كان مصاباً بالخرف منذ ولادته . رجل قصير جداً ، يكاد يكون قزماً ، ومضحك جداً . وصفه شاعر القرية أبو نزّال :

شديت شدادي ع ابو الحصنان ومن العطش واسترغ بيا

يا طول زعيّل اثلتشبار والا دجاجة قبرصية

(١) ملحوظة : ابو الحصنان الثعلب . ثلتشبار : ثلاثة أشبار .

ذهب زعيّل مرة الى عمان فرأى حذاء أحمر ، له عنق يصل الى الركبة ، وقد وضعت فيه ابازيم وشناكل معدنية مطلية بلون ذهبي . فاشتراها بخمسين دوغاً من الارض . وأصبحت (دزمة) زعيّل حديث القرية ونكتتها لشهور عدة ، وخاصة انه ، قبل ذلك ، نادراً ما كان يلبس حذاء . وقد حاول تقليد الشيوخ الذين يملكون الأراضي الواسعة ، والأغنام التي لا حصر لها ، فاشترى فرساً أصيلاً ، وأقام الولائم بسفهٍ ، فأفلس خلال سنين قليلة ، وأصبح شبه متسوّل . اذكر ــ

انا كنا في دعوة أقيمت في خيمة سوداء ، غربي القرية فرأيناه قادماً يتوكأ على عصاه وقد أصيب بالعمى . قال احد الحاضرين :

ــ شم ريحه اللحم وجا .

وعندما جلس قدموا له رغيفاً من الخبز ورأساً من البصل . كان ذلك نوعاً من المزاح . عندما لمس الطعام ، ارتد الى الوراء بكبرياء ، ونادى :

ــ يا أبو جدوع .

فرد صاحب البيت :

ــ يا عونك يا أبو حميدة .

فقال زعيّل مرغماً غضبه :

لا أنــا مــزكــوم ولا أنــا وجـعــان	والـبـصــل مــا لــه عـلـيـنــا لــزوم
انـا أبـو حـيـدة مـا بيـا قـول ينقــال	يا مخلّي اللحم فـوق المناسف رجـوم
انـا أبـو حـيـدة مـا بيـا قـول ينقــال	يـا متعبـاً عــذراي من قـول قــومي

قال احد الحاضرين :

ــ يا متعباً عذراي من قول قومي .

ثم توجه الى زعيّل بالسؤال والآخرون يخفون ضحكاتهم : « كنت تتعبها وتتمنى موتها » . ارتفع عنقه ورأسه وقال بكبرياء :

ــ ما صار . وكت ايش ؟

قال الرجل :

ــ يوم قرصها العنكبوت .

وضج المجلس بالضحك .

والحكاية ان هنالك طقساً شائع في قريتنا يزعمون انه يشفي من قرصة العنكبوت . يتمدد المقروص في حفرة في الأرض ، ويوضع فوق بساط ، ويوضع تراب فوق البساط . وهو نوع من الدفن . تقف امرأة قرب « المدفون » وتنادي ثلاثة مرات متالية :

ـ يا قريص العنكبوت ، تحيا والا تموت ؟

وفي كل مرة يجيب « المدفون » : احيا ، اذا كان يرغب في الحياة ، او : اموت ، اذا كان يرغب في الموت . ويسود الاعتقاد ان النتيجة تكون حسب اجابة « المدفون » الحياة او الموت .

وقد اصيبت زوجة زعيّل بقرصة عنكبوت ، وعندما القت عليها احدى النساء سؤالها الطقسي ،

= اجابت : « احيا » ، ولكن زعيِّل ، الذي كان حاضراً طقس الدفن ، والذي كان في نقار دائم مع زوجته صرخ :

ـ لا ، تموت .

فردت الزوجة « المدفون » :

ـ اللي يقول عني اموت ، هو اللي يموت .

فاندفع زعيِّل بعصاه يريد ضربها ، فامسكت به امرأة ضخمة ، ذات بنيان جسدي قوي ، وامسكته . ولما كان زعيِّل صغير الحجم فقد حملته بين ذراعيها وكأنه طفل . واستمر النقار بين « المدفونة » سعدى ، وزعيِّل المحمول بين ذراعي المرأة

زعيِّل : خرّبت بيتي ، تمها بلع رزقي كله .

سعدى : انت رجل ؟ تعاير حرمتك بالزاد اللي تاكله ؟

وقبل ان تتم كلامها ، وخلاله يقول :

ـ الله لا يعوّض بيك (والدك) يا سعدى . سبع فعّال بكريكاتهم ما يشيلوا خريتك يا سعدى .

سعدى : « تغنّي » هذا رجا تقول خجا

يسوّي للخربات حفر

زعيِّل يتفلت من المرأة التي تحمله بين يديها ، ويحاول ، دون فائدة ، ان يهجم على زوجته المدفونة وهو يصرخ :

ـ انا ؟ انا ؟

المرأة : لاقوا خير ، لاقوا خير !

زعيِّل : « يتفلت » علي الطلاق من ذراعي غير اذبحها .

المرأة : انا صبرت عليك كثير .

زعيِّل : « يتفلّت بعنف » اطلقيني اذبح ملعونة الوالدين .

سعدى : انت الملعون الوالدين والشاهدين .

المرأة : ما تسكت ؟

وحملته خارج الحوش ، وألقته في الخارج من البوابة ، وصاحت خلفه :

ـ ابعد !

وعندما حاول العودة ، امسكت بخصلة من شعرها وصاحت :

ـ علي الطلاق من عقصتي المليانة قمل ، لو قربت يا عزّة الرجال غير اكسر ضلوعك . تسمعني ؟

لذلك فان ما يرويه عن آمنة ليس محل ثقة . ليس لأنه معروف بالكذب ، فهو لا يملك الذكاء =

آمنة ، في الذاكرة ، في اللاوعي - ربما - تتجدد دوماً . صاغت رؤيتي للمرأة ، فاعدت انتاجها في كل مرحلة من مراحل العمر . هي وسلطانة وقفتا بيني وبين جميع النساء . اردتهن جميعاً ان يكنّ الاثنتين معاً ، ولما كان ذلك مستحيلاً فقد أصبحت علاقاتي بالنساء مجموعة من خيبات الأمل .

= الكافي لأن يكذب عن عمد ، ولكنه يعيش في عالم من الأوهام ، التي يعتقد انها صحيحة . فأيام (ثلجة الجمال) عندما هبط الثلج ليلاً ، دون توقع ، على أرض جافة ، فارتفع حتى غمر الجمال الواقفة في الحيشان ، فتجمدت ، وسدّ منافذ بعض البيوت الصغيرة فمات ساكنوها اختناقاً ، قال ان الله كان ينوي ان يبيد البشر كلهم ، وكل حي على الأرض ، لولا قصيدته التي يقول فيها :

خذ البريق وامشي الطريق بكل فريق سوّي امام
هذه ومبه ما هي ثلجه يا الله إن تلطف للاسلام

حكي لي عن طفولة آمنة ، وانا احاول ان انقل حديثه مع بعض التعديل :
البنية كانت تضوي مثل الشمس . وجه مثل قرص الجبنة ، وخدود حمرا ... . الناس (قال الناس دون تحديد) قالت : البنت تتغندر . تتغندر ، ما تتغندر ، تتغندر ، ما تتغندر ، ويوم قاعدين في المجلس . قال ابوها : « تقولوا بنتي تتغندر ؟ » الناس سكتت . قال : « اسمعوا يا رجال . لو كانت تتغندر اذبحها قدامكم » . جاب البنت ، وقال : « يا زعيّل ! انت تشوف » ورماها بين يدي ، واستل خنجره . قلت لحالي : « نشوف لو كانت تتغندر ، وراد ابوها يذبحها ما نخليه » كنت وكتها لابس حطه بيضا ، بلابل ، نزعتها عن راسي وفركت خدود البنية . فركت ، فركت ، فركت ، لقيتها بيضا . قال أبوها بعد ما شاف الحطة بيضا : « وش تقولوا هالساعة ؟ » وش تقول ؟ قلنا : « صادق » قال : « بنتي تتغندر ؟ » قلنا : « صادق . ما تتغندر » . بعد هذا بسنين قالت لي آمنة : « هربت خدودي وانت تفرك » قلت : « وش اسوّي ؟ » قالت : « لو لقيتني اتغندر تخليه يذبحني ؟ » قلت : « اموت والا اخليه » .
كان بين امي وآمنة علاقة صداقة وثيقة ، ففي البداية ، بعد زواجها ، عشنا لفترة تزيد على خمسة عشرة سنة في بيت واحد . وعندما رويت حكاية زعيّل قالت : « الرجل خرف » وحكتها امي لآمنة ، عندما كانت في زيارتنا ضحكت ، واستوضحت مني تفاصيل الحكاية ، فقالت : « الرجل كبر » وكانت تعني انه تقدم في السن ، واصابه الخرف ، ولكنها عبرت عن ذلك بأسلوبها الرقيق ، وبحس التسامح اللذين ميّزاها .

آمنة حلم القرية الرومانسي المعلن ، وسلطانة حلم القرية الشبق السرّي ، الملعون ، الفاجع ، الممنوح والمستحيل معاً . . . على كل حال فلنؤجل الحديث عنها ، فهي الروح السرية ، الدم الحقيقي لكل ما يجري هنا من أحداث .

لنعد الى آمنة . لم تكن بيضاء كقرص الجبنة ، ولا حمراء الخدين ، تلك الحمرة التي يصفها زعيّل بانها برّاقة . زعيّل كاذب حتى في تحديد لونها . كانت ، كما كانت تصفها أمي ، وكما أتذكرها أخضرانية . وهذا اللون يعني سمرة خفيفة مع بياض يبدو وكأنه يجاهد من عمق الجسد ان [illegible] نفسه ، فلا ينجح تماماً كانت تضيء ، دون ان تكون برّاقة .

كيف أصفها ؟ عليك أن تراها . ولكن ذلك لن يضيف شيئاً . لم تكن لتفاجأك ، مثل سلطانة التي ، منذ الوهلة الأولى ، تلسعك في الصميم ، بل كانت آمنة تنفتح أمامك ببطء . الوهلة الأولى : قامة طويلة ، عنق طويل دون افراط ، ووجه يوحي بالارهاق . وجه يبدو وكأن صاحبته انتهت من البكاء لتوها . عينان مسبلتا الجفنين ، وأنف حسّاس ، وشفتان منفصلتان عن سياق ذلك الارهاق . تحس بها امرأة جميلة ، ولكن الارهاق ، أو سوء التغذية ، أو عدم العناية جعل جمالها يذوي . تشعر ان عليها أن تعتني بنفسها أكثر من ذلك ، وفي داخلك ببدأ في اقتراح بعض التعديلات . تنفتح العينان ـ تبغتك سعتهما غير المتوقعة ـ تنظران اليك بحزن وحياء . على نحو ما تشعر أن العينين ينظران الى الداخل ، داخلها ، رغم انها تصغي بأدب وتركيز . أنت لا تعلم ـ ولكن ذلك حدث بالفعل ـ انك وقعت في مصيدة . تعاد صياغتها انطلاقاً من العينين ، منهما أيضاً تشعر بطاقة هائلة مختزنة ، وتحت السيطرة . هنا يبدو الأنف كمعجزة ، واليدان المستطيلتان ، بأصابع طويلة ، محمرّة قليلاً ، تحب ان تمسكها . ليست أصابع رقيقة ، ولكن النحت الدقيق لليد والأصابع يظلان في الذاكرة ، تعتقد ، فيما بعد ، انه رفائيل رسمها في لوحة العذراء ، امسك بالطابع الارستقراطي لليد ، ولكنه عجز عن الامساك بتلك الطاقة العارمة ، الموضوعة تحت السيطرة ،

وخاصة في اليدين . عليك ان ترى هاتين اليدين وهي تتكلم ، أو تأكل ، أو تعتني ببيتها .

كنت أدعوها أمي لأنها أرضعتني فترة ، لا أعرف طولها ، عندما مرضت أمي بالحمى . ولكن هذا سيأتي أوان الحديث عنه . اتحدث الآن عن اليدين . اتذكر . كنت نائماً في بيتها . شعرت بيد تلمس وجهي . تمر عليه برفق . بدا ذلك جزءاً من حلم له علاقة بالبحر ، ببستان غريب كله ورود ينساب على شكل مسطحات مستطيلة ، تتوالى هبوطاً نحو البحر . لم يكن البحر اليومي ولا الورود التي يمكن ان نراها كل يوم . . . كان ذلك كله خاصاً جداً ، وحميماً جداً . . . الأغرب من ذلك أنه يبدو ، في الوقت ذاته ، كذكرى قديمة جداً ، كواقع بالفعل حدث في الماضي ، وأعود اليه . من حلم كهذا تنشأ صورة الجنة . وأنا ، الآن ، افسّره بأنه استعادة لذكرى مخزونة في جزء ما من الجهاز العصبي ، مختزنة منذ عشرات الملايين من السنين ، عندما كنا نعيش كأسماك من نوع ما في البحر . لأن الماء بدا أليفاً بشكل مذهل ، أليفاً كأنه مسكن دائم . وأعلم ، الآن ، ان الحلم بدأ منذ ان لمست أصابعها وجهي . فرح خفي وعميق أنتقل الي من خلال اليد ، على شكل صور .

أي كنز من الحنان والمودة تمتلكه آمنة ، وتنقله من خلال الأصابع !

وعندما فتحت عيني أدركت لماذا يصفها زعيّل بانها بيضاء وذات خدين أحمرين برّاقين . كانت تضيء . وجهها كان قريباً مضيئاً . وأدركت ـ ادرك الآن ـ معنى ذلك البستان الغريب . كانَ عطرها يشيع في الجو ، يحيطني ، ويسكرني .

هل كانت تتعطر ؟

لست أدري . ولكن شاعراً معروفاً ينتمي الى احدى القبائل الشرسة ، التي تقيم مضاربها في الشرق البعيد رآها مقبلة تواجهـا للحظات ، واختفت . كان له حسّ مميز بعناصر الجمال في المرأة . وقال شعراً :

عيون عثلوق نطحني مع السوق   يجر ثياب الغي مدموج الالعاس

يفوح من صدره كما ريح صندوق   ريحة عنبر من ديرة بني ياس[٢]

وددت ان يستمر ذلك بلا نهاية : الوجه المضيء ، ملمس اليد والعطر . قالت :

ــ قوم وليدي . اصحى !

قلت :

ــ قايم .

وأنا أجاهد للاحتفاظ بفرح الرؤيا . بجوار باب الدار تنظر الي سمحة ، بشعرها الهائج المجعد ، وأنفها المكرمش بتكشيرة ، وعينيها الحادتين . كانت تقف سمحة ، ابنتها ، التي لم تكن تشبه امها . كانت كتلة من الشراسة والغضب . بجوار الفراش كانت دجاجة مشوية ، وموضوعة في صينية . ومن لم يأكل الدجاج البلدي ، محوّجاً بالسماق ، والسمن البلدي المخلوط بالدقيق ، والبهارات ، من لم يأكله مشوياً في الطابون ، معدّاً بيد آمنة ، فلن يفهم أبداً الطعم الحقيقي للطعام .

قالت :

ــ قوم حبيبي اغسل ايديك قبل ما يبرد الأكل .

نهضت وقلت :

ــ سمحة . صبي علي .

ردت بصوتها الخشن ، المشاكس ، المبحوح قليلاً :

ــ صب ع حالك .

التفتت الى (أمي) آمنة لاشهدها على قلة أدب هذه البنت ، وكأنها تحتاج الى

---

(٢) معنى البيتين : عينا ناقة صغيرة التقيت بها في السوق ، تحمل الغواية والاعتداد الانثوي كأنها ثوب ، وذراعاها مستديمتان مدملجتان . يفوح من صدرها عطر وكأن صندوق عطاره قد انفتح امامك ، والعنبر فيه من ديرة بني باس .

أدلة جديدة . لولا وجود الأم لتعاركنا ، وأعلم انها مهزومة حتماً ، فنقطة ضعفها هي شعرها .

ابتسمت آمنة ـ وقد أغاظني ذلك قليلاً ، وأثار غيرتي . كنت أود ان تكرهها كما أكرهها ـ قالت :

ــ صبي على اخوك حبّيّه .

قالت البنت :

ــ لويش ما يصب على حاله ؟

قلت بهدوء وأنا أعلم انني في كل لحظة اسجّل انتصاراً جديداً عليها ، انني لو صببت الماء على يدي ، فسوف يتلوّث الكوز بالصابون ، فكيف سأضعه في الزّير مرة أخرى ؟

قالت آمنة :

ــ علامك عنيدة ؟ صبي على اخوك حنونتي .

وكانت تخفي ضحكها لهذه المشاجرة المتكررة . ولكن البنت لانت . قالت بصوت شاك مهزوم :

ــ من يوم راح لعمان وقام يرطن بالانجليزي صار يتأمر .

اعلم ان هذا سبب غيظها . كنت اقضي الاجازة الربيعية في القرية . ومنذ يومين جلست مع آمنة ، وحكيت لها كل شيء عن المدرسة الداخلية الانجليزية ، وذكرت لها كل كلمة انجليزية أعرفها . وكانت سمحة جالسة تصغي ، وقد التوى فمها ، وارتفع انفها بطريقة مضحكة . وكنت أعلم ان الحسد ينهش قلبها . وقد زاد العلاقات سوءاً بيننا حين أبلغتها بوضوح انني لن ألعب معها بعد الآن . لن نخرج الى البراري بعصينا المسنونة الرؤوس لنستخرج الكعوب من الأرض ، أو نلقّط العدّيس ، والمرّار ، وخرفيش الغزال ، وخرفيش الجمال ، وغير ذلك من الأعشاب البرية ، ولن ألعب معها الطمية .

قلت لها :

ــ أنا متعلم .

كانت ودودة في البداية . قالت :

ـ وأنا أروح المدرسة .

قلت :

ـ أنا أكبر منك .

كنت أكبر منها بستة شهور . بعد عبارتي الأخيرة كانت الحرب .

كانت تصب الماء على يدي بشكل استفزازي . احياناً تصبه بعيداً عن يدي ، وأحياناً تصبه على الساعدين . فأطلت مدة الاغتسال حتى تفقد أعصابها . كنت أريد أن اسجّل نقاطاً جديدة ضدها . ولكنها كانت تعلم ذلك ، فمضت تصب الماء بالطريقة التي ذكرت .

قبل ان أتناول الطعام قلت :

ـ سمحة تعالي كلي .

ـ ما أريد .

قالت :

ـ اكلنا . كل أنت .

ثم قالت لسمحة :

ـ هيك الواحدة ترد . (وقلدت طريقتها) ما أريد ؟

وهذا ما كنت أسعى اليه بالضبط . أخذت قطعة من الدجاج ، وقرّبتها من فم آمنة وقلت :

ـ كلي يمه آمنة .

وألححت . فأكلت .

بعد الافطار أخرجت آمنة من صندوقها الكبير تمراً ، وأعطتني وأعطت سمحة . قالت انه من تمر الحجاز . كانت حباته طويلة ، بطول الأصبع تقريباً ، وكان صلباً ، ولذيذ الطعم جداً . ومرّ الوقت سريعاً ، ثم جاءت أمي . لقد أصبحنا نعيش في بيتين منفصلين . نحن في الحارة الشرقية ، وآمنة في احد حجرات بيت القديم ، في الحارة القبلية . قالت أمي :

ـ شبعت من امك آمنة . يا الله نروّح .

ولكن آمنة أصرّت ان نبقى للغداء . فبقينا . قبلت أمي سمحة فجلست بجوارها ، فأحاطت أمي كتفيها بذراعيها . قالت :

ـ وشلونك يا الحبيبة ؟

قالت سمحة :

ـ زينة .

كانت أمي تسميها أمّونة ، على اسم جدتها ـ أم آمنة ـ لأنها لها شراسة الجدة . قالت سمحة لأمي :

ـ جريس ما يريد يلعب معايي .

قالت أمي :

ـ ما تلعب مع اختك .

قلت بعصبية :

ـ بعدين بوسّخ هدومي .

كنت معتزاً ببذلتي الجديدة .

قالت أمي :

ـ غيّر هدومك .

وبنفس العصبية أجبت :

ـ ما بدي أغيّر هدومي .

اخذت أمي تداعب شعر سمحة . قالت سمحة :

ـ من يوم راح عمان صار متكبر .

قبلتها أمي وقالت لآمنة :

ـ لويش ربنا خلقنا نصارى ومسلمين ؟ يا ما كان نفسي جريس يتجوز امونة .

لا أدري أي تعبير ارتسم على وجهي ، أهو الاشمئزاز ام الغضب ، ام مجرد استنكار ؛ ولكن آمنة نظرت الي واطلقت ضحكة صافية ، تلقائية ، كأنها صدح

بلبل ؛ ثم توجهت الى أمي وقالت :
ــ كلنا أولاد آدم وحوا . لما يكبروا ينسوا مسيحي ومسلم .

اذكر انني التقيت سمحة بعد ذلك بسنوات عديدة في عمان . كانت قد أصبحت سيدة جميلة ، ورقيقة ، وقد تزوجت رجلاً كان ضابطاً في الجيش ، ثم سرُح منه لأسباب سياسية ، وأصبح من طبقة المليونيرات الجديدة . كنت أغسل يدي ، فوقفت بجواري وسألتني عن السبب الذي جعلني اعبّر عن كل ذلك الاشمئزاز عندما تمنت أمي ان أتزوجها . قلت :
ــ اتجوز اختي ؟ ما أنت اختي في الرضاعة .
ضحكت ، وقالت :
ــ يا كذاب ، وسبعة المسبوعة ؟

وهو اسم كنت أطلقه عليها . ودلالته ، انه في قريتنا ، عندما يكيلون القمح بالصاع لا يذكرون الأرقام ، بل تبركاً ، يغيّرونها ، فبدلا من واحد يقولون : « الله واحد » وبدلاً من اثنين يقولون « النبي زين »، وبدلاً من سبعة ، يقولون « سمحة »، لأن سبعة هي شتيمة تعني انك تتمنى للانسان ان يكون مسبوعاً ، والمسبوع هو من أرعبه الأسد حتى فقد صوابه .

وعندما عدنا الى حجرة الجلوس ، وكان زوجها يدخّن سيجار هافانا ، قالت ان شيئاً واحداً تذكره حتى الآن بغيظ . ان أمي تأملت وجهها وقالت لآمنة :

ــ البنت صارت تشبهك .

فصرختُ فجأة ؛ ولدهشة الحاضرين ، بصوت حانق غاضب :
ــ لا .

قلت :
ــ امك لن تُتكرر .
تنهدت وقالت :

ــ صحيح .

سألتها عن أحوال امها ، فقالت : « زينة ». سألتها إن كانت تشكو من أية أمراض ، الروماتيزم مثلاً . قالت انها لا تشكو من شيء . قلت :

ــ عمرها صار . . .

قالت :

ــ ستين . ما يبينّ عليها . ما تقول اكثر من خمسة وأربعين .

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء ، وكان هذا يعتبر وقتاً متأخراً بالنسبة لعمان . نهضت ، فقالت :

ــ أقعد شوية . ماني نعسانة .

قلت :

ــ أبو معن عيونه حمرا .

تثاءب أبو معن ليؤكد أن موعد نومه اقترب . تثاءب ووضع كفه على فمه وقال : « يا رب » قالت له :

ــ خش نام .

قال لي :

ــ خليك أنت . تصبحوا على خير .

ودخل لينام ، ثم عاد وقال لي :

ــ اذا تأخرت نام هون . اختك راح تحضر لك أوضة .

وكانت سهرة طويلة ، ولكنها كانت واحة في حياة عمان الراكدة .

ــ ٤ ــ

لا أستطيع فرز الحقائق من الأساطير . لقد تمت الأحداث كلها قبل ولادتي . لقد ولدت ولي امان ، واحدة ادعوها « يمه » فقط ، والأخرى أناديها « يمه آمنة ». كنت اعتقد ان من الطبيعي ان يكون للانسان أُمان (عندما حكيت ذلك ، بعد زمن طويل ، لأحد الأصدقاء ، قال : قد يكون للانسان اكثر من أب ، اما الأم فواحدة). والأم لا تكونُ امرأة حقيقية بالنسبة للابن . كانت آمنة أماً ، بالنسبة لي ، تقف دائماً بجانبي ، خاصة في شجاري المتكرر مع سمحة . (في تلك الليلة

قالت لي سمحة ان ذلك غير صحيح . لم تشعر قط ان امها كانت متحيزة لأي منا).

عندما كبرت أخذت اسطورة آمنة تتسرب إليّ عبر مئات التفاصيل ، فأخذت تنفصل عن دور الأم شيئاً فشيئاً ، وتلبس دور المرأة . عندها أخذت أراها بعين جديدة : امرأة معشوقة ، ذلك العشق الذي هو نوع من التعبد ، تتميز به مرحلة المراهقة : واحدة موضوع للرغبة الجسدية الخالصة ، وأخرى للعشق الخالص ، الذي يرتفع بالمرأة الى مرحلة التقديس ، حيث ان مجرد فكرة الجنس تكون تجديفاً بحق المعبود ـ الشكل النموذجي لانقسام الذات الشرقية .

أتذكر : أتذكر ذلك الجلال . والدها ـ والد آمنة ـ ممدد في صدر الدار ، لصق الحائط ، وجهه شمعي ، اسمر تخالطه صفرة قاتمة ، وجهه ثابت كالقناع . العينان مغمضتان ، تجويفان كبيران تحيطهما هالة سوداء واللحية البيضاء الكبيرة المستديرة مبللة باللعاب . من الفم يصدر صوت كأن المحتضر يتغرغر ؛ يتغرغر دون توقف طيلة أربعة أيام . أمونة ، تجلس عابسة ، عصبية ، مشمئزة . كانت غاضبة بسبب وضع لا سيطرة لها عليه . لا تحب هذه الزحمة ، والحركة القلقة ، والبقاء الطويل في بيتها لفترة لا تستطيع تحديدها . عيناها صغيرتان ، حادتان ، تنظران باستنكار . كانت تبحث عن منفذ لغضبها .

كان اخو المحتضر الأصغر هو رجل البيت الآن . قال احد الحاضرين :
ـ غيّروا فراشه .

يعني المحتضر . ووراء ذلك الاعتقاد ـ لا أعلم إن كان صحيحاً أم لا ـ ان تغيير الفراش سوف يزيل جزءاً من حرارة جسد المحتضر ، وبهذا سوف يموت بسرعة أكبر .

قالت أمونة ، وكأنها لا تخاطب أحداً بل تكلم نفسها ، أو تخاطب المحتضر لأنها كانت تنظر اليه :
ـ أدفنوه بالمرة .

وكأن ذلك لم يكفها ، أضافت مخاطبة المحتضر :

ــ لو كان الود ودهم رموك على المزبلة .

تنحنح الرجل الذي اقترح تغيير الفراش ، وأخذ ينظر حوله كأنه يستنجد . لما التقت عيناه بعيني الأخ الأصغر ، قال ـ للأخ ـ وكأنه يطلب ابداء الرأي :

ــ لا حول ولا قوة إلّا بالله .

رفع الأخ صوته :

ــ بلاش الكلام اللي يقرص .

كان واضحاً أنه يوبخ أمونة .

قالت ببراءة مصطنعة :

ــ وأنا إش قلت .

غضب الأخ الأصغر وقال :

ــ المرة اللي ما تحترم نفسها إلها دوا عندي .

وامسك عصاه وحاول ان ينهض . ارتفعت الأصوات :

ــ القى خير ، القى خير .

قال الأخ الأصغر :

ــ ما ظل فيه حيا .

ومرة أخرى ارتفعت الأصوات مهدِّئة :

ــ صلوا ع النبي .

وارتفعت عدة أصوات :

ــ عليه الصلاة والسلام .

وكرر آخر :

ــ زيدوه صلاة .

وارتفعت تمتمات :

ــ عليه الصلاة والسلام .

قال الابن الأكبر للمحتضر :

ــ هذا موه وكتة يا عم .

قال الأخ الأصغر :

ــ قول لامك . الناس كلّت وفاض بيها . ثلاث تيام معطلة حالها ، وتاركة شغلها وقاعدة . وأخرتها تسمع هيك كلام .

قال الابن :

ــ صحيح .

قالت أمونة ، وكأنه عزّ عليها أن ينتهي كل شيء :

ــ اللي ما إله كلمة صار إله كلمة .

ونهض الأخ الأصغر نصف نهضة ، ممسكاً بعصاه ، وكان الشر في وجهه . نشأ وضع سوف تكون عواقبه وخيمة . فالابن لن يصمت ، رغم كل شيء ، حين يرى أمه تُضرب . قالت آمنة :

ــ يمه !

والتفتت الى عمها وقالت :

ــ هداك الله يا عمي .

كانت تدخّن . كانت تفعل ذلك أحياناً ، ولكنها هاوية . كانت تجذب الدخان من غليونها ، بقصبته الطويلة ، ثم تنفخه في الهواء مباشرة . قالت : « هداك الله يا عمي » وعادت الى غليونها .

هدأ الجميع . لاحظت ، حتى وأنا في تلك السن الصغيرة ، ان الشجار الذي دار كان ، في وجه من وجوهه ، مجموعة أسئلة موجهة اليها . وكأن خلف كل عبارة قيلت سؤال مطروح ضمناً : أيعجبك هذا ! يطالبها ان تستنكر . أيعجبك هذا ؟ وكأنه يقول : هل استمر ؟ وسؤال ، أو رجاء : والآن ؟ وكأنها قالت ، أمرت :

ــ توقفوا .

فأطاع الجميع .

وعادت تدخن .

قلت : أتذكر ذلك الجلال.. بدت في داخل هالة منه . مجال عازل كان

يحيطها فتبدو خارج سياق الجو المحيط . العيون عليها ـ مباشرة ، أو جانبية ، او مراوغة ، أو متلصصة ـ ولكن لا أحد يقترب . حتى انا وسمحة لم نطالبها بشيء . كنا فقط نقترب بحذر ، ونذكر طلباتنا همساً . كانت دائماً تستجيب لنا . وكنا بعد ذلك نبتعد .

كانت أمي مشغولة في الداخل ، ومتوترة ، ولم أجرؤ أنا ولا سمحة ان نقترب منها . لم تكن تجلس كثيراً في حجرة المحتضر . فهو على أية حال لم يكن والدها . كانت تجلس قرب آمنة . تتبادلان كلمات سريعة ، وتصمتان . شعرت ، دون دليل واضح ، ان الاثنتين لا تحبان أمونة كثيراً . كان مجرد شعور ، ليس لـه ما يبرره .

قلت : اتذكر ذلك الجلال . وكنت أعني أيضاً الحزن . كانت حزينة ، ولكنه حزن لها ، وليس للآخرين . كانت تبدو مشغولة بغليونها ، الذي لم تكن قادرة على الاحتفاظ به مشتعلاً . ولكنني كنت أشعر ان ذلك كله مجرد حركة خارجية لاخفاء حزنها . كانت صامتة ، هادئة ، وبعيدة . ولكنها كانت تشارك في الحديث عندما يبتعد عن جو المأتم . تكون مسبلة جفنيها ، عابسة قليلاً ، ثم ، أذكر ، ان واحداً قال ان مدنياً (يعني من أهالي عمان) قال ان الاكثار من السمن البلدي يقصّر العمر ، وردّد :

ــ يقول يقصّر العمر .

قالت :

ــ التكثير من كل شيء يقصّر العمر .

نظرة خاطفة الى المتحدث ، ثم تسبل جفنيها ، وتعود الى غليونها . أذكر الجفنين المحمرين قليلاً ، والوجه يحمل تلك الحمرة الخفيفة الشفافة ، تشبه آثار بكاء سابق ، على وجه مغسول وحسّاس . كانت ما تزال (أمي آمنة)، ولم تتسلل الى اسطورتها بعد ؛ ولكنني ، في تلك اللحظات ، فتنت بالوجه . عشقته . اعدت اكتشافه . اسأل نفسي الآن :

لم تكن تنظر إليّ ، ولكن بمجرد أن امتلأ قلبي بالعشق ـ ماذا أسميه

ذاً ، إن لم يكن عشقاً ؟ ـ وعندما تولّد في داخلي احساس جديد وغريب ، ما لذي دعاها لأن تنظر الي نظرتها الخاطفة ، تلك النظرة التي تلقيها عليك امرأة نشغلة حتى الاستغراق بحديث مع أخرى . . . أقول ، ما الذي دعاها لأن ناديني لأجلس بجوارها ، فتداعب شعري ، وتنظر في وجهي تلك النظرة التي بحث في وجه الطفل عن شيء مثير للقلق ، ثم تقبلني ، وتقول :

ـ ما لك شغل هنا ، اطلع بره حبيب والعب مع سمحه .

وتقبلني على خدي مرة أخرى ، وتقول محدثة نفسها :

ـ العيال تعبت .

وددت ان أقول انني أفضل البقاء بجوارها على اللعب مع سمحة . ولكن هل كنت استطيع أن أرفض لها أمراً ؟

في الخارج كانت سمحة تقف وحيدة في الحوش ، تنظر الى الكلب الذي كان برفع فمه نحوها . عندما رأتني قالت :

ـ أمي ما تريدنا نظل جوه .

وقرّبت سبابتها من فم الكلب ، الذي كان ينظر اليها بعينين كليبتين مؤدبتين ، وكأنه يتساءل بتحرج : ما هو مطلوب أن يفعل ؟ وما الهدف من اقتراب سبابتها من أنفه . قلت :

ـ ليش ؟

قالت :

ـ قالت بعدين نمرض . .

ـ نمرض ؟ وليش هيه قاعدة جوه ؟ ما بتخاف تمرض .

قالت :

ـ هيه كبيرة .

لم أحب النبرة التعليمية التي قالت بها ذلك . قلت بعناد :

ـ الكبير يمرض كمان .

ـ لا .

قلت :

ـ جدك كبير ومريض .

قالت :

ـ ما هو مريض . ينازع .

هذه هي سمحة المفروض ان استمتع بصحبتها .

في تلك السهرة الطويلة مع سمحة ، قالت عندما حكيت لها هذا كله بأدق تفاصيله ، قالت :

ـ هسّا فهمتك .

ـ ايش فهمت فيّي ؟

قالت ، وهي تضحك :

ـ انت مصاب بعقدة أوديب .

قلت بجدية :

ـ من غير مزح . اعتقد انه هذا صحيح .

بعد صمت قصير اضفت :

ـ بمعنى من المعاني .

ورداً على الدهشة التي بدت على وجهها قلت :

ـ هناك رباط دموي بيربطني بهذا الماضي . المجتمع الجديد ما بحبه . بحس بالغربة فيه . بيع وشرا ومصاري .

تنهدت ، ثم قالت ضاحكة :

ـ لازم لك فنجان قهوة يصحيك .

ـ فكرة .

ونهضت لتعد القهوة . لن تخدعني ضحكتك يا سبعة المسبوعة . ضحكتِ بلا مرح ، ومضيتِ الى المطبخ حتى تمنعي نفسك من البكاء . وعندما عادت تحمل صينية القهوة ، مبتسمة ، رأيت الدموع في عينيها .

ـ كنتِ بتبكي يا سبعة المسبوعة ؟

ـ اسكت .

قلت :

ـ أنا بس اللي عندي عقدة اوديب ؟
وضحكت ضحكتها الطلقة .
قلت :
ـ هيك احسن .

ـ ٥ ـ

أتذكر اكتشافي للجسد . كانت مراهقتي مبكـرة ، اعني تلك اليقظة الشبقـة نحو المرأة . كنت في السابعة ، على الأغلب ، وقد ذهبنا الى عمان . أمي وأمي آمنة ، وأخي الأكبر ، وسمحة ، وأنا ، وآخرون لا أذكرهم . كنـا ننزل في بيت أقاربنا . قالوا : الليلة سنذهب الى السينما . كانت سينما البتراء ، الأغلب ، هي السينما الوحيدة في عمان . أو ، على الأقل ، عندما يقال أنا ذاهب الى السينما ، فالمفهوم انك ذاهب الى سينما البتراء .

وددت ألّا نذهب . كنت خائفاً . كان للسينما اسم سيء في بلدنا ، فهنالك حجرة واسعة جداً يجلس فيها الـرجال والنسـاء . احيانـاً تطفـأ الأنوار فتـرتكب الموبقات في الظلام . وتصورت ان بعض العنف سوف يرافق ذلـك . اعتقد ان أهل قريتي كانوا يخلطون بين ما يحدث على الشاشة ، وما هو مفترض ان يحدث ، تبعاً لذلك ، في مقاعد المتفرجين .

كانت أمي ، عندما ذهبت للدراسة في عمان ، تسألني إن كنت قد ذهبت الى السينما ، وكنت أنكر . رغم ان المسؤول البريطاني عن القسم الداخلي كان يأخذنا كل أسبوع الى السينما ، عدا الأفلام القصيرة التي كانت تعرض في قاعة المدرسة ، والأفلام التي كنا نشاهدها في أيام العطلة الأسبوعية ، وكذلك الأيام التي كان يتاح لنا الخروج من القسم الداخلي بحجة أو بأخرى .

ولكن ذلك كان فيما بعد .

ذهبت تلك الليلة . كان الداعون قد حجزوا لنا لـوجاً فجلسنـا فيه . كـان

المكان مضاء . غالبيـة الحاضرين كانوا من الرجال . نساء قلائل ، مدنيات ، كن يجلسن في الألـواج . أسأنا الظن بهن على الفـور . من الـواضح انهن مـع عائلاتهن ، ولكنهن مدنيات ، وهذا فيه ما فيه من مبررات سوء الظن .

أطفات الأنوار ، فقالت أمي :

ــ هذا اللي كنت حاسبه حسابه .

ودهشت انها كانت تمزح . حاولت ان اطمأنها ، قلت :

ــ رايح يرجعوا الضو .

ولكن الظلام استمر للحظة ، ثم بدأ الضوء يتركز على الشاشة . سألت إن كان هؤلاء أناساً حقيقيين : الذين يظهرون على الشاشة . سمعت من الـداعي إجابـة ملتبسـة . أدهشتني الأحجـام الهـائلة للرجـال والنسـاء في ذلـك المشهـد الغريب ، المتغير بسرعة ، وتلك اللهجة ـ كانت اللهجة المصرية ـ التي يتحدثون بها ، بسرعة غير عادية .

ثم استغرقني المشهد .

في البـداية ، كـان كل شيء غـريباً جـداً ، الحـدائق والأشجـار والـورود ، والنهر ، والشاب والفتاة يجلسان متجاورين . . . ثم انسى الغرابة واندمج ؛ يبدو حجم الناس طبيعياً . والمرأة التي لم أحبها في البداية أخذت تزداد جمالاً . توقفت عن التكلم بسرعة ، والضحك الكثير ، وأصبحت حزينة . الـرجل ظـل يتكلم بسرعة ، يضحك كثيراً ، ويغضب كثيراً . ثم ذلك المشهد الذي ظـل عالقـاً في ذهني فترة طويلة : المرأة طويلة جداً ، تلبس الثياب السوداء ، وتضع على رأسها منديلاً ، حاملة بقجة بين يديها . . . ثم حدث ذلـك الشيء الغريب . اختفت المرأة ، وعاد وجهها كبيراً بشكل خرافي . كـانت تبكي ، دون صوت . دمـوعها تنساب فقط ، على جانبي انفها . لم تحاول ان تجفّف عينيها ، بل كانت ، بمنديل صغير أبيض تجفف أنفها ، وشفتها العليا .

لم تكن تلك الوقفة ، ولا ذلك الوجه الكبير ، ولا البكاء الصامت هو فكرتي عن المرأة ؛ ولكن ذلك كله لمسني بعمق .

لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك . ولكن ما حدث لتلك المرأة احـزنني كثيراً . ضيئت الأنوار . في تلك اللحظة ـ أذكر ذلك تماماً ـ اكتشفت ان النسـاء اللواتي حولي كائنات مختلفة . غامضة ومثيـرة . شعرت ان ذلـك يوحـدهن حول سر لا عـرفه . أثـار ذلك غيـرتي ، واكتشفت فجأة عنـدما وقفنـا انني صغير الحجم ، منفصل عن الجميع . أحببت ان أعيد ذلك الاتحاد معهن ، وأخذت أحـدّق في جه آمنة . أحببت ذلك الوجه الى درجة البكاء . قد يقتـرب مني ولكننا سـوف ظل منفصلين .

لاحظت نظرتي ، فقالت :

ـ انبسطت حبّيب ؟

قلت :

ـ كانت سمحة نايمة .

ضحكت وقالت :

ـ خلّي سمحة عَ جال ، انت ، انبسطت ؟

كيف بامكان الانسان ان يجيب على سؤال كهذا ؟ كنت أرغب ان تتخلى عن سمحة ، التي كانت تحملها ، والتي كانت نائمة ، وتهتم بي أنا .

قلت :

ـ ليش كانت المرة بتصيّح ؟

قالت :

ـ زعّلها جـوزها .

ـ ليش زعّلها ؟

ضحكت أمي وأمي آمنة ، ومضيفنا وزوجته . كنا قد جلسنا في السيـارة ، وعندما ضحكوا ارتبكت . قالت أمي :

ـ لازم يكون فيه سبب ؟

قال أخي الأكبر :

ـ دوشتنا يا اخي . اسكت لك شوية .

قالت أمي :

ـ في أيش مضايقك ؟
قالت آمنة :
ـ كلامه حلو .
وأخذت أبكي . كان البكاء يضغط علي منذ ان انتهى الفلم . كنت أود ان يحيطني الجميع بحب متصل ، وكأنني كنت أعلم ان ذلك أصبح مستحيلاً ، فأخذت أبكي عالماً انتهى .
قالت أمي لأخي :
ـ يلعن شيطانك . خليته يصيّح .
كان أخي مندهشاً قال :
ـ لكن انا ايش قلت ؟
قالت أمي :
ـ اسكت ، خلص يا حبيبي . اخوك كان بضحك معاك .
كانت آمنة تمسح دموعي بكفها . وكان ذلك الملمس يثير في داخلي ارتعاشات متعة جديدة . وددت ألاّ يتوقف ذلك أبداً . في تلك اللحظة فتحت سمحة عينيها ، وأخذت تنظر الي وانا أبكي . مدت يدها ووضعتها على عنقي من الخلف ، واقتربت بوجهها وقبّلت خدي المبلل ، وقالت :
ـ لا تبكي حبيب .
ورغم علمي انها كانت تقلّد أمها ، افرحني ما فعلته وقالته . في وجهي أمي ، وآمنة قرأت نفس التعبير : الابتسامة مع احتقان العينين بشيء يشبه البكاء . قال أمي :
ـ رد على اختك . ما تكسر في خاطرها .
وتوقفت عن البكاء .
كان نفس هذا التعبير في وجه سمحة ، وأنا أحكي لها هذه الحكاية ـ البسمة واحتقان العينين ببكاء محتبس ، وعندما قلت لها :
ـ حبيتك جداً ساعتها .
أبعدت عينيها وأخذت تنظر الى أصابعها ، ثم الى أظافرها . كنت أعلم انه

و التقت عيوننا لبكت .

صمتنا ، قالت ، ويبـدو انها خافت ان يـولّد الصمت انفجـارات تمضي بنا خارج حدود اللياقة :

ــ ايش كنا بنقول ؟

قلت :

ــ ساعتها ما كنت فاهم مشاعري . الآن بعرف اني كبرت في هذيك الليلة ، إني انفتحت على عالم المرأة ، وانني صرت عاشق من عشاق آمنة .

قالت :

ـ أوديبي . ما قلت لك !

قلت :

ــ أوديب خارم مخك .

ضحكت . كانت ضحكة آمنة الصادحة ، وقالت :

ــ هاي مصرية !

ثم أضافت :

ــ فرويد هوايتي ، شغلي الشاغل .

ــ ونازلة فيي تحليل طبعاً .

ــ طبعاً .

وضحكت :

ــ ناكل ؟ جاي على بالي آكل لقمة .

واتذكر الصنـدوق الخشبي الكبير (حـين مد الصبي رأسـه داخل الصنـدوق غلقت زوجة الأب غطاء الصندوق على عنق الصبي حتى مات . طبخته وقدمته للأب الغافل ، فأخذ يأكل ويرمي العظام . وأخذت الأخت الحبيبة تجمع عظام الصبي ، عظمة عظمة ، وصرّتها ، ثم دفنتها . تحولت الى شجرة وارفة الظلال ، ملأت الحوش كله ، وتحولت روح الصبي الى عصفور مغرد ، يحكي دون توقف ما حدث له . حكى ، حكى ، حكى حتى تنبه الأب الغافل من شروده واكتشف الحقيقة . أقام محرقة هائلة وأحرق الزوجة . فقامت الأخت الحبيبة ، واستخرجت

العظام ، وفتحت الصرة ، واليها هبط العصفور ، وانطلق منها الصبي يضحك ويعانق اخته الحبيبة ، وأباه . . .) .

كان صندوق أمي آمنة عالماً من الأسرار والمفاجآت السارة . ينفتح فيبوح ببعض أسراره :

ــ خذ حبّيب .

حبات جوز ، وزبيب . وتمر حجازي . حلاوة بيروتية يلوكها الفم كأنها لبان . قطع كبيرة من الكعكبان (اكتب: كلبكفككعكبان . . كل بكفك كعكبان) قطع مسطحة من الحلوى ، تتخللها خطوط حمراء وبيضاء ، خلطة من فستق العبيد المملح (لو كنت حصان ، في بيت سلطان ، لآكل فستق ، لآكل بندق ، لو كنت حصان ، لو كنت حصان) مع ملبس على لوز ، ملبس على قضامة ، حامض حلو ، تين مجفف ، قضامة صفراء ، قضامة مملحة :

ــ كل حبيب .

راحة محشوة بالفستق الحلبي ، ملح ليمون يذاب في الماء ويضاف اليه السكر ، بزر أبيض ، بزر قرع ، بزر بطيخ :

ــ اقعد وكل . لا تطلع بيه بره ، ياخذوه العيال منك .

تنتابني موجة كرم منافق :

ــ بدي اخبي حصة سمحة .

ــ خليت إلها حصتها ، كل انت .

وللصندوق ، عندما ينفتح عطر صدر آمنة . يتوحّدان ، الصندوق وآمنة . كل منهما منجم أسرار وعطور وحنان ومفاجآت سارة . كل شيء كان له مذاق مميّز . من يخطر بباله الآن أن يأكل كعكبان أو حامض حلو . تم تدمير قدرتنا على التذوق .

اتذكر الصندوق : كبيراً ، صامتاً ، لم يكن صامتاً تماماً . كان يهمس بما فيه . يهمس وعوداً بالفرح ، يتلاشى الضجر الذي كنت أعيش فيه دوماً ، كلما ابتعدت عن آمنة : الأم المعشوقة . عندما تدهمني تعاسات الحياة اشتاق الى صدر آمنة ، الى نفح صندوق العطارة اختبيء فيه . (ليّا وليّا يا صارة = يا علبة العطارة .

لعطر جسدها مذاق وطعم .

كان صندوقاً هائلاً ـ هكذا أتذكره ـ ذا لـون بني غامق ، غـامق يكاد يكـون أسود ، وله بريق كابٍ ، تماماً مثل التين المجفف ولمعة زيت الزيتـون تشع بلونها البني الكابي ، كان ينغلق بأقفال عديدة ، وسيور جلدية عريضة معقدة ، وكان سطحه مزخرفاً بصفائح من الفضة السمراء المنقوشة . كان يقبع على دكة من الطين ، تخفيه عن العيون ستارة تنسدل من سطح خابية القمح التي يقبع الصندوق تحتها . على الجانبين له حلقتـان نحاسيتان ، مزخرفتـان ، ويحيط بالمستطيل الذي يكوّن التقاء الغطاء مع الصندوق صفيحاًلامعاً .

تعود سمحة بالطعام على صينية ، فأحس بالجوع على الفور . تضعه أمامي فأقبل عليه قبل ان تجلس . أقول :

ــ كنت جيعان ، وماكنت أعرف .

لم تقل « يا ريته صحة وهنا » مثلما كانت تقول آمنة عندما اقبل بنهم على الطعام .

احكي لها عن الصندوق . كانت تأكل لقيمات قليلة ، وتصغي بعينين برّاقتين . أقول ابنة آمنة فقط ، هي التي تتذكر في الثالثة صباحاً ان تأتي بطعام لذيذ . اسألها :

متى جهّزته ؟ تقول :

ــ مع العشا .

ــ ليش ؟

ــ إلك .

ــ كنتِ تعرفي اني رايح أنام هون ؟

ــ طبعاً .

عندما انتهيت من الحديث عن الصندوق ، تنهدت وقالت مبتسمة (بخبث ، فأنا أعرف سبعة المسبوعة) .

ــ في شيء غريب في كلامك لما تتذكر .

ــ أيش ؟

ـ أقول ؟

قلت :

ـ اختي سبعة المسبوعة مسموح إلها تقول كل شيء .

قالت :

ـ لما تتذكر الماضي ، ما بتتذكر غير النسوان .

قلت :

ـ نسيتِ ؟

ـ ايش .

حكيت لها انني كنت وأنا صغير أحب اللعب مع الفتيات فقط . انسيتْ ما كان يقوله الأولاد ؟ « أبو البنيات . عشر وجاب سخيلات »[1] .

تغرق في الضحك ، حتى تدمع عيناها . تكفكف دموعها بمنديلها الصغير ، وهي ما تزال تضحك وتقول :

ـ يجازي شرك .

كانت تتوقف عن الضحك ، ثم تعود اليه فجأة ، وكأنها لا تستطيع التحكم في نفسها . قلت : هنالك شيء غريب ، وفريد جداً . في أمي آمنة . تصغي بتساؤل . أقول : اليس غريباً أن تحمل عواطف الأم نحوي ، وكأن ذلك شيء طبيعي ؟ في مجتمع متعصب دينياً ، العائلة والقبيلة وحدة عضوية ، متماسكة ، معادية للعالم كله ؟ لم أشعر يوماً ، انا المسيحي ، انك كنت بنتها أكثر مما كنت انا ابنها . كيف استطاعت ان تتجاوز كل الحواجز ، دون أن تسأل نفسها : هذا ابن عائلة غريبة ؛ ماذا يربطني به ؟ لم أشعر أبداً ان هذا التساؤل قائم في داخلها .

قلت : انا أفهم قدرتك على التجاوز ، ان تعتبريني أخاً . ثقافتك ، وعالمك قد دمرا كل تلك الحواجز . . . ولكن هي ؟

احتقنت عيناها وقالت :

ـ اسكت..

---

(١) ايها المهووس بالبنات ، حملت وولدتَ انثى الماعز الرضيعة .

ــ ليش ؟
قالت :
ــ شاعرة بدي ابكي .
صمتنا . قالت :
ــ اسوّي لك قهوة ؟
قلت :
آجي معاك ونعملها .
ـ تعال .
ونهضت ، وتبعتها الى المطبخ .
وهي تعد القهوة كانت حزينة وصامتة . نظرت الي بعيني آمنة ، وبصوت آمنة ، وهي منشغلة في غليونها بمأتم أبيها :
ــ ما تحب سكر ؟
ــ لا .
لسمحة مهابة عندما تكون في هذه الحالة . قلت :
ــ امي كانت على حق .
ابتسمت وقالت :
ــ اي ام منهم ؟
ــ أمي نجمة .
ونظرت الي تطالبني بالاستمرار . قلت :
ــ انتِ شبه أمي آمنة . مش أمونة .
كانت تنظر الي نظرة جانبية سريعة وتعود الى تحريك القهوة بالملعقة . عندما اتممت جملتي . لم ترد . وركزت نظراتها على القهوة . وضعتها فوق الصينية ، ووضعت فنجانين وطبقين ، وسارت الى حجرة الجلوس . صبت القهوة بتركيز ومدت لي فنجاني . قلت لأكسر الصمت :
ــ قهوة لذيذة .
قالت :

ـ أمي كانت مليانة بالحب . وما كان فيه غير انا وأنت تحبنا .

ـ وابوك و . . .

ـ وهزيم . . .

ـ ايوه . وهزيم ؟

قالت :

ـ ما كانت بتحب الاثنين . كانوا زغار جداً واتعسوها .

قلت :

ـ انتِ بتحطمي الأسطورة .

نظرت الي بدهشة لأنني قلت ذلك بشيء من الحدة . دققت النظر في وجهي ، عيناها تظهران فوق حافة فنجان القهوة .

قلت :

ـ من المؤكد انها في فترة ما ، على الأقل احبت .

ـ خايف على الاسطورة ؟

ـ ايه .

قالت :

ـ امي كانت وحيدة ، وحيدة . وين حسك الدرامي ؟ هاي اسطورة أكبر ، واعمق . ما كانت بتحب امها .

ـ بعرف .

قالت :

ـ وما كانت بتحب اسطورتها . فاهم ؟ الشعر ، زعيّل وابو نزّال . كانت بتحب الحياة والناس ، لكن اسطورتها خلتها وحيدة . كانت بحاجة للحب ، حب حقيقي ، وما كان قدامها إلاّ اثنين تافهين ، احبوا اسطورتها ، وما حبوها هيه .

قلت وكأنني متهم :

ـ عشقتها قبل ما أعرف اسطورتها .

ابتسمت . رأت ان الجو بيننا قد توتر . قالت ضاحكة .

ـ انت أوديبي .

قلت :

ـ ما حبيتها لأنها أمي . حبيتها لأنها كانت . . .

ـ ليش سكت ؟

قلت :

ـ لأنها كانت أجمل امرأة في الكون .

قالت :

ـ اجمل امرأة في الكون لأنها امك .

ـ ٦ ـ

كنت طفلاً بريئاً حقاً !

كنت في الثانية عشر من عمري ، كما أذكر . أقل أو أكثر قليلاً . وأصبحت المرأة وهماً مسيطراً . الكبار لا يعرفون ذلك عنا . بالنسبة لهم نحن اطفال ابرياء ، لا نعرف شيئاً عن العلاقة بين الرجال والنساء ؛ وكأنهم لم يكونوا أطفالاً قط . تكون أمي جالسة مع مجموعة من النساء ، وأكون بينهن . يصل الحديث ، احياناً ، الى العلاقة الجسدية بين الرجال والنساء . يكتسي الوجه بطابع فاجع ، ويتحول جرس الصوت الى همس خشن ، واضح . فجأة تشخص عينا أحد النساء وكأنها تعاين رؤيا مرعبة ، وتقول :

ـ الولد .

وكأنها تنبههن الى خطر رهيب . وتحدّق بي بعينين ملؤهما الخوف والاستنكار . أمي ، أكثر الناس معرفة بي ، تقول :

ـ يا اختي ، هذا زغير .

تقول المرأة بحكمة :

ـ لا تخافي غير من الزغير .

ورغم تفاهه هذه الحكمة ، تقول أمي :

ــ اطلع العب بره .
أقول وانا اتظاهر بالقراءة :
ــ الدنيا شوب .
وينصرفن عني ، وانظر في الكتاب الذي بين يدي ، وأنا أصغي الى حديثهن بنهم ، وأكاد احبس انفاسي ، حتى لا تفوتني كلمة واحدة .
في مثل هذا السن ذهبت لزيارة امي آمنة . كنت قد ركبت الباص من عمان الى بلدة قريبة من قريتنا ، تبعد عنها تسعة كيلومترات . فسرت على قدمي ، ووصلت القرية بالليل .
في الصباح قالت لي أمي :
ــ روح سلم على أمك آمنة .
وجدتها قد استيقظت من النوم لتوها . كانت سمحة تصب الماء على يديها ، وكان الصابون على وجهها وعلى يديها . وكانت مغمضة العينين . عندما رأتني سمحة وضعت كوز الماء فوق غطاء الزير ، وركضت نحوي . قبلتني على خدي ، كما تفعل النساء الكبيرات ، وقالت :
ــ طوّلت .
لاحظت ان ثدياها قد برزا بروزاً خفيفاً من تحت ثوبها . كانت آمنة تفتح كفيها لتلقّي الماء ، وعندما لم يأت الماء ، قالت :
ــ وين راحت البنت ؟
ثم نادت :
ــ وين رحت ؟
قلت لسمحة :
ــ امك .
فعادت اليها راكضة ، وقالت :
ــ يمه جريس .
ــ هلا بيه . صبي علي .
كانت تلبس قميص النوم . وجعلتني جلستها أتأمل جسدها ، لأول مرة .

الثوب القروي مصادرة على الجسد ، يلغي التفاصيل كلها . من خلال قميص النوم استطعت ان أرى العنق الشامخ ، والنحر الصقيل الناعم . ومع انحناء الرأس رأيت منبت الثديين . ومن خلال جلستها رأيت خط العجيزة والخصر ، والساقين ينسابان باتساق ، شاهدت لمعة الركبتين ، وسمانة الساق التي انضغطت بسبب الجلسة . وعندما وقفت لتجفف وجهها تكوّر الثديان ، وانحسر البطن ، وبدا الجسد متماسكاً ، قوياً ، فيه رشاقة من ستكون حركتها التالية خطوة راقصة .

هاجني العشق كالدوار . اخفيته عن نفسي ، ولكنه كان يحرقني . أزالت الفوطة عن وجهها . كانت المودة والفرح والترحيب في الوجه وهي تجففه . وعندما ابعدت الفوطة عن وجهها كشفت عن شمس . قالت بصوتها المنغم .

ــ بعدك واقف حبيب . قرب .

اقتربت . قبلتني ، وابعدتني قليلاً لتتأملني :

ــ يا صلاة النبي ، كبرت وصرت رجل .

هل قرأت الوجد في وجهي حين قالت : « صرت رجل »؟ أكثر من مرة كانت تكشف عن حدسها بعبارات ، تحمل معنيين ، كهذه .

لم أحك هذا المشهد لسمحة . وكيف لي ان أحكيه لها . ولكن هذا المشهد كان في ذاكرتي حياً حين قلت لسمحة : « كانت أجمل امرأة في الكون ». هذا الجموح في اصدار الحكم كان يشير الى حالة .

الفصل الثامن

- ١ -

هذه قرية قديمة جداً . اينما حفرت فسوف تجد أرضية من الفسيفساء ، تشكلها مكعبات صغيرة حمراء وسوداء وبيضاء . نفس الظاهرة تجدها في مأدباء ، البلدة المجاورة . بعض البيوت أصبح لها أرضية من الفسيفساء ، وفي كنيسة الروم الارثوذكس يتكوّن الجزء الأكبر من الأرضية من خارطة لفلسطين وشرق الأردن ، ونهر الأردن والبحر الميت بينهما . بعض السائحين الأجانب يأتون ليتفرجوا عليها .

أما سكان القرية فيبدو انهم طارئون عليها . أكبر رجال القرية سناً ، عوده بن صالح الطوال (من الأحاديث التي يرويها أهل القرية عنه ، وخاصة جفيده عطية البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً ، ومن حكاياته هو عن احداث حياته ، وان عمره يتراوح بين ١٣٠ و ١٥٠ عاماً[١]) يقول - عودة - جئنا القرية وهي خالية ؛ استقدمتنا قبيلة العماشنة من الكرك ، ومنحتنا الأرض . كانت الأرض واسعة ، والناس قلة . وبنينا القرية .

العماشنة أول من دخل القرية ، بقيادة زعيمهم علي . قد يكون ذلك في

---

(١) يقول زعيّل ان عمر عودة يزيد على مائتين وسبعين عاماً . ولكن زعيّل وأمثاله من المخرّفين لا يوثق بهم كمصادر معتمدة .

منتصف القرن التاسع عشر . ان قبره الذي يقوم على قمة التلة بالضبط التي بنيت عليها القرية لا يذكر شيئاً عن تاريخ ميلاده ، أو تاريخ وفاته ، أو المكان الذي جاء منه . القول الشائع انهم قدموا من منطقة الخليل . ولكن عدداً كبيراً من القبائل تقول ان أصولها من منطقة الخليل . ولا يمكن في هذه الحالة التأكد من شيء ، سلباً أو ايجاباً .

إلّا أنه من الواضح انها قبائل بدوية لها خبرة ، أو بعض الخبرة ، بالزراعة ، وميل الى الاستقرار في المناطق الزراعية . وقد تكون المسألة معكوسة ، فقريتنا هي الامتداد الصاعد لأراضي الغور الخصبة ، التي تقع الى الغرب منها . والى الشرق منها تقع المناطق الزراعية المجاورة للصحراء . في هذه المناطق تقيم القبائل الرعوية المقاتلة ، بني صخر ، وبني حميدة . والكعابنة ؛ وقبائل أخرى تمتد مناطقها في ثلاثة أو أربعة دول (السعودية ، الأردن ، العراق ، سوريا) مثل شمر ، والعنزة ، والحويطات .

ما أريد قوله انه من المحتمل ان خصوبة المنطقة هي التي جعلت من العماشنة انصاف بدو ، وانصاف فلاحين . لهم اراض يزرعونها ، وبيوت من حجر في القرية يقيمون فيها في فترة الشتاء ، وخيام يقيمون فيها مع أغنامهم وجمالهم في فصلي الربيع والصيف .

أما بالنسبة لقبيلة النجارين[٢] المسيحية فيبدو انهم استجابوا لدعوة العماشنة ، لأن الأرض ضاقت بهم في منطقة الكرك ، بعد ان استولى عليها قطعة ، قطعة ، انسباؤهم اولاد المصري[٣] . فقدموا الى قريتنا ليجربوا حظهم[٤]

---

(٢) تنقسم قبيلة النجارين الى فرعين : الطوال والقصار . ولا أعرف سبباً لذلك ، فهنالك الكثيرون من قصار القامة بين الطوال ، والعديد من طوال القامة بين القصار .

(٣) غادر صعيد مصر شقيقان الى فلسطين . احدهما أقام في منطقة قرب القدس ، والآخر جاء الى الكرك . يقال انهما غادرا مصر بعد استتباب الأمن في عهد محمد علي ، لأنهما ارتكبا العديد من الجرائم ـ كما يقال ـ التي يشيب لهولها الرأس . الأخ الذي استقر في فلسطين ـ

ويبدو ان قبيلة العماشنة ، رغم انها ظلت نصف بدوية ، لم تكن من القبائل المقاتلة . فهي لم تشارك في اتفاق القبائل في عام (١٩١١) للقيام بثورة ضد الأتراك . ولسبب غير مفهوم كانت قبائل الكرك وحدها هي التي نفذت الاتفاق . هاجمت الحامية التي في البلدة ، وبعد قتال قصير هرب الجنود الأتراك الى قلعة صلاح الدين ، واحتموا خلف أسوارها الحصينة ، وابوابها . واتجهت القبائل الى دور الحكومة فنهبت وحطمت كل ما فيها .

وقد قامت الثورة بسبب الاحصاء السكاني الذي قامت به السلطة التركية ، تمهيداً لتجنيد الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سن العشرين والأربعين . وقد عبرت عن ذلك الأغاني التي كان ينشدها المقاتلون :

يا سامي باشا ما نطيع ولا نعد رجالنا
حنا النشامى مصيتين ذبح العساكر كارنا

في تلك الفترة كان أهالي قريتنا يواجهون الاحصاء التركي بالاختفاء ، او

= ادّعى انه مسلم وتزوج فتاة مسلمة ، واستقر هناك . والآخر تزوج مسيحية ، من عائلة النجارين واستقر هناك .

يبدو ان الأخوين كانا يمتلكان قدرة هائلة على النصب والاحتيال والشراسة ، فسرعان ما استوليا على أراضي الانسباء . الأخ الذي استقر في الكرك وعائلته حاولوا ان يمدوا نفوذهم أكثر مما تتسع له قدرتهم ، فاصطدموا بقبيلة المجالي القوية . حدث قتل بين الطرفين ، وثار بينهما . ويبدو ان أولاد المصري كانوا الطرف الأضعف .

في داخل الفرع الأردني للعائلة يقال ان الأخ الذي استقر في فلسطين ونسله حلت عليهم لعنة الرب ، لأن الأخ تخلى عن دينه حتى يتزوج من فتاة مسلمة .

(٤) الواقع ان قبيلة النجارين استعملت نفس التكتيك الذي اتّبعه معها أولاد المصري ، ولكن دون اللجوء للعنف . فقد قطعوا صلتهم بكل مظاهر البداوة وركزوا على الزراعة ، ثم التجارة والربا . وبهذه الوسيلة أخذوا يقضمون أرض العماشنة ببطء ، ولكن بثقة . وكانت النتيجة ان شيوخ العماشنة ، في الجيل الخامس ، أصبحوا لا يملكون الا بيوتهم ، والمرتبات التي تأتي من أولادهم الذين دخلوا الجيش .

بالتشويه الجسدي الذي يجعل الانسان غير صالح للجندية ، كبتر الأصابع أو قلع العين . اما التخلص من الضرائب الباهظة على الحبوب والمواشي ، فكان يتم باخفاء الجزء الأكبر منها قبل ان يتم تخمينها .

كما لم يشارك العماشنة أو النجارين في جيش فيصل الذي اجتاح الحجاز ونجد وسوريا ، والذي أصبحت كتلته الأساسية من القبائل الأردنية المقاتلة : الجويطات وبني صخر وغيرهما . أما الذين شاركوا في ثورة ماجد العدوان ضد الشريف عبد الله ، عام ١٩٢٣ ، فقد شاركوا كأفراد عندما قيل ان عمان سوف تكون مباحة للقبائل الغازية . اما مزاعم زعيّل بأنه شارك في تلك الثورة ، ودخل عمان ، ونهب الكثير من السلع والأموال ، فلا صحة لها على الاطلاق . فقبائل البلقاء لم تصل الى عمان قط . فقد تصدت لها قبيلة بني صخر ، ثم التقت بها مصفحة بريطانية ، اطلقت بضع طلقات ، فقتل شخص واحد ، هو صايل الشهوان ، فتفرق الثوار عائدين الى بيوتهم . وعوقب المشاركون في الثورة بدفع غرامة تساوي جنيهاً فلسطينياً - اذ كان هو النقد المتداول - أو ما يساويه ذهباً ، لكل منهم .

ومنذ تكوين الامارة في شرق الأردن ، عام ١٩٢١ ، وتشكيل الفيلق العربي وحرس البادية ، لم ينضم اي فرد من قريتنا الى هذا الجيش ، كما لم يشارك احد منا في المعارك التي دارت بين قبائل الجنوب ، وهذا الجيش . كما ان القائد البريطاني لهذا الجيش جون باغت غلوب لم يزر قريتنا قط[٥]. لقد بدأ دخول ابناء القرية الى

---

(٥) كانت اخبار هذه المعارك تصل قريتنا كحكايات واغاني . منها :

عسكر ابو حنيك مرطوبة وانا بشيرك بذبحتها
زرق الحناتير ممطوبة حتى البنادق بزهبتها

وابو حنيك هو جون باغوت غلوب ، وأطلق عليه هذا اللقب بسبب رصاصة أصابت حنكه وشوهته . أما سبب المعارك التي كانت تدور بين الفيلق العربي وقبائل الجنوب ان البريطانيين في عشرينات هذا القرن عقدوا معاهدة تمنع القبائل الأردنية والسعودية من غزو بعضها . وقد سبب هذا مجاعة حقيقية للقبائل الأردنية ، التي كان الغزو مصدر رزقها الرئيسي . وقد استغل البريطانيون هذه المجاعة واخذوا يضمون أبناء هذه القبائل للجيش .

الجيش بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

لقد تحولت قريتنا الى حمل السلاح والحرب بعد أن تحولت القبائل المقاتلة من غزو نجد الى غزو الداخل الزراعي المستقر . واشتعلت بين الفلاحين روح قتالية مدهشة ، استطاعت ان تقف في وجه الغزو البدوي وتصده . وقد وجد ذلك تعبيراً عنه في حكايات من النوع التالي :

دخلت بدوية فاتنة احدى القرى لتشتري بعض حاجاتها . رآها التاجر فأذهله جمالها ، وتقدم لخطبتها ، فقالت :

خيّالنا يشيل على رمحه شنينه وخيالكم يحمل على الجنب مفتاح

ومعنى البيت (فارسنا يحمل على رمحه رأس عدوه ، وفارسكم يحمل مفتاح دكانه تحت حزامه) .

فرد عليها التاجر :

مفتاحنا لا بد ما تحملينه وتصيري لنا يا زينة العين مصباح

وعندما غادرت القرية تبعها ، عن بعد ، وهو راكب فرسه . وتشاء المصادفات ان البدوية ما كادت تصل الى مضارب قبيلتها حتى تهاجمها قبيلة اخرى ، فتستولي على نساء القبيلة ومواشيها ، وتعود مزهوة . يعترض التاجر طريق الغزاة ، فيقاومهم ، ويشتت شملهم ، وينقذ الحبيبة لتصير زينة العين مصباحاً يساعده على تنمية تجارته ، ويضيء خياته الممتلئة بالبيع والشراء ، وبرضي القبيلة التي تعترف بان التجار فرسان حقيقيون .

ولكن التحول الحقيقي حدث في قبيلة العماشنة . فقد استعادت ملامحها البدوية بسرعة فائقة . حتى اقتصادها أصبح يعتمد على الرعي ، أو القيام بغزوات صغيرة لبعض القرى المجاورة ، واستولوا بقوة السلاح على بعض مناطق

الأغوار ، محوّلين بعض فلاحيها الى عبيد[٦] . وتركوا بهذا المجال واسعاً لقبيلة النجارين المسيحية لأن تتوسع في التجارة والزراعة . وهكذا أصبح انصاف البدو الى بدو حقيقيين ، في حين ازداد الفلاحون ـ التجار التصاقاً بالأرض والتجارة .

ويجب ان نلاحظ هنا ان هذين التحوّلين كان لهما مايدعمهما في الوضع العام للبلاد . ففي حين كانت الطبقة التجارية النشطة ، المتركزة أساساً في العاصمة ، تسعى لتوسيع تجارتها ببيع البضائع الى القرى ، وللتجارة بالحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية ؛ كان الجيش المشكل أساساً من البدو يعيد انتاج القيم والممارسات البدوية في داخل المجتمع .

ولكن المستقبل كان للتجارة . القيم البدوية اخذت تتوالد في صياغات جديدة ، جعلتها تقترب حتى الاندماج في القيم والمطامح التجارية . فبدلاً من الغزو انفتح الطريق للكسب من خلال نقل الحشيش من تركيا ولبنان ، عبر الأردن ، الى مصر مباشرة من خلال بدو سينا ، أو من خلال اسرائيل . كما ازدهرت تجارة الماس وتهريبه الى اسرائيل من خلال خليج العقبة .

ان ما لم تنتبه له قبيلة العماشنة ان انبعاث القيم البدوية . وتقاليد الفروسية لا يجوز ان يتم بشكل مجاني ، بل يجب ان يرتبط بالمؤسسة العسكرية ، وبالمؤسسة التجارية . ولهذا اكتشف شيوخ القبيلة انهم فقدوا كل شيء ولأسباب عجزوا عن فهمها . ان أفراد القبيلة الأكثر تواضعاً استطاعوا ان ينجوا من الكارثة حين احتفظوا ببعض الأراضي ، وحين ارتبط انبعاث قيم الجسارة البدوية عندهم بعمليات شديدة الخطورة ، وهي المتاجرة مع اسرائيل .

ـ ٢ ـ

لا نعرف تاريخاً محدداً لمولد آمنة . ومن كان في تلك الأيام يهتم بتسجيل تاريخ

---

(٦) كما حوّلوا بعض مناطق الأغوار الزراعية مراعٍ لدوابهم .

مولد طفلة ! ولكن الأغلب انها ولدت بين عامي ١٩١٤ و١٩١٦ . فهي لا تذكر شيئاً ـ إلّا كالحلم ، كما تقول ـ عن سفر برلك ، إلّا انها تتذكر مجيء الشريف عبد الله الى شرق الأردن . وقالت لي سمحة ان أمها فوجئت بالحيض[١] بعد سنة الهزة بسنتين أو ثلاث سنوات[٢] .

لفتت الانتباه بشدة[٣] منذ صباها الأول ، عندما خرطها خرّاط البنات[٤] . ولعل أكثر ما جذب الانتباه لها هو هذا التناقض بين أنوثتها الطاغية ، التي تكاد تكون عدوانية ، وبين سماحتها ولطفها مع الآخرين . لم يكن يبدو عليها انها تشعر بما تثيره في الآخرين ، فقد كانت تحدث الجميع بتبسط ، ودون حرج[٥] . قد يكون هذا جذر اسطورتها : لا ينالها احد رغم نطاق الرغبة المحيط بها كدائرة من النار ، وغير ممتنعة على احد . وقد أوجد ذلك احساساً بالأخوة لدى الجميع .

---

(١) عندما جاءتها سمحة ملتاثة بالرعب تريها لباسها الملوّث بالدم ، وهي تردد : « والله غير أبوي يذبحني » .

(٢) سنة الهزة حدثت عام ١٩٢٧ .

(٣) إذا كانت قد لفتت انتباه الجميع ، فلم يكن ذلك يثير أحلاماً بالزواج . فالبنت لن تتزوج احداً غير ابن عمها تركي ، الا اذا أعلن انه لا ينوي الزواج منها . ورغم هذا تظل المخاطرة قائمة ، فقد يعدل ابن العم عن قراره في أية لحظة ، حتى والعروس متجهة الى بيت الزوجية ، فيتزوجها .

(٤) هذا تعبير ريفي مصري . والخراط هو النحات . ومعنى العبارة اشارة الى بروز مظاهر الأنوثة على الفتاة كاستدارة العجيزة ، وبروز الثديين . والخراط هو أيضاً الصانع الذي يشكل الحديد حسب الطلب .

(٥) يقول زعيّل ان آمنة اعترفت له انها تحبه . ولكنه في ذلك الوقت كان مشغولاً بأمور أهم (لا أحد يعرف ما هي تلك الأمور التي كان منشغلاً بها) ولكن من يصدّق زعيّل ! غير ان لذلك دلالته . فزعيل ، الذي كان الناطق العلني لأحلام يقظة القرية السرية ، قد رأى في آمنة ذلك الانفتاح الذي يجعلها ، على نحو ما ، متاحة للجميع ، ميسّرة لهم أحلاماً سرية ، وممتنعة على الجميع بسبب زواجها المرتقب من ابن عمها ، وبسبب ما تثيره من احترام ومودة لدى الآخرين .

ان الاحباط الدائم للرغبة والتلقائية التي تعامل بها الجميع جعلها اختاً معشوقة . كان جسدها الفائر يستفز بعض النساء ، ولكنهن يفقدن كل احساس سوى المودة عندما يتحدثن اليها ، وعندما يرينها تستجيب بكل أدب لمن هن أكبر منها سناً .

لا . لم يكن في سلوكها شيء ينسجم مع الانطباع الأول الذي تخلّفه .

كان شيئاً ما في الجو العام قد ساهم في بناء الأسطورة . لقد تحوّل المزارعون الى مقاتلين ، وكذلك انصاف المزارعين . ومع هذا استعادت الذاكرة حكايات الفرسان والغزو وملاحم الحب .

وكانت تلك الفترة فترة رخاء مادي ، النقود تجري في أيدي الناس ، والبضائع بسعر التراب ، ومجالات الصرف محدودة . لقد خفت وطأة الكابوس التركي بضرائبه الهائلة :

(٥٪ من قيمة الأرض تدفع سنوياً ، ضريبة الميري على الأرض غير المزروعة ، وضريبة العشر - ١٠٪ - على الأراضي البعلية - و ٥٠ من محصول الأراضي الخراجية ، وضريبة الدواب والأغنام . عشر المواليد - وضريبة البيعة التي كانت تفرض على الفلاح اذا باع ماشيته ، وضريبة الأعناق التي يدفعها الأشخاص من سن ١٨ - ٦٠ ، البدل العسكري ، ضريبة المباني وعشرات الأبواب الأخرى للنهب . وكم كانت صادقة تلك الأغنية التي كان يرددها الفلاحون :

يا هنيالك يا هالقط(٦) يا اللي عالحيطان بتنط
ميري ما بتدفع وعسكريه ما بتحط

وكثر السلاح في أيدي الناس (بنادق الانفيلد الانجليزية ، بنادق المانية ذات ماسورة طويلة ، بندقية الموزر ومسدسات من كل الأنواع ، وخناجر مزخرفة

(٦) هنيئاً لك أيها القط .

وسيوف) كما أصبح بامكان الغالبية ان يمتلكوا خيولاً أصيلة ، لا غنى عنها في المعارك ، وزينة لمن يملكها .

ولم تكن شرق الأردن قد اندمجت في السوق العالمي ، ولا نشأت بعد الاحتياجات الجديدة التي تستنزف كل المدخرات . كان اقتصاداً مغلقاً ، اخذ ينمو دون عوائق . كان المجتمع يقف على عتبة تحول جديد ، ولكنه لم يدخله .

وانطلقت الطاقات المقموعة تبحث عن مسارب للفرح : الشعر والموسيقى (الناي والربابة والدربكة) والرقص والغناء . وأصبحت الفروسية متعة وزهواً ووظيفة . في الأفراح كان الفرسان يستعرضون براعاتهم ، فيقوم الفارس ، والفرس منطلقة بأقصى سرعة ، بالتقاط ملحفة مفروشة في ميدان السباق من طرفيها ، ويصيب ببندقيته هدفاً بعيداً والفرس ماضية في عدوها ، أو يقذف بندقيته في الهواء ويعود لالتقاطها .

ثم يحدث السباق . يتبارى الفرسان أمام الخيام المنصوبة ، ويصبح الفائز بطلاً وحكاية تروى .

وفي كل الأيام ، عدا أيام الشتاء ، يجتمع الشباب بخيولهم عند العصر ، وتحدث المسابقات ؛ وقد يحدث شجار يتسع أو ينتهي حسب طبيعة المتسابقين .

وخلال ذلك كانت المرأة في المركز ، فهي مطلوبة كحبيبة عبر الشعر ، وحاشي (راقصة) في السحجة ، ومن أجل عيني فتاة معينة ، وانتظاراً لزغرودتها يستعرض الفارس براعاته ، ويسعى ليكون أول المتسابقين .

وكانت آمنة هي الراقصة الأولى . يأتي راقصو السحجة ويقفون أمام حجرتها ، وينادونها ان تخرج اليهم . ترد عليهم ان ثمنها غالٍ ، فيردد الراقصون بصوت موحّد :

وإن كان ودك[٧] من الخيل خذي كثر نجوم الليل

(٧) ودك : تريدين .

تقول لهم ان طفلها يبكي ، ويجب ان تعتني به . فيقولون سوف نجيئه بحامض حلو يلهيه عن البكاء . تقول اعطيته حامض حلو وما زال يبكي . يقولون بغضب : ارميه خارج الدار ولتأكله وحوش البر . ترد غاضبة ، فيعتذرون ويقدمون لها اغراءات جديدة ، وهي تتأبى ، تعتذر بهذا الشيء أو ذاك ، وهم يلحّون ، غاضبين احياناً ، معتذرين احياناً أخرى .

ويستمر هذا الحوار الغنائي بين الراقصة (الحاشي) وجوقة الراقصين حتى تخرج اليهم الحاشي ، مرتدية ثوباً أسود طويلاً ، يلتصق بجسدها ، ملثمة بمنديل أسود ، فلا يبدو إلا عيناها ، ممسكة خنجراً مزخرفاً في يدها اليمنى .

يرتد الراقصون ليشكلوا نصف دائرة تحيط بالحاشي . تنطلق الأصوات بفحيح جنسي خالص :

ـ دحّيه ، احّيه ، احّيه ، دحّيه .

وقائد الجوقة يتقدم من الحاشي لينتزع الخنجر من يدها . حين ينجح يطلب اليها ـ غناء ـ ان تخلع لثامها ، فتستجيب وهي ما تزال ترقص ، جسدها يهتز بايقاع وهي تهبط راكعة أمام قائد الجوقة ، الذي يأمر ان تخلع ثيابها قطعة ، قطعة ، فتطيع ، وجسدها يهتز بايقاع متسارع ؛ وقبل ان تتعرى تماماً ، يلفها قائد الجوقة بعباءته ، ويدخلها الى حجرتها .

لم يكن هذا يحدث مع آمنة . كانت ، عندما تمسك بالخنجر ، تقترب بجسدها من قائد الجوقة ، وتنحني بجذعها ـ وخنجرها ـ الى الوراء ، تتفادى يده السريعة المتجهة الى الخنجر بهبوط مفاجىء ، يموج بها جسدها ، ويستدير ، ثم ينتفض مستقيماً كالخيزرانة . تمد يدها اليه بالخنجر ، فيحاول الامساك بمعصمها ، ولكنها تروغ الى الشمال ، في حين يجد قائد الجوقة نفسه مندفعاً الى اليمين . وخلال ذلك تتمدد منحنيات جسدها حتى الاختفاء ، ثم تعود بارزة ناضجة ، مكتملة .

وعندما يحاول الراقص ان يحاصرها بذراعيه كانت تقوم بحركة من ابتكارها ، لم تؤدها راقصة في قريتنا من قبل ، ولم تنجح راقصة أخرى في تقليدها . كانت

تدور حول نفسها عدة دورات ، وفي كل دورة كانت تقفز في اتجاه مختلف ، وغير متوقع : يميناً ، يساراً ، خلفاً ، الى الأمام متخطية الراقص . واحياناً ـ وهذا من ابتكاراتها أيضاً ـ كان جسدها يهتز ، وكأنها تحاول ان تطلق كل جزء منه في اتجاه .

هنا يعلن قائد الجوقة عجزه ، فيرتد الى الخلف في منتصف الراقصين ، ويغني وهو يتمايل معلناً عجزه وهزيمته . ومع كل بيت شعر يغنيه ترد عليه جوقة الراقصين :

هلا ، هلا ، بك يا هلا   لا يا حنيفي يا ولد

ويغني قائد الجوقة :

هذا عوده وقع بالجوره   حسّبها طبخة بندورة[٨]

وترد الجوقة :

هلا ، هلا ، بك يا هلا   لا يا حنيفي يا ولد

ويبطيء ايقاع غنائه :

من بعد ما انا عقيد ركاب   واليوم طباخ بندوره[٩]

وفجأة ينتقل الى أغنية مرحة :

لعينا عيونك يا نديه   ودق جرازك عليا
لا لي حمار ولا لي حوار   ولا لي غيرك رعية
وانا رجالا طيب   وبالـ:ود ولو عرفتيني

---

(٨) عودة سقط بالحفرة (معنى ذلك انه فشل) . ظن انها طبخة بندورة ، ولم ير ما تحت قدميه . والإشارة هنا الى البندورة هي تعبير عن احتقار البدوي للفلاح ففي حين يتكوّن طعام البدوي من اللحوم والتمر واللبن ، فان الفلاح يتناول طعامه من البقول والخضار المطبوخة بالبندورة . يذكرنا هذا بغضب يهوه ، كما جاء في التوراة ، وعزمه على إبادة العبرانيين لأنهم سئموا اللحم والحلو (المن والسلوى) واشتاقوا للبقول والخضار . وعلينا ان نتذكر ان يهوه كان آله قبيلة بدوية عربية ، وهي قبيلة مديان .

(٩) من بعد ان كانت الراية تُعقد لي كقائد للغزو ، اصبحت اليوم طباخ بندورة .

بـالـقـمـرة واصـل الـرفـة　　　بـالـظلما غـير تـعـديـني
يـا خـيـتي لـن نـدعـتـيـني　　　يـا شـبـنـة ردي عـليـا
تـلقـيـني بـطـريـق الـقـريـة　　　ومحـكّـر مـالي ثـنيـة
ولـن شـحـدت طـرمـوزيـن　　　واحـد ليـكِ وواحـد ليـا(١٠)

خلال ذلك ترقص آمنة رقصة النصر . كانت رقصة آمنة المميزة ، بها تعلن اعتزازها بجسدها : الخنجر يرتفع عالياً ، ويندفع صدرها الى أمام ، مبرزاً النهدين ، ثم تصعد . . . تصبح فراشة . تطير ، اردافها الواسعة تصبح أجنحة ، وتلمس الأرض بأصابع قدميها ، لتعاود الطيران . تتوقف عن التموج ، والمراوغة ، والقفزات الأفقية . تتجه الى أعلى .

من حولها دائرة من ريح الخزامى ، وعطر المسك والعنبر . تصبح آمنة بستان ورد ، وصندوق عطارة ، ومن الخلف يأتي ايقاع الدربكة بلحن جديد لأغنية معروفة ، لحن ينفعل ويتلقى من الرقصة ايقاعه ليعيده للراقصة لحناً متوافقاً مع خطواتها الراقصة .

تغني المغنية :

يـا يمـه ثـوبي ضـيـق　　　ضـجـن عـليـا نهودي
وش لـك بـحـب المـبـسـم　　　دونـك راس الخـدود(١١)

---

(١٠) من اجل عينيك يا ندية سأدق سنابل القمح التي تسرقينها ، أو تلتقطينها من خلف الحصادين ، فلا حمار ولا جمل وليس لي دابة غيرك . وأنا رجل شجاع . عندما يطلع القمر استطيع ان أسير حتى باب الخيمة ، وفي الظلام يصيبني الخوف ، ويتوجب عليك عندها ان تمسكي بيدي ، وتدليني على الطريق . يا اختي ، لو غادرتيني (لن تعني هنا لو) فعودي الي ايتها الشريرة . سوف تجدينني وحيداً في اقصى طرف من القرية ، لا ثاني لي . ويبدو انها غادرته لتتسول ، فهو يقول لو جمعت من التسول رغيفي أذرة (وهو طعام المعدمين) فلنقتسمها : واحد لك ، وواحد لي . علينا ان نلاحظ هنا ان السمة الأساسية لهذه الأغاني هي السخرية من الذات ، بعد انهزام قائد الجوقة أمام الراقصة .

(١١) لا تقبل خدي . اليك الوجنتين قبلهما .

ويصبح ايقاع الدربكة نبضاً في الدم ، يجدد لا للراقصة وحدها ، بل للحاضرين ايقاع التنفس ، الحركة الخفية للأقدام - حركة تخفيها الملابس السابغة - وتجدد لذوي العرس ايقاعاً ، وكأن الصرخات والضحكات ومشاجرات الصغار قد صنعت وفقاً لايقاع الدربكة .

وتغني المغنية :

حصّاد خلّي المنجل   جتك الشمس والشوية
شف لك شبرين ظلال   بين النهد والشوية[١٢]

- ٣ -

كان رقص آمنة جزءاً منها ، احد تجليات شخصيتها : تقترب حتى يظن قائد الجوقة انها ممنوحة له . ما عليه إلاّ أن يمد يده ليأخذ الخنجر من يدها . امرأة ممنوحة كلياً لرجل يذوب وجداً وشبقاً ، ولكنه يكتشف انها ممتنعة حد الاستحالة ، وان نجوم الليل أقرب اليه منها .

وكانت آمنة ، تجلياً للجذر العام على نحو حاذق ، مبهم . ففي القرية انفتحت طاقات للفرح لا ترتوي ، ولكن كان يرافق هذا ، يمتزج به خوف يبدو كأنه يقول : الفرح ليس لنا ، انه تجديف على الرب ، وتجاوز لقدر الانسان . الانسان مكتوب عليه الشقاء . نلاحظ ذلك عندما ينطلقون بمرح وضحك لا ضابط لهما ، ثم يتوقفون فجأة ، ولمسة رعب قد تسربت الى الوجه كأنها دخان صعد من عمق اللحم ، من بخار القلب ، ليشيع في الوجه ، ويحيط بالعينين ، ويهمسون :

---

(١٢) الشوية : الحر . الثوية : الثوب . ان الراقصة هنا تشير الى ارتفاع النهدين . حيث يستطيع الحصاد أن يخفي رأسه الملتهب بحرارة الشمس والجهد المضني بين النهدين ، وحيث يسمح ارتفاعهما ودفعهما للثوب الى أعلى بوجود مكان لاختفاء الرأس .

ـ اللهم اجعله خير .

ـ ما فيه ضحك الا بعده زعل .

حتى أغاني الأفراح تعلن ان السعادة لحظة عابرة ، يعقبها ألم وحزن طويلين : تذكر ايها الانسان انك خلقت للعذاب والموت :

شباب قوموا العبوا والموت ما عنه[1]
والعمر شقحة قمر ما ينشبع منه[2]

وينطلق صوت المغنية وهي تهاهي :

اهيه يا واشوف فلان تحت ضو القمر يمشي
اهيه يا وانادي واقول يا ربي ويا عرشي
اهيه يا ريتني اموت ويتفتل ورا نعشي

وتنشد جوقة الفتيات :

يا صبايين الشاي زيدوا حلاته[4]
واللي ما يحب الكيف يحرق حياته

كان رعباً من عودة الماضي بمآسيه . لقد عاد الماضي برعبه ولكنه كان يرتدي قناعاً جديداً : انطفاء الفرح وموت الروح .

ـ ٤ ـ

آمنة وحدها كانت فرحاً خالصاً . رأيتها مرة بعد واحدة من تلك الرقصات . رأيتها تشع . شعرت ان شيئاً ما قد انفلت من سيطرتها المحكمة ، وانها تود ان

(١) العبوا : ارقصوا . ما عنه : لا بد منه .

(٢) شقحة : قطعة .

(٣) المهاهاة : اغنية فردية تغنيها امرأة ممتدحة احد الحاضرين ، وتبدأ بـ (أهيه يا) .

(٤) زيدوا حلاته : زيدوا حلاوته ، اي كمية السكر .

تعابثني . اقتربت ـ عطر جسدها يضوع في الذاكرة ويستعاد الآن ـ وقلت :
ـ يمه آمنة ، بتوكلي كعكبان .
وأمد لها قطعة الحلوى . تنفجر ضاحكة ، وتضمني اليها ، وتقول :
ـ خلّيه إلك حبيب .

لا أود ان أغادر الذراعين ، والعطر ، والضحكة الطلقة ، وهذا التغير الذي أصابها . تقول :
ـ اطلع اتفرج عَ الدبكة .
انهض وأقول :
ـ رايح أجيب إلك قرفة .
لا بد ان أعود .

ذلك احد أسرار آمنة . لم تكن تخاف من الفرح . مثل أهل قريتنا ، لم تكن تخاف ولذا كانت تحدث الجميع دون حرج ، لم تكن تخجل من جسدها ، فلذا كانت راقصة رائعة . وهذا كله ساهم في بناء اسطورتها .

ـ ٥ ـ

قالت أمي ان ما أقدم عليه هزيم فاجأ الجميع وأدهشهم . من كان يتوقع ذلك ؟ غريب ، ويتقدم الى بنت أسياد القرية ليطلب يدها ! لم يحدث ذلك من قبل . قالت لها أمي : وكأن ما يحدث لا يعنيك . قولي شيئاً . قالت آمنة :

ـ وماذا أقول يا أم عيسى ؟

قالت لها أمي : الرجال يواجهون بعضهم بالبنادق ، ولا حديث للناس الا عنك ، وانت لا تقولين شيئاً . كأن الأمر لا يعنيك . وقالت آمنة : وهل للحرمة كلمة ؟ السكوت أحسن . قالت أمي : لو خيّرت ، من تختارين من الاثنين . قالت أمي : ابتسمت آمنة بسمتها التي تدخل القلب بلا استئذان ، وتنهدت وقالت : لو انها خيّرت لبقيت دون زواج .

قال زعيّل : كله كان من تلك الكرنيبة . يعني أمونة . قال : لعبت السامر بين الفريقين ، وكادت الدماء تسيل . ومن هو هزيم ؟ فلاح ليس له أصل يعرف[1] .

كان زعيّل ، هذه المرة صادقاً، فيما يتعلق بأمونة . لقد أعلنت موقفها بصراحة ، وأمام عدد من النساء الرجال . قالت :

ــ ما أريد يصير لبنتي اللي صار لي .

قالت امرأة غورانية ، طويلة اللسان .

ــ وش صار لك أنت ؟ وش كبّرك ؟

قالت أمونة :

ــ شوفوا هذه اللي مناخيرها مثل جنحان الطيارة .

كانت مليئة بالكراهية والمرارة ، وعندما ينفلت لسانها ، يقطر سماً . وأضافت وهي ترتعش غضباً .

ــ وش جالنا من جواز الشيوخ ؟ نحرق ايدينا وحنا نطبخ لضيوفهم ، ونسوّي قهوتهم ، ونخبز . الوحدة منا تعجّز وهيه بنية . وكلها سنتين ، ثلاثة ، ويهجروا فراشنا ويتجوزوا علينا ، ان عاشوا ، مرة وثنتين وثلاثة ، وان قلنا شي ، قالوا : روحي انت طالق بالثلاثة .

همست امرأة لأخرى :

ــ ويصير ما لها ونس غير العبيد والرعيان .

ومضت تقول :

هذا ان عاشوا ، والا ييجو محمولين على نقّاله ، غرقانين بدمهم ونترمل[2] ما

---

(١) كان زعيّل يطلق على عامر لقب فليليح ، تصغيراً لكلمة فلاح ، تحقيراً لشانه ، كما يتحدث البدو عن الفلاحين ، ثم يتمثّل بقول الشاعر :

غسـاك يا ابن سعود تبل بفضيحة   وكيف الحر يا شين على العبد يلتم

(٢) يقول زعيل انها كانت تقصده بهذا الكلام ، ظانة انه ينوي من آمنة فلذلك العجوز بقوله :

وانت يا نقرا مالك مقرا   راسك كبرن وفسّايه

ريد لبنتي حياة مثل هذه .

ويؤكد هذه الواقعة ما قاله شاعر القرية ، وهو احد عبيد العماشنة ، مخاطباً أمونة برفق (قبل ان يتحول الى هجائها) قال :

كل شيء جميل قصير العمر . أيام الشتاء المشمسة ، وليالي الصيف ، والزهور التي تكسو الأرض فتصبح كبساط منقوش . الرجال ثلاثة أنواع : الكريم الذي يطعم الناس دون أن يمن عليهم ، والفارس الذي يبث الرعب في قلوب الأعداء ، وابن الليل قاطع الطريق ، الذي « يضوي ولو كثرت عليه النبوح » أي يقتحم ولو كثر نباح الكلاب عليه . عدا هؤلاء « باقي المخاليق فحول نسوان ورعاة » .

وأخذ يقسو في هجاء هزيم ، يذكّر ان ليس له أصل ـ وكأنه وهو العبد المملوك له أصل يفخر به ـ وانه حين يسمع حركة في الليل يسرع الى حضن امه . وهجا قبيلة النواعسة التي ساندته ، مدعياً ان أصولهم من الصلبة ، حيناً ، ومن الشرارات حيناً آخر .

ويروي عن احدى المعارك بين العماشنة والنواعسة حيث حدث تبادل الأحجار ثم الالتحام بالنبابيت والخناجر ، وادّعى ان قبيلة العماشنة قد سجلت نصراً ساحقاً ، رغم عدم دقة ذلك :

امس الضحى صارت الهيه ... بسهيلة غربي عمشير
والزلم كتت مع التلعة ... وتقول عالة سهل خنازير
واقع يا ديشة يا ابو الرغفان ... من ضرب عيال مساطير
يا شيخنا قابل الحكام ... كن جابنا بالخناتير[٣]

معنى البيت : وانت يا ذات الوجه المجدور ، يا بخيلة (ولم تكن امونة مجدورة الوجه ولم يعرف عنها البخل) .

(٣) الصبة : اشد القبائل . وتكوينهم الجسدي يكشف عن اصولهم الصليبية : طوال القامات بشكل =

والمسألة التي عجزت عن فهمها هي ما الذي دعا أمونة ان تخوض معركة تعلم تماماً انها خاسرة . واذا كان لبعض النساء ان يقررن بعض الأمور الهامة فأمونة ليسو منهن . فهي لا تملك مهابة هؤلاء النساء . كأن ترفض بنت أخ سيد القبيلة الزواج من ابن عمها لتتزوج إنساناً غريباً ، ليس له عصبية تحميه .

الأغلب ان الجواب هو غرام أمونة بالمشاكسه .

= مفرط ، شقر وعيون زرقاء . . . وهم متجولون ، معلمون لا تجمعهم عصبة قبلية ، ولا يعرف عنهم الشجاعة او الكرم او الثراء . اما الشرارات فقبائل فقيرة ، تعيش متجولة في الصحراء الجنوبية ، لا يجدون إلا عباءة عفنة يسترون بها اجسادهم لذا يطلق عليهم « عيال عفنات العبي » .

اما قصيدة الشاعر فتعني : ضحى امس حدثت المعركة غربي القرية ، وقد هبط الرجال من التل الى السهل كقطيع خنازير . انهزم الشيخ الشبيه بالحجر غير المشذّب أمام رجالنا الشجعان ، وشيخنا يقابل الحكام ويعملنا بالحنانير . وقد وردت عليه احدى نساء النواعسة بقولها :

يا راكباً من فوق مهيوبه ... يا معتلي من فوق مهذابه
يا حيفي عليكم لا يا الشيخان ... وعلومكم اليوم كذابه
يومن تمهون مع التلعة ... ولويش العز والبابه ؟

مطلع القصيدة تقليد في الشعر البدوي حيث يصف الشاعر خروجه راكباً فرسه او ناقته ، او يخاطب فارساً . تقول : يا حسرتي على الشيوخ ، اذ اصبحت اخبارهم كذّابة . واذا كنتم هبطتم من التلعة هاربين ، فما داعي الكبرياء الكاذب .

تظل غريباً ـ غريباً على نحو ما ـ في داخل القرية إن لم تنتم الى عصبية ـ قبيلة أو عشيرة ـ من عصبياتها . قد تدرك ذلك منذ البداية ، وقد يخفى عليك سنيناً طويلة ، ثم يظهر فجأة . تشعر انك كنت تعرف ذلك طيلة الوقت ، ولكنك أغفلته . (اغفلته لأنك لا تريد ان تدركه ، لأنك خلقت لنفسك عالماً وهمياً من الانتماء ، لأنك بغريزة المحافظة على الذات ، وللاحتفاظ بتوازن روحي أوهمت نفسك انك جزء عضوي من القرية . بل انك في بحثك اللاواعي عن الهوية تشعر ان ارتباطك بالقرية أعمق من الآخرين . انك تجدد انتماءك كل لحظة ، وتؤكده حتى لا تفقد هويتك ، حتى لا تكون غريباً) .

في لحظة ما ، عبر حدث درامي كما حدث لهزيم ، من خلال كلمة تقال عفواً ، دون قصد سيء ، او بسبب تعبير خاطف يتسلل الى الوجه للحظة سريعة ثم يغيب تكتشف انك غريب ـ كنت دائماً غريباً وسوف تظل دائماً كذلك ـ وانك ، وإن عرفت القرية بكل تفاصيل حياتها اليومية ، عر ت فضائحها وأسرارها . واكاذيبها وحكاياتها وأشواقها . . . كل شيء ، كل شيء عنها ، فان هنالك سراً ما ، سراً يعرفه الجميع عداك أنت ، تولّد في خلوة ما ، خارج الزمان والمكان ، زمانك ومكانك انت الغريب ، الذي عاش وهم الانتماء ؛ سراً يذاع عبر لغة سرية ، يستحيل عليك ان تعرف بنيتها ، أو مفرداتها ، لأنك الغريب ، الذي يجهل انه غريب ، ولأن الغربة قد تجذّرت فيك ، فاحاطتك بسور من عدم الفهم . . وحين تفهم فأنت مخيّر بين تبني غربتك . وبين إعادة نسج وهم الانتماء . . .

* * *

جاء عامر القرية لا أدري منذ متى . فتحت عيني وهو هناك . أمي لا تعرف بالتحديد متى جاء . تقول لم يكن هنا قبل سفر برلك ، ولكنه بعد مجيء الشريف عبد الله كان موجوداً . وكان متزوجاً ـ من زوجته ، بالطبع خديجة النواعسة ـ .

ما أعلمه انه جاء وحيداً من فلسطين ، من منطقة الخليل . عومل كواحد من أهل القرية ، خاصة وان بعض القبائل في القرية والمناطق المحيطة بها نزحت أصلاً من منطقة الخليل ، أو هي ، على الأقل ، تزعم ذلك . تزوج امرأة من النواعسة ، ولم يثر ذلك أية مشكلة . لم تكن من عائلة الشيخ ـ كان والدها راعياً ـ ولم تكن امرأة جميلة . الأغلب ان باب الزواج من رجال القبيلة كان مسدوداً أمامها .

بدأ بالتجارة واستمر حتى النهاية . لم يكن أمامه طريق آخر ، فلا هو صاحب أرض ، ولا يملك اغناماً وجمالاً ، فتح دكاناً صغيراً في الحارة الغربية ، كان جزءاً من بيته ـ أم أصبح بيته جزءاً منه ؟ لست أعرف على وجه التحديد ـ وأخذ الدكان يكبر ، والتجارة تتسع ببطء . ولكن ولادة أربع بنات ، ثم هزيم ، آخر العنقود ، خلقت صعوبات لم يكن تجاوزها سهلاً . واضطر في النهاية ان يكمل دخله بتهريب الحبوب الى فلسطين عبر نهر الأردن ، وتهريب الزيت والزيتون من فلسطين الى القرية .

لماذا لم يفعل ذلك منذ البداية ؟

لا أحد يعرف على وجه التحديد . ولكن عامر لم يكن يستطيع دخول فلسطين بشكل رسمي . قيل انه مطلوب للسلطة هناك لأنه شارك بعمليات ضدها ، وقيل انه مطلوب لثأر . لا أحد يعرف ، على الأقل أنا لا أعرف على وجه اليقين .

أذكره أبيض الوجه ضعيف العينين . ولكن كثيراً من الفلسطينيين في قريتنا كانوا ذوي عيون ملتهبة . قالت لي أمي : ذلك بسبب قطفهم للتين ، وفرك اعينهم بعد ذلك . من يستطيع ان يقطع في ذلك بشكل يقيني ؟ بهذا الوجه لا استطيع ان اتصوره يقوم بأعمال عنف ضد السلطة ، أو ضد قبيلة اخرى . ولكن أمي قالت انه كان يشكو من ذراعه الأيمن . ثم احس في احد الأيام بكتلة صلبة تتحرك في ساعده ، في منتصف المسافة بين الكوع والرسغ ، ثم ضغط ، واذا برأس رصاصة يشق جلد الساعد . فأخرج الرصاصة كاملة من هناك . قالت أمي انها رأت ذلك .

تحسنت أمور عامر عندما زوّج بناته الأربع بسرعة غير متوقعة . ما تكاد البنت تبلغ الثالثة عشر من عمرها حتى يتقدم العريس . الأربع تزوجن عرسان من قبيلة النواعسة . كن قويات الأجساد ، لهن قدرة على العمل ، وكن مليحات ومؤدبات ، ومطالبهن متواضعة . لكن المشكلة كانت في هزيم ، آخر العنقود .

لم يكن الولد راضياً عن قدر الفقر . لم يأخذ رفضه طابع الاحتجاج المعلن ، بل صورة الحلم . كان يحلم كثيراً ، وكان في كثير من الأحيان عاجزاً عن التمييز بين الحلم والواقع . لا حلم اليقظة فقط ، بل أخذ يخلط بين أحلام المنام والحوادث مثيراً دهشة ـ وأحياناً ذهول ـ سامعيه . كان يروي حكايات عن قبيلته الموجودة في منطقة الخليل ، كان الدم يسيل فيها كالماء ، ويتحدث ، دون خجل ، عن نساء فاتنات وعشاق ، وقصائد شعر . . .

كشف أبوه له نفسه مرة ـ همساً وفي خلوة ـ وقال له : لسنا بدواً ، نحن أهل مدن ، لا نركب الخيل ، وفي الخليل لا تظهر النساء سافرات . وأضاف عامر : الفلسطيني لا يفخر بمثل هذه الأمور ، بل يفخر لأنه حارب الانجليز واليهود .

لم يفهم ابنه شيئاً مما قال . فلم يعد الى حديثه هذا مرة أخرى . قال لنفسه : الولد نصف مجنون ، وقد يذيع على الناس ما قلته له . لم يذع هزيم شيئاً مما قاله له أبوه ، ولكنه أخذ يحتقر الفلسطيني في داخله بعمق ، فنفاه ، وتبنى نصفه البدوي بقوة مضاعفة .

كان الولد طويلاً ، نحيلاً ، في تقاطيع وجهه فتور حالم ؛ له بسمة تشيع في وجهه وتثبت ، تظل طويلاً دون تغيير ، فكانت تزيد وجهه رقة ، وتطبعه بلمسة انثوية . نجح في اقناع امه ـ ورضخ أبوه وهو يحوقل ويبسمل ـ أن يغطي احد اسنان فكه الأعلى ـ في المتصف تقريباً ـ بقشرة ذهبية ، فأصبح فمه رطباً ، برّاقاً ، وخاصة حين يبتسم ابتسامته الممتدة .

كانت طلبات هزيم لا تقف عند حد . وكان لهذه الطلبات نسق لم يفهمه الأب إلاّ متأخراً . اخذ يلحّ على أبيه في شراء خنجر ، وأخذ يصف الخنجر : قصيراً ، مطلياً بالفضة . مزخرفاً بقطع زجاجية حمراء وخضراء وزرقاء ، ثم انه

معوج قليلاً ، لم ينتبه الأب ولا أحد غيره ، في حقيقة الأمر ، الى أن الولد كان يصف ، بأقصى قدر من الدقة خنجر تركي العماشنة .

- وايش بدك تسوّي في الشبريه ؟[1]

في ذهن الأب لم يكن الخنجر سلاحاً مناسباً . كان يراه مجرد زينة . السلاح بالنسبة له ، هو البندقية والمسدس . لم يجب الولد على سؤال أبيه . كان سؤالاً بلا معني . كأنه سأله : ماذا تريد من العينين ؟ كانت العوالم الداخلية للأثنين متباعدة تماماً الى درجة انعدام التواصل ، لم يكونا يدركان ذلك . أخذ الصبي يلح ، فقط يلح :

- بدي شبرية

لم يكن أحد يعلم ان لمطلب الخنجر ، وكذلك السن الذهبية . . مصدراً آخر ، غير تركي العماشنة . حادثة وقعت ولم تثر انتباه أحد ولكنها تركت أثراً عميقاً في نفس الصبي . كان يقف مع مجموعة من الصبية أمام باب أحد الدكاكين . جاءت مجموعة من الغجر . دخلوا الدكان ليشتروا حاجياتهم . همس له أحد الصبية : « لدعَ البنت » قال هزيم « بنت ؟ وينها ؟ » قال له الصبي انها لم ترفع عنه عينها منذ جاءت .

رأى الغجرية . حين التقت عيونهما ارتعش جفناها ، ولكنها ظلت تنظر اليه ، كان لها وجه صغير ، وعينان سوداوان كبيرتان ، وأنف صغير أنيق ، اقترب منها فارتعش جسدها ارتعاشة راقصة تخللته كله كالموج ، واستدارت عيناها واشتعلتا . ثم ابتسمت له بسمة مبلولة ، ولمع السن الذهبي في فمها . كان هزيم كالمنوّم . سألها بصوت مرتعش :

- وين ساكنين ؟

أشارت بيدها وقالت :

- غرب .

وعندما صمت ، قالت :

---

(١) الشبرية ، الخنجر باللهجة الدارجة .

ـ تعال عندنا . نصنع شباري زينة .

وانصرف الغجر ، وعاش هزيم دوار ارتعاشة الجسد الراقصة ، والفم المبلول ، والسن الذهبية . وأمضى ليلته نصف مستيقظ ، يستعيد ما حدث كحلم رائع ، مرهق . وفي الصباح اتجه الى مضارب الغجر . لم يجدهم . كانوا قد ارتحلوا . وجد راحة في ذلك . ولكن منذ تلك اللحظة ولد حلمان : حلم السن الذهبية ، وحلم الخنجر كما تولدت قناعة غامضة انه لا توجد امرأة تقول له : لا .

فاجأ هزيم أهله ، يوماً ، بطلب غريب . اراد من أبيه ان يشتري له فرساً أصيلاً . ابن بقال صغير ، يعيش على الكفاف ويريد ان يمتلك فرساً أصيلاً . شيء لم يسمع به أحد من قبل .

ـ ايش بدك فيه ؟

سأله أبوه . تعلم الصبي انه اذا ناقش فسوف يخسر . الالحاح ، دون ابداء الأسباب ، هو الذي بامكانه ان يحقق شيئاً . قال الولد بلهجة بدوية جعلت والده يطالعه بدهشة :

ـ اريد فرس ، ودي فرس .

ابتسمت الأم فرحة للهجة ، وقالت :

ـ وشتريد منها وليدي ؟

شعر الأب ان عليه ان يوقف الولد عند حده . لم يتعود ان يضربه ، ولكنه شعر انه لا بد ان يلجأ الى ذلك اذا لم تنجح وسائل الاقناع . قال بصوت هادىء ، ولكنه مشحون بغضب كامن :

ـ شوف يا ابني ، لو بعت البغل والدكان والدار . . . سامعني ؟ لو بعتها كلها وحطيت أمك فوق البيعة ما كفّت ثمن الفرس . فهمت ؟ (وعلا صوته) منين اجيب لك ؟ فهّمني ، منين أجيب لك ؟

قال الصبي :

ـ بدي فرس .

قالها مبرطماً .

قال الأب مستنجداً بالأم ، أو ربما بالسماء :

ــ بعده بقول بدي فرس . لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، (وعلا صوته) اضرب راسي بالحيط !
قال الصبي :

ــ تركي العماشنة احسن مني ؟
بدا ان أعصاب الأب كانت على وشك ان تفلت منه . يقارن نفسه بتركي ، الشيخ المقبل لعشيرة كبيرة يزيد تعدادها عن ألف ، تملك أرض تمتد مسيرة يوم لراكب الفرس ! ولكن الأم تدخلت بابتسامتها . قالت :

ــ القى خير يا رجل !
وعندما نظر اليها ، رأى الوجه الذي يحبه والتي ما تعوّد قط ان يسيء اليها ، رأى ابتسامتها ، أدرك انها تنوي حل المشكلة بنفسها . فأدار ظهره ومضى ، وكأنه يقول لها : « تصرّفي ».
عند العصر ذهبت الى الشيخ محمود المغربي وحكت له كل شيء ، وطلبت ان يجيء حجاباً لابنها . قال لها الشيخ ان لا داعي للحجاب ، هزيم صغير ، وهو في سن الطيش ، اصبري عليه . أعادت له الأم ما روته قبل قليل ، وقالت : لا بد له من حجاب . رأى الشيخ اصرارها ، فقال :

ــ ارجعي بعد يومين .
وعادت . ولكن الحجاب لم يؤد الى نتيجة . حقيقة الأمر ان المسائل ازدادت سوءاً . فقد أصبح الولد اضحوكة القرية . صار يتحدث بجرس الرجل الناضج ، فيحاول تخشين صوته ، فلم ينجح الا في جعله مختنقاً . وقد أخذ عدد من مهرجي القرية يقلّدون ذلك الصوت فيثيرون المرح والضحك الصاخب بين السامعين . كان يقول : « احنا النواعسة . . . » لا نرضى بهذا الشيء أو ذاك . كان الولد وأهله ، في حقيقة الأمر ، محسوبين على النواعسة ، ولكن تحدثه بهذا الأسلوب أبرز بقوة انه مجرد ابن بقال لا ينتمي الى قبيلة معروفة ؛ وانه مجرد ملحق بالقبيلة ، وخاصة انه لم يكن مفخرة أو متميزا حتى تفخر القبيلة بانتمائه اليها .

كان الولد يتمتع بموهبة التمثيل . أصبح يتحدث بذلك الأسلوب المتزن ، الرصين ، المقتضب الذي يتحدث به زعماء القبيلة ، بل أصبح يتقمص تعبيرات الوقار التي ترتسم على وجوه الكبار ، عندما يتحدثون الى من هم أقل منهم شأناً ، فيسبل جفنيه ، ويتحدث ببرود ، والأنف متقلص ، ينبىء بأنه قد يفقد السيطرة على نفسه ويتحول الى العنف. كما اتقن أسلوب الحديث الذي يجعلك تعتقد انه يعرف الكثير ، ولكنه لا يبوح الا بالقليل جداً .

لم يكن اسلوب الحديث فقط هو ما يثير دهشة سامعيه بل ما كان يقوله هو الذي جعل اهل القرية يعتقدون انه في طريقه الى الجنون ، إن لم يكن قد جنّ فعلاً . أخذ يتحدث عن نفسه ـ ايماء دون تصريح ـ باعتباره احد المقررين في القبيلة . وقد بلغ في ذلك حداً لا يصدق ، حين قال : « احنا ما نعطي بتنا لفلاح ». وكان يشير الى تقدم أحد الأثرياء في القبيلة بخطوبة ابنة فارس النواعسة واشجع رجالها لولده . وقد أصيب بالحزن فعلاً حين تمت الخطوبة .

قال والده لأمه : لقد جن الولد . ما نعطي بتنا لفلاح ، واخواته الأربع قد تزوجن مرابعية ، لا يملكون حتى الأرض .

لم يعد الأب يتحدث الى ابنه وقد ظل حتى نهاية عمره يعامل ابنه ببرود ، والابن لم يكن يخفي ضيقه ان يكون له مثل هذا الأب . الأم وحدها كانت سعيدة بهذا الابن الذي أصبح يتحدث اللهجة البدوية ، ويعتزّ بأخواله كل هذا الاعتزاز ، وقد أخذت ملامح الرجولة والنضج تلوح عليه في سن مبكرة . كانت تضحك عندما تسمع حكايات ولدها فرحاً ، وتمتلىء عيناها بالدموع .

احتاج الولد الى مرور وقت طويل ، وبعد وفاة والده بما يزيد على عشرين عاماً ، لأن يستعيد الوجه الآخر لأبيه وان يفتخر به . لقد فهم سر اولئك الفلسطينيين الغامضين الذين كانوا يثيرون ضيقه . فقد كانوا يأتون ليأخذوا السلاح الذي كان والده يجمعه سراً . وأصبح يفتخر ان والده كان محكوماً عليه بالاعدام لأنه رفع السلاح في وجه الانجليز ، ويفتخر كذلك ان أحد قادة ثورة ١٩٣٦ نام في بيتهم (بعد ان انتهت الثورة) وهو في طريقه الى العراق .

- ٧ -

لكن الولد عقل فجأة ، واذهل الجميع بحذقه ومهارته في التجارة ، مما جعله واحداً من أثرياء القرية المعدودين . ما زال الكثير من الحقائق المتصلة ببداية عمله في التجارة غير واضحة . كيف أدرك هذا الولد ، نصف المعتوه ان تجارة الحبوب (القمح والشعير والعدس والحمص) ستكون لها كل هذه الأهمية ؟ ومن أين جاء بالنقود ليبدأ بها العمل ؟ وكيف استطاع ان يقيم العلاقات الضرورية مع تجار عمان ؟ وكيف ومتى تكونت هذه العلاقة بينه وبين مسعد ؟ بل كيف استطاع ان يأمن لمسعد ، ذلك المراوغ ، الشرس ، المخادع ؟

كلها اسئلة لا تجد اجابات عليها سوى بعض التخمينات ، أو الأكاذيب الواضحة . قال البعض ان امه باعت اساورها واعطته النقود . وقال البعض انه مسعد الذي رأى في هزيم واسطة مقبولة لشراء الحبوب من المسلمين ، فوضع بعض المال بين يديه ، وجعله شريكه ، وانه من خلاله استطاع ان يقرض بالربا بعض أفراد قبيلة النواعسة ، ثم يستولي على أراضيهم فيما بعد .

المهم ان هزيم أصبح شخصاً جديداً . بنى مخزناً كبيراً للحبوب ، وكان أول من استعمل الاسمنت في البناء ، بدلاً من الطين المعجون بالتبن الذي يضعه أهل القرية بين الأحجار عندما يبنون بيوتهم ، وهو أول من بنى بناء بطابقين ، اذ أن جميع أهل القرية يبنون دورهم من طابق واحد . وهو أول من أدخل سيارة شحن - بالاشتراك طبعاً مع مسعد - الى القرية ، وأخذ يحمّلها بالحبوب لتباع في عمان ، أو بالركاب من اهل القرية . كان مسعد يسوقها ، قبل ان يدخل الباص القرية ، ويصبح سائقه .

أما عامر ، والد هزيم ، فقد أخذ يهرم ويتآكل بسرعة كبيرة . ابيضّ شعره ، وأصبحت عيناه حمراوين ، دامعتين على الدوام . كان يسرع الى القبر وكأن يداً خفية تدفعه بتصميم اليه . كما أدمن الصمت . لقد أعلن الابن انتصاره في ذلك الصراع الصامت مع أبيه ، اذ في الوقت الذي أخذ الأب يقترب من القبر بدا

هزيم شاباً قوي الجسد ، فاتناً ، ثرياً محسوداً من أهل القرية ، وأصبحت قبيلة النواعسة تفخر بابن بنتها . كانوا يشيرون اليه ويقولون : « ثلثين الولد لخاله » .

كانت الضربة القاضية بالنسبة للأب ، هو موقف الأم التي أعلنت بقسوة انحيازها للابن . ان ما كان بين عامر وزوجته على مدى خمسة وثلاثين هو قصة حب ومودة صافية . كانت الزوجة ملاذه في غربته ، وموضع سره . وكانت وحدها القادرة على فهم عالمه السري ، عالم السلاح المهرب . والحرب ضد الانجليز واليهود ، والرجال الغامضين الذين كانوا يزورونهم دون أن يثيروا اية ريبة . كانت ترى في زوجها صورة بطل يختفي في ثياب بقال ، وكان سره موضع فخر صامت . ثم فجأة انقلبت عليه . فتنها الابن فأصبحت عاشقة ، وباحت للابن بأسرار أبيه . قالت له ان والده يلعب ـ سراً ـ بالنار . وكانت معركة شرسة بين الاثنين وقفت فيها الأم الى جانب الابن ، وانهزم الأب وأعلن انه لن يواصل شراء الأسلحة ودلّ ابنه على المخبّأ منها . وتخلص الابن منها بسرعة . وكان الأب قد ذعر حقاً عندما قال له هزيم : لو عدت الى ذلك فسأبلغ عنك الدرك .

قال الأب للأم باسلوب شاك لم تتعوده منه :

ــ يسلمني للدرك ؟

قالت الأم بقسوة .

ــ تريد يحطوه بالسجن ؟

ــ وانتِ كمان ؟

قال الأب ، وهو يشعر بأنه وحيد تماماً وخائف .

قالت الأم :

ــ انت كبرت ، ورجلك في القبر ، وابني عمره قدامه .

تساءل الأب : كيف أصبحت زوجته بهذه الشراسة ؟ وصمت وأخذ يتآكل . والمؤلم حقاً انه سار الى القبر ، دون ان يسمع كلمة عزاء واحدة من الزوجة والابن وقبيلة النواعسة . شعر انهم قد حكموا عليه ، في قلوبهم ، بالموت . كأنهم

يقولون : موتك راحة وسعادة للجميع . وشعر انه ، باصراره على الحياة ، يطيل مزاحاً ثقيلاً لا يستسيغه أحد .

وسار عامر الى القبر ، ولكنه ـ لدهشة الجميع وغيظه هو شخصياً ـ توقف قبل آخر خطوة . توقف هناك طويلاً ، وكأنه سيعيش الى آخر الدهر . أصبح عجوزاً جداً ، ولكنه يرفض ان يموت .

ـ ٨ ـ

لم تكن ، طبعاً ، المرة الأولى التي يرى فيها هزيم آمنة . الجميع في القرية يعرفون بعضهم ، بهذا القدر أو ذاك . ولكن التواصل بين الجميع ليس على درجة واحدة من العمق . والعلاقات ليست ثابتة ـ كما قد يتصور البعض العلاقات داخل المجتمع القبائلي ـ بل هي دائمة التغير ، قوة أو ضعفاً .

الواقع ان هزيم لم ينتبه لحضور آمنة . لم يكن دقيق الملاحظة ولا بالغ الانتباه لما يدور حوله . كان مستغرقاً في عالمه الخاص معظم الأوقات . كان مسعد هو الذي نبهه لها . وعندما التفت اليها التقت عيونهما . شعر ان وقتاً طويلاً قد مضى وهما يحدّقان ببعضهما . شعر في البداية كأن صدمة كهربائية قد تخللته . ثم أراد أن يقبّلها ، يمسك بها ولا يفلتها أبداً ، بعينيه . وعندما انصرفت كان جسده يرشح بالعرق ، واكتشف ان مسعد يخاطبه بشيء لم يتبينه .

واستقر على قرار : سوف يتزوج آمنة. بدا له ان هذه المسألة محسومة منذ زمن بعيد ، لأنها تندرج في سياق حياته كلها : منذ حدّقت به النورية بكل تلك اللهفة وهو متيقن انه لا يوجد امرأة تستعصي عليه . كان عليه ان يشير فقط فتتهاوى بين ذراعيه . وآمنة مسماة زوجة لابن عمها تركي العماشنة ، وهو منذ طفولته وهو يشعر بعداء وحقد على تركي ، ويشعر انه سيكون زعيم النواعسه ، مركزه سوف يسعى لاذلال تركي . لهذا اعتقد هزيم انه يطيع قدراً لا يُرد عندما يتزوج آمنة .

الغريب ان هزيم في أعماقه لم يكن مفتوناً بآمنة ، ولا متحمساً للزواج منها

(أو هكذا تصوّر) ولكنه يقدم على هذه الخطوة لأنها واجباً رأى نفسه مدفوعاً اليه . كان يعلم ان اشكالات كثيرة سوف تعترض طريقه ، وان صعوبات سوف تقف امامه وستبدو انها لا يمكن التغلب عليها ولكنه كان يعلم انها سوف تكون له في النهاية . ودّ لو ان هذا الواجب لم يفرض عليه .

عندما تحدث الى امه عن آمنة بدا له الذهول الذي استولى عليها انه جزء من العقبات التي سوف تنشأ وتذوب . كان ما يحدث بالنسبة له ، هو مسلسل درامي عربي (مع انه في ذلك الوقت لم يشهد او يتابع مسلسلاً من هذا النوع) تقوم العقبات وسوء التفاهم والمؤامرات ، ويتابعها المتفرج ولكنه يعلم يقيناً ان البطل سوف يتزوج البطلة . قال لأمه ، بشيء من الضجر ، ألم تكن هي التي تطلب اليه ان يتزوج ، وتلح في ذلك ؟

قالت الام :

ـ آه ، لكنها على اسم ولد عمها .

وهي تشعر امام الثقة والبرود اللذين يتحدث بهما انها تقول شيئاً سخيفاً ، وغير لائق . فقال لها اننا سوف نتقدم . اذا قبلوا بي تزوجت ، واذا رفضوا امرنا لله . كان ذلك ، كما ترى الأم ، رائعاً الى حد لا يصدق غير انه مستحيل . ولكنها لا تستطيع ان تعترض . احست بنفسها تسير نحو هوة سحيقة ، ولكنها عاجزة عن التوقف .

رأى الخوف والتردد على وجه امه فسألها مندهشاً :

ـ تركي العماشنة احسن مني ؟

قالت وهي تختنق :

ــ لا وليدي ، بس تركي ولد عمها . . .

قال بغضب :

ــ تركي ولد عمها ، تركي ولد عمها ! ما عندك غير هالحكاية !

صمتت . وتركي بقامته القصيرة ، حين يتحدث يهدر كالجمل ، فلا تفهم ما

يقول ، وعينيه الصغيرتين على جانبي انف ضخم . . . كيف يمكن مقارنته بهزيم . وبشبه حدس رأت ان آمنة لهزيم ، وان ذلك منطق الأمور . أحست ان ذلك شيء يخيف ولكن لا بدّ من حدوثه . لقد تقمصت احساس هزيم دون ان يشرحه لها . ان عشرات الحكايات تعيد نفسها هنا : الفاتنة للشاب الجميل .

قالت :

ــ عساه خير .

وذهبت في اليوم التالي لزيارة أم آمنة . في ذلك البيت الكبير العامر بعشرات الأولاد والعبيد والغنم والضيوف شعرت ان ما هي مقدمة عليه أمر غير معقول . لم يستغرب احد حضورها ، ولكنها استقبلت دون حماس كبير ؛ فالبيت مفتوح للجميع ، ودائماً ممتلىء ، ضيوف من الرجال والنساء ، ولا يحتفى بالضيف الا عندما يكون له مكانة خاصة . وام هزيم ليس لها مكانة خاصة .

قالت لنفسها انه من المستحيل ان تختلي أصلاً بأمّونة ، فكيف تكلمها عن سبب زيارتها ولكن الأمور سارت بأيسر مما يحدث في الحكايات . جلست أمونة بجوارها وهمست لها :

ــ وراكي شي .

قالت :

ــ ايه بالله .

وادركت فجأة ان المحظور قد وقع ، فارتبكت واحمرّ وجهها ، ولم تعد بقادرة ان تقول كلمة واحدة . كانت أمونة تنظر اليها بدهشة بتعبير من يتوقع الايضاح . ولما لم تقل الأخرى شيئاً ، قالت بحدة :

ــ علامك ؟

ولكن أم هزيم عجزت عن الرد . نهضت أمونة وتناولت دلة القهوة وصبت فنجاناً وقدمته للمرأة المرتبكة . ثم أعادت الدلة الى الموقد وجلست مرة أخرى بجوار الضيفة ، وصمتت تاركة اياها تستعيد سيطرتها على نفسها . قررت أم هزيم ان تفصح عن غرض الزيارة ، وليكن ما يكون . قالت :

ـ نريد آمنة لهزيم .

بدت الدهشة على وجه أمونة ، ولكن ما توقعته ام هزيم لم يحدث . توقعت من هذه المرأة المعروفة بشراستها وسلاطة لسانها ان تنطلق زاعقة ، شاتمة ، فاضحة . غير انها اكتفت بالصمت . ثم نهضت وغادرت الحجرة الى الحوش . عاشت أم هزيم لحظات رعب حقيقية . تصورت ان المرأة تعد لها تدبيراً رهيباً ، وأكثر ما أرعبها انها عاجزة عن فهم ما يعد لها ، وسوف تكون عاجزة عن الرد . ولكن أمونة عادت وابتسمت ، وقالت لها :

ـ عاودي بعد يومين ، ثلاثة .

لم تصدق انها نجت ونهضت متعجلة . طلبت اليها أمونة ان تبقى للغداء . قالت انها يجب ان تعود بسرعة لتعد الغداء لابنها ، وانصرفت .

وهي في الخارج فقط أدركت ان كل شيء قد تم بأيسر وأسرع مما كانت تتصور . بل ان شعور التفاؤل قد جعلها تتصور ان جميع العقبات قد زالت ، وارتسمت في خيالها صورة ملأتها بالاعتزاز : بنت الأكابر آمنة تقول لها : يا عمة .

ـ ٩ ـ

لم يفاجأ هزيم بالأخبار التي نقلتها اليه أمه . فقد كان واثقاً من النتيجة . شعر بشيء من الضيق .ود لو ان آمنة ، او أهلها ، أبدوا قليلاً من التمنع . لقد منحت نفسها له بسهولة . واستعاد تلك النظرة التي القيت عليه ، فشعر انه وقع في مصيدة . لو ترك الأمر له لتخلى عن هذا المشروع ، ولكن ماذا يقول لمسعد ؟ لقد شارك مسعد في دفعه الى هذا كله بطريقة غير مفهومة ؛ وهو حين يشعر ان المضي في مشروع الزواج واجب لا فكاك منه ، فان ذلك يعني ان عليه الا يخيّب أمل مسعد فيه .

ولكن ماذا قال مسعد ، وكيف فرض عليه هذا الواجب ؟ لا يذكر ان مسعد

قد قال شيئاً محدداً . كان يصغي فقط . ولكنه بهذا الاصغاء قد ألزمه بان يمضي في خطة الزواج من آمنة ، التي أصبحت ، بالنسبة له ، امرأة تخيفه أكثر مما هي امرأة معشوقة . بدت وكأنها تأمره بفعل بذيء ، وربما ، بشكل لم يكن يعيه ، شعر انها تغتصبه بتصميم ، ودون ان يستطيع أحد أن يقف أمامها ، أو يمنعها .

ولكن ما حكاية العاشق الذي دمر نفسه من أجل امنة ؟

لقد حدث ذلك فيما بعد . وذلك حين انفجرت الأزمة كاسحة ، كادت ان تؤدي الى حرب دامية بين العماشنة والنواعسة (لقد فجّرتها أمونة بحماقة حين طرحت المسألة ، وكأن كل شيء قد تمّ . قالت لقد اتفقنا على كل شيء ، وان الزواج سوف يتم قريباً ، فدفعت الأمور الى أقصى حدودها منذ البداية . وعندما هدد العماشنة هزيم رأى النواعسة أنفسهم مضطرين الى حماية ابن بنتهم ، وأعلنوا انهم سوف يقفون الى جانب هزيم مهما حدث . حدثت مشاجرات فردية ، وقيلت أشعار ، ووُصفت معارك لم تحدث . الواقع ان الأسطورة التي بنيت بعد ذلك ، والصورة التي رسمت لانتصار تركي الحاسم ، وان القرية انشغلت سنيناً بهذه الحادثة لا صحة لهما ـ اعني الأسطورة والصورة . ان المسؤول عنهما الشاعران ابو نزال ، عبد العماشنة ، وزعيّل ، ورغبة القرية ان تخلق اسطورة وتعيشها . كما ان أفعال هزيم الحمقاء بعد ذلك ، والتي أدّت الى وضع كاد ان يكون مفجعاً وضعت ـ هذه الأفعال ـ في إطار الأسطورة . الواقع انه منذ البداية كان النواعسة يتصرفون بردود الفعل . لم يكونوا يريدون لما حدث ان يحدث . كيف يمكن لمن مثل هزيم ، وهو في نهاية الأمر ليس ابن قبيلة ، ان يأخذ فتاة من ابن عمها ، وخاصة عندما تكون الفتاة آمنة ، ويكون ابن العم تركي العماشنة ، وكان العماشنة يعرفون هذا ، ولا يأخذون اعلانات النواعسة بالحرب بشكل جدي . وتم حسم المسألة بسرعة .(لم تستطع أمونة ان تفعل شيئاً ، ولكنها لم تتوقف عن الكلام والشجار . ولكن من يهتم بأمونة ؟) .

حب هزيم لآمنة بدأ حين أصبحت مسألة الزواج من آمنة محسومة لصالح تركي ، وان لم تتخذ الخطوات الرسمية للزواج . لقد تأخر بضعة شهور بسبب

وفاة عم تركي ـ مساعد ـ العجوز جداً والخرف جداً ، والذي لم يكن له أية قيمة طيلة حياته .

في هذه الفترة بالذات بدأت تصرفات هزيم الغريبة . قال له أبوه ـ وهذه من المرات القليلة التي رأى ان عليه ان يقول شيئاً لابنه ـ :

ـ رايح تكون نهايتك مثل نهاية زعيّل .

ولكن هزيم ثار وأغلظ القول لأبيه . اتهمه بالجنون وتوعد ان يقيّده ويدق له وتداً يربطه به ، كما يفعل أهل القرية مع المجانين .

جمع هزيم حوله مجموعة من صعاليك النواعسة ، وجعلهم رجالاً له ، كما أخذ يقيم الولائم لرجال النواعسة ، ويصرف الكثير من النقود على شئون القبيلة . والواقع ان احداً لم يتقدم لنصيحته ، اذا افترضنا ان هزيم سوف يتقبل النصيحة . حتى مسعد لم يقل شيئاً . وكان منطق القرية : اذا أردت ان تدمر نفسك فلن يمنعك أحد . أكل أهل القرية من طعامه ومد الكثيرون ايديهم لماله ، وامتدحوه ، وهم خلال ذلك يخفون ضحكاتهم .

ولم يتصور اهل القرية ان هزيم سوف ينتهي الى مجرد وكيل لمسعد يفعل به ما يشاء . فهو وقد اغتنى بشكل غير مفهوم تصوروا ان الفقر لن يناله أبداً .

الفصل التاسع

ـ ١ ـ

في نزهتنا المعتادة قلت لبطرس انني سوف اسافر غداً الى عمان . رأيت في وجهه حزناً حقيقياً ، حزناً غريباً عليه . سرنا صامتين . لقد انتهى موسم الحصاد ، وعلى جانبي الطريق كان القصل المتبقي من بعد حصاد القمح يضفي على الأرض احساساً بالعري . فراغ الأرض من الحصادين واللاقطات جعل الأرض تبدو معتمة . مرّ بنا صبي يركب حماراً . صاح متهللاً :

ــ الله يمسيكم بالخير يا أساتذة .

قلت له :

ــ أنت ابن مين ؟

قال :

ـ أنا ابن جدوع .

ــ جدوع راعي صلبيا ؟

قلت وأنا أكتم الضحك . تخيّلت انني ارى في وجهه شبهاً لصلبيا . انصرف الصبي ، وسألني بطرس :

ــ رايح تطوّل ؟

ــ نعم ؟

كنت أفكر في زوجة جدوع وصلبيا . قال بطرس .

ـ رايح تطوّل في عمان ؟
ـ ما بعرف . اسبوعين ، ثلاثة .
كان يتألم قال :
ـ شهر يعني .
ـ تقريبا .
كنا قد اقتربنا من حافة الهضبة . ظلال جبال القدس غطت البحر الميت واخذت تزحف الى الجبال الشرقية التي كنا نجلس على قمتها . نهر الأردن بدا كثعبان أسود بين مزارع الخضار الخضراء والأرض المحصودة ، التي كانت مزروعة قمحاً . وادي الأردن أصبح مهجوراً . لم نكن نستطيع على هذا الارتفاع ان نرى البشر والحيوانات ، أصبح مهجوراً لأن الشمس كانت تقطنه .
كان بطرس يجلس صامتاً . عيناه متوترتان بحزن رقيق ، لامعتان بغشاء رقيق من الدموع . لأول مرة أراه هكذا : حزيناً صامتاً .
قلت :
ـ يمكن أقل من شهر .
قال :
ـ لولا القروش .
ثم صمت ولم يتم جملته . اخذت الشمس تهبط بسرعة نحو الغياب ، راسمة خطاً لامعاً يؤطر جبال القدس : بالقرب منا رأيت طائر الحجل يمشي بسرعة كبيرة على الأرض . نهضت وامسكت حجراً ورميته به ، فانطلق الطائر كالقذيفة . كتلة سوداء تتجه نحو الشمس الغاربة . تابعني بطرس بعينيه الى ان جلست ، ولم يقل شيئاً . تسرب حزنه اليّ . غابت الشمس وأخذت الظلمة تصعد من الوادي سمراء مائعة . وامتلأت السماء الغربية بغيوم برتقالية ووردية وحمراء . وأضاءت أنوار القدس الكهربائية والسماء البرّاقة جعلت الأضواء مجرد كرات شفافة .
في تلك اللحظة خطر لي ان أكتب رواية طويلة جداً عن شاب أحب فتاة جميلة ورقيقة كالزهرة ، تصاب بالسل وتموت . وأخذت عبارات تتداعى في ذهني « كان القمر كبقعة دم في وسط السماء الشاحبة» . . « عند الغروب كان شبحها

تجلى على قمة الجبل الذي تختفي وراءه الشمس . . . شبحاً مضيئاً يرتفع ليصبغ لسماء بألوانه النارية الدامية ». . كان الحبيب يسكن قلعة مهملة على قمة جبل ، لمعة تلتقط الريح التي تصخب في سراديبها لتحولها الى نواح يستمر طول الليل . في الشتاء يجلس وحيداً يصغي لزئير الرياح وهي تعصف بين الأشجار العملاقة .

ازداد لمعان أضواء القدس عندما سقطت الظلمة . خيّل اليّ انني لو أصغيت عناية لسمعت ضحكات الناس هنالك . أخذت أحلم ان أبني بيتاً على الحافة لمطلة على الوادي . تصورت نفسي في داخله والثلج يغطي الدنيا حولي ، وأنا وحيد . وحيد ؟ خضرا ، لا بل سلطانة معي . الليلة سوف ازور سلطانة .

عدنا صامتين . ودعته أمام باب داره . قال انه سينتظرني غداً عند الباص ليودعني . قررت ان أمر على مسعد في بيته وأقول له انني مسافر غداً ليحجز لي مكاناً في الباص . لم يكن هنالك حاجة الى ذلك ولكن رغبة لا تقاوم ألحت علي ان رى سلطانة .

بحكم العادة كدت أدخل بيتنا ، ولكننى تنبهت في آخر لحظة وواصلت سيري الى الحارة القبلية .

ـ ٢ ـ

رغم الظلمة ، ورغم أنني لم أقابل أحداً ، شعرت ان عيوناً ترقبني وأنا أسير في الحارة الشرقية ، حتى أصل الطريق التي تصعد الى الحارة القبلية . فكرت أكثر من مرة ان أعود ولكن وجه سلطانة كان يبرز أمامي فأواصل المسيرة . وأمام بابها استولى علي الرعب : ماذا جاء بي ؟ ماذا أقول ؟ . . ولكنني دققت الباب . وكأنها كانت تقف خلفه ؛ قالت :

ــ جريس ؟

قلت :

ــ كيفك يا ام أميرة . . انا جاي . .

جذبتني من يدي الى الداخل وقالت :

ــ اهلين . .
وسمعت صوت أميرة تقول :
ــ مين ؟
قالت سلطانة :
ــ ضيف عزيز . جريس .
وارتفع صوت أميرة كالفضيحة :
ــ اهلين وسهلين : كيف عملتها ؟

بعد هذا الترحيب لم يعد بامكاني ان أقول انني جئت لمجرد ان احجز مكاناً في الباص . كان ذلك سوف يبدو مضحكاً ومهيناً في الوقت نفسه . ادخلتني سلطانة في حجرة لم أرها من قبل ، واستغربت ان يوجد مثلها في القرية . كان فيها كنبات مغطاة بقماش بفتة بيضاء ، وسرير نحاسي مرتفع مغطى بشرشف أبيض مطرز بورود متعددة الألوان ، وفي صدر الحجرة صور فوتوغرافية معظمها لأميرة ، واحدة منها بالألوان ، كبيرة ومحاطة بإطار مذهب ضخم . كانت الأرض مفروشة بذلك السجاد الرخيص الذي نسميه في القرية قطيفة ، ولكن ككل شيء في الحجرة كان زاهياً يوحي بالنظافة .

قالت أميرة :
ــ أخيراً ، أخيراً ، أخيراً . . .
كانت ودودة ، ومرحة بتحفظ .

أحياناً تحدث الأشياء وكأنها حلم يقظة يتحقق . لم يكن مسعد موجوداً خرج بسيارة الشحن ولن يعود الا في ساعات الصباح الأولى . بشارة نائم منذ الغروب (دائماً ينام عند الغروب) وكذلك الأولاد . الجد في حجرته (جد مسعد وبشارة) ولا يعيره احد اهتماما (نادى مرتين خلال جلوسي ولكن بدا وكأن المرأتين لم نسمعاه) . كل شيء أعد لأبقى مع المرأتين .

وكأن المرأتين قرأتا اعماقي التي كنت أخفيها حتى عن نفسي ، فأصبحت أميرة الصديقة المرحة ، الودودة ، المتواطئة ، المحتشمة حيناً ، والبذيئة حيناً ، وأصبحت سلطانة العاشقة التي تعبر عن نفسها بوقار ، وتجاهد رغبة جامحة .

ـث وسلطانة تضع يدها فوق يدي ، وعيناها مسلطتان على أن نهضت أميرة الت :

ــ رائحة أشوف الأكل .

وخرجت .

كان وجه سلطانة قريباً ، وجهاً معذّباً بما يشبه الخوف . كانت تلهث قليلاً ، جهها الذي انسحب اللون منه جعلها كالمريضة ، وعيناها العسليتان كبيرتان ، متطيلتان تضيئان بنور قرمزي . احسست ـ بحياء المراقب ـ انني مطالب ان مل شيئاً . ولكن ماذا أفعل لوجه يملؤه الخوف ، وقد تكون عليه غشاء من مرق ؟ ولكن هل هو الخوف الذي جعل شفتيها تنفرجان ، وفمها ينفتح كأنها وقع ان أضع قطعة حلوى في فمها ؟ ما هو المطلوب مني ؟ امتد لسانها احمر ـبياً ، رقيقاً ولمس منتصف شفتها العليا ، وفي الوقت ذاته أخذت يدها تضغط شنج وقوة على يدي .

فجأة رفعت يدي الى شفتيها وقبلتها . ثم ملت لأقبل فمها . لم تبتعد ، بل لت هامسة لاهثة :

ــ أميرة .

هل يعني هذا ان أميرة غير متواطئة ؟ لم أقبلها ، ولكنها وضعت وجهها في حري ، ثم ابتعدت واسندت رأسها على مسند الكنبة ، مغمضة العينين ، تلهث ند اكتسى وجهها بطبقة من العرق . لهاثها يدفع النهدين الى أعلى ويخفضهما ، نهدان ما زالا صلبين ، متماسكين .

لم تكن رغبة تلك التي كانت في داخلي ، بل عشقاً أعاد تكويني . كانت لحظة ل فيها ذلك التعارض بين الرغبة والحب ، لحظة تجاوزت فيها قيم القرية التي رى في سلطانة وبنتها امرأتين ساقطتين . وددت ان أبلغها بهذا التحوّل في خلي ، فتشت عن كلمات فلم أجد . قلت :

ــ سلطانة .

قالت وهي ما تزال مغمضة العينين :

ـ هميـه ؟
قلت :
ـ بحبك .
فتحت عينيها ونظرت الي بعينين تكاد ان تلمساني . قلت :
ـ بحبك .
مدت يدها وأمسكت يدي ، وأخـذت تداعبهـا وقد أغمضت عينيها. قالت بصوت هادىء :
ـ بحبك .
ثم فتحت عينيها وقالت :
ـ أنت بكرة مسافر عمان ؟
هززت رأسي مبتسماً . ثم خطر لي : كيف عرفت ؟ انا لم أقل شيئاً . فمن قال لها ؟ قلت :
ـ كيف عرفت ؟
قالت :
ـ رايحين نلحقك .
ـ انت ومين ؟
قلت مندهشاً ، قالت :
ـ أنا وأميرة .
ـ ليش ؟
أي سؤال غبي !
قالت :
ـ شغل .
ثم دخلت اميرة . أبعدت سلطانة يدها عن يدي .
تمالكت سلطانة نفسها وقالت :
ـ طوّلتِ .
قالت وهي تجلس :

ـ كان الأكل راح يحترق ، بتوكلنا ؟
قلت :
ـ أنا تعشيت .
ضحكت أميرة :
ـ يا كذاب .
قلت :
ـ لا ، صحيح .
قالت سلطانة :
ـ حطي الأكل . ما تسمعي كلامه .

كان العشاء خارج اطار القرية . ففي القرية «ضيف المسا ما له عشا » أي أن ضيف إذا جاء في وقت العشاء فعليه ان يقنع بطعام أهل البيت . لكن اميرة ت سفرة حقيقية . اعني لم تكن سفرة «أشكال» فاخرة في الظاهر ، وفارغة في لجوهر : عدد كبير من الأطباق الصغيرة ، فيها الجبنة ، والزيتون ، وشرائح بندورة ، وشرائح الخيار ، والبيض المقلي ، والمقدوس ، والمخلل والمربى ، للبنة ، والزيت والزعتر الخ . . . بل كان العشاء صينية دجاج ، قطعت فيها ث دجاجات ، وسلطانية لبن رائب ، وصحن سلطة كبير . قلت لنفسي ان من لم عشاء كهذا في القرية يملك الكثير من النقود، نقوداً لا تتوقف عن المجيء ثرياء في القرية يصبحون كذلك لأن النقود التي تدخل جيوبهم لا تخرج منها . يع احتياجاتهم تستوفي من ناتج الأرض ، ومما يسمونه « وسخ الحلال » اي وف ولبن المواشي . من يقدم عشاء كهذا فهو يصرف من النقود التي تأتيه .

قالت أميرة :
ـ ايش رأيكو في ، في ، في . . .
قلت وقد اعداني مرحها :
في، في، في. . . قولي !

وابتسمت سلطانة لأميرة التي كانت تنظر اليها كأنها تستأذنها ، وأومأت سها ، فقالت أميرة :

ـ كاس نبيذ كل واحد .

قلت :

ـ عظيم .

ونسيت انني قلت انني تعشيت وان علي ان انصرف بسرعة . جو المودة جعلني اتجاوز كل التحفظات القروية . دهشت عندما رأيت سلطانة تشرب النبيذ بخبرة . شربت أكثر من كأس بتلك الطريقة المتأنقة لسيدة حقيقية ، ولم أر ان ذلك قد جعلها تفقد توازنها . حدث فقط ان تورد وجهها ولمعت عيناها .

لم تأكل أميرة كثيراً ؛ كانت مشغولة بتقطيع الدجاج ووضعه في فمي وفم أمها . كانت الأم تقبل ذلك دون تعليق . قلت :

ـ كلِي أنت يا أميرة . انت ما اكلتِ شي .

قالت :

ـ ما تخاف علي .

قالت سلطانة :

ـ ما بدها تنصح .

تأملت أميرة . لم تكن بحاجة الى ريجيم ، ولم أكن أدرك ساعتها انني أراها بعين قروية ، وان الفتاة العصرية يجب ان تكون أكثر رشاقة . قلت :

ـ جسمك منيح .

ـ هذا غزل ؟

ارتبكت وقلت :

ـ لا . صحيح . يعني . .

قالت سلطانة وهي تبتسم بسمة جميلة :

ـ بنات الموضة مسلوعات .

ضحكت اميرة وقالت سلطانة :

ـ مش مثلنا دبات .

قلت مندهشاً ، محتجاً :

ـ انتِ دبه ؟

غمرها خجل وابتسمت بسمة ناصعة وقالت :

ـ دبه .

ونظرت الي كأنها تستشيرني . قلت :

ـ انت ، انت . . .

قالت مبتسمة :

ـ أنا ؟

اية امرأة . قلت :

ـ احلى واحدة شفتها .

قالت أميرة بتهريج خفيف الظل :

ـ وأنا ؟ يا حصرتي .

قالت سلطانة :

ـ هذا من النبيذ .

لماذا تتحدث هكذا ، وكأنها تقرر حقيقة لا تحتاج الى نقاش ؟ انها تعلم انني احبها . قلت :

ـ النبيذ بخلي الواحد يقول اللي ما بقدر يقوله وهو صاحي . انا بقول الحقيقة ، صدقيني .

نظرت الي أميرة بدهشة ضاحكة :

ـ بتحب ماما ؟

قلت لنفسي : أصبحت تقول ماما ؟ قلت :

ـ انا بتكلم بشكل موضوعي .

نهضت اميرة وقبلت فم أمها ، وعادت تأكل .

بعد العشاء انكشف وجه جديد لسلطانة : المرأة القوية التي تمسك كل الخيوط في يدها ، المحدثة الممتعة ، والمرأة خفيفة الظل التي تمتع سامعها ، وتعده بالكثير . دار الحديث حول سفرها هي وأميرة الى عمان . سوف تنتقل العائلة هناك ، واجابة على اسئلة برزت على وجهي ولم أقلها ، قالت ان بشارة سوف يظل هنا ، وكذلك الجد . سوف تأتي اختـه الأرملة جميلة لتعيش هي وأولادها هنـا .

وكانني سألتها عما سوف تفعله هناك ، قالت ان شغلنا أصبح كله في عمان الآن . لقد اشترينا ارضاً ، وسوف نبنيها . بل اننا بدأنا البناء فعلاً .

وددت ان أقول : وهذه الاشاعات التي تملأ القرية ، عن أميرة وكلبها وعن فضائح حدثت في عمان ؟ ولكنني لم أقل شيئاً .

قلت :

ــ ايش رايح تشتغلوا في عمان ؟

قالت أميرة :

ــ اخواني بدهم مدارس ، والشغل كتير .

ــ مثلاً ؟

لم يجب احد على سؤالي ، ولكن سلطانة اخذت تتحدث عن القرية . قالت انها تشعر بالاختناق فيها . وأخذت تسخر من بؤسها وبخل اهلها ، من القذارة ، وأخذت ترسم بعض الشخصيات بشكل كاريكتيري .

عندما اخرجت اميرة بقايا الطعام ، قالت سلطانة :

ــ لا تتجوز خضرا حبيبي .

ــ خضرا ؟

قالت :

ــ بعدك زغير .

قلت بجرأة :

ــ انت حبيبتي .

مالت وقبلتني على خدي . وقالت وكأنها تعترف بحقيقة مأساوية ، قالت بتنهيدة وهي تتأمل أصابعها :

ــ وانا حبيبتك .

وددت لو انها قبلتني مرة أخرى . ولكنها قالت :

ــ انت لازم تتعلم تعليم عالي ، وتتجوز واحدة متعلمة .

ونادت .

ــ سوّي شاي يا أميرة .

جاء صوت أميرة من الخارج :

ــ عالنار .

قلت :

ــ لازم نشوفكو في عمان .

قالت وكأنها لا تريد ان تلزم نفسها :

ــ لازم .

خيبة الأمل جعلتني أكثر تحديداً وصراحة :

ــ مش رايح اشوفك في عمان ؟

قالت :

ــ رايح تشوفني لما تزهق مني .

كان من الواضح انها تعني عكس ما تقوله . امسكت يدها وقبلتها . تركتها في يدي وكأنها ليست منها . قلت :

ــ ما بدك تشوفيني ؟

تنهدت وقالت :

ـ مش عارفة ظروفي . . .

صمتت قليلاً ، ثم أضافت :

ــ انت باقي في عمان السنة الجاية ؟

ــ قلت :

ــ لا . مسافر ادرس بره في الجامعة .

قالت :

ــ شايف ؟

ارخيت يدها . كنت أعلم انه لم يعد باستطاعتي ان اقبلها . أصبحت غريبة عني . صمتنا الى ان دخلت أميرة بالشاي . قالت :

ــ لازم نشوفك في عمان . ما تهرب مني .

قلت :

ــ انا مش رايح اهرب . بس انتو ما تنسوني .

نظرت اميرة لأمها وأخذت تصب الشاي ، وكأنني لم أقل شيئاً .

عندما غادرتها بقيت أميرة في الحجرة ، وسارت معي سلطانة حتى باب الحوش وهي تمسك في يدي . كانت تضغط عليها وتداعبها . قلت :

ــ سلطانة انا بحبك .

ــ وأنا .

قلت :

ــ رايح اشوفك في عمان ؟

ــ اشوفك .

قلت :

ــ مش سامع .

قالت بصوت حنون ، رقيق :

ــ ما تتعلق في يا جريس .

هل تعلقت بها ؟ لقد وقفت سلطانة ، منذ تلك اللحظة ، بيني وبين كل امرأة عرفتها .

ــ ليش ؟

ــ موضوع شرحه بيطول .

ـ ٢ ـ

جاء يوسف ، والد سلطانة ، الى القرية مع زوجته وفتح دكاناً صغيراً ، ظل الدكان صغيراً الى ان مات يوسف .

أتذكره طويلاً ، نحيلاً جداً ، وكل ما فيه طويل ونحيل . وجهه بتجاعيده الطولية ، أنفه الطويل ، الدقيق المبلول دائماً ، وعيناه الغائرتان ، حمراوان كقطعتي جمر صغيرتين ، دامعتان دائماً . حين تحدثه كان يصغي وجفونه ترمش دون انقطاع فينساب الدمع على جانبي انفه . يواصل الاصغاء وهو يمسح الدمع ويتمخط . وعندما يتحدث يخرج صوته اخنف ، حلقياً ، كأنه دجاجة تنعق .

زوجته متوسطة الطول ، ذات جسد عضلي قوي . لها فم واسع ، وانف أحمر كبير ، ووجه مستدير . وكانت قوية جداً ، بقدر ما كان زوجها ضعيف البنية . المزعج فيها صوتها ، خاصة حين تخوض شجاراً . كان حاداً وقوياً . وكان هذا ما أبعد الناس عنها : حبها للشجار . وصوتها العالي . لذلك تجنب الناس العائلة كلها بسببها . كانت نساء القرية يقلن عنها : هذه النورية امتصت عافية زوجها . الأغلب ان هذا السبب الذي ولّد الشائعات عنها في القرية ، انها امرأة جنسية لا ترتوي ؛ وكانت النسوة يحذّرن رجالهن : ابتعدوا عن طريقها والا فانها سوف تمتص العافية منكم فتصبحون مثل يوسف الحايك .

ورغم ان لا أحد شاهدها تشاجر زوجها ، فقد كان يقال انها تعتدي عليه بالضرب ، وانه ينكمش خوفاً أمامها ، وأنه لهذا السبب لا تكف دموعه عن الانهمار .

ولدت سلطانة ، ثم انقطع نسلها . ما بين عمل البيت والدكان والعناية بيوسف الذي كان مريضاً طيلة الوقت والتحطيب وحمل المياه من الآبار البعيدة تربت البنت في الشارع . كانت تلعب مع الصبية كأنها واحد منهم . ومنذ صغرها نسبت اليها كل الاشاعات التي تدور حول أمها .

تتحدث بنات جيلها عن سلطانة قبل ان تبلغ الرابعة عشرة من عمرها . كان أبوها دائماً مريضاً ، ولم يكن لها أخ يردعها . ويلزمها البيت ، فكانت تفعل ما تشاء . تذهب مع الصبية لتصطاد العصافير ، وكان لها فخ مصنوع من أسلاك معدنية ، مثل بقية الصبية تنصبه ، مغرية العصافير بحبة قمح اذا التقطها العصفور انفلت السلك نصف الدائري ، وضغط عنق العصفور . وعلى الفور تقوم سلطانة بمزق رقبته وشويه على نار تشعلها في المكان ذاته .

قالت امرأة : كانت سلطانة مغرمة بركوب الحمير . تركب الحمار ، وتنغزه بعود خشب مدبب بين كتفيه . ينطلق الحمار راكضاً ، وهي فوقه . أحياناً يرفس الحمار بساقيه الخلفيتين فتسقط من فوق ظهره . ينكشف فخذاها فيقف الصبية يتفرجون . كانت البنت سليطة اللسان ، تصرخ :

ـــ على ايش بتتفرجوا ؟

يضحك الصبية ولا يقولوا شيئاً . تصرخ :

ـــ والله لالعن ذيول اماتكو .

وتنهض . تندفع الى أول صبي وتلف ذراعيها حول جسده وتلقيه على الأرض ، وتسقط فوقه .

هذه الحكاية تروى عن موسى ، الذي أصبح الآن كهلاً عابساً ، نكداً . كانت مجموعة من الصبية قد انتهت من صيد العصافير في الحواكير الواقعة شرق القرية . الحظ حالف موسى فاصطاد خمسة عصافير علّقها في حزامه من رقابها . وكانت سلطانة كالعادة مع الصبية . همس لها موسى :

ـــ خيه سلطانة بدي أقول إلك كلمة .

تخلفا عن الصبية . كان وجهه احمر وكان يجد صعوبة في الكلام . نظرت ، رأت ارتباكه ، فقالت :

ـــ ايش بدك ؟

أخذ يتهته . كان للبنت حضور شرس ، وأنوثة مبكرة . نهداها مكتملان ، وعجيزتها قد بدأت تتكور . كررت :

ـــ ايش بدك ؟

قال :

ـــ انا . . انا . .

وأخذ يتأتي . قالت :

ـــ انخرست ؟

قال :

ـــ انا خمس صيصان .

تأففت بصوت مسموع . قال :

ـ نروح للهربج . أنا وأنت .

ـ ايش نسوّي في المربج ؟

قال :

ـ اسوّي فيك ويعطيك الخمس صيصان .

قالت :

ـ اعطيني .

اعطاها العصافير الخمسة ، اخذتها ووضعتها في جيب ثوبها ، ثم انحنت فجأة ورفعت طرف ثوبه ومدت يدها بين ساقيه وأمسكت بعضوه وضغطت ، وأخذت تصيح :

ـ تعالوا شوفوا . ما عنده إشي .

التفت الصبية مذهولين ، وهي تصيح :

ـ مثلي ، ما عنده إشي .

وقف موسى جاحظ العينين من الألم . اطلقته سلطانة واخذت تعدو . لم يتبعها احد ، ولكنها ظلت تعدو حتى اختفت . يقال أنه منذ تلك الحادثة اخذ موسى يتأتي عندما يتحدث .

قالت احدى النسوة انها ، بعد هذه الحادثة بفترة طويلة ، سألت سلطانة عن سبب ركضها . قالت المرأة :

ـ حسّبتها تقول انها استحت من العيال . .

وتضحك ، ثم تضيف :

ـ قالت لي سلطانة : يا ختي خفت يتجمعوا علي ويوخذوا الصيصان مني . يضربوني ويوخذوها مني . قلت : عيال يضربوا بنت ؟ عمرها ما صارت . قالت لي : صارت وصارت . صارت معايا . انا غريبة ياختي . . . ودمّعت عينها وقالت : انا غريبة ، ومين رايح يحامي عني ؟ وتضحك المرأة : الله يخزي شيطانك يا سلطانة .

وقد حدث بالفعل ان تجمع الصبية وحاولوا ضربها ، ولكنها انفلتت منهم كالأفعى بعد ان اسمعتهم كلاماً فريداً في فحشه . كان الصبية قد تجمعوا في المربع الشرقي ، واخذوا يمارسون العادة السرية . وهم في ذلك هبطت اليهم سلطانة . وقفت تتأملهم في حياد تام ، ثم جلست .

ثم توقفوا فجأة . خاطر واحد دار في رؤوسهم وقرار واحد . قال أكبر الصبية لسلطانة :

ــ نامي على ظهرك يا بنت .

والتفت الى الصبية وقال لهم :

ــ في الدور .

وتقدم منها . واحاطها الصبية ، واقفين واعضاؤهم التناسلية ظاهرة ومنتصبة . ضحكت سلطانة . اعتبر أكبر الصبية ذلك تشجيعاً له ، فواصل تقدمه وهو يبتسم ، ثم توقف . قالت :

ــ ليش وقفت ؟ قرّب .

الجرس الواثق الأمر اربك الصبي فتوقف وهو يطلق ضحكات متقطعة ، وقد أصبح وجهه أصفر . قالت :

ــ قرّب ! قرّب !

قال متأتئاً :

ــ أول انتِ نامي على ظهرك .

كان الصبي يرتعش كأنه مصاب بحمى ، واسنانه تصطك ، وسلطانة تنظر اليه . فجأة رفعت وجهها وكأنها تطالع شخصاً يقف على حافة المربج ، ثم اقتربت من الصبي وصفعته على انفه وفمه ، ودفعت ركبتها في أسفل بطنه . سقط الصبي ، وسال الدم من أنفه . وقفت تتأمله وقد بدت للصغار شامخة ، مخيفة ، مشتهاة ومستحيلة . قالت للصبي الملقى على الأرض :

ــ بتقول نامي على ظهرك ؟

وضعت قدمها على بطنه ، وقالت :

ــ انا خليتك انت تنام على ظهرك .

ثم انحنت وامسكت عضوه الذي ضمر وقالت :

ــ الدودة هذي تحطها في . . . اختك .

ثم التفتت وصرخت بهم :

ــ ضبوا هدومكم .

أطاع الصبية . ثم فجأة كانوا حولها ، حين وقفت تضع قدماً على وجه الصبي ، وقدماً على بطنه ، وراحت ترفع جسدها وتخفضه في رقصة رتيبة . لا يستطيع احد ان يعلم علم اليقين أن كان تجمع الصبية حولها كان بهدف الانتصار لزميلهم ، أو لمحاولة اغتصابها ، أو للانتقام لكرامتهم . لم يكونوا يضربونها ، ولكنهم يجذبون يديها وشعرها ، كما حاولوا ان يمسكوا ساقيها ؛ ولكن الفتاة ، وكأنها مصارعة محترفة ، اخذت تسدد ضرباتها الى أسفل البطن ، أو تمسك واحداً منهم تتلقى به هجماتهم ؛ تلف ذراعيها حول جسده ، وتثني ابهامها ، وتغرزه مثنياً في ظهره وتضغط . ثم انفلتت وخرجت من المربج .

أطلت عليهم من فوق وأخذت تقذفهم بالحجارة. تفرق الصبية واختبأوا تحت الشجر . ثم اختفت سلطانة . خرج الصبية من المربج بحذر وأمسك كل منهم ببعض الحجارة ، واخذوا يطالعون المنطقة المحيطة بهم بحثاً عن سلطانة ؛ لم يجدوها . فانصرفوا صامتين .

ـ ٤ ـ

ذلك اليوم كان حاسماً في حياة سلطانة . لقد أصبح المشهد الذي لم يكتمل ، مشهد الفتاة العارية الجسد ، المستلقية على ظهرها ، وحولها عدد كبير من الرجال كاشفين عن أعضائهم التناسلية المستثارة ، يهبطون عليها الواحد تلو الآخر . . . لقد أصبح هذا المشهد حلم يقظة متكرر عندها ، تستعيده حتى آخر لحظات حياتها . لم تكن تتصور ـ في حلم يقظتها هذا ـ انقطاعاً في عملية الاغتصاب . ترى الصبي الذي انتهى يقف في آخر الطابور حتى يأتي دوره مرة ثانية وثالثة ورابعة الى ما لانهاية .

راقبت الصبيان وهم يغادرون المربج . كانت تختبىء في تجويف صخري يقع في الطرف الشرقي من المربج . رأتهم يجمعون الحجارة ويبحثون عنها بعيونهم . حدست ، انهم الآن وقد زال أثر الصدمة والمفاجأة عنهم ، وتبين مدى الإهانة التي تلقوها من بنت ، مجرد بنت ، فانهم أصبحوا خطرين . لهذا أخفت نفسها جيداً .

رأت أنهم غير جادين في بحثهم ـ كانوا يديرون رؤوسهم وهم في طريقهم الى القرية ـ . يبدو انهم أدركوا ان الفضيحة سوف تلحقهم على أية حال . فماذا سوف يجيبون الاباء والأمهات عندما يسألونهم عن سبب اعتدائهم على البنت ؟

أدهشها صمتهم . رأتهم يتخطون الأرض الحمراء ويدخلون الأرض الجرداء ، البيضاء ، المغطّاة بالحجارة ، الصاعدة نحو القرية . رأت بعضهم يصعد في الطريق الفاصلة بين البستانين ، وآخرون يصعدون في الطريق المحاذي للطرف الجنوبي من البستان الثاني ، والباقون يتسلقون ، منفردين ، الانحدار الذي يهبط من المقابر والحارة القبلية . من الواضح ـ كان واضحاً لسلطانة ـ انهم يودّون ان يتخلصوا من رفقة بعضهم بأسرع ما يمكن .

هبطت سلطانة من مخبأها وسارت الى المربج . جلست وحيدة . أخذت تتأمل جسدها ، بالنظر واللمس . أمسكت بنهديها . كانا مكتملين ، صلبين ، مرنين . أخذت تضغطهما وترخيهما . ثم رفعت ثوبها . رأت الحلمتين بارزتين . لمست احداهما بسبابتها ، فشهقت . كانت المتعة تصعد من أسفل بطنها كالماء الدافىء وتغمرها . ضغطت ثدييها بقوة ، وضغطت الحلمتين اللتين انشقتا من بين أصابعها ، وضمت فخذيها بقوة ، وأخذت تلهث مع ايقاع جسدها . وفجأة أحست بمتعة رائعة تجتاحها وبعضلات فخذيها ترتعشان ، ودفق ساخن ينساب بين الساقين . شهقت حين شعرت بأن رأسها يطير ؛ صرخت ، ثم غشاها همود ، رغبة في الاسترخاء المطلق ، فتمددت في شبه غيبوبة .

نامت فترة لا تستطيع تحديدها ، واستيقظت على صوت أقدام تقترب . زايلها الارتخاء ، وكانت تشعر بانتعاش ورغبة في اللعب والركض والصراخ . نهضت ، وسارت نحو طرف المربج وأخرجت رأسها لترى القادم . كان صليبا ، الذي فوجىء وتوقف وهو يرى رأس امرأة يصعد من الأرض دون جسد . تأمل البنت وقال :

ــ مين انت ؟

ثم عرفها وضحك ، وقال :

ـ سلطانة ؟ ايش بتسوّي هانا ؟

قالت :

ـ عموه ، العيال . . .

ـ العيال ؟

هبطت وقالت :

ـ تعال شوف .

تبعها صليبا الى داخل المربيج وهو يقول :

ـ العيال علامهم ؟

وقفت أمامه ، قريبة منه تكاد تلمسه ، ترفع وجهها اليه . كانت طويلة ، لكنها لم تكن تصل الى كتفه . كانت تنظر اليه دون كلام . قال :

ـ العيال علامهم ؟ وينهم ؟

وقد أربكته نظرتها الثابتة على وجهه . قالت هامسة :

ـ ودهم . .

رأى فمها مفتوحاً قليلاً ، ووجهها أبيض قد هرب اللون منه . وضع يده على كتفها وقال :

ـ ايش ودهم ؟

احس بجسدها يرتعش تحت كفه ، قال :

ـ لا تخافي . قولي .

قالت :

ـ ودهم يسووا معايي كلام عيب .

قال بحدة :

ـ سوّوا ؟

قالت :

ـ لا . ضربتهم .

ـ عفيه عليك .

وضحك ضحكته العريضة وقال :

ـ ضربت العيال ؟

قالت :

ـ مش عيل واحد ، تسع عيال .

وابتسمت تلك البسمة الغريبة ، وبدا وجهها وهي تجاهد لترفعه الى أعلى وكأنه يتوقع ان يقبله . كان ذلك أشبه بطفل يمد رأسه ليأخذ قبلة . قال :

ـ تسعة ؟ عفيه . .

وقال ان عليه ان ينصرف بسرعة . وكأنها أدركت ذلك فأخذت تروي له ما حدث مع الصبية بالتفصيل ، وكانت الكلمات البذيئة تنساب من فمها بشكل طبيعي .

قال بعد ان انتهت :

ـ ملاعين الوالدين . رايح أوريهم .

كان عليه ان ينصرف ، ولكنه شعر ان هذه الفتاة تحاصره وتمنعه من الانصراف كانت ترفع وجهها اليه كأنها تتوقع قبلة على جبينها ، وهو يحاول ان ينفلت ولكنه يؤجل ذلك . قال :

ـ رايح أوريهم .

وفكر صليبا : « لم تعد طفلة هذه البنت » لمح ثدييها الناضجين ، وهما يحتكان ببطنه ، وكتفها المستدير ، الصلب ، اللدن وهو يستجيب لضغطات كفه ، ووجهها المرفوع اليه ، بعينيها البنيتين اللوزيتين ، يجول فيهما سائل كثيف له لون العسل ، وفمها المفتوح قليلاً وقد غطى العرق شفتها العليا . . انتقلت كفه الى أعلى ظهرها ، تحت العنق مباشرة . كانت عضلاته القوية تتموج تحت يده . قال :

ـ بعدك خايفة ؟

قالت :

ـ أخاف من مين ؟

ـ العيال .

قالت :

ــ ما كنت خايفة منهم . بس زغار . .

لم يفهم . قال :

ــ زغار ؟

قالت بصوت لاهث :

ــ بدي ازلام . انا مرة .

وتعلقت به . لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه . وخلال ذلك خطر له : « كم عمرها الآن ؟ ولكن من الواضح انها لم تعد بنت بنوت . . » وهي تتعلق به ، تشده اليها ، وتتعلق برقبته ، وهي تموء ، وتئن ، وجسدها الفتي، القوي يرتطم بأسفل بطنه ، وهي تقول :

ــ بدي زلمة مثلك . . مثلك . . .

كانت هي تقوم بكل شيء . ولكنها عندما تمددت عارية ، مضمومة الساقين ، ذراعاها ممدتان لصق جسدها أدرك انه ليس لها خبرة بالرجال . حاول ان يتراجع ، غير انه شعر انه ملزم امام هذه الفتاة ان يمضي فيما بدأ به .

لم يفاجأ بصرختها ، ولكنه اندهش لاستجابتها الحقيقية لايقاعه بعد الصرخة الأولى . ولم يفاجأ بالدم الذي سال بين فخذيها ، ولكنه فوجىء برد فعلها ، حين قالت بهدوء :

ــ لا تخاف . أول مرة بنزل الدم .

وأخذت تلمس المناطق الدامية بسبابتها ، وهي تكرر انها كانت تعلم ان الدم سوف ينزل ، ولكنها أول مرة فقط . قالت له بعد قليل وهو يتمدد بجوارها ان كان يرغب ان يمارس معها الجنس مرة أخرى . سألها إن كانت تشعر بألم ، قالت :

ــ شوية .

ولكنها تستطيع احتماله مرة اخرى . هل يريد ؟

أخذ يداعبها . استجابت وكأنها تصارعه . كانت تفعل ذلك وتضحك ، ضحك كلما داعبها وتصارعه . وخطر له أن استمراره في المداعبة بكل هذه

الجدية ، وهي تصارعه ضاحكة ، جعله في موقف ضعيف أمامها . استثار ذلك غضبه فعلاها . صرخت متألمة وقالت انها تشعر كأن مخارز تغرس في عينيها . نظر الى الوجه فرآه مشوهاً بالألم فتوقف قالت :

ــ ابعد عني . . .

بصوت مختنق غاضب .

قال :

ــ أقوم ؟

قالت :

ــ قوم . ابعد عني .

نهض وهو يشعر بالعار من جسده الطويل العريض ، ومن عربه أمام طفلة لم تعد تشعر به . كانت ما تزال ممددة ، عارية ، مفرودة الساقين ، عيناها كانتا مغمضتين ، وتنفسها ثقيل ، يرتفع به صدرها وينخفض ، فيتكشف صليبا اعجوبة النهدين الناضجين ، الصلبين . أخذ يجمع ملابسه ، دون ان يحسم أمره ويرتديها . سمعها تقول :

ــ فيه ميه هناك .

وكان ذلك غريباً : هذا الصوت المحايد ، المرهق ، وهي تمد ذراعها الأيمن نحو الشجيرات الخضراء ، وما تزال مغمضة العينين ، وكأنها أم تساعد طفلها على الوصول الى ما يبحث عنه ، فتصحو من نومها للحظة ، ثم تعود الى النوم . كانت امه ، بل ما زالت ، تفعل ذلك . انحنى فوقها ، وقبّل جبينها ، ووجنتيها . فتحت عينيها ، وأحاطت عنقه بذراعها وجذبته اليها ، وقبلت فمه ، ثم قالت له بصوت حان :

ــ روح غسّل .

ورأى نفسه يطيعها . وود لو يضحك . كان الضحك يدغدغه من الداخل ، ويضغط على حلقه . كان حباً ذاك الذي فاض به قلبه ، فرحاً نادراً تخلله . لقد عرف الكثير من النساء ؛ ولكن هذا الاحساس بالفرح ، والحنان ، والرغبة في

يتها كان جديداً ، لم يعرفه من قبل .

بحث بين الشجيرات فرأى غدير الماء الذي يستمد ماءه من مصدر مجهول . ؟ ذلك لما استمر في هذا الصيف ؛ وعندما اقترب رآه محمياً بصخرة سمراء ، شرت فيها طحالب غامقة الخضرة . كأن الصخرة لامعة بغشاء رقيق من الماء ، نطة ماء تقف في وسطها معلّقة . مد كفيه وغرف ، وأخذ يغسل الدماء التي نت بين ساقيه . كان الماء يسقط منه ينساب عائداً الى الغدير. وعندما انتهى ندى ملابسه ، ووقف ينظر اليها .

فتحت سلطانة عينين صافيتين . قال :
ـ لبست .
ابتسمت له ، فقال :
ـ قومي البسي .
قالت :
ـ امشي انت ، بعدين بقوم .

غادر صليبا المربج . نظر خلفه فرآها تنظر اليه . واصل سيره حتى وصل طريق الترابي . سار فيه قليلاً حتى حاذى حجراً مثبتاً على جانب الطريق فجلس ليه . وراح يراقب المربج . لم يكن يريد لأحد أن يراها عارية . لن يسمح لأحد لك . ولكن نبض قلبه المتسارع كان يجسّد لهفة لرؤيتها ، لمجرد رؤيتها . غريب انه رغم توقه لرؤيتها ، لم ينتبه لها وهي تغادر المربج ، لم يرها إلاّ وقد صبحت قريبة منه . تصور انها امرأة أخرى ، رغم ان العرق قد غطّى جسمه . ان ذلك بسبب مشيتها الغريبة ، مشية امرأة أكبر سناً وحجماً . . . وحاول أن تذكر مشية من ؟ كانت تقترب منكسة الرأس ، محتشمة ، تسير متباعدة ساقين ، قدمها اليمنى تنحرف قليلاً الى اليمين . . . وتذكر : انها مشية الحبلى في شهورها الأخيرة .

وقفت أمامه ، محنية الرأس ، محاذرة ان تنظر في عينيه . في وجهها المنحني

نضوج امرأة . قالت بصوت هادىء ، محايد ، غائب كأنها تسجل حقيقة ، لا مجرد سؤال توجهه :

ــ بعدك ما مشيت ؟

قال بصوت أخشنه حضورها ، حبها :

ــ خفت حدا ينزل المربج وانت فيه .

ــ خايف علي ؟

قالت ذلك وكأنها تحدث نفسها .

قال :

ــ ليش بتمشي مفاحجة ؟

اخذت تداعب خده دون ان ترد . قال :

ــ بتحسي في وجع ؟

لمست شفتيه بأطراف أصابعها . قالت :

ــ ساعة الغروب استناني في الخشة .

ــ الخشة ؟

ــ خشتكو اللي بابها بفتح عالحاكورة .

قال :

ــ اليوم ؟

ضحكت ضحكة طلقة صافية ، وقالت :

ــ لا تستعجل ، لما يخف الوجع .

وانصرفت . لم تنظر خلفها مرة واحدة . تابعها حتى صعدت القرية . تخيل وجهها وهي تسير غائباً ، مرهقاً ، يخفي ألمها ، فغمره الشوق اليها . اشتاق الى حضورها ، الى ان تجلس بجواره ويتحدثان . أرادها حضوراً دائماً ارادها زوجة .

عيناه معلقتان بها ، تعلق عاشق . ومن داخله ، من عمق سحيق ، انبثقت مشاعر منسية . استعاد احساساً عتيقاً بالعالم قبل ان تفقد الأشياء روحها ، عندما كان يحس انّ العالم مسكوناً ، ستاراً لتدابير مخيفة . بدا له المشهد: الهبوط السحيق للحارة القبلية ، الكهوف الرطبة ، الزلقة ، التي تنبثق من أفواهها السوداء أشجار

حيلة ، ذات خضرة برّاقة ، والجادورة المسوّرة التي ارتبطت بذهنه وهو طفل الأفاعي التي تجوس فيها . اكتشف جلودها ، وهو صبي ، أكثر من مرة ، وقد زعتها . جلوداً رقيقة ، هشة ، بيضاء . كان يمسح عينيه بها لتحميه من الرمد . لصعود المتدرج للطريق الصاعد الى المقابر ، الذي يمر بين البستان القبلي الحاكورة التي تزرع شعيراً ، والتي تمتلىء بطنين البعوض في الربيع وتزهر فيها لفتية ، وعشرات النباتات الصالحة للأكل . انه يستعيد طعمها ، يحسه راكداً في حلقه . يرى واجهات البيوت فيحس بحياة غامضة تدور فيها . تكوّنت أفكاره ، هو طفل ، عما يدور بداخلها من خلال همسات وتلميحات سمعها مصادفة ، نأعاد صياغتها خياله الطفل عالماً ، غامضاً ، مخيفاً ، مسكوناً بأسرار مرعبة . . . لمشهد وسلطانة ـ بقعة وردية تتحرك فيه ـ بدا غشاء لحياة داخلية لعالم مخيف ، شير يكتم انفاسه ويتأهب لتجليات غير متوقعة .

رأى سلطانة تصل طرف الحارة ثم تختفي .

ـ ٥ ـ

كل واحد له الحرية ان يفعل ما يشاء في هذا البيت . لا أحد فيه يصدر أوامر صارمة ، ويتوقع انْ تنفذ . ولكن جميع الأعمال البيتية تتم على وجه معقول . كيف نشأ هذا الوضع ؟

الأم منذ البداية هي الممسكة بكل الخيوط ، فيوسف أضعف وأكسل من ان يبادر بشيء . كل فعل كان يبدو له معقداً مبهماً ، وغير مأمون العواقب . وكان يعتقد ان الآخرين ، خاصة زوجته ، قادرون على ادراك ملابسات كل فعل ، وعلى المبادرة . وحين يواجه موقفاً ، يلزمه باتخاذ قرار كان يصاب بآلام في المعدة ، وضيق في التنفس .

وكانت مشاعر زوجته نحوه مزيجاً من العطف والشعور بالذنب والاحتقار ، ولكنها ، أمام الناس ، أو وهما وحيدان كانت تعامله باللياقة الضرورية لرجل وزوج . كانت كل القرارات لها ، ولكنها تقنعه انها مستوحاة منه . لم يكن يوسف

رجلاً في السرير ، فأقامت علاقات مع رجال كانت تعلم انهم لن يحوّلوا العلاقة معها الى فضيحة ، ولن يجرحوا مشاعر يوسف بكلمة أو إشارة .

وفي حياتها سر لم تبح به قط ؛ وكيف تبوح به وهي نفسها لم تكن تدرك ما يحدث لها بالضبط . حين رأت آمنة أول مرة شعرت برغبة قوية في ان تلمسها . كانت آمنة تقف أمامها في الدكان ، وكانت قد طلبت منها ان تبيعها كرار خيطان أسود ، وشلل خيطان ملوّنة . وعندما نهضت الأم من مكانها لتأتي لها بطلباتها شعرت بأن ركبتيها لا تكادان تحملانها . نظرت الى آمنة ، وقالت وهي تضع كفها على جبينها :

ـ حاسة في دوخة .

بدا القلق ـ كان قلقاً حقيقياً ـ على وجه آمنة . أمسكت بيدها وقالت لها :

ـ اقعدي اتريحي .

وجلست الأم . قالت آمنة :

ـ وين الميه ؟

وعندما دلتها عليه ، رشقت آمنة على وجهها ، ثم جففت الوجه بردن ثوبها . وقالت :

ـ برد هذا . اشربي ينسون .

أصبحت سلمى ـ الأم ـ تشرد كثيراً . أصبحت آمنة شاهداً خيالياً لما يحدث أو يدور في ذهنها . لم تكن تراها كثيراً ، ولم تكن تسعى لذلك ، ولكنها عندما تصادفها كان الفرح يشع في داخلها ، وعندما تعانقها ـ كما تفعل نساء القرية عندما يلتقين ـ كانت تشعر برغبة في انْ يستمر العناق . وكانت آمنة تستجيب لمودتها فتجلس معها بعض الوقت . كان في سلمى ما يجذبها، مودة صافية ليس وراءها غرض .

وفي أحد الأيام كانت سلمى تقف بباب الدكان . كان الشارع خالياً ، والثلج قد بدأ يسقط . وقبل ان تدخل الدكان لتجلس قرب النار رأت عبد الكريم قادماً . كان الثلج قد جعل لحيته بيضاء . نظرت اليه ، التقت عيونهما ،

أومأت برأسها ايماءة خفية ودخلت . كان لها خبرة بالرجال ، ولهذا توقعت ان تبعها عبد الكريم العماشنة . سوف يقف ليتبين ردود فعلها ، فإن عاملته ببرود سوف يشتري شيئاً وينصرف . وإن لقي تشجيعاً فسوف يستجيب . وهي تعرف المثل القائل ان الرجل كالكلب ، اذا دعته امرأة فلا بد ان يستجيب ، وتعرف مدى صدقه .

وقف عبد الكريم أمام الدكان متردداً ، يطالع اتجاهي الشارع ، ثم ينظر الى سلمى . قالت :

ـ خش عن الثلج .

دخل ، ووقف أمامها ، تفصل بينهما الدكة الخشبية التي يستقر فيها الميزان . كان الرجل طويلاً وعريضاً ، له عنق طويل وأنف ضخم ، وفم واسع ، ممتلىء الشفتين . قالت ان له عيني آمنة ، والفم ـ فمها ليس واسعاً ولكنه ممتلىء الشفتين ـ وله أيضاً يداها ، بأصابعهما الطويلة المرنة . وكان له مهابة شيخ .

كانت تريد ان تتأكد من التشابه بينه وبين آمنة ، لأنها تعلم ان نساء الشيوخ ، وخاصة أمونة ، يبحثن عن رجال غير ازواجهن عندما يزهد بهن الأزواج ، ويتزوجون عليهن .

قال عبد الكريم :

ـ السلام عليكم .

قالت :

ـ وعليكم . تعال اقعد حد النار .

وعندما حاول ان يدخل قالت :

ـ سد الباب . بجيب برد .

جلس على صندوق خشبي ، وعرّض كفيه للنار . امسكت سلمى يديه وأخذت تفركهما ، وقالت له ، دون ان تنظر اليه :

ـ ايديك ثلج .

ومضت تفرك يديه ، وعيناها تتابعان أيديهما . لم تحاول ، ولو للحظة ، ان

تنظر في وجهه ، وقالت :

ـ بدي بنت منك .

كان صوتها هادئاً ، له طابع عملي . قال :

ـ بنت ؟

ظلت ممسكة بيديه ، وقالت :

ـ بنت مثل آمنة .

شعرت ان الرجل فوجىء . لم تدع له مجالاً للحديث . نهضت وجذبته من يديه ، فاستجاب لها . سارت به خلف السدة . كان هنالك فرشة ،عرّت جزءها الأسفل . وجعلته يتمدد الى جوارها .

وعندما انتهيا ، تركته خلف السدة ، وفتحت باب الدكان . رأت الشارع خالياً . نادته . قالت له وهو خارج : غداً ، مثل هذا الوقت .

استمرت العلاقة حتى تأكدت سلمى انها حامل ، ثم انهتها . حاول عبد الكريم ان يعيدها غير ان سلمى كانت حاسمة ، قالت له انها أرادت بنتاً منه ، وها هي في بطنها . كان ذلك تقليداً عريقاً : أن تختار المرأة فارساً شجاعاً لتحبل منه ، ولكن ذلك انتهى من وقت طويل ، أو على الأقل لا يُعرف عن نساء القرية انهن مارسن شيئاً كهذا إلاّ على نحو سري للغاية .

أما عبد الكريم ، فعلى الرغم من ان سلمى انهت علاقتها الجسدية به ، فقد كان يفاجئها بين الحين والآخر ببعض الهدايا ـ سمن ، لبن مجفف ، بعض النقود ـ فكانت تتقبلها دون حماس . وفي أحيان نادرة كانت تشفق عليه وتسمح له ان يضاجعها . كانت تعرف عن نفسها ان الرجال الذين يقيمون علاقات جسدية معها لا ينسونها . كانت تعرف كيف تمنعهم ، وكيف تجعلهم يغادرونها وهم لم يرتووا . لم تكن تمنح نفسها لهم كلياً ، لم تكن تسمح لهم ان يكونوا أصحاب القرار في فترة اللقاء . اذ فجأة تطلب اليهم ان ينصرفوا .

أما بالنسبة لآمنة فقد حدث تحوّل في مشاعرها نحوها منذ شعرت بالحمل . لقد تحوّل العشق الذي في داخلها الى مودة . لم تعد تشعر بالخجل عندما تراها

ولا بتلك اللهفة الجسدية والارتعاش عندما تعانقها . أصبحت تزورها وتجلس معها ساعات طويلة فتشعر بسعادة ونشوة هادئتين ، دون ان تجتاحها تلك الرغبة الملتاثة ان تلمسها . كما ان أحلام يقظتها تبدلت ، اذ تركزت أساساً على الجنين الذي في أحشائها . كانت تعيش لحظات عشق حقيقية وهي ممددة في فراشها تحس بالطفلة ساكنة في احشائها . وعندما أخذ الجنين يتحرك في احشائها كانت تستولي عليها رغبة جسدية من نوع خاص . لم تكن تتركز في جزء من جسدها ، مثلما يحدث عندما تضاجع رجلا ، أو تشتهيه ، بل كانت تغمر جسدها كله . كانت رغبة لا تبحث عن آخر ليشبعها ، بل رغبة مكتفية بذاتها ، لا تبحث عن الاشباع ، بل عن الاستمرار لما لا نهاية ، فتعيشها ساعات طويلة وهي ممددة في فراشها ، بين النوم واليقظة .

أما يوسف فقد خرج من حياتها . كانت تنسى وجوده حتى تراه . تشهده يذوي ويقترب من القبر فتشعر بحياد تام ، دون خوف أو حزن ، ان موته قريب . لقد ماتت مشاعر العطف والشعور بالذنب والخشية ان تفقده ، وأصبح حضوراً محايداً . ولكنه استمر في الحياة ، صامتاً ، ذاوياً ، لاهثاً . قالت لنفسها : قد يكون من المفيد أن ترى الطفلة لها أباً .

ـ ٦ ـ

عندما دخلت سلطانة الدار حدست الأم كل شيء . نظرت اليها وقالت :

ـ سلطانة . .

قاطعتها سلطانة :

ـ تعبانة . بدي أنام .

وضعت الأم فرشة فوق البساط ، وقالت :

ـ مين هو ؟

أغمضت سلطانة عينيها وقالت :

ـ اتركيني أنام .

همست الأم :

ـ غصبن عنك ؟
ـ اتركيني أنام .
ـ نزل دم ؟
لم تجب سلطانة . كانت قد نامت .
تربعت الأم بجوار رأسها ، وأخذت دموعها تسيل ، دون ان يصدر عنها صوت .
همست :
ـ يا عين امك .
وبللت وجه سلطانة وهي تقبلها .
استيقظت سلطانة عند الغروب . لسعها الألم بين فخذيها وهي تتمطى . صرخت صرخة قصيرة . رأت أمها ، فقالت :
ـ ميتة من الجوع .
قالت سلمى :
ـ فيه وجع ؟
قالت سلطانة محتجة :
ـ بقول جعانة ، بتقول فيه وجع ؟
قالت :
ـ جيعانة يا كبدي ؟
فقست لها ثلاث بيضات بالسمن ، وأعدت سلطة بندورة بالبصل وغمرتها زيت زيتون . أكلت سلطانة كل شيء ، وشربت كوز ماء ، وقالت :
ـ الحمد لله . كنت ميته من الجوع .
وأدركت ان عليها ان تحكي لأمها ما حدث . قالت : كانوا تسعة أولاد ، ذكرت اسماءهم ، هجموا عليها . اثنان امسكوا يدها اليمنى ، واثنان اليسرى ، اثنان جذبوا ساقها اليمنى ، واثنان ساقها اليسرى . واحد فقط قد نالها ، ولكنها ستطاعت ان تنهض بعد ذلك وتتغلب عليهم .
قالت سلمى :

ـ نزل دم ؟

ـ شويه .

ـ فيه وجع ؟

قالت سلطانة :

ـ شويه .

قالت سلمى :

ـ الغريب ما إله حدا يحميه .

في الليل نامت سلطانه في حضنها . كان نومها مضطرباً ، حتى يوسف استيقظ وهمس للأم :

ـ البنت علامها ؟

قالت :

ـ ما علامها شي . نام .

قال :

ـ عندها سخونيه ؟

قالت :

ـ لا . عليها العادة . نام .

ونام على الفور .

في الصباح استيقظت سلطانة . لم تعد تشعر بالألم الحاد ، أحستْ به ككتلة ساخنة بين ساقيها . وأخذت تمشي كالحبلى دون ان تقصد ذلك .

في مساء اليوم التالي تسللت سلطانة عند الغروب الى الحجرة الصغيرة ، المهجورة ، المقامة لصق سور بيت صليبا . نفذت من الجزء المهدم من سور الحاكورة . هذا الجزء قد فتحه الأطفال خلال فترة الصيف حتى يسهل عليهم المرور الى الحاكورة وسرقة الخيار والبندورة والعجور والبطيخ والفقوس المزروع فيها . قد يصادفون صبحا ، ولكنها وقد أصبحت عجوزا مهدمة ، كان الأطفال لا يكترثون لصراخها وتهديدها . اما صليبا فقد كان يقول : إقطعوا الخضار دون ان تقتلعوا النبتة .

كان للخضار البعلية طعم يختلف عن خضار الغور المروية بالماء . خضار الغور كانت بلا طعم تقريباً . أما الحجرة - الخشة - فقد استعملها الأطفال للتبول والتبرز ، وأحياناً لممارسة الجنس الشاذ . كانت معتمة ، تملأ أرضيتها القاذورات ، وقد تساقط جصها . كانت خرابة .

عندما تسللت سلطانة اليها وقفت مدهوشة . كانت الحجرة قد أصبحت نظيفة . لم تكن الرؤية واضحة ، فلقد كان ضوء الغروب المتسلل من النافذة الغربية بلّورياً ، يضيء الجدار المقابل للنافذة فيكشف لونه الأسمر ؛ أما بقية الحجرة فقد كانت تسبح في ظلام رقيق ، ودبع ، كظلام الحجرات المغلقة ساعة الظهيرة . النظافة ، شعرت بها سلطانة كرائحة هي مزيج من رائحة التراب المبلول وشيء كرائحة القرفة . كان صليبا هناك .

همس :

ـ سلطانة .

كان يتمدد على فرشة فوق بساط منسوج من صوف الغنم وشعر الماعز غير المصبوغين ، ووسادتين على رأس الفرشة يتكيء عليهما . تقدمت سلطانة بحذر ، فقال صليبا :

ـ خايفة ؟

قالت :

ـ لا . مش شايفة .

مد ذراعه وقادها الى الفرشة . لم تجلس ، كما توقع ، ولكنها تمددت بجواره ، دافنة وجهها في إبطه . انزلق حتى أصبح رأسها في صدره قال :

ـ استنيتك امبارح .

قالت :

ـ مبارح كان فيه وجع ، كان فيه دم .

أصدر صوتاً حلقياً عميقاً ، كذلك الصوت الذي يصدر عن رجل سمع بوقوع فاجعة . كان أنيناً ، خشناً ، متقطعاً . قالت له :

ـ ولا يهمك .

أدهشته الشجاعة ، والثقة بالنفس اللتين قالت بهما عبارتها ، وأحس لخزي . ها هي تأخذ دور الرجل في كل شيء . قال :

ــ بعد فيه دم ؟

قالت :

ــ لا . شوية وجع .

لم تكن تشكو بل قالت ذلك بجرس لعوب .

قال صليبا وكأنه يحدث نفسه :

ــ فيه دم .

ثم قال بصوت حزين :

ــ ما كنت بعرف .

قالت :

ــ انا كان بدي .

وقبّلت صدره ، ثم ارتفعت من جواره ، وغرست كوعها في الوسادة . كانت طل عليه . وأخذت تدور بسبابتها على فمه ، وأنفه ، وحول عينيه ، وقالت وهي نعل ذلك :

ــ أمي عرفت .

حاول ان ينهض ، ويبدي استنكاره : ولكنه تماسك . لن يكون الرجل لمذعور أمام هذه الطفلة . قال :

ــ مين قال إلها .

ــ أنا .

قالتها دون اكتراث وأصبعها يتابع تجواله في وجه صليبا ، لمست أذنه برفق ارتعش وضحكت . قالت :

ــ بتغار ؟

قال :

ــ انتِ قلتِ إلها ؟

قالت :

ــ آه .

ثم أضافت :

ــ من وين بتغار كمان ؟

وأخذت أصابعها تداعب صدره . شعر بمتعة المداعبة . قال :

ــ قلت إلها كل إشي ؟

ــ كل اشي .

ثم مالت وقبلت صدره . قال :

ــ كل إشي ؟

ضحكت وعانقته . احست به وقد تجمد . قالت بجدية ان أمها عرفت كل شيء عندما رأتها ، فحكت لها ان الأولاد امسكوا بها واغتصبوها . ثم مضت تعانقه ، وتدور بيدها على جسده . أحست به مستثاراً ، ورأته يحاول ان يجذبها اليه . لم تقاوم ، ولكنها قالت بصوت هادىء ، رصين :

ــ مش اليوم . فيه وجع .

ثم نهضت . قال :

ــ وين رايحة ؟

ــ مروّحة .

ــ اقعدي شويه .

قالت :

ــ بكره . بكره .

وانصرفت .

كان صليبا يختنق بالرغبة . هل يلجأ الى صبحا ؟ بمجرد أن خطر له ذلك أحس بالرغبة تتلاشى . نهض ودخل البيت . قالت صبحا :

ــ احط إلك عشا ؟

قال :

ــ ما انا جيعان .

وخرج . سهر في بيت عبد الكريم العمـاشنة ، كـان هنالـك شاعـر يحكي
ـكايات بدوية ، يتخللها الشعر ، الذي كان يغنيه على ألحان ربابته . حاول ان
ـع الحكاية ، ولكن ذهنه كان يشرد . يستعيد عبارة قالتها سلطانة ، أو تعبيـراً
، وجهها ، فيستغرق ويتوه ، حـدث صمت مفاجيء في السهـرة . نظر حـوله
ى العيون مركزة عليه . قال له عبد الكريم بصوته العريض :

ــ هاه ، ما قلت ؟

قال صليبا :

ــ ما سمعت ؟

قال عبد الكريم :

ــ أقول ، تهجس والا تنعس ؟

نهض صليبا وقال :

ــ لا بالله انعس .

وانصرف .

في اليوم التالي لم تجيء سلطانة . احس صليبا بجسده كبيراً جداً ومضحكاً .
ـ اقترب من الأربعين ، عنده ثلاثة أولاد أكبرهم يدرس في الجـامعة ، يجبس
ـه في خشة ضيقة ، دون ضوء ، ينتظر طفلة لا تجيء ، تعبث به طفلة . قال
ـه ، وقد استولى عليه الغضب . قرّر ان يغادر الحجرة ، ان ينهي علاقته بها .
ـكن . . أين أذهب ؟ » وظل ممدداً يصغي لكل حركة .

نام وصحا على حركة في الخارج . حبس أنفاسه متوقعاً ولوجها الباب ، وكأن
ـاءه المشحون هـو الذي سيـأتي بها . ثم لم يعـد يطيق صبـراً ، فتح البـاب
ج . شاهد شبحاً يتحرك في الحاكورة ، وعندما اقترب رأى انها عنزة . حملها
ـب والقاها خلف سور الحاكورة .

في اليوم الذي تلا ذلك لم تأت أيضاً . قـال لنفسـه : لن تجيء بعـد ، وهذا
ـن . انها مجرد طفلة . يجب ان انساها . ونسيها فعلاً . ولكنه ، رغم ذلك ،
الى الغرفـة ، دون ان يتوقـع مجيئها . فتـح الباب ، فلقيهـا مستلقيـة عـلى
ـة . كانت نائمة . وانفجر في داخله حبها عطفاً وحنانـاً . تمدد الى جـوارها

متجنباً ايقاظها . همهمت شيئاً ، والتصقت به دون ان تستيقظ . مرّ وقت قصير ، ثم فتحت عينيها ، ونظرت اليه وابتسمت .

داعب شعرها فامسكت بيده ، قبلتها ، ثم وضعتها على ثديها . امتلأت يده بالثدي . كان مرناً ، متماسكاً ، يتفلّت مِن بين أصابعه ، وحلمته صلبة تضغط على باطن يده . أحسّ بالثدي يتحداه فضغط عليه بقوة ، فقالت :

ــ آي .

ــ علامك ؟

قالت بوجه مكدّر :

ــ أوجعتني .

وأبعدت يده ، وأنزلت ثوبها من الكتفين ، فانكشف النهد أبيض ، مشرعاً ، نافر الحلمة ، وأخذت تلمسه بأصابعها . وهي تحني رأسها وتتأمله ، ثم أطلقته ، وتمددت على ظهرها ، وقالت :

ــ جِبُه .

احنى رأسه وقبّله ، ثم وضع الحلمة بين شفتيه وأخذ يضغط عليه برفق ، ثم ضمها اليه . قالت :

ــ بكفّي .

ابتعد . كان يلهث . عندما تكلم شعر ان صوته غريباً . قال :

ــ ليش ما اجيتي مبارح وأول مبارح ؟

قالت :

ــ نطرتني ؟

شعر بالخجل . قالت :

ــ استنيت لما الوجع راح .

قال انه لن يؤلمها ، ولكن كان عليها ان تجيء . قالت :

ــ كان ودك وأنا عندي وجع ، قلت لما يروح الوجع . . .

وكانت خلال ذلك تخلع ملابسها . قالت :

ــ حرام لما انت ودك ، وانا أقول لا .

وأضافت :

ــ شلحني .

وأخذ ينزع عنها ملابسها دون روية . لم تتدخل . جعلتـه يفعل ذلـك حتى انتهى . أخذت تقبل جسده . قال لها :

ــ بحبك .

قالت :

ــ عارفة .

قال :

ــ لولا أمي ، الله يرحمها ، بلتني في صبحا انجوزتك . على كل حال رجلها في القبر . . .

توقفت عن تقبيله ومداعبته وقالت :

ــ حرام عليك .

نظر اليها بدهشة ، فقالت :

ــ أم عيالك .

حاول ان يسكتها بالعناق . من تكون هذه الطفلة حتى تلقي عليه دروساً في الأخلاق ؟ ولكنها تملصت منه . وتكرر ذلك فيما بعد أكثر من مرة . لم تكن تحب ان تغتصب ، ان تفرض عليها ممارسة الجنس وهي مستغرقة في حالة أخرى .

أحس صنليبا ان عليه ان يشرح لها : كيف تزوج صبحا ؟ وكيف انها لم تعد تصلح لشيء ، وحكى لها بحرارة انه لم يمد يده عليها مرة واحدة ، ولم يسيء لها بكلمة . وصف لها كيف كان يمارس الجنس معها . . . كانت تنظر اليه باصغاء . لم تحاول ان تقاطعـه . وكان وهـو يتحدث يقـول لنفسه « انها تسـتطيع فهم كـل شيء ، هذه الطفلة » .

عندما انتهى كان غاضباً قليلاً ، تاثه النظرة . ضمته اليها ، وأخذت تقبـل وجهه ونحره وصدره ، وعندما أصبح مستعداً جذبته فوقها . كان رقيقاً . سألها إن كان يؤلمها ، قالت : لا . استمر . . ثم قـالت له : استمـر واسكت . وعندمـا انتهيا لم يشعر ـ كما كان يحدث من قبل مع صبحا والبـدوية ـ بـذلك الارتخـاء ،

والتقزز من الجسد . شعر بمتعة مراقبتها ، وهي ساكنة ، مغمضة العينين ، ثم وهي تبتسم له ، ثم وهي تحيط جسده بذراعيها ، وتخبيء وجهها في نحره . داعب شعرها وكتفيها برقة العاشق ، بحنان الأب ؛ ثم فجأة دعته مرة أخرى .

قال :

ــ راح الوجع ؟

قالت :

ــ راح . اسكت .

وعندما نهضت لتنصرف ، قال :

ــ اقعدي شوية .

قالت :

ــ ما شبعت ؟

قال :

ــ بكره ؟

قالت :

ــ لا .

ــ لا ؟

قبلته وقالت لا تغضب . غداً .

في اليوم التالي جاءت فعلاً . لم تمكث طويلاً . سحبت وسادة وجلست عليها . أدرك ان عليه الا يحاول ارغامها على ممارسة الجنس . كما كان يحب ان يراها ، ويحب ان يستمع اليها . كانت تعيد صياغته دون ان يعلم ، ودون ان تقصد هي . ولم يكن الاثنان يعلمان ان سلطانة تمثّل نوعاً جديداً من النساء ، تكوّن خارج سياق حياة القرية وتقاليدها ومثلها ؛ امرأة لم تعرف قمع القبيلة ، ولا السلطة الأبوية ، ولا رقابة الأم الصارمة ؛ امرأة حرة لم يتشكل لديها الأنا الأعلى .

جلست صامتة ، فقال :

ــ هاه ؟ كيف الحال ؟

لم تكن سلطانة تشعر ان مثل هذا السؤال هو مجرد مجاملة ، بل سؤال حقيقي

ينبغي عليها ان تجيب عليه . قالت :

ـ مليحة . ما بحس في الوجع .

قال لها :

ـ مبسوطة ؟

قالت :

ـ مبسوطة . لكن أمي صارت بتبكي كثير .

ـ ليش ؟

ـ ما بتقول لي .

ثم أضافت :

ـ المدرسة رايحة تفتح يوم الاثنين .

قال لمجرد ان يقول شيئاً :

ـ الاثنين الجاي ؟

لم تجب . قال :

ـ بتحبي المدرسة ؟

قالت :

ـ بطلع الأولى .

كانت المدرسة الوحيدة في القرية هي المدرسة التابعة للكنيسة الكاثوليكية . وهي بناء مقسوم الى قسمين : واحد للصبيان ، وآخر للبنات . وكانت الدراسة للقسمين تنتهي عند الصف السادس ابتدائي .

قال صليبا :

ـ ايش بعلموكي في المدرسة ؟

قالت :

ـ ا حليزي وكله .

قالت :

زي وعربي وحساب وجغرافيا وتاريخ . . .

قال :

ـ تعالي نامي جنبي .

نهضت وقالت :

ـ بدي اروّح .

ـ ٧ ـ

توقف مسعد بسيارته (سيارة شحن قديمة) أمام باب الدكـان وهبط . كان طويلاً . نحيلاً ، عضلات جسمه بارزة ، تتخللها شرايين بارزة . تعرف سلمى ذلك الجسم . له صلابة الصخر وخشونـة مبرد . كـان له أنف يبـدأ ضيقاً ، ثم يتحول في انحداره الى كرتين ، فيضفي عليه طابع حيوية وتحفز . لوجهه لون بني ـ ذلك الوجه الأبيض الذي حوّلته الشمس والعرق والتراب الى اللون البني ـ وكان شعر لحيته الذي لم يحلق منذ عدة أيام، له لون اشقر غامق كلون التبغ الفرجيني ، لون ينسجم مع اللون البني ، يضيء في قتامته . عيناه زرقاوان ، زرقتهما باهتـة تكاد تكون بيضاء . كانتا صماوان ، بلا تعبير كأنهما لا تريان .

يداه كبيرتـان ، أصابعهـما طويلة ، وجـافتان . كـانتا عـرقانـتين ، زلقتـين كصخرة ناعمة مبلولة . وكان ، خلافاً لأهل القرية ، يلبس بنطلوناً وقميصاً ، و. يضع الحطة والعقال على رأسه .

عندما تراه سلمى تشعر بجسده لصق جسدهـا قويـاً ، خشناً ، عـدوانياً ، فيستولي عليها خوف ينتشر تحت جلدها ، فيصبح ـ جلدها ـ حساساً كأنه تعرض لشمس شديدة الحرارة فترة طويلة . وبمجرد ان يقترب تصيبها رائحة جسده القوية النفّاذة بالدوار .

لم تكن تشعر بالمودة نحوه ، كان يهينها في الفراش ؛ وفي أحيان كان يصر ان يضاجعها في بيتهـا ، بعد أن ينـام يوسف وسلطانـة . كانت تقـول له : مـاذا لو استيقظ يوسف أو سلطانة ؟ فيقول بأسلوبه القاطع :

ـ الدنيا عتمة .

تقول :

ـ رايح يحس فينا .

فيقول بعصبية :

ـ خليه يحس .

أما أكثر ما كان يبينها به هو عندما تذهب معه الى عمان . كان يسهر في البيت العاري الذي بناه في عمان . كان يسهر معه بعض الغرباء يشربون العرق ، وكان يفرض عليها أن تضاجع أحد ضيوفه . وعندما كانت تمانع كان يفح بغضب يجمّد الدم في عروقها :

ـ ويعدين معاكي . خلينا نمشي الشغل .

لم تكن تستطيع ان تغضبه فلقد كانت تكسب من ورائه الكثير . كان أهل القرية يشترون حاجاتهم من الدكان بالقمح والشعير والعدس والبيض ، وكان ذلك يتحول ، على يدي مسعد ، الى بضائع . ثم اخذت تشتري القمح بالنقود وتبيعه له بمكسب . كما كان يأخذها الى عمان ويساعدها على شراء بضائع للدكان . وفي الليل حين يضاجعها بعض ضيوفه ، كان يضع في يديها نقوداً أكثر مما تتوقع . تصل أحياناً الى دينار كامل . وعندما ينصرفون يبدأ هو ، ويكون ، وهو سكران ، عنيفاً ، يقذفها بأبشع الشتائم وهو في قمة لذته .

كانت تعزّي نفسها : انها ليلة كل ثلاثة أو أربعة شهور . ولكنها ليلة تعود بعدها تعاني ألماً في كل جزء من جسدها ، مرهقة ، لا تكاد تستطيع الوقوف على قدميها .

دخل مسعد الدكان ، وقال :

ـ بدنا بيض .

قالت سلمى بصوت فيه ارتعاشة غير ملحوظة :

ـ فيه تقريباً عشرين بيضة .

ـ بدي مية .

قالت :

ـ ميه ؟ منين أجيب ؟

ـ دبري . بكره الصبح .

واستدار لينصرف . قالت سلطانة :

ـ عموه ركبني السيارة .

تأملها ، فرآها أصبحت بطول أمها ، وقد بدت مكتملة الجسد ، يكاد نهداها ينفلتان من الثوب . قال :

ـ تعالي .

وخرج وتبعته . شعرت سلمى بالاختناق . كانت تريد ان تطلب من مسعد ان يبعد عن ابنتها ، كله الا سلطانة ، تريد قول ذلك وليكن ما يكون ، وتريد ان تمنع سلطانة ان تتبعه ، وان تقف بينهما ، ولكن الحاجز الخشبي كان يعيق حركتها ، ومسعد أصبح داخل السيارة ، وسلطانة تدخل السيارة ومسعد يمسك بيدها ليساعدها على الصعود . وعندما أصبحت بباب الدكان وهي تلهث انطلقت سيارة الشحن مسرعة . نادت :

ـ يا سلطانة .

ولكن صوتها خرج مختنقاً .

رأت السيارة تبتعد ، وقد أخفاها غبارها فخنقها عجزها ، عادت الى الدكان وجلست وراء الحاجز الخشبي وسالت دموعها .

عند العصر عادت سلطانة . كانت سلمى قد بعثت يوسف ليقف في الدكان وذهبت الى البيت . تصورت ما يحدث لابنتها في تلك اللحظة ، تصورت جسدها مهروساً بالجسد الصخري الخشن ، ووجهها متقلص بالألم ، تخيلت صرختها ويد مسعد تهبط كأنها نبوت سنديان على وجهها . . . ثم عاشت مشاعر ابنتها في ضوء آخر : مسعد كما كان في البداية ، وديعاً ، مبتسماً تلك الابتسامة التي تكوّر خديه فيصبح له وجه طفل ، وعنفه عندما يصبح اندفاعاً مع رغبة لا تقاوم ، رغبة متجددة تستمر ساعات . والاثنان لا يرتويان . . . فعاشت لحظات متعة رافقها وانتصر عليها شعور بالغيرة . لم تكن غيرتها موجهة الى سلطانة ، بل الى مسعد الذي يستغرق في تلك اللحظة بتواصل لا حدود له مع حبيبة القلب .

نهضت وسارت في الدار . نسيت السبب الذي نهضت من أجله . وقفت أمام الزير وملأت الكوز ماء وشربت . قالت لنفسها :

ــ موتك يا مسعد على ايدي .

في تلك اللحظة دخلت سلطانة . ومنذ أن رأتها علمت انه لم يحدث شيء بينها وبين مسعد . دخلت ضاحكة ، صاخبة ، مهتاجة ، لوجنتيها تلك اللمعة الحمراء المبهجة ، وبعينيها ذلك البريق المشع . رأت مشيتها ، تلك المشية القافزة . . مشية ليست لامرأة أذُل جسدها .

ــ هلا بحبيبتي .

وضمتها ، وهي تهذي هذيان عاشقة :

ــ جنينتي ، نوّارة قلبي ، طوّلتِ . .

قالت سلطانة :

ــ يمه ، يمه ، لا تبكي .

قالت سلمى :

ـ وين رحتوا ؟

قالت سلطانة بلهوجة وصخب :

ــ رحنا لعمان يمه ، رحنا لعمان يمه . لما دخلناها حسّبت فيه هوشه . (وتضحك) حسّبت الناس بضربوا بعض . خفت ، وضحك علي عمي مسعد . (وتغرق في الضحك) والنسوان ماشيات مزلّطات في الشارع ، صدرهن مبين ، وذرعانهن مبينة ، ورجليهن مبينة ؛ وفيه نسوان مغمغمات يمه ، على وجهن قماش اسود ، الخرفان . . . يمه الخرفان ، خرفان مذبوحة ومعلقة . . مية خروف ، ميتين خروف . . . وأكلنا لحم مشوي ، وشربنا ميه حمرا بتفور . حسّبتها ساخنة . لقيتها مصقعة مثل الثلج . . . والسيارات . .

ومضت تحكي دون توقف .

قالت الأم :

ــ جيعانة ؟ اسوي لك زاد ؟

قالت سلطانة :

ــ لما اكمّل . . .

واستمرت تصف ما شاهدته في عمان .

ــ ضحكني الزلمة . .

ــ مين الزلمة ؟

قالت سلطانة وكأن ذلك شيء مفهوم :

ــ الزلمة اللي في المطعم. هيك دنق راسه، خفت يخبط في راسي، وقال: يش بتريد الست ؟ » ضحكت . حسّبته بمزح معايي . وقعدت على كرسي مثل كرسي اللي بقعد عليه قاضي الصلح . . .

أصغت اليها سلمى دون ان تقاطعها . كانت تعرف ان البنت غير مستعدة ي حديث جدي وضحكت سلطانة :

ــ شكراً ، عفواً ، شكراً ، عفواً ، الواحد بقول للثاني شكراً ، والثاني بقول عفواً . شكراً ، عفواً .

لم تعد سلمى تصغي . أخذت تعد الطعام وهي تسمع صوت ابنتها بجارات صاخبة ، تقطعها كركرة الضحك . سوف تحكي لها عن مسعد ، وعما يده منها . ولكنها تشعر ان هذا ليس بالوقت المناسب . قبل ذلك عليها ان حدث الى مسعد ، سوف تهدده ، وليكن ما يكون . وعليها ان تمنع ابنتها من ؤيته . ولكن كيف ؟ سوف تجد حلاً لذلك .

تنبهت ان ابنتها صمتت . التفتت فرأتها تائهة النظرة . وضعت الطعام أمامها شاركتها فيه . فجأة نظرت اليها سلطانة وقالت :

ــ يه ، عمي مسعد وده اياني اتجوز بشارة .

ــ ٨ ــ

بدأت علاقة صليبا بسلطانة منذ ثلاث سنين . ربما أكثر أو أقل من ذلك . كانت زيارة سلطانة لعمان برفقة مسعد حداً فاصلاً بين مرحلتين في هذه علاقة . في المرحلة الجديدة اكتشفت سلطانة قوتها ، تبين لها ان كل من لها صلة باشرة به يخضع لإرادتها بهذا القدر أو ذاك : صليبا ، مسعد ، بشارة ، امها ،

والدها ، زوجات اعمام بشارة ، وعماته العوانس . لم تكن تتقصد ذلك ، أو تسعى اليه . رأته يحدث .

وبهذا القدر أو ذاك أحدثت تغييرات في مصائر من حولها ، وفي علاقاتهم . كانت الوحيدة التي لم تكن تدرك ، وإن أدركت لم تكن لتكترث ، ان للمجتمع قوانين . ولهذا كانت أكثر حرية وجرأة . كانت تطيع حريتها الداخلية ، ولم يكن يخيفها أحد . وحاول مسعد ان يكون ذلك الرجل المخيف ، ولكنه أدرك فيما بعد - وكما سوف نرى - ان العلاقة الوحيدة مع سلطانة ، العلاقة الممكنة هو الخضوع لها . لقد نجا بشارة لأنه رضي بمصير الزوج الشكلي . لم تسمح له الا بلعب دور الاطار الخارجي للزوج . لم يعرف جسدها الا مرات معدودة ، لم تتح له ان يكون أباً لأبنائها ، ولا لمسعد . جعلت صليبا أباً لأميرة وأباً لطفلها الثالث ، أما الرابع والأخير فقد كان ابناً لحكمت ، الذي كان يشرف على المخيم المقام قرب مدينة العقبة ، والذي كانت تمر عبره قوافل تجار الحشيش الى مصر ، وعبره تتم تجارة الماس مع اسرائيل .

أما الابن الثاني فقد كان غلطة ، دفع من ارتكبها ثمنها غالياً . الواقع ان هزيم لم يكن هو البادىء . تنبهت سلطانة الى وسامته الانثوية فأحبته أباً . كانت تعلم انه كمسلم لا يصلح كحبيب . كما انها لم تشعر نحوه برغبة جسدية . ولكنها أحبت ان يكون لها بنتاً جميلة . كان يتناول الغداء عندهم . انصرف مسعد وقالت لهزيم :

ــ خليك شويه .

رأت اصفرار وجهه وارتعاش يديه فلم تأبه لذلك . اغلقت الباب عليهما وقالت له انها الآن بين حيضين وتريد منه بنتاً . لا تدري لماذا أصرت ان يضاجعها . رأته يحاول ان يقول شيئاً فلا يستطيع ، ورأت العرق يسيل على وجهه دون توقف ، ودون ان يحاول تجفيفه . عجز عن خلع ملابسه فخلعتها . وعندما انتهت منه ، وقد أصيب بحالة أشبه بالاغماء شعرت للمرة الأولى انها تكره جسدها . كان يدير لها ظهره فرأت عجيزته وأحست بالغثيان . رفست عجيزته وقالت :

ـ البس هدومك .

وعندما كان يغادر الدار قالت له :

ـ وكان بدك تتجوز آمنة ؟

نظر بعينين واسعتين في وجه أصفر . فكرت انه ما يزال خائفاً ، وسوف يظل خائفاً ، قالت بعصبية :

ـ استعجل امشي .

ثم وهو يغادر البيت ، قالت :

ـ لا تخليني اشوف وجهك خطرة ثانية .

وبعد خروجه سخنت ماء واستحمت .

منذ تلك اللحظة قررت ان تحوّل هزيم من شريك الى أجير .

هذه الحرية الداخلية ، والشعور بعدم الالتزام بشيء لا ترغب فيه ، هما اللذان جعلاها تنسى زيارتها اليومية لصليبا . في اليوم الرابع تذكرته وزارته لتحكي له عن عمان . وكما فعلت مع أمها حكت له عن عمان ، وفي نهاية حديثها أخبرته عن زواجها القريب ببشارة . قال صليبا :

ـ بشارة ؟

قالت سلطانة وقد بدا الرعب على وجهها :

ـ علامك ؟

شعرت ان شيئاً غير مفهوم قد حدث . إذ أخذ صليبا يتنفس بصعوبة ؛ كان يتنفس من فمه ، وبدا انه على اهبة النوم . فكرت في مناسبات مماثلة . تذكرت انه يرشقون الماء على الوجه ، ويطلبون الى المصاب ان يشرب . نهضت وأتت بكوز الماء . بللت وجهه وشعره ورقبته ، وقالت له ، وهي تمد الكوز وتضعه قريباً من فمه :

ـ أشرب .

أخذت عيناه ترمشان ، وقال بصوت مختنق :

ـ بشارة يا سلطانة ؟

لم تستوعب السؤال . قالت :

ـ بشارة اخو مسعد .

قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ بشارة أخو مسعد .

وأخذ يهز رأسه ببطء ويردد :

ـ بشارة اخو مسعد .

واستمر يهز رأسه وكأن ذلك لن ينتهي ابداً ، وهو خلال ذلك يردد : « بشارة اخو مسعد . بشارة اخو مسعد . بشارة اخو مسعد » يلقيها بايقاع شبيه بالغناء . شعرت سلطانة ان شيئاً مفجعاً يحدث ، شيئاً لا تستطيع تحديده ، ولكنه يحيط بها ، ويقبض على قلبيها . وأحست برغبة في الصراخ ، أو الضحك . قالت :

ـ وعلامك ؟

وتكلم صليبا بمرارة ، وبلهفة لم تعهدهما من قبل . وهي تصغي لصوت صليبا احسّت بشكل غامض وغير مفهوم ، حتى بالنسبة لنفسها ، انها تملك أرواح الرجال ومصائرهم . شعرت بقوة ، وبانها في وضع تقرر لنفسها وللآخرين ما يجب فعله . قال صليبا انه كان يظن انها سوف تنتظر . ان صبحا تسرع الى قبرها ، ومضى الكثير ولم يبق الا القليل .

قالت سلطانة بعصبية :

ـ صبحا تموت ، صبحا تموت ، صبحا رجلها والقبر . . ما عندك غير هالسيرة ؟ ما بحب سيرة الموت .

صمت صليبا قليلاً ، ثم سألها إن كانت قد جاءت لتودعه ، ان كانت هذه هي المرة الأخيرة التي سوف تراه فيها . بدا ذهول حقيقي على وجهها ، ونظرت اليه نظرة ثابتة وقالت :

ـ اودعك ؟

قال صليبا :

ـ بعد الجواز يعني .

قالت انها باقية في القرية . سألها : هل ستزوره ؟ قالت وكأن المسالة واضحة ، ولا تحتاج الى سؤال : انها ، بالطبع ستفعل . لماذا لا تجيء اليه ؟

كرّر سؤاله :

ــ بعد الجواز ؟

قالت بالطبع . سألها :

ــ ليش

نظرت اليه ولم تجب . شعر انه أصبح مزعجاً . صمت ، معتقداً أنها لن ترد ، وعاجزاً عن البدء بموضوع آخر . قالت فجأة :

ــ ليش بجي لك بتقول ؟ بكيّف معاك .

انطلقت ضحكة من صليبا ، ومدّ ذراعه وأحاط كتفيها وقبّلها على خدها . كانت استجابتها غير متوقعة ، إذ شهقت واندفعت اليه وهي تئن . كان يوماً خاصاً بالنسبة للاثنين . لم يمارسا الجنس قط بمثل هذا الاقبال وعدد المرات . انصرفت في ساعة متأخرة ، وقد نام صليبا في مكانه .

عندما غادرت ، رأت أمها تنظر اليها بدهشة . قالت :

ــ ويش أخّرك يا بنيتي .

قالت :

ــ جيعانة .

قالت الأم :

ــ مسعد سأل عنك .

ــ ايش بده ؟

ـ قال العرس بعد اسبوع ، وسألني عنك ؟

ــ قالت سلطانة :

ــ ايش قلتِ إله ؟

ــ قلت له راحت عند جملا .

نظرت سلطانة الى أمها ، فزاغت نظرتها، واحمرّ وجهها. وبحدس أصبح طبيعة ثانية أدركت سلطانة ان شيئاً ما حدث بين أمها ومسعد ، وكان يحدث منذ زمن بعيد .

وأمها تعدّ لها العشاء . وتنظر اليها خلسة ، ثم تنصرف الى اعـداد الطعـام عندما تبادلها النظرة شعرت سلطانة للمرة الثانية بانها تملك قوة على الآخرين ، ان تحدس ما يـدور في نفوسهم من خـوف ، وان تستعمله للسيطرة عليهم . كـانت تخيفها قليلاً هذه القدرة ، إلاّ أنها لم تستطع مقاومة اغراء استعمالها .

وضعت أمها الطعام أمامها وجلست قبالتها تشاركها الطعام . قالت سلطانة تخاطب أمها :

ــ طوّلت القعدة ؟

نظرت اليها أمها . رأت البسمة الغريبة على وجهها ، فـأحنت رأسها ، ثم رفعت وجهها مع اللقمة التي في يدها ونظرت اليها وكأنها لا تراها . قالت :

ــ لا . ما طوّل .

ــ وين أبوي ؟

ــ نايم من العصر .

ابتسمت سلطانة وقالت :

ــ ما صحّتيه لما إجا مسعد ؟

ــ لا .

قالت سلطانة :

ــ والله يا يمه ، انتِ مظلومة مع أبوي .

ــ عيب يا سلطانة .

الجزء الثاني

عمان

الفصل الأول :

ـ ١ ـ

في طريقي الى الباص ، وأنا احمل الحقيبة ، فوجئت بسلطانة . كانت قادمة من اتجاه الباص . ارتبكت . هل تسلم علي ام تتجاهلني ؟ فوجئت بي واضاء وجهها . تلك لحظة ـ مشهد ـ موقف سيظل محفوراً في ذاكرتي حتى آخر لحظات العمر . عشت بعد تلك اللحظة في مدن كثيرة ـ عمان ، بيروت ، دمشق ، بغداد ، القاهرة ، اديس ابابا ، روما ، برلين ، تونس ، فاس ، الرباط ، الدار البيضاء ، اثينا ، الاسكندرية ـ وكثير من المدن الأخرى ، وعرفت ، واحببت نساء في كل هذه المدن ، ولكنني لم أعرف قط وجهاً اثارني وظل يلاحقني كوجه سلطانة في تلك اللحظة .

كان للوجه فتنة لا توصف بتفاصيلها ، بل بالأثر القاتل الذي تخلّفه . فتنة تعلم انها ممتنعة ، لأنها ، حتى حين تمنح نفسها ، فسوف تحس انك لم تلمسها بل تجولت بشفتيك على وجه امرأة . في وجه تلك المرأة حرية لا تستطيع السيطرة عليها أو امتلاكها . اقتربت مني وهي تقول بمناغاة :

ــ جريس ؟ مسافر ؟ بعد يومين بنلحقك .

سقطت الحقيبة من يدي وانا أقف بانتظار ان تقترب ، وأنا أشاهد صدرها الناضج ، الانحناءة القوية التي تشكل الخصر ، العنق الشامخ ، والنحر الصقيل . أقف بانتظار ان تفيض علي وتغمرني .

ضحكت حين اقتربت وقالت :

ـ قلت لمسعد يستناك حتى لو تأخرت ساعتين .

ثم أضافت بلهجة لعوب :

ـ عارفيتك بتتضاحى في النوم .

قلت :

ـ ما نمت مبارح .

كان صوتي خشناً ، وقد اشعرتني الجملة التي قلتها بألم في حلقي . كنت أود ان أضيف ان ذلك كان بسببها ، فلم استطع . رأيت الدم يهرب من شفتيها ، وعينيها تصبحان براقتين جداً . قالت :

ـ ما نمت ؟

وكما تفعل مع طفل مالت وقبلت خدي . ولم استطع السيطرة على نفسي . ضممتها وقبلت شفتيها . ابتسمت وقالت :

ـ ما انت خايف حدا يشوفك وانت بتحبني ؟

ـ لا . لازم اشوفك في عمان . . انا . . انا . .

حملت الحقيبة وقالت :

ـ امشي معاك لحد الباص .

حاولت ان اعترض على حملها الحقيبة ، وان أجذبها من يدها ، ولكنها اصرت بحزم على حملها . سرنا قليلاً وهي تحمل الحقيبة ، ثم وقفت أمامها قلت :

ـ ما بصير هيك يا مدام .

ضحكت وقالت :

ـ طيب احملها انت .

حملتها وقلت :

ـ رايح اشوفك في عمان ؟

قالت :

ـ كثير ، كثير . .

ثم نظرت اليّ بجدية :

ـ انت مسافر بيروت ؟

ـ بعد شهرين . تيجي تزوريني في بيروت ؟

قالت :

ـ بتحسبني رايحه أقول لا ؟ والله غير اجي لك .

سرنا قليلا ، ثم أضافت :

ـ بنات بيروت رايحات ينسوك اياني .

قلت :

ـ انت احلى من كل بنات الدنيا .

وكانت تشع مرحاً بجواري .

أتذكر في أحاديثي الطويلة مع سمحة ، بعد هذا بفترة طويلة . كانت تريني مجموعة من الصور الفوتوغرافية لسلطانة . كانت سمحة قد عرفت ان سلطانة خالتها . قالت سمحة :

ـ هذه سلطانة وحكمت .

كان حكمت يلبس بذلة ضابط شرطة برتبة عقيد ، وكان له طلعة نجم سينمائي . كان نصف شركسي . وبجواره سلطانة . ترتدي تنورة زرقاء وبلوزة بيضاء ، وقد فرقت شعرها من منتصف الجبين حتى نهاية قمة الرأس ، ثم ألقته خلف كتفيها . كان رأسها أعلى قليلاً من كتف حكمت . كانت تنظر باستسلام وكسل الى الكاميرا . قد تكون غاضبة أو مجرد ضجرة ، بدت أقرب الى السمنة .

قالت سمحة :

ـ هذه سلطانة في خليج العقبة .

كانت تلبس مايوهاً من قطعة واحدة ، تخفي عينيها بنظارة سوداء ، وتخفي شعرها بطاقية من المطاط . كانت تتكيء بظهرها على عامود الشمسية ، وهي جالسة على الأرض ، وقد ضمت ساقيها المطويين بذراعيها ، واستقر ذقنها على ركبتيها . لم يكن فيها ما يثير . وصورة اخرى تقف فيها على الشاطىء ، مواجهة الشرق ، وقد بدا البحر من ورائها . وصور أخرى كثيرة . .

قلت لسمحة : سلطانة حضور ، اذا غاب غابت . لا يمكن وصفها سواء بالكلام أو بالصورة الفوتوغرافية ، أو حتى بالسينما .

بدا الغضب على وجه سمحة وبدت الغيرة واضحة في كلماتها :

ـ أنت بتحبها ؟

لم ارد .

قالت :

ـ كان فيه شي بينك وبينها .

لم أجب ، فقالت بغضب :

ـ سكوتك انه كان فيه شي . بينك وبين شرموطة ؟

ودعت سلطانة عند باب الباص . نادت :

ـ مسعد ، دله على البيت .

ـ ٢ ـ

عندما وصلت بنا السيارة قمة (مصدار عيشه) انكشفت عمان أمامنا فجأة : الوادي ، بيوت الحجر البيضاء الهابطة من الجبل النظيف ، بيوت قليلة على يميننا ، تقف على قمة جبل الأشرفية .

وآلاف الأجزاء من آلاف البيوت . والأشجار ، وأعمدة التلغراف . كان ذلك دائماً يفاجئني: ان اجد نفسي فجأة ، دون تمهيد ، على أطراف مدينة كبيرة .

توقف الباص ، وطلب مسعد من الركاب الزائدين عن المقاعد ان يهبطوا ، وسوف ينتظرهم الباص عند بداية حارة المهاجرين . كان يفعل ذلك قبل الوصول الى نقطة المرور ، التي يفترض انها تشكل المدخل الجنوبي للمدينة . يقوم احد أفراد النقطة بكتابة رقم السيارة القادمة ، واسماء الركاب ، ويفحص أوراق السائق ، ويتأكد انها لا تحمل أكثر من العدد المسموح به من الركاب . وبعد ذلك يسمح للسيارة بالمرور .

كان ذلك يستغرق وقتاً كافياً لأن يصل الركاب الزائدين الى النقطة

ويتخطونها ، ثم يتوقفون عند الجسر المؤدي الى حارة المهاجرين ، حتى تصل السيارة ، ويركبونها مرة أخرى . يتم ذلك أمام رجال النقطة فلا يفعلون شيئاً .

أخذنا نهبط المصدار . على الجانبين أكواخ من الصفيح ، أو خيام بيضاء مربعة ، نساء مكدودات يطالعننا بأنوف مجعّدة ، وايد مفروشة على الحواجب تقي العيون ضوء الشمس ، أطفال انصاف عراة يركضون نحو السيارة ويصرخون بعبارات غير مفهومة . يلي ذلك المقبرة : قبور بيضاء ، صغيرة ، أنيقة ، تصعد من جوف الوادي وتتسلق الجبل . لم تكن هذه القبور ـ على الأقل بالنسبة لنا ، نحن القادمين من القرية ـ توحي بالموت ، بل بدت كزخرف يزيّن مدخل المدينة .

بعد ان تجاوزنا نقطة اخذ الباص يشق زحام حارة المهاجرين ، أقدم منطقة في المدينة ، وأكثرها ازدحاماً . الأرصفة الضيقة مزدحمة ، يفيض زحامها على الشارع ، ويجعل مرور السيارات صعباً ، كان هنالك باعة متجولون يبيعون السجاير المحلية والأجنبية ، والحلوى التي يحط عليها الذباب ، والترمس ، والهريسة ، والفلافل المقطعة والملفوفة بخبز رقيق على شكل سندويتشات ، وقد أضيف اليها سلطة البندورة والفلفل الأخضر الحار . وكان هنالك تجار أغنام ومواشٍ ، يسوقونها بجانب الرصيف ، وعساكر شرطة يضعون خوذات تعلوها خوازيق معدنية ، برّاقة ، بيضاء ، ورجال يحملون على الكتفين ملابس قديمة (معاطف وبنطلونات وجاكتات وكنزات) وينادون بأصوات منغمة ، وعتّالون يربطون سلالاً مصنوعة من القصب على ظهورهم . . . توقف الباص في منتصف شارع الملك طلال ، وهبط منه بعض الركاب .

خلال ثوان أحاط بالسيارة واندفع الى داخلها عدد لا يصدق من العتّالين ، وباعة السجاير ، وباعة الصحف ، والحلوى يتدافعون ويزعقون ، ويعرضون خدماتهم بالحاح مثير للأعصاب . زعق بهم مسعد :

ــ انزل يا حمار ، يا ابن الحمار .

ولكن صوته يضيع وسط الضجيج ، فيستدير ويصرخ :

ــ وين راحت العصابة . انزلوا أحسن إلكوا يا ولاد الشرموطة .

وتناول مسعد العصا فعلاً ، قنوة من خشب السنديان ، لها رأس بيضوي ورفعها فوق رأسه . وثب بائعو الصحف والحلوى من باب الباص ، واختبأ العتالون وراء كرسي الركاب يعرضون خدماتهم بهمس والحاح . عندما تحركت السيارة رفسها بائع الصحف بقدمه ، وقهقه .

على جانبي الشارع دكاكين مزدحمة بكل أنواع البضائع التي تستهلك في الأرياف : العباءات ، الأقمشة النسائية أبو غزالين ، والبفتة البيضاء ، والكوفيات ، والعقل ، والأحذية ، ومختلف أنواع الحلوى الرخيصة ، والمغارف الخشبية ، والطناجر ، والقلائد ، والمناجل . . .

فكرت انني بعد ساعة أو ساعتين سوف أصبح واحداً من أهل هذه المدينة ، سوف أخلع هويتي القروية ، اتخلص من هذه السلة المملوءة بالأطعمة ، والتي تميز القروي الذي يدخل المدينة ، وأخلع ملابسي التي يكسوها الغبار ، وأحلق لحيتي واستحم ، والبس البذلة الجديدة ، وسأبحث عن الأصدقاء الذين يعترفون بهذا الانتماء ، ويؤكدونه بتلقائية . أما هؤلاء القرويون فسوف يحتفظون بغربتهم ، يتقوقعون في داخلها ، ويحتمون بها . أسعدني هذا التميز عمن حولي ، القدرة ان أقف في الجانب الآخر الغامض ، الغريب ، المدهش .

منذ البداية ، منذ ان غادرنا القرية أخذت أشعر بالانفصال عن أهل قريتي . بل قبل ذلك : فمعانقة سلطانة ، والمسيرة سوياً الى الباص ، والاتفاق على ان نلتقي في عمان ، ثم وعد سلطانة ان تزورني في بيروت . . . كل ذلك تم خارج عرف القرية . وفي داخل الباص كان أهل القرية يرددون تلك النكات التي اسمعها كلما سافرت معهم الى عمان : هل تم علف الباص جيداً ؟ هل تناول كفايته من التبن والشعير ؟ إبعد عن الباص ليرفسك . وعندما يطلق زاموره يقولون انه يصهل أو ينهق . . . وشعرت بانقطاع كامل عنهم ونحن نمر في شوارع عمان ، وهم يسخرون من النساء اللواتي يسرن بأذرع عارية ، ويقولون انهن هائجات لأن رجال عمان ناعمين ولا يشبعونهن ، وانهن يبحثن عن رجال حقيقيين ، ويتظاهرون بالدهشة من اللحامين الذين يعلقون هذا العدد الكبير من

الخراف ، ولا يقولون لهم ، وهم ضيوف، « تفضلوا » . ويتبرع أحدهم ليحكي القصة التي سمعتها أكثر من مائة مرة . عن البدوي الذي جاء الى عمان فوجد رجلاً يقف بباب المطعم ، فناداه :

ــ اهلاً وسهلاً يا شيخ العرب ، تفضل .

ففرح البدوي ودخل ، وأكل كثيراً ، وصاحب المطعم يلح عليه ان يأكل المزيد ، والبدوي الجائع ، سعيداً بهذا الكرم ، لا يمانع . وينهض البدوي شاكراً « يكثر خير المعازيب » ولكن صاحب المطعم يطالبه بثمن الطعام . فيندهش البدوي ، ويشرح موقفه ، ويعيد رواية ما حدث ، ولكنه يضطر في النهاية ان يدفع .

ويكرر آخر حكاية أخرى عن البدوي الذي كان يسير في شوارع عمان ، فيلتقي به رجل ، يفتح ذراعيه ويضمه قائلاً :

ــ يا هلا بحمد ، وشلون الضعوف يا حمد ، عساك زين . .

والبدوي يقول :

والله ما انا حمد .

والآخر يلح انه حمد ، وانه يخفي هويته حتى لا يدعى للغداء . هنا يلين البدوي ويقول انه حمد بالفعل ، وانه اخفى نفسه حتى لا يكلف الرجل مشقة دعوته الى الطعام . وهكذا يسيران الى مطعم فاخر ، ويأكلان ما لذّ وطاب ، وينهض الرجل ليغسل يديه ، ولكنه لا يعود وبعد انتظار طويل يواجه البدوي الموقف : عليه ان يدفع حسابه وحساب مضيفه ، فيصرخ :

ــ ملعون ابوك يا حمد !

مع شعوري بالانفصال عن أهل قريتي عشت حلم الانتماء والانفصال كفعل ، متابعاً خط سيارة الأجرة : مواصلة السير في شارع الملك طلال حتى نهايته ، مروراً بساحة الجامع ، ثم الانحراف يساراً حتى الساحة التي فيها الساعة ؛ ثم على يساري الممر التجاري ، ومطعم ابو العبد ، ومحلات باتا لبيع

الأحذية ، مكتبة الصفدي ، والدرج الصاعد الى جبل عمان . . . على اليمين مقهى السنترال ـ عن يمينه شارع السلط وعن يساره شارع وادي السير ـ ثم أواصل في شارع وادي السير ، مبنى البريد الرئيسي ، ثم مقهى وادي النيل ـ معالم ثابتة في ذهني ـ ثم نسير حتى نصل في بداية الصعود الى جبل عمان . على يميني تأخذ البيوت في الانحدار عن مستوى الشارع ، وعن يساري تطل علينا البيوت من فوق ، تعلو وتتراجع ؛ وأواصل السير ، أدور حول الدوار الأول ، والسير حتى انحرف يميناً ، مدرسة المطران التي انهيت فيها دراستي الثانوية على يميني . أتابع مبنى الحمام ودورات المياه ، والمبنيين الداخليين المخصصين للنوم ، أراهما خلف سور من الأسلاك التي تتقاطع على شكل معينات . من الطابق الثاني كنا نتلصص خلف الشباك ، ننتظر الفران ليطرق الباب في الطرف المقابل من الشارع . تخرج المرأة بقميص النوم . نرى ذراعيها ونحرها والجزء الأعلى من الثديين وهي تحمل خشبة مستطيلة ، صفت فوقها الأرغفة التي ما تزال عجيناً ، فيتناولها الفران ، وترتفع قامة المرأة لتضع الخشبة على رأس الفران . تلك لحظتنا المرتقبة ، حيث يقفز النهدان من فتحة القميص ، يرتفعان في الهواء ، وتنتصب الحلمتان ، غامقتا الحمرة ، مندفعتان الى الأعلى . تنظر المرأة الى الشباك . هل ترانا خلف الستائر ؟ ولكنها تدخل وتغلق الباب الخارجي ؛ تبدو للحظات ـ أجزاء منها تبدو ـ عبر الشجر الكثيف ، ثم تختفي تماماً .

يلسعني الحنين الى حياة لم تكن سعيدة ، ولكنها ممتلئة .

تواصل السيارة ، تنحرف يميناً الى الشارع غير المرصوف ، جنوب المدرسة ، نمر عبر المثلث المحاط بسور من الأسلاك والمزدحم بأشجار الصنوبر ، ثم أصل الى الحجرة الواقعة تحت مستوى الشارع . أدفع الباب الخارجي وأدخل . المفتاح في حوض الزهور ، الذي لا زهور فيه . رائحة الحجرة أعرفها ، رطوبة ، ورائحة أحذية وجوارب لم تغسل . احلق لحيتي ، استحم ، البس جارباً جديداً وحذاء نظيفاً ، وقميصاً ، وبذلة جديدة . كل شيء جديد ونظيف . انا نفسي سوف أصبح جديداً .

تابعت المسيرة باستغراق ، وغياب عما حولي ، وكأنني أعيش حلم يقظة

جنسي . اما ما لم اكن أتوقعه هو ان يختلي بي مسعد وان يصف لي البيت بدقة ، ثم يعطيني رقم تليفون البيت . فعل ذلك بهمس تآمري ، وهو يضع يده على كتفي ، وقد شفّت عيناه الصخريتان حين ابتسم (لأول مرة في حياتي أراه يبتسم) . كان له ابتسامة جميلة ، وعيناه ، في تلك اللحظة كانتا عيني حالم . عاملني وكأنني أحد أفراد العائلة . انجذبت نحوه وغاب عن ذهني انه ينفذ أوامر سلطانة .

وعندما حملت سلتي والحقيبة ابغي الانصراف ، أصرّ أن يحمل الحقيبة عني واستوقف سيارة أجرة . فتح الشنطة الخلفية للسيارة ، ووضع فيها الحقيبة ، ثم قال للسائق :

ـ دير بالك عالأستاذ .

ثم همس لي :

ـ تكلم بكرة الظهر .

قلت :

ـ رايح تكون موجود ؟

قال :

ـ اذا ما كنت سلطانة بتكون موجودة .

وانطلقت بي السيارة .

كان أكثر ما أدهشني في تلك اللحظة ان يكون في بيت مسعد تليفون . كانت التليفونات في عمان قليلة جداً ، وكان أسلوب الاتصال ان تتصل بقسم التليفونات في مبنى البريد ، للاتصال بالرقم المطلوب ـ اذ لم يكن الهاتف الآلي قد دخل الأردن ـ وكثيراً ما كانت عاملة التليفون لا تستجيب للطلب . لذا كنت أتكلم باللغة الانجليزية عندما أطلب رقماً ، فكان الاتصال يتم فوزاً .

ـ ٣ ـ

حين غادرت الحجرة كنت شخصاً آخر . أخذت أبني احساسي بالالفة مع الشوارع والأمكنة . بدت والشمس تغمرها ـ الشارع وحرش الصنوبر الصغير وسور مدرسة المطران والبيوت بحدائقها الصغيرة والسيارات وهي تعبر مسرعة

والمارة رجالاً ونساء وسيل عمان النحيل في قاع الوادي ـ مشحونة ببراءة وتلقائية جعلتاني أشعر بأنني منفي عن كل ما أراه . انتمائي اليها مجرد قشرة خارجية ، ففي داخلي رواسب كوابيس الشبق ، والضجر ، والغبار . كنت أخدع المدينة وقد اخجلني ذلك من نفسي .

سرت محاذياً الحرش ، ثم الشارع المحاذي للسور الغربي لمدرسة المطران . في الطرف ملعب كرة القدم للصغار ، يليه شرقاً الملعب الرئيسي ، وشمالاً ملعب كرة السلة ، وشرقاً ملعب التنس المسيّج والمسقوف بالأسلاك . استطيع أن أرى حجرات الدراسة . مدرس الأدب الانجليزي اتذكره وهو يدخل الحجرة مسرعاً . على مدخل الحجرة ، على الأرض المبلطة ، كنا ننثر حبات الجلبانة الصلبة ، المستديرة . ينزلق الأستاذ ، يقف مائلاً الى الخلف على قدم واحدة ، والأخرى في الهواء . يبدو وكأنه يمارس رقصة مستحيلة . يرتفع ساعداه محاولاً ان يمسك بأي شيء ، ثم يسقط على ظهره ، لا ينهض بوقار ، بل يحاول الوقوف، وهو يرفع ساقيه وذراعيه في الهواء ، كأنه صرصار مقلوب على ظهره .

كان احياناً يمر بين الطلبة ، فنشبك ورقة في جاكته من الخلف مكتوب عليها « حمار للبيع » . ويخرج من الصف الى الملعب ، ويرى الطلبة الوجه المتجهم للأستاذ ، والورقة المعلقة على ظهره . يسرع الجميع في استراحة الساعة العاشرة صباحاً ليشاهدوا هذه المعجزة .

كان هذا الأستاذ البريطاني يشرف على حجرتنا في القسم الداخلي . فيها عشرة أسرة . تطفأ الأنوار في التاسعة مساء . نلقي المفرقعات على حجرته . فيأتي ويضيء النور . نتظاهر جميعاً بالنوم ، وقد غطينا أجسادنا ورؤوسنا بالشراشف . يقترب من كل سرير ويزغزغ بأصبعه كل واحد منا تحت ابطه ، فإذا انفجر الواحد منا ضاحكاً يعتبره مشاركاً في الشغب ويعاقبه . احياناً يرانا ملفوفين بالشراشف كالمومياءات . يحرك كل واحد منا يده صعوداً وهبوطاً فيتحرك الشرشف، كله ونبدو وكأننا نمارس العادة السرية بشكل جماعي . يصرخ :

ـ Stop it .

ويجذب الشراشف عن الجميع .

للحظة رأيتها على يساري ، واقفة بالباب ، تلك الفتاة الشركسية التي كان يحلم كل طالب ان يقيم علاقة معها . كانت فتاة قصيرة ، نحيلة ، لها عينان صغيرتان شديدتا الزرقة ، وشعر أسود ، ووجه صغير حمرته قاتمة . التقت عيوننا . . هل يتم الآن ما عجز جميع الطلبة عن تحقيقه ؟ تحدّق بي ، فاتحة عينيها على أقصى سعتهما ـ كانت تلك لعبتها المعروفة مع الطلبة ـ . أحنيت رأسي لها . انفجرت ضاحكة واستدارت راكضة الى داخل البيت . فستانها يرتفع ليكشف أجزاء من فخذيها . توقفت قليلاً . اعلم انها تطالعني الآن من احد الشبابيك وتسخر مني . تصورت انها سوف تدعو أحداً ليراني ويشاركها الضحك .

رغم انني ما زلت بعيداً عن الذوبان في المدينة ، ولكنني أحسست بالفاصل الكبير بيني وبين أهل قريتي ، الذين كانوا معي في الباص . سيذهب بعضهم الى المحكمة ليحضروا جلسات سوف يجري تأجيلها ، آخرون سيذهبون الى تجار مال قبان ليشتروا البضائع لدكاكينهم ، وآخرون سيذهبون لزيارة بعض الأقارب بعد الانتهاء من بعض الأعمال . لن يدخلوا المطاعم ولن يجلسوا في المقاهي لأن ذلك سوف يكون فضيحة حقيقية ، وسفهاً ؛ وسوف يعودون قبل موعد عودة الباص بوقت طويل . يجلسون على الأرض ويشترون خبزاً وعنباً ويكون ذلك غداءهم ، لن يشعروا بملل الانتظار ، وسيندهشون ، أو يتظاهرون بالدهشة ، من اشياء عادية ، يفسّرونها بسوء نية قروي نموذجي ، وسوف يسمون بعض المصادفات العادية غرائب ويروونها باعتبارها احداثاً خارقة .

واصلت المسير . انحرفت الى اليمين . أصبحت في الشارع الرئيسي . سرت قليلاً حتى توقفت أمام بيت مدير المدرسة . كان امريكياً متزوجاً من بريطانية . البيت من الداخل تحوّل ، عندي ، الى حلم يقظة . الصالة الواسعة التي تقسم البيت قسمين ، مفتوحة على الحديقة الكبيرة من الاتجاهين . لمعة الرخام ، غموض الجزء الخلفي من الحديقة ، الأثاث الأنيق القليل والمساحات الفارغة ، اللامعة ، البعيدة عن الشارع حملتها معي وأجريت فيها لقاءات خيالية مع من أحب ؛ أغلقتها في ليالي البرد الشديد (العواصف تعول وتزأر بين الأشجار والعالم

أبيض في الخارج ، بياض تخالطه زرقة رقيقة كعتمة الفجر) وعشت عاشقاً ، أو وحيداً أقرأ الروايات التي كنت أعشقها ـ جزيرة الكنـز ، المخطوف ، كاتريونا ، السهم الأسـود ، مرتفعـات وذرنج ، مسـرحيات يـوربيديس ، خـان الخليـلي ، السراب ، قصص ادجار الان بو ، آلام فيرتر ، رواياتالفـونسدوديه ، وبـول بورجيه ومدام بوفاري ـ . لقد اختلط هذا البيت ببيت آخر يقع في تلك المنطقـة الفارغة بين المدينة ومحطة القطار . بيت أبيض وسور أبيض . والبيت محاط بمئات الأشجار العملاقة ، الدائمة الخضرة .

ويبرز أمامي وجه المدير الأمريكي . وجه كقبضة اليد . ذقن قصيرة ملوّرة ، وخدان احمران ككرتين ، وحواجب كثيفة شقراء ، وهنالك شعر أشقر غزير ينبثق من منخريه ، وشفتين عريضتـين ، جافتـين دوماً . وفي الخط الـواقع بـين التقاء الجبين بالشعر وقمة الرأس يمتد شعر أبيض منتصباً كعرف الديك ، تنحدر من على الجانبين مساحات صلعـاء تتخللها شـرايين زرقـاء بارزة . حـول الأذنين كتلتـان كثيفتان من الشعر الأصفر الضارب للحمرة . عيناه عينـا طفل ، زرقتهـما باهتـة ـ أقرب الى البياض ـ . كان أقرب الى القصر ، رقيق العظم ، ولكن في كل جزء من جسـده تبرز عضلات كروية تبدو وكأنها ملصقة .

أشد ما يدهش فيه حيويته التي تعبر عن نفسها بحركات متوترة ، لا تتوقف . كان يجوب الأردن كلها سيراً على الأقدام . ويعـود من رحلاتـه ملتهب الوجـه ، ضاحك العينين .

كان من الكويكرز ، وقد روى لنا حكايات كثيرة عن محاولاته لتجنب دخول الجيش الأمريكي . يقول لنا الكويكرز لا يؤمنون بالحرب . كان يتظاهر احياناً انه مصاب بشلل في يده اليمنى ، ولكن أطباء الجيش اكتشفوا كذبه . وحكايات من هذا النوع . سـألته عن مـرشح الـرئاسـة الأمريكيـة الذي يعـطيه ـ أي المـدير ـ صوته ، فقال :

ــ هنري والاس .

ــ ومن هو ؟

قال :

ـ انه صديق للروس واليهود .

ولكن الغرابة التي كانت تذهلنا هي ذلك الدرس الاسبوعي الذي يلقيه علينا عن المشاكل الجنسية للمراهقين . كان يشرح لنا مضار العادة السرية من منطلقات اخلاقية خالصة . يقول :

ـ ان الطاقة الجنسية هي من حقوق زوجتك المقبلة . فالعادة السرية ، على هذا الأساس ، هي سرقة .

ولكنه ، في أحيان كثيرة ، كان يناقض هذا الرأي . مرة ، خلال ذلك الدرس ، قال لنا ان سائلاً مطهّراً ، شفافاً يسبق قذف السائل المنوي . وقبل انتهاء الدرس قال لنا انه وهو يتحدث الينا مارس العادة السرية ووصل الى المرحلة التي تسبق قذف السائل المنوي . وانه يشعر أن المادة الحمضية المطهّرة اخذت تبلل سرواله . ثم وقف عند الباب ، وأخرج عضوه التناسلي ، وقال :

ـ تقدموا واحداً وراء الآخر .

ويُري كلا منا النقطة السائلة ، الشفّافة ، التي تستقر في فتحة القضيب ، يشير اليها ، ويشرح خواصها مرة أخرى .

ومرة ثانية قال لنا أنه يمارس الجنس مع زوجته مرة واحدة في الأسبوع . سألته :

ـ وعندما تكون مسافراً ؟

قال :

ـ أمارس العادة السرية .

سأل طالب آخر :

ـ وزوجتك ؟

قدرت انه سوف يغضب لهذا السؤال ، ولكنه قال ببساطة :

ـ هي أيضاً تمارس العادة السرية .

كانت زوجته امرأة طويلة ، نحيلة ، شعرها أبيض ومسرح بعناية ، وتضع نظارة طبية . كانت من النوع البريطاني المتعجرف . تحدثنا كثيراً عن فوائد الهواء

النقي . يجب ألاّ نغلق النوافذ حين ننام . عمها - كما قالت - ينام ، حتى في الشتاء ، وشباكي حجرته المتقابلتين مفتوحين . لا يخاف من تيارات الهواء البارد لأنه لا يعرق .

يسألها أحد الطلبة :

ـ لماذا لا يعرق ؟

تقول بعصبية :

ـ لأنه يكتفي بغطاء خفيف .

ولهذا السبب - بعد حكاية الهواء النقي هذه - كنا ، قبل دخولها حجرة الدراسة ، نغلق نوافذ الحجرة ، ونشعل اعواد الكبريت ، ونحرق الورق . يمتلىء جو الحجرة بالدخان ورائحة الكبريت . تفتح الباب ، وتطالع الحجرة ، فتصرخ :

ـ خنازير !

وتقفز الى الممر الخارجي ، وتأبى دخول الحجرة الى أن يأتي زوجها ويفتح النوافذ ، ويجري تهوية الحجرة ، وهو يردد خلال ذلك :

ـ نعم ، نعم ، نعم .

بصوت رتيب أقرب الى المرح .

لا أذكر إن كان ذلك منذ البداية ، أم ان ذلك حدث بعد ان اخبرنا المدير ان زوجته تمارس العادة السرية . اعني اننا أخذنا نراقب ساقي الزوجة وهي تجلس خلف الطاولة ، وتلقي علينا الدرس . اكتشفنا انها تجلس على طرف الكرسي ، وانه خلال ذلك ينزلق ثوبها الى الخلف ، فيكشف عن فخذيها . وكانت نظراتنا في معظم الوقت مركزة على الفخذين ، آملين ان يواصل ثوبها الانزلاق . وكان ذلك يحدث احيانا . طبعاً اتحدث عن الطلبة الذين كانوا يجلسون في الصف الأمامي ، والذين كان مكان جلوسهم يسمح لهم بذلك .

هل كانت هذه السيدة تعلم بما نفعل ، وبما نرى ؟ لا أعتقد ذلك . من الواضح انها كانت تعتقد ان الطاولة تسمح لها بتلك الجلسة ؛ والأغلب انها قبل

حدوث الحادث الذي سأرويه كانت ترانا أطفالاً ليس لنا علاقة بعالم الجنس أو المرأة . يؤكد ذلك انه في أحد الأيام توقفت فجأة عن القاء الدرس ، وبخفة مذهلة نهضت وأبعدت المكتب الصغير الموضوع أمام أحد الطلبة وصرخت بقوة لم نتوقعها :

ـ خنزير !

وانكشف أمامنا المشهد العجيب . كان الطالب يرفع وجهه نحو المرأة وكأنه لا يصدق انها موجودة . كانت يده تمسك بعضوه التناسلي تصعد وتهبط . وفي نفس اللحظة شخر ، واندفعت قطرات السائل المنوي . كان الصبي يلهث . بدا ، وهو يفتح فمه ، ويحرك رأسه الى الأمام كأنه يتوقع ان تضع في فمه قطعة من الحلوى ، فيقترب بفمه ليسهل مهمتها .

كانت السيدة غاضبة بالفعل ، خاصة وان هجومها الذي كان يفتقد الاتزان ، قد جعل بعض قطرات السائل تسقط على طرف ثوبها . أمسكت بالكتب التي يضعها أمامه وصفعته بها ثلاث مرات ، وفي كل مرة تصرخ « خنزير » ثم قالت وهي تجذبه من شعره :

ـ اخرج من صفي .

لم تدع له مجالاً ليتمالك نفسه ، بل غادر الصف وهو يمسك عضوه التناسلي . قالت لنا :

ـ عودوا الى أماكنكم .

كان عدد منا قد تجمهر وتدافع ليرى ما يحدث . عاد الطلبة الى أماكنهم ، وجلست هي خلف الطاولة ، محنية الرأس تنظف ثوبها بمنديل صغير . كانت تجلس بحيث نرى المنظر الجانبي لوجهها . ثم جلست في مواجهتنا ، ونظرت الى الكتاب أمامها ، وقالت بصوت طبيعي :

ـ والآن ، ماذا كنا نقول ؟

ربما كنت الوحيد في الصف الذي لم يكن يقتل نفسه لمشاهدة ساقي زوجة المدير تحت الطاولة . كنت أحب ابنتها ، تلك الفتاة الحمراء ، الذهبية . رأيتها

مرات معدودة ، حين كانت تأتي في اجازاتها الدراسية من أمريكا . كانت مجموعة من الألوان الصارخة : شعر أشقر فيه لمسة سوداء ، تمنحه كثافة ، وبريقاً عميقاً ، وعينان لامعتا الزرقة ، زرقة كثيفة ، مركّزة ، وخدّان احمران يبرقان كأنهما لُمّعا بالبوية ؛ وكان الخدان ـ لحمرتهما اللامعة ـ يبدوان صلبين كأنهما من خشب السنديان . كان لها أنف صغير مرتفع قليلاً ، تفركه باستمرار ، يتشكل بحالاتها : ينتفخ اذا غضبت ، وينبسط على الجانبين اذا ضحكت ، ويرتفع مع وجنتيها عندما تبدي استنكاراً . أو غضباً كاذباً . والفم كان مبلولاً دائماً .

لا أعتقد انها رأتني ، وان حدث ذلك فليس الى الحد الذي يجعلني أعيش في ذاكرتها ، ولو كصورة يمكن استرجاعها . رغم هذا كنت عاشقاً .

عندما أستعيد صورة المدير وعائلته الصغيرة شيء ما كلسعة النار تلمس قلبي . لقد كان المدير يكرهني الى درجة غير معقولة ، وغير مبررة . وكانت هذه الكراهية تظهر لأتفه الأسباب . مثلاً عندما اكتشف انني اقرأ عدداً من الروايات الانجليزية ، ناداني . انكشفت شفتاه عن اسنان كبيرة وفحّ :

ــ اهتم بدراستك بدلاً من الروايات .

قلت :

ــ انني من الأوائل في الصف .

وقال بهمس غاضب احسست بالكراهية فيه كلطمة :

ــ انت كاذب .

لم أكن أكذب ، وكان هو يعلم ذلك .

ومرة ، أذكر ، انني شعرت باضطراب معوي ، فنصحني احد الطلبة ان اتناول ملعقة من ملح الفواكه مع كأس من الماء ، وكان عنده زجاجة من هذا الملح . وعندما شربت السائل الفوّار ، وكنا في حجرة الطعام ، رأيت المدير يقبل نحوي غاضباً ، ويقول :

ــ ماذا تفعل ؟

قلت :

ــ اشرب ملح الفواكه لأنني أشعر بألم في معدتي .

فحّ بذلك الصوت المليء بالكراهية :

ــ بدلاً من تناول ملح الفواكه ، كل الفواكه نفسها .

قلت :

ــ انهما شيئان مختلفان ؟

وبدا كأنه يريد ان يضربني !

ــ ماذا تعني ؟

قلت :

ــ لو كانا شيئاً واحداً فلماذا يصنعون ملح الفواكه ؟

قال :

ــ انت ثعلب .

واستدار ومضى . اعتقد انه مضى بهذه السرعة حتى لا يضربني .

كان هذا مؤلماً ، كما قلت ، وغريباً أيضاً . مثلاً ، لم يكن يتلقى العلم في المدرسة إلاّ أبناء الميسورين . فقد كانت الأقساط المدرسية مرتفعة ، وكذلك تكاليف الحياة في القسم الداخلي . ولكن المدير كان يسمح لعدد كبير نسبياً من أبناء القرويين الفقراء بالدراسة المجانية ، واستعمال القسم الداخلي مجاناً . كما كان يعاملهم بحب كبير واحترام حتى لو أساءوا . أذكر ان أحدهم خلع حزامه وضرب المدير به أكثر من مرة . لم يفعل المدير سوى أن يتلقى الضربات على ساعديه ، ثم انتزع الحزام ، ووضع يده على رأس الصبي ، وأخذ يداعبها ، ثم أعاد له الحزام ، وقال برقة :

ــ ليست هذه وسيلة للتفاهم .

تصورت انه سيطرد الطالب من المدرسة ، ويعاقبه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا .

ـ ٤ ـ

خلال مسيرتي التقيت بأحد زملائي في المدرسة . كان من أهالي عمان وابناً لأحد الأثرياء . تصورت انه سيرحب بي ويستقبلني بحرارة ، فقد كنت أعتبره

صديقاً ، ولكنه حياني بسرعة وانصرف . هكذا ابناء أغنياء عمان تعتقد انهم أصدقاءك ثم تكتشف فجأة انهم لا يحملون لك أية مودة أو صداقة . والغريب انهم ، بشكل عام ، لم يكونوا يتميزون بشيء علينا أولاد القرى . قليلون جداً منهم من كانوا ينجحون بشكل مرضٍ في المدرسة ، أو يتفوقون في الرياضة ، أو ينتخبهم احد لرئاسة تحرير مجلة المدرسة أو كعرفاء . ولكنهم خارج أسوار المدرسة يصبحون شيئاً آخر .

اجتزتُ الشارع ودخلت مقهى (وادي النيل). صافحت الجرسون بحماس . كان ذلك حماقة مني . فلقد فوجيء الجرسون ، وآلمني ان أرى معاناته - ارتفع أنفه وضاقت عيناه - ليتذكرني . وقد ساءني أكثر تظاهره بانه يعرفني ، إذ قال دون أن ينظر إليّ :

ــ من أسبوع ما جيت .

قلت :

ــ أسبوع .

لأنني لم أجد ما أقوله . فقال :

ــ كيف حال طلعت ؟

ــ قلت :

ــ منيح .

وأنا لم أكن أعرف شخصاً اسمه طلعت ، ثم طلبت قهوة فرنساوي مع الحليب . في مواجهتي جلست فتاتان وشاب . لم أطل النظر اليهم رغم لهفتي لذلك . أخرجت رواية « مدام بوفاري » من جيب الجاكتة وواصلت القراءة فيها . كان ذلك لمنع نفسي من التحديق بالفتاتين . ثم نسيتهما واستغرقت في الرواية .

كنت أعلم في أعماقي ان عمان خاوية ، وانها قرية محافظة . ولكن الأمور اختلطت علي . كنت أعيش عمان باعتبارها تحققاً لأحلام ولدت فيها ، احلام تكونت بايحاءات هذه المدينة. ولكنها عجزت عن ان تفتح أمامي مجالاً واحداً يمنحني الفرح . أذكر انني كنت أسير في شارع ضيق من شوارع هذه المدينة .

رأيت امرأة تقف في الطابق الأول كانت تشير بيديها وتقول شيئاً . عيناها واسعتان ، عسليتان تطالعاني ، وبدا انها تريد ان تقول شيئاً لي ، ملحاً . وكان ذلك يشبه تحقق حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة . قلت :

ــ أنا ؟

كنت أهمس وأشير بيدي . وهي تواصل تحديقها ، واشاراتها ، وأحاول ان أفسرها . قلت :

ــ آجي أنا ؟

وفجأة دوّت صرختها :

ــ ايش بتعمل يا ولد ؟

وفي نفس اللحظة سمعت ضحكة خلفي وصوت امرأة تقول :

ــ بفكر انك بتكلميه .

قالت الأولى :

ــ استني لما انزل لك . . .

نظرت خلفي . في فسحة في الطابق الأرضي رأيت رأس وكتفي امرأة ، من الواضح ان المرأة في الطابق الأول كانت تكلمها . قالت تلك المرأة :

ــ بعده زغير ، وشوفي .

قالت التي في الطابق الأول :

ــ اني نازلة ومعايي العصاه .

وفجأة أخذت أركض . سمعت ضحكات المرأتين صاخبة ورائي وأنا أواصل الركض .

قلبت الرواية على الصفحة التي كنت قد وصلت، وبدأت أشرب القهوة مع الحليب . وددت لو ان الفتاتين ، أو احداهما على الأقل ، انتبهت الى انني اقرأ رواية باللغة الانجليزية . قلائل في عمان الذين يستطيعون ذلك . لم تلتفتا الى ذلك ، او ربما لم تكترثا . وفجأة ، وانا أشرب القهوة ، تذكرت انني غداً سوف أرى سلطانة . احسست بنشوة النصر : نحن ، القرويين ، لنا عالمنا السري ، الخاص جداً ، الجميل جداً . نحن قادمون كغزاة ، نحمل تفوقنا على هذه المدينة

تحت جلودنا . لم أعد اهتم بالفتاتين . لقد حققت انتصاري على هـذه المدينة ، انتصارنا ، وكان ذلك رداً مفحماً على زميل الدراسة الذي تجاهلني .

دفعت الحساب وسرت نحو مطعم ابو العبد ، في الممـر التجاري . كـانت الساعة الثانية والربع تقريباً . في الداخل لقيت خالد وشفيق وسمير . عندما وقفوا تقدمت لمعانقة سمير فخطا الى الوراء وبدت الدهشة على وجهه . وعندما أدرك انني أريد معانقته احتضنني وقبلني على خدي مرات عديدة . وكذلك عانقت خالد وشفيق . كان ترحيبهم صاخباً ، صادقاً . قال خالد :

ــ يحرق ديكك يا شيخ ! وينك .

قلت لصاحب المطعم :

ــ يمكن نسيتني يا أبو العبد ؟

كـان شامياً ناعـماً ، لسـانـه يقطر عسـلاً ، لا يكف عن الحركـة السـريعـة والترحيب . قال :

ــ أنا انساك يا حبيبي ؟

قال سمير :

ــ طيب قول اسمه .

ـ الأستاذ عادل . مش هيك ؟

قلت :

ــ جريس .

ضج أصدقائي :

ــ مش عارفه يا أبو العبد . ربنا يقطع رباطك .

فأخذ يضحك خجلاً وقال :

ــ انا ؟ انا مش عارفه ؟ بصير ؟ الأستاذ جريس ابني وحبيبي

وأصر سمير :

ــ ليش ما عرفت اسمه من الأول ؟

فقال باستنكار :

ــ انا ؟ قلت الأستاذ جريس . والا اسمه مش جريس ؟

ثم غادرنا مسرعاً الى زبائن آخرين .

يقع مطعم أبو العبد (ليس للمطعم اسم ، ولهذا يسمى باسم صاحبه) في جادة ضيقة ، لبصه ، تسير بانحدار الى الشارع الرئيسي . للمطعم مدخل ضيق ، على يسار الداخل حاجز زجاجي ، ووراء الحاجز مواقد هدارة توضع عليها الطناجر ، وبين المواقد والحاجز الزجاجي يقف الطباخ السمين ، القاتم ، الصامت مستغرقاً في تفصيلات غير مرئية . عندما يقف ابو العبد بجواره يبدو هائجاً ، عرقاناً ، لا يكف عن الحركة ، والابتسام ، والترحيب ، ومخاطبة الطباخ . تشعر به ، في حركته الدائبة ، المتوترة ، وكأنه يتحين الفرصة للانفلات من جوار الطباخ الضخم الى الخارج .

على أرضية المدخل نشارة خشب منثورة بكثافة ، وفي الصيف والشتاء نرى أثر الأقدام المبلولة ، الملوّثة بالطين ، ومواضع أقدام مطبوعة على الأرض . في الداخل عشرة موائد لها قوائم حديدية وسطح من الرخام العاري ، الذي لا يحجبه غطاء من أي نوع .

في ساعات الافطار يقدم أبو العبد الحمص (بالزيت ، أو بالصنوبر المقلي بالسمنة ، أو باللحمة المقلية) والفول والبيض ؛ وكذلك في المساء . الطبيخ يقدمه ساعة الغداء فقط . وقد امتاز ابو العبد بالصنعة الجيدة للفول ، خاصة تلك الخلطة التي يضيفها اليه (من البقدونس والثوم والليمون والفلفل الأخضر الحار ، والفلفل الأسود وأصناف أخرى يصعب تمييزها) . وقد تميز المطعم عن المطاعم الأخرى بأنه كان يضع بشكل دائم ابريقين زجاجيين ، واحداً مملوء بزيت الزيتون وآخر بالخل . يستطيع الزبون ان يضع في صحنه اية كمية يرغب فيها من المادتين . وكان أبو العبد يعرف زبائنه الأكولين ، فعندما يرى صحونهم فارغة يأخذها من أمامهم ويضع فيها طعاماً جديداً على حساب المحل .

لم يكن للمطعم شبابيك ، أو منافذ للهواء ، ولذلك كان جوه عابقاً على الدوام بروائح الأطعمة ودوي الأصوات . وكان الضوء شحيحاً دائماً . وفي الشتاء عندما تحاصر أبخرة الأطعمة المصباحين الكهربائيين العاريين يبدو المكان غارقاً

بظلمة تضيئها ذرات الأبخرة اللامعة ، والمصابيح المحاصرة بهالات ضبابية من البخار .

أخذ اصحابي في البداية يستفسرون عن تفاصيل صغيرة : موعد وصول الباص ، وهل استعملت الباص ام سيارة الأجرة في صعود الجبل الى الحجرة ، وهل وجدت المفتاح بسهولة ، وهل استعملت الصابون المعطر للاستحمام ، وماذا فعلت بعد ان غادرت الحجرة . ثم سألوني ، مجاملين ، عن صحة أمي ، وعن الموسم الزراعي ، وعن حياتي في القرية .

لم يستغرق ذلك أكثر من بضع دقائق . وعندما انتهوا انطلقنا نملأ جو المقهى مرحاً صاخباً . بالغ بعض الزبائن في رسم تعابير صارمة على وجوههم حتى لا يقال انهم يتسمون لنكاتنا . وآخرون اخذوا يأكلون بسرعة غاضبة كوسيلة للاحتجاج علينا . وخلال ذلك يركض أبو العبد ، يصغي للزبون وعيناه تراقبان المطعم ثم يعدو مسرعاً . كان وجهه ينضح بالعرق .

أكلت بشهية افتقدتها في القرية . قلت لهم ، معتذراً عن اقبالي على الطعام ، انني لم أكن اعرف انني جائع جداً . قال خالد :

ــ كل قد ما بدك . من خير الله وخير ابو العبد الزاد كثير .

قال شفيق مخاطباً أبو العبد :

ــ يا مقطوع النصيب يا أبو العبد هات إلنا صحن بامية .

ورغم ان ابو العبد كان يصغي لزبون على طاولة اخرى ، وظهره الينا ، الا انه التفت الى شفيق وقال :

ــ بتؤمر .

عندما غادرنا المطعم أغمضت عيوني ، فلقد كان ضوء الشمس قوياً . اتجهنا الى مقهى وادي النيل وطلبنا جميعاً قهوة فرنسية مع الحليب . كان المقهى خالياً باستثناء شاب صغير يجلس وحيداً ، كان ينظر الى ساعته كثيراً . ربما كان على موعد او انه كان يحاول الايحاء لنا بذلك .

في الشارع كان الزحام شديداً . لم يكن كزحام المساء حيث يتحرك السائرون

ببطء وهم يتحدثون مع أصحابهم ، أو يسيرون صامتين ، عيونهم تتأمل المارة ، ووجوههم مرتاحة ، بل كان زحاماً سريع الحركة ، حانقاً ، هارباً من القيظ . الوجوه حمراء ، تنضح بالعرق ، وطاقات الأنوف منتفخة . كانت حركة الشارع مشحونة بعنف كامن ، مستعد للانفجار .

على رصيف الشارع ، رأيت عبر واجهة المقهى الزجاجية رجلين يتبادلان الزعيق . كان احدهما سميناً طويلاً ، مورّد الوجه، وهو الأكثر انفعالاً ، والآخر قصير نحيل . . كان السمين يحرك ذراعيه بعصبية ، ويعبس عندما يتحدث النحيل ؛ وعندما يجيء دوره في الكلام كان يميل برأسه الى الخلف ، ثم يقذفه بحركة مفاجئة الى الأمام . بدا وكأنه يود أن ينطح الآخر برأسه ، ثم يتوقف في آخر لحظة . أما القصير فكان يتحرك طيلة الوقت ، وكأنه يقفز الى الأعلى بشكل دائم . لم اكن اسمع أصواتهما ، فكانا كممثلين في سينما صامتة حيث يبدو الجميع وهم يتحركون بعصبية وبمكانيكية . ينطبق ذلك على القصير بشكل خاص .

أشار خالد الى الشاب الذي كان ينظر الى ساعته بعصبية ، ثم يكشّر ، ويحدّق في سطح المائدة وقال :

ــ مقطوع النصيب عنده رانديفو .

سألني خالد عن الخورية . لم يكونوا يعرفونها ، ولكنني حكيت في السابق لهم كثيراً عنها . رويت لهم رأيها في السجاير وموظفي عمان الذين يسيرون في عمان برؤوس عارية كرؤوس الحمير . ومع انني لا أجيد رواية النكتة ، إذ أخشى دائماً ان لا يضحك لها السامعون ، وكثيراً ما انطلق بضحك متصل اعجز عن ايقافه قبل ان أنهي النكتة ، فيحني المستمعون رؤوسهم بأدب واشفاق ؛ ولكنهم ضحكوا كثيراً عندما حكيت لهم عن صبحا .

وبعد فترة صمت حدثتهم عن أميرة : جمالها ، الكلب الصغير الذي لا يأكل الا اللحم ، حديث القرية عنها وذكرتهم بها فتذكروها . فعندما كنا نغادر القسم الداخلي في المدرسة كنا أحياناً نراها قادمة ، نحيلة ، تسير بسرعة ، أو تركض ، شعرها مهوّش . نراها دائما حاملة سلة صغيرة . تعبر الشارع راكضة

عندما تراني ، وسلتها تخبط ردفها بايقاع ركضها ، وتقف أمامي لاهثة ، وتسلم علي بحرارة . فاسألها إن كانت تحب عملها ، وان كانت سعيدة فيه ، فترخي يدي ، وتنطلق راكضة دون ان تجيب .

تبينت انهم يعرفون الكثير عنها . لقد تركت العمل كخدامة عند العائلة . واشتغلت عند خياطة . قال شفيق انه رآها سائرة مع شاب يعتقد انه ابن العائلة التي كانت تعمل عندها . وكان تقدير شفيق ان اميرة أقامت علاقة مع الشاب فطردها أهله . فشعرت انه يتوجب علي ان أدافع عنها ، فقلت : لماذا لا يكون الولد هو الذي اغتصبها ، أو أغواها على الأقل . صمت شفيق قليلاً ، ثم قال :

ــ ممكن طبعاً .

ثم أضاف انه رآها مرة أخرى في السينما سوياً . على كل حال يبدو ان هنالك علاقة بين الاثنين . قال سمير :

ــ طبعاً ، كان ماسك ايدها .

نظر اليه شفيق بتساؤل ، فقال :

ــ ماسك ايدها في السينما ؟

ضحكنا . ابتسم شفيق ولم يجب . بدا الضيق على وجه سمير ، لا بسبب ضحكنا ، ولكن لاعتقاده انه لم يكن واضحاً بشكل كاف . قلت :

ــ ايش يا سمير ؟

قال :

ــ والا ايش مودّيهم السينما ؟

قلت :

ــ بتفرجوا على الفلم .

قال :

ــ بس ؟

فقال شفيق :

ــ بدك يمسكوا ايدين بعضهم ؟ يا سيدي كانوا ماسكين ايدين بعضهم . لا تزعل .

قال سمير :

ـ ما انا زعلان .

ولم احدثهم عن سلطانة . ما كنت استطيع ان أفعل ذلك . لو امتدحت جمالها لتحوّل الحديث الى بذاءة . بعد غدٍ سأراها ، ولن يعرف أحد ذلك .

سألني خالد :

ـ طبعاً كنت بتشوفها .

قال شفيق وهو يبتسم :

ـ جيران .

قال خالد :

ـ جيران يا عمي ، والأستاذ جريس بده يسلم على الست أميرة ، وكلمة من هانا ، وكلمة من هناك ، وغمزة . .

كان سمير يصغي مفتوح الفم قليلاً . اعلم انه مشوق الى سماع حكاية عن الجنس . قلت لهم انني لم أرها . رأيت خيبة الأمل في وجوههم . وقرأت استنكاراً غاضباً في وجه سمير . أدركت انني دمرت عملية تقمص لعلاقتي المفترضة مع أميرة ، وقد ضايقهم ذلك .

قلت :

ـ شفتها دقيقة .

فهللوا ضاحكين :

ـ يا عمي دقيقة كفاية ونص .

ـ ما كلها دقيقة .

ـ احنا عارفينك يا عمي .

قال شفيق اننا سنضاجع امرأة هذه الليلة . قلت :

ـ كيف ؟ كلنا ؟

فقال انها مومس . وهم يعرفون قواداً .

بعد فترة صمت ، طلبنا قهوة مع اللبن وتحوّل الحديث الى السياسة . كنت انتظر ذلك . فمنذ رأيتهم استعدت ثوريتي وحماسي للعمل السياسي ، اللذين

كنت انساهما بمجرد ذهابي الى القرية .

قال شفيق انه لم يعد هنالك ما يسمى بعصبة التحرر الوطني . أصبح الآن الحزب الشيوعي الأردني بديلاً لها . كان خالد وسمير ينظران الى شفيق بحس تواطؤ ، حس من يعرفون كثيراً . كان ذلك مفاجأة حقيقية لي فسألتهما عما حدث بالتحديد . قال شفيق :

ـ قررت اللجنة المركزية ضم الحزبين وتكوين حزب شيوعي أردني .

قلت :

ـ ومين الحزب الثاني ؟

ردوا باجابات غير محددة ، كان من الواضح انها من وحي اللحظة :

ـ يعني الأردنيين . يعني الضفتين .

ثم أخذ خالد يحكي كيف قابل عضواً في المكتب السياسي للحزب . كان الموعد في الساعة الثامنة صباحاً على جسر الحمّام . فقابله رجل لا يبدو عليه انه متعلم . قال :

ـ حرّاث ولابس بذله . وانا فكرت انه المرسال . ولما عرفت انه عضو المكتب السياسي ، بيني وبينكو ، سقط من عيني . وبعدين قام يتكلم : الهدف يا رفيق سحق حلف الاقطاع مع الاستعمار وكبار الاحتكاريين . واتجاه الضربة : عزل البورجوازية الكبيرة ، عزل نفوذها المخدر عن الجماهير ، وارغامها على الانضمام الى تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين مع البورجوازية الصغيرة ضد العدو الرئيسي .

قال سمير :

ـ احنا بورجوازيين زغار .

قال شفيق :

ـ هذا قبل ما نصير شيوعيين .

وواصل خالد :

ـ وبعدين هذا كلام من ناحية نظرية ، والنظرية يا رفيق مش عقيدة جامدة ، لكنها دليل للعمل ، وهذا يعني انه علينا ان ندرس المجتمع دراسة علمية

دقيقة ، لأنه لكل مجتمع ظرفه الخاص ومن هالكلام .
ضحك خالد وقال :
ــ قلت له ، يا رفيق يعني لو سوّينا عملية اغتيالات للحكام وخلينا البلد شيوعية . قال يا رفيق ، احنا ما بنؤمن بالاغتيالات .
اندهشت وقلت :
ــ ليش ؟
قال خالد :
ــ ما انا جاي لك في الكلام . قال لي : لا تنط من موضوع لموضوع . انا بتكلم في الستراتيجية وانت بتتكلم في التكتيك . هذه مسألة رايح نبحثها كمان شويه . وبعدين قال ان التكتيك خاضع للستراتيجية لما حسيت ان مخي طار .
قلت :
ــ ليش الحزب ضد الاغتيالات ؟
قال شفيق :
ــ لأن السلطة ما هيه اشخاص ، هي أجهزة ونظام .
لم أفهم شيئاً ولكنني تظاهرت بالاقتناع . واستمر خالد يقول بصوت من ينقل خبراً عن موت شخص ، أو وقوع كارثة :
ــ يا ابني كنت مفكر المسألة لعب عيال ، لكن قبل ما اسلم عليه شفت الجرس .
قلت :
ــ جرس ؟
فقال سمير :
ــ طبعاً مش رايح ينزل من غير جرس ..
ثم أحنى رأسه وأخذ يتأمل أظافره بوجه رصين جاد ، مما جعلني أعرف انه سمع هذه الحكاية أكثر من مرة .
كان ذلك كله مثيراً جداً وقد منعت نفسي من القاء عشرات الأسئلة والاستفسارات عن هذا العالم الغريب ، المدهش . قال خالد :

ـ أول واحد شفته واقف ، مسند ظهره على عامود التليفون ، وعامل حاله مش شايفنا ، لكن ايده على مسدسه .

قلت :

ـ شفت المسدس ؟

قال :

ـ لا . بس طبعاً مفهوم. والا ايش وقّفه؟ وشفت واحد صاحب دكان فوق الجسر شويه بتطلّع علينا . عرفته من تطليعته . صاحب دكان ، تصور ؟ يمكن لو واحد كلمنا ، شرطه والا غيرهم ، كان رمى عليه قنبلة وما حدا بعرف منين إجت .

لم أعد قادراً على الاستمرار في التظاهر بان ما يرويه خالد لا يثير اهتمامي ، فقلت :

ـ طيب ، وشو عرّفك انهم حرس ؟

قال سمير :

ـ لا . مبين حرس .

قلت :

ـ كيف عرفتوا ؟

ـ من عيونه بتعرفه يا عمي ، من حركاته ، من الطريقة اللي واقفين فيها . وكمان بتعرف الطريق الطالعه من جسر الحمام لجبل الاشرفية ؟ كان فيه اثنين ، اللي بشوفهم بقول عمال ، قاعدين عالأرض ومسويين نفسهم بفطروا .

أي عالم سحري ينفتح أمامي ؟ أكثر اثارة وغرابة من عالم الروايات ، ولكنه عالم واقعي ، عالم اصدقائي ، وسوف يكون حتماً عالمي . احتواني سحر هذا العالم فأخذت أضحك لحذق هؤلاء العاملين في التخفي . لقد قارب عالم الملل على الانتهاء الى الأبد ، واستعدت احساس الطفل بالعالم الحي المختفي وراء مظاهر الأشياء . ها أنا أجد نفسي جزءاً من حركة هائلة ، أجد لي أصدقاء لم أرهم ، أصدقاء يملكون المسدسات والقنابل والفكر القادر على تغيير العالم .

مرت فترة صمت . وددت ، واللهفة تخنقني ، ان يشرحوا لي هذه

المصطلحات الكثيرة التي أخذوا يرددونها ببساطة ، ولا يعتنون بشرحها أو السؤال عنها . انها مفتاحي الى هذا العالم .

بعد قليل قال خالد :

ــ بتعرف محسوبك كركي ، وما بعرف يسكت . قلت لحالي بدي اتأكد همه حرس والا لا . قلت له يا رفيق ، مش خايف ناس يشوفك ويبلغ الشرطة عنك ؟ بتعرف ايش قال ؟ قال يا رفيق احنا بنثق في الناس ، وهمه بحبونا . لو خفنا من الناس بننعزل عنهم . كل الناس اصدقاء ، واعداءنا حفنه زغيرة ، حقيرة . وبعدين ، حتى نخلص بسرعة ، ما تقاطعني .

وضحكوا . وقال خالد وهو يضحك :

ــ قلت في قلبي : طبعاً ، ايش بهمك يا عمي ؟ ما دام الحرس موجودين ما بتخاف من حدا .

سألت شفيق :

ــ انت شفته ؟

هز رأسه بالايجاب .

قلت :

ــ شفت الجرس ؟

ــ لا . ما كنت متنبه .

قلت :

ــ يعني ما شفتهم ؟

قال :

ــ لا .

قال خالد :

ــ ما هوه شافه في الليل .

وضحك سمير .

قلت :

ــ طيب ايش اسمه ؟

رد الثلاثة في وقت واحد :

ــ اسمه ؟

قال شفيق :

ــ الحزب سري .

قلت :

ــ طيب ، ما انا من الحزب .

فأفهموني انني لست ، حتى الآن ، عضواً في الحزب . ولكنهم ، بطبيعة الحال ، سوف يرشحونني . شعرت بإهانة حقيقية : هم أعضاء ، وأنا لست عضواً ؟ قال شفيق ليسترضيني :

ــ لا احنا ولا اللي أكبر منا بعرفوا اسمه .

قال خالد :

ــ لو كنت مكانك ما بروح الجامعة .

قال شفيق :

ــ ما هيه لبنان فيها حزب .

الفصل الثاني

- ١ -

غادرنا المقهى في الخامسة بعد الظهر تقريباً . سرنا في الشارع . كان الجو ما يزال حاراً . بعد ان تمشينا قليلاً اقترحت ان نصعد جبل عمان . سوف يكون الحر أخف . قال شفيق اننا متوجهون الى الندوة الأدبية .

وصلنا ساحة الحسين وصعدنا درجاً ضيقاً ، مظلماً ، زلقاً . صعدنا طابقاً واحداً . باب النادي ينفتح على الدرج ، في نهايته ، على اليمين . تكوّن النادي من حجرتين ومطبخ ، وفسحة واسعة مكشوفة ، عبارة عن سطوح عدد من الدكاكين . الفسحة كانت تطل على ميدان الحسين . في الطرف المقابل من الميدان كان جامع الحسين ، وأمامه رصيف واسع . على يسار الجامع طريق يؤدي الى قيادة شرطة عمان ، وفندق النيل ، والكاراج الذي تنطلق منه السيارات الى مأدباء .

طيلة النهار ، والساعات الأولى من الليل ، يزدحم الميدان بالسيارات ، والباصات ، وعربات اليد يدفعها الباعة المتجولون ؛ يتخللها جمال وحمير وأغنام وخيول وبقر ، ومئات من البشر من مختلف الأصناف ، تجار مواشي ، لصوص ، شحاذون ، عاهرات يخفين وجوههن بحجاب أسود شفاف ، بدو ، فلاحون ، مخبرون ، عتّالون . في عام ١٩٤٨ كنت تجد أكواماً من الأنابيب والأثاث المحطم ، وساعات المياه ، وعدادات الكهرباء ، وكتب ومجلات بالعبرية

والانجليزية ، والعربية . كان يبيعها بلدو ليس عندهم أدنى فكرة عنها .

ابتداء من الساعة العاشرة مساء ، أو قبل ذلك بقليل ، يذوب الزحام ، ويبدو الميدان مهجوراً ، وكبيراً وعتيقاً جداً . في ساعات الليل تحس ان الميدان ينتمي الى مدينة عريقة ، لا الى مدينة انشأت على عجل . للدكاكين المغلقة وشبابيك الجامع ، والكاراج المظلم ملامح عالم اسلامي ينتمي الى عصور ماضية .

في داخل النادي ، في الحجرة الأولى ، كنبتان ضخمتان من طراز غامض وقديم ، وكراس خشبية مرصوصة على شكل قوس حول الراديو الكبير ، وموائد صغيرة توضع فوقها الجرائد والمجلات ، والشاي والقهوة .

عندما دخلنا كان هنالك ثلاثة أشخاص ، اكتشفت فيما بعد ان لهم ما للأثاث القديم من الوجود المستمر والسكون ، احدهم كبير الوجه ، وقور ، صموت ، أراه دائماً في خيالي يمد يداً كبيرة ، ناعمة ، حمراء الكف ، ظاهرها كثيف الشعر ، أسوده بهدوء وبطء شديدين الى المائدة التي تتكوّم عليها المجلات والصحف . يضع فوقها الصحيفة التي في يده ، ويتناول صحيفة أو مجلة أخرى . وعندما يدخل النادي احد يرفع رأسه عن الصحيفة ، ويطالع القادم بعينين واسعتين ، بياضهما به بقع بنية اللون ، كأنها آثار كدمات حديثة . أما الجزءان الملونان من عينيه فيبدوان مثل بقعتي ماء لبصتين ، رجراجتين . عندما يحييه القادم يكشف عن اسنان جميلة ، بيضاء ، متناسقة ، وتتحرك قرنيتاه ببطء تتابعان الداخل الى ان يأخذ مكانه ، فيعود هو الى صحيفته . كنت أشعر دائماً ان جسده مبلل بنداوة نظيفة ، زلقة . لم أره يكلمَ احداً ، أو أرى احداً يكلمه .

وكان الثاني ـ واسمه محمود كما علمت بعد قليل ـ له صوت نحيل ، مثير للأعصاب ، يشبه احتكاك الزجاج بلوح من الزنك . يحتد ويهتاج عندما يبدأ نقاشاً . له حركة عصبية في عينه اليمنى ، حركة يخيّل لمن يراها انه يغلق تلك العين بمجهود ارادي ، شاق . كنت أرى عينيه احياناً حولائين ، واحياناً أخرى

أراهما طبيعيتين . كنت أشعر به ، حتى وهو يقرأ الجريدة ، انه يحتشد لبدء نقاش صاخب ؛ يحتشد بتجميع معطيات الاستفزاز .

الثالث بخيت . بالغ الأناقة والوسامة ، يكثر من المجاملات والترحيب ، وتعلو قهقهته كلما احتدّ محمود . وكان ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ فارغ العقل ، يفتقد الحرارة . كان ، كلما أثار محمود نقاشاً ، يطلق كلمات سخيفة ، تهدف الى ارضاء الآخرين ـ وهم الأكثرية ـ الذين يناقشون محمود ، فيزداد هذا الأخير توتراً وهياجاً ، فتأتي قهقهة بخيت كالقرار .

عندما أدخل النادي مبكراً تكون صورة هؤلاء الثلاثة في مخيلتي يجلسون صامتين ، مستغرقين في القراءة ـ بخيت في خيالي يدقق النظر في أظافره المحدّبة ، الحمراء ، المقصوصة بأناقة ـ . يكمل الصورة درجات السلم المظلمة ، صوت الراديو ، وزنّ وابور الكاز ، وحركة الجرسون الدائبة من المطبخ الى الحجرة أو العكس . كان الجرسون صموتاً ، مؤدباً ، متجهماً .

ـ ٢ ـ

عندما دخلنا النادي ، كان الثلاثة جالسين في الفسحة بالصورة التي انطبعت في خيالي بعد ذلك : اثنان مستغرقان في القراءة ، ونجيب يدقق النظر في أظافره . الرجل الوقور الصامت ، الذي لم أعرف اسمه قط ، حدجنا بنظرة متسائلة . وعندما حياه شفيق اسبل جفنيه رداً على التحية . بخيت استقبلنا واقفاً ببسمة ساحرة ، وصافحنا بحرارة . اما محمود فتظاهر بأنه لم يشعر بدخولنا واستغرق في قراءة الجريدة .

جلسنا . نادى شفيق الفراش :

ـ هات أربعة كاسات شاي يا اسماعيل .

رفع محمود رأسه عن الصحيفة بحركة عصبية مفاجئة ـ ربما كان سببها ارهاقه لنفسه بتجاهلنا ـ ونظر الى الرجل الوقور ، الذي لم يكن ينظر اليه ، ووضع سبابته

على موضع في الجريدة ، وأخذ يزعق :

ــ الاعتداء الأمريكي على كوريا ، الاعتداء الأمريكي على كوريا ، طيب ليش ما تكلموا عن الاعتداء الصيني على كوريا ؟

همس سمير في أذني :

ــ لا تناقشه . فيه شكوك بتدور حواليه .

التفتُ اليه وقلت :

ــ مش فاهم .

قال :

ــ فيه شكوك انه على علاقة بالشرطة .

ملمح آخر من ملامح هذا العالم الغريب ، الذي نبت فجأة ، أضيفت . فليس هنالك فقط آلاف الأصدقاء ، الذين ينتظرون احتوائي ، بل العديد من الأعداء الذين يتربصون بي ، دون ان أعرفهم ويعرفونني ، وبيني وبينهم معركة موت أو حياة . سننتصر لأن التاريخ معنا . أصبحت عمان مشحونة بالإثارة الكامنة تحت سطح ساكن . كل الناس الذين كانوا يبدون لي محايدين أصبحوا حلفاء أو أعداء .

أخذ هذا العالم الراكد يتحرك : اناسه في العمق متحاربون ، وحتى لغته تفجرت لتنشأ لغة جديدة ، عزمت ان اتقنها . كانت قراءاتي في هذا المجال محدودة جداً : كتاب لنين « الدولة والثورة » ولا أدّعي انني فهمته ، كتاب عن النقطة الرابعة الأمريكية ، وكتاب ايليا اهرنبورغ « مشاهداتي في الولايات المتحدة » ، وهو عبارة عن مجموعة مقالات عن زيارته لأمريكا . ثم رواية غوركي « الام » . كنت أعتقد ان ذلك كافٍ جداً ، وأعرف الآن أنني لم أبدأ بعد .

دون ارادة مني التقت عيناي بعيني محمود ، فحوّلها عني بسرعة . بدا لي خجولاً (وقد تأكدت من ذلك فيما بعد .) قال لبخيت :

ــ على الأقل أميركا بلد متحضر ، لما تغزو كوريا رايحه تخليها بلد متحضر . اما الصينيين فما فيش غير الافيون يبيعوه للكوريين .

أدركت ان هذا الهجوم الساحق من جانب محمود كان رداً على نظرتي المرتابة . حين التقت عيوننا رأيت في وجهه شيئاً كالمرح الجامح ، أو ربما كان غضباً جامحاً . قلت :

ـ لما بدك تحضّر بلد بتدمر كل ما فيه ؟

كان ما قلته مفاجأة للجميع ، بما فيهم محمود الذي أخذ ينظر الي بدهشة حقيقية . كان فمه يكوّن كلمات ، ولكنه لا ينطقها . همس لي شفيق :

ـ بلاش تناقشه .

قال محمود فجأة :

ـ أنت كنت في كوريا وشفت الأمريكان بدمروها ؟

قال خالد بصوت غاضب :

ـ انت كنت ؟

واحتدم اصدقائي في معركة كلامية حامية مع محمود . قلت لنفسي : « هكذا نسوا ان هنالك شكوكاً حوله ؟ » قلت ذلك باستنكار ، لا بالسخرية التي توحي بها . كان يبدو على بخيت انه مستمتع بهذا النقاش . كان يبتسم لنا مشجعاً ، ثم يميل على محمود ، يمسك كتفه بقبضة يده ويهزه ، فتسقط خصلة من شعره على جبينه . ويقول بخيت لمحمود ضاحكاً بصخب ، وهو يرمقنا بعينين سوداوين لامعتين :

ـ سلّم ! افلست ! ارفع يديك !

وقال سمير لمحمود انك تردد أفكار المستعمرين وأذنابهم ، كأنك واحد منهم . فرد محمود بلهجة تمثيلية :

ـ استعمار ؟ يا حبيبي يا استعمار .

وأخذ يقبّل ظاهر يده وراحتها وهو يتمطق ، وقال :

ـ أنا ذنب استعماري وأنا فخور . هو أنت وأنت وكلكم لولا الاستعمار كنتوا لبستوا بذلة ، والا رحتوا المدرسة ؟

نظر اليّ سمير وهزّ رأسه . وفهمت انه يريد ان يقول : هل تأكدت الآن ؟

أصبح الجو خانقاً عندما غابت الشمس وأضيئت المصابيح الكهربائية . خلعنا

الجاكتات ، وشربنا كازوزة لاذعة الطعم ، ولكن ذلك لم يفـد . جاء اسمـاعيل بجردل ماء وأخذ يرش الأرض . خلال الرش تصـاعد صهـد ساخن ، ورائحـة تراب مبلول ، ثم أصبح الجو مقبولاً . أخذت ذرات الظلام ترهج بسمـرة فوق الميدان كأنها ضباب .

بعد الساعة السابعة بقليل أخـذ الموظفـون يتوافـدون على النـادي ، يأتـون حـاملين الكـراسي الخشبيـة ويضعـونها في الفسحـة . كـانت أنـاقتهـم ملحـوظـة ومتشابهة : القمصان البيضاء ذات الياقات المنشّأة العالية ، والبذلات الخفيفـة ذات اللون الفاتح ، وأربطة العنق الفاخـرة ، والأحذيـة التي تلمع كـالمرايـا . كانت وجوههم محلوقة بعناية ، والشوارب ـ كلهم كان لهم شوارب ـ مشذبة ، ممتدة تحت الأنوف كأصابع . قطرات من العرق تلمع على جبين بعضهم ، وعرق يسيح على طرفي الأنف . كانت وجوههم تلمع بانعكاس المصابيح الكهربائية عليها . كـان واضحاً من البلل في أطراف شعـورهم ، ومن الاسترخـاء في الوجـوه ، والعيون النقية انهم قد ناموا بعد الغداء ، ثم استحموا .

كنت أقـول لنفسي : « هؤلاء جزء من العـالم السري الـذي انتمي اليه » . وأخذت أصنفهم حسب المشاعر التي يثيرها كل واحد منهم في داخلي .

كنا قد تفرقنا مجمـوعات : مجمـوعة صغيـرة حول لاعبي الـطاولة ، كـانت صاخبة ، بحديثها وضحكاتها . ومجمـوعة أكبـر قليلاً حـول لاعبي الشطرنـج . كانت صامتة ، يراقب أفرادها اللعب باستغراق . وثـلاث مجموعـات تجلس على طرف الفسحة ، يديـرون ظهورهم لنا ، ويراقبون الميدان . كان أفرادها صامتين في الغالب ، ضجرين ، يوحون بعنف كامن . يتبادلون أحاديث خافتة متقطعة ، ثم يعودون الى الصمت .

أكبر المجموعات كانت مجموعتنا . كانت تتسع باستمرار بوفود أناس جدد . وكان النقاش حامياً داخلها . كان من الـواضح ان معـظم افرادهـا شيوعيـون . ومحمود كان العدو الذي كانت المجموعة ـ من خلال تفنيد أرائه ـ تتيقن من صحة ارائها . وبدا محمـود سعيداً بهـذا النقاش الـذي يثيره . أحسست انه من النوع

الذي لا يطرح اراءه ، بل أفكاراً تستفز المستمعين ، ويجعلهم يناقشونه بحدة .

قال محمود :

ــ طيب ؛ الحب والجواز فيه إلهم أساس اقتصادي ؟

أحنى الرجل القصير القامة رأسه ، وكتفيه العريضين ، وأخذ يفرد أصابعه السمينة ، المرنة ، ثم يضمها وهو يتكلم . له رأس كبير ، قد بدأ الشيب يغزو شعره ، وفم ممتلىء الشفتين ، واسع ، تبدو خلفهما أسنان صغيرة أنيقة . كنت أظنه يمزح في البداية بسبب لمعة مراوغة في العينين ، وتشنج عضلات وجهه حين يتكلم ، ثم عرفت فيما بعد ان ذلك تعبير ثابت للوجه والعينين لأنه مصاب بقصر النظر . ربما كان أقل الحاضرين أناقة . لم تكن ملابسه خالية من الذوق ، ولكنه كان يلبس بنطلوناً رمادياً وجاكتة طحينية اللون وقميصاً سمني اللون ، وحذاء ضخماً نظيفاً ، وليس لامعاً . اعتقد ان جسمه القصير المدكوك لم يكن يصلح للأناقة ، أو ربما لم يكن مكترثاً بها .

كان تكوينه حسياً . تأكدت من هذا عندما زرته في بيته ، فيما بعد . كان يتذوق باستمتاع كبير الخمر والشاي (الذي كان يصنعه بطريقة السيمافور الروسي ، إذ يغليه على بخار الماء) والطعام . كما انه في حديثه عن انحلال البورجوازية ونهايتها المحتومة كان يكثر من ذكر النساء ، ويصف بدقة مختلف العمليات الجنسية .

أخذ يقول في رده على محمود :

ــ أنت بتحب ، هه ؟ وبتتجوز ، هه ؟ لمجرد انها فتاة اعجبتك ؟

فأجاب محمود بسرعة :

ــ لا . لأنها اعجبتك انت .

قال ذلك بحدة ، وتهريج فكاد ان يثير ضحكنا ، ولكننا لم نفعل . كان شوقنا مركزاً على هزيمته . قال الرجل القصير :

ــ خليك معي . اللي بتعجبني عتر رايح تعجبك لسبب بسيط . انه اللي

بتعجبك لازم تعجب امك أولاً وتعجب جارك ثانياً لأنه لازم يكون إله حصة فيها . .

وضحكنا . ومضى الرجل القصير :

ــ ريتا هيوارت امرأة جميلة ، لكن مش ممكن تفكر تتجوزها . ليش ؟

قال محمود :

ــ ليش ؟

قال الرجل القصير :

ــ لأنه الأساس الاقتصادي للجواز غير موجود . قبل ما تتجوز ، هه ؟ بدك تسأل : هذي الفتاة بتناسبني ؟ بتقدر تعيش في مستوى الدخل اللي بجيلي ؟ بتقدر تتفاهم مع عائلتي اذا كان بدك تعيش مع عائلتك . وهيه ما بترضى فيك الا اذا كان فيه اطمئنان اقتصادي . اذا لقيت انت هه ؟ انها ما بتتناسب مع ظروفك بتحاول تبحث عن المبررات السايكولوجية لرفضها : فمها واسع ، مناخيرها ايش مالهم ، دلوعة .

كنت مبهوراً وأنا استمع له . ان جانباً جديداً من العالم السري ينفتح أمام عيني ، حيث تكتسب الأفعال اليومية مدلولات جديدة باهرة . وكم دهشت عندما قال لي أصحابي ان هذا الرجل عدو للحزب . سألت عن السبب بلهفة ، فقالوا : انه محرّف . وهكذا أضيفت كلمة محرّف الى قاموسي الجديد الذي أخذ يتسع بشكل مذهل .

صاح شخص :

ــ خذ نابليون ودزرائيلي تجوزوا جواز مصلحة .

لم استطع تبين ملامح المتكلم . فقد كان المصباح الكهربائي خلفه ، وبدا زغب لامع على أطراف اذنيه ، وعلى قمة الرأس وجانبيه كانت نهايات الشعر تضيء حادة كالابر ، وكأنها مضيئة بذاتها . فاجأني صدور هذا الصوت من قلب تلك الهالة البرّاقة . كان صوته نحيلاً ، وقد ألقى جملته وكأنه يسمّع درساً .

ربّت الرجل القصير على كتف الشاب الذي تكلم وأخذ يستخرج الدلالات

من زواج نابليون بجوزفين : شاويش صغير ، غريب عن باريس ، فتحت جوزفين أمامه ابواب المجتمع الراقي ، وبالتالي الوساطات والعلاقات الضرورية لصعوده . . .

كان من الواضح ان محمود يختنق في هذا الجو المليء بالتحليل ، والذي لا يفسح مجالاً واسعاً للمناقشات الحادة ، فقال :

ـ عندي مثل يبرهن على العكس .

فأخذ يحكي قصة فيلم امريكي شاهده ، يرفض فيه البطل الزواج من العمة الثرية ، متحدياً بذلك مسدسات اتباعها ، ويتزوج ابنة أخيها الفقيرة ، التي تضطهدها عمتها . ينتصر البطل على خوفه ، وعلى اغراءات المال ، ويرضى بحياة الفقر مع الفتاة التي يحبها .

كان محمود يعلم انه يستفزنا بـرواية هـذا الفلم الأمريكي ، ويعلم انـه سوف يجعلنا نضحك ، فأخذ يضحك مقدماً .

قال الرجل ضاحكاً :

ـ قول إلنا من زمان ان مصدر ثقافتك هوه الأفلام الأميركية . . .

قاطعه الشاب الذي تحيط برأسه هالة الضوء :

ـ أفلام رعاة البقر وعصابات شيكاغو .

فزعق محمود :

ـ طيب ، همه رعاة البقر ما إلهم أساس اقتصادي ؟

خبط بخيت ظهر محمود وقال :

ـ ما بطلعك من ورطتك غير فيلمين ، ثلاثة اميركانيات .

ضحكنا كثيراً بتشفٍ وفرح . . بدا لنا ما قاله بخيت بارعاً .

ثم أخذ الحاضرون يروون نكاتاً عن الأميركان : الصحفي الأمريكي الذي قابل ستالن وقال له ان امريكا بلد حر ؛ كل امريكي يستطيع ان يقول ان ترومان حمار ولا يعاقب . فقال له ستالن : كل سوفييتي يستطيع القول ان ترومان حمار ولا يعاقب . ونكته عن المليونير الذي سأله سائق سيارته :

ـ « من هو الشخص الذي ولدته امي وليس بأخي ؟ »
يحتار المليونير ، فيقول له السائق :
ـ « انه انا . فقد ولدتني أمي ، ولست بأخ لنفسي » .

ويسأل المليونير أصحابه نفس السؤال ، فيعجزون عن الإجابة ، فيقول المليونير :

ـ « انه سائق سيارتي ».

كنت مبهوراً بالفعل .

ثم انتقل الحديث الى نابليون وزوجته وعشيقاته ، ثم عن عشيقات لويس الرابع عشر . ويبلغ الحديث قمة حقيقية عندما انتقلوا الى الحديث عن راسبوتين ونسائه الكثيرات . كان المتحدثون يتألقون فعلاً . تحدثوا عن هؤلاء النساء وكأنهم على صلة شخصية بهن ، وكأنهم سوف ينصرفون من هنا ليقضوا بقية السهرة معهن .

كان الحديث بشكل عام يدور حول الانحلال في المجتمعات الطبقية ، ولكنني ـ رغم انبهاري ـ احسست انهم يعشقون هؤلاء النساء ، ويتمنون لو أتيح لهم ممارسة الانحلال معهن . كان ذلك شعوراً مبهماً ، واقعاً في سياق استياء استطعت السيطرة عليه . كانوا يصفون هؤلاء النساء ـ جمالهن وما يتمتعن به من جاذبية جسدية وتفاصيل مثيرة عن حياتهن الداخلية ـ بتلذذ واضح . ثم ، بعد ذلك ، يعودون فجأة الى التحليلات السياسية . قال الرجل القصير بقدر كبير من الاستفاضة ان البورجوازية تشعر ان نهايتها محتومة ، ولذلك تقبل على الملذات بنهم حتى تنسى مصيرها . مثل الرجل الذي يسكر لينسى مأساته . وخلال ذلك كنت أفكر ، بشعور بالذنب ، بتلك المرأة التي وعدني اصحابي بها الليلة . الا يعتبر ذلك انحلالاً ؟

كان للحديث الدائر أثر يشبه الاخصاء ، يشبه الحضور الطاغي للأم أو الأب في لحظة الاقتراب من امرأة . كان شعوراً مرّاً بأن تموت كل أشواقي للمرأة ، وبأنني ، وبسبب وجود هذه الأشواق ، انسان بورجوازي أشعر بنهايتي المحتومة

فألجأ الى الملذات . وانفتحت في داخلي هوة شعرت ان قلبي سقط فيها : وسلطانة ؟ هل امتنع عن رؤيتها غداً ؟

تعارض هذين العالمين : سلطانة وعالم الثورة السري كاد أن يخنقني . خطر لي ، انه لن ينقذني من هذا العذاب سوى الرجل القصير . انه قادر على إقامة علاقة وثيقة بين العالمين . حدست انه تجسيد لهما معاً . يمتلك القدرة على رؤية عالمنا من زاوية العالم السري ؛ وفي الوقت نفسه فان شوقه للمتع الحسية ظاهر في تلك الأصابع التي تنفرد وتنضم كأنها تداعب جسد امرأة ، في ذلك الأنف العريض ، والشفتين الممتلئتين ، في جسده بكليته ، تلك الكتلة العضلية التي تشي بتعطشها للحياة حركات مرنة ومقتصدة في وقت واحد .

لم تكن ، بالطبع ، أفكاري بهذا الوضوح ، ولكن حدسي قال لي انه قادر ان يعيد سلطانة إليّ . كنت أراقب حركات يديه ووجهه ، حذاءه الضخم وكاحليه الغليظين ، فأشعر انه سوف يفهمني ويدعمني . ولم تخطر لي المفارقة الأخرى ، ان أصدقائي الذين يستمعون بلهفة الى الحديث عن الانحلال البورجوازي قد كادوا يغضبون عندما قلت لهم انني لم التق بأميرة ، وانهم بعد قليل سوف يأخذونني الى امرأة سوف أمارس معها الجنس . ولكنني أعرف أصدقائي ، وأعرف انهم يستطيعون ان يعيشوا العالمين دون معاناة ، ودون حتى أن يتنبهوا الى التعارض بينهما .

ترددت طويلاً قبل ان أحدث الرجل القصير (اكتشفت ان اسمه طعمه) . لقد نسيت سلطانة منذ دخولي النادي ، ولكنها الآن تعود إليّ بقوة ـ بقوة عالم سري موعود ومشتهى ومعروف ـ . كانت مجموعتنا قد تبعثرت . نظر البعض الى ساعاتهم وقالوا انها التاسعة وقد تأخرنا . وتغيّر مكان بعض الكراسي فتكونت حلقات صغيرة . كان طعمه يجلس بجانبي . ويبدو انه كان مستغرقاً في التفكير . قلت :

ـ استاذ طعمة .

رمقني سمير باستنكار ، ولكنني تجاهلته . قال طعمة :

ــ نعم ؟

لم يلتفت إليّ ، ولكنه مال برأسه نحوي ، فأصبحت أذنه قريبة من فمي . كانت أذناً نظيفة . بيضاء . قلت :

ــ بدي اسألك . . .

وبسرعة قال :

ــ تفضل !

قلت :

ــ فيه تناقض بين الحياة الخاصة والحياة العامة ؟

استدار ونظر إليّ مباشرة . قال :

ــ الحياة الخاصة والعامة ؟

قلت :

ــ ايوه .

قال :

ــ الحياة الخاصة كذبةُ بورجوازية .

ــ كيف ؟

كنت اختنق . قال :

ــ رايح أقول لك ليش . الحياة الخاصة مصطلح بورجوازي معناه انك تمارس الأشياء اللي بتستحي منها في السر .

قلت :

ــ ممكن الواحد ينام مع مرته في العلن ؟

لمت نفسي لأنني قلت ذلك . قلت لنفسي : « أصبحت أتكلم مثل محمود ، بنفس أسلوبه الاستفزازي » . قلت :

ــ يعني انه فيه أشياء لازم تظل سرية . الحب مثلاً .

قال لي :

ــ انت بتستحي من الحب ؟

قلت :

ــ لا .

قال :

ـ الحياة الخاصة في المعنى البورجوازي انك تمارس في السر أشياء لو انعرفت عنك ، تستحي منها .

قلت :

ـ مثل ايش ؟

وقبل ان يجيبني دخل اثنان أحدثا إثارة عامة . نهض لهما حتى اولئك الصامتون ، المستغرقون في مراقبة الميدان . وكان طعمة أول من تقدم منهما وصافحهما . احتكاك الكراسي بالأرض الاسمنتية ، والنهوض ، وعبارات الترحيب أحدثت ضجيجاً أشار بوضوح الى أهمية الرجلين . همس شفيق في أذني :

ـ احمد المساعد .

وأشار برأسه نحوه . فوجئت . احمد المساعد كان أعلى نواب المعارضة صوتاً ، وأقذعهم لساناً ، كان موضع اعجابنا الدائم . ولكنني فوجئت به . تصورته نحيلاً ، طويلاً ، عصبياً ، ولكنه كان ضخماً بشكل مفرط ـ طويلاً ، عريضاً ـ له وجه كبير قاتم ، وعينان جاحظتان . كان يسير قطعة واحدة ، أعني ان ساقيه تتحركان ببطء ولكنه جذعه راسخ ، ثابت ، كأنه واقف دون حركة . والغريب انه كان يصافح الحاضرين دون ان ينظر اليهم ، بل بدا مستغرقاً في أفكاره الخاصة .

كان سمير قد أشار الى الشخص الآخر وقال :

ـ ـ موسى السوالمة . شيوعي فظيع .

ملت نحو شفيق وسألته :

ـ أحمد المساعد شيوعي ؟

فقال :

ـ ديموقراطي .

فلم أفهم ما يعنيه بالضبط .

أما موسى فقد كان أقصر من النائب قليلاً ، كل ما فيه يوحي بالاستطالة ،

أنفه الطويل ، وجهه الضيق الطويل ، رقبته الطويلة ، حتى بذلته كانت تتخللها خطوط بنية طولية على أرضية طحينية اللون . كان له فم صغير جداً ، وشارب صغير ، وصدر ضيق . صافح الجميع مردداً اسم كل من يصافحه ، وعندما مددت يدي لأصافحه نظر الي ببرودٍ غريب وقال :

ــ مين الأخ ؟

فقام شفيق بتعريفنا . جذب انتباهي ان أسنانه ناصعة البياض ، ولكن بياضها مطفأ كأنهم أسنان صناعية ، وقد ارتسم بين كل سن وآخر خط أسود دقيق .

رحّب بي ، وقال لشفيق :

ــ لازم نشوفه .

فقال شفيق :

ــ طبعاً .

جلس الجميع في دائرة . ما زلت بجوار طعمة ، وطعمة كان يجلس بجوار النائب . أخذ طعمة يلتفت بجسده كله نحو النائب ويلقي تعليقات ساخرة ، وأسئلة ساخرة ، يضحك لها بصخب . أما النائب فكان يهز رأسه هزات خفيفة كأنه يقول لطعمة « فهمت الآن » ثم يدير وجهه الى موسى ، رغم ان موسى كان صامتاً . أعجبت بالوقار المتزمت للنائب وأغراني بتقليده . أما موسى فقد كان صامتاً ، على وجهه تعبير اشمئزاز ، وعدم مبالاة . كان أقل الناس اكتراثاً بالنائب . ولكنه عندما رأى الفراش ناداه :

ـ يا اسماعيل .

وعندما تقدم منه اسماعيل نهض وصافحه وقال له :

ــ عارف قهوتي ؟ وهات للاخوان طلبات .

اعترض كثيرون ، منهم طعمة ، ولكن موسى لم يكترث . اعجبت به لأنه لم يخص النائب بالاستفسار عن طلبه ، بل ترك ذلك للفراش ، كما اعجبت بتلك الرجولة التي صافح بها اسماعيل ، دون تلطف زائد ، أو برود .

ثم أخذ النائب يلقي تعليقات تجعل الجميع يضجون ، بالضحك ، دون ان

تكون مضحكة . كان طعمة أكثرنا استجابة وقهقهة لدعابات النائب ، يعقب قهقهته في كل مرة بان يخبط ظهر النائب برفق على ظهره .

أصبح ، بعد قليل ، محمود مركز الجديث . حكى طعمه حواره مع محمود حول الأساس الاقتصادي للزواج ، وكيف ان محمود حاول ان يفند ذلك بفيلم امريكي شاهده ، وروى تلخيصاً للفيلم . أضاء وجه موسى وأخذ ينظر لمحمود بضحكة ملأت وجهه كله ، ثم قال :

ــ رامي راسه في الأرض . ورّينا عيونك .

كان أثر هذه الكلمات مذهلاً على محمود . أخذ جسده كله يتحرك ـ بدا لي في محاولة للاختفاء ـ وكأن آلاف البراغيث دخلت تحت ثيابه وباشرت فعلها . ولاحقه موسى :

ــ ايش الفيلم الأميركاني ؟ العجوز العمة وبنت أخوها ؟

ثم قهقه موسى وقال :

ــ ما فيه حدا منتبه . لابس قميص اميركاني .

وبحركة لا شعورية حاول محمود ان يغطي القميص بكفيه ، فأغرق الجميع في الضحك . خبط طعمه ظهر النائب وهو يضحك ، فارتسمت تكشيرة على وجه النائب ، وأمسك بخيت بكتف محمود واخذ يهزه بقوة جعلت محمود يكاد يفقد اتوازنه ويسقط ، وقال بخيت وهو يضحك :

ــ جاوب يا زلمة ، وين بلاغتك ؟

نهض محمود فجأة وقال :

ــ ايش يا أخي ، ايش يعني ، بخيت وما بخيت . انتو مفكرين اني أهبل ، والا مضحكة ؟ كركوز يعني .

واستدار لينصرف ، فقال موسى :

ــ قال عصبي ، قال .

ثم غيّر صوته وأضاف :

ــ بنمزح معاك يا زلمة .

وقف محمود متردداً ، فقال له النائب بوقاره المتزمت :

ـ ارجع مكانك .

وتهاوي محمود على كرسيه ـ سقط فوقه بالفعل ـ وقد طوى ذراعيه على صدره ، ووضع كفيه تحت ابطيه ، وأخذ ينظر فوق رؤوس الجالسين ، وقد نفخ طاقتي انفه . كانت الحركات العصبية في وجهه مثيرة للأسى : تقلصات العين اليمنى ، واغماض عينيه وفتحهما بسرعة متزايدة .

بدأ موسى حديثاً جاداً في السياسة . كان واضحاً انه يريد ان يحوّل اهتمام الآخرين عن محمود . قال ان امريكا بدأت تتسلل الى الأردن من خلال النقطة الرابعة ، وان أول من استجاب لذلك الانجليز ، فقد التقى غلوب باشا ، قائد الجيش ، مع عدد من الوجهاء ، وقال لهم ان الأمريكان يريدون ان يزرعوا أجزاء من الصحراء حتى يأتي الجراد من السعودية ويأكل الأخضر واليابس في الأردن . ثم أضاف :

ـ لكن مبين ان الأميركان مرتبين أمورهم .

ثم تكلم طعمة طويلاً . قال إن آخر كتاب لستالين يدور حول هذه النقطة : أي ان الصراع بين الدول الاستعمارية أشد عنفاً من الصراع بين المعسكرين ، الشرقي والغربي ؛ وان هذا الصراع سيزداد حدة مع الأيام . ثم اخذ يفصّل أسباب ذلك .

كان رد فعلي الداخلي في البداية نوعاً من خيبة الأمل : لقد انتصرنا قبل ان نبدأ ، كما فقدت الاتجاه : لم يعد الصراع بين الخير والشر هو الصراع الأساسي . كان ذلك أشبه بقراءة رواية بلا قمة درامية .

يبدو ان طعمة أدرك ذلك ، لأنه قال : ان ذلك بالطبع لا ينفي ان الصراع بين المعسكرين سوف يستمر الى ان تزول الرأسمالية .

ثم تحدث النائب . كان يزعق بصوت خشن ، حلقي ، خال من العمق والتلوين ، وقد احمرّ وجهه ، وأخذ يلوّح بذراعيه ، وقد أخذ العرق ينعقد قطرات على جبينه . قال ان الانجليز جاءوا الى بلادنا ليستعمروها ، لا من أجل سواد عيوننا ؛ وانه متأكد من ذلك ، عنده بأدلّة قاطعة . أضاف :

ـ بذكوا الصراحة والأميركان كمان نيتهم مش صافية . مين طلب منهم يجوا ؟ جايين يخلّصونا من الانجليز ؟ انا رأيي انهم متفقين . وقاعدين يضحكوا علينا ، ويتظاهروا انهم مختلفين .

باستثناء موسى بدا الجميع معجبين بخطبة النائب . أما طعمة فقد أخذ يفسّر كلام النائب مستعملاً تعبيرات جديدة مدهشة : أزمة النظام الرأسمالي ، مرحلة الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية ، السوق الرأسمالية التي ضاقت بسبب ثورة الصين . . . خلال ذلك اكتسى وجه النائب وقاراً غاضباً ، وعنفاً ، وأخذ يهز رأسه دلالة الموافقة على ما يقوله طعمة ، وعلى ما سيقوله ، كأنه يعرف مقدماً ما سوف يقوله . كانت هزّات رأسه تقول لطعمة بوضوح وحسم : انت على حق ، ولكن توقف عن الكلام بحق الله .

أزحت كرسيي الى الأمام قليلاً وحرفته قليلاً نحو اليمين حتى أرى النائب بشكل أوضح ، وكذلك طعمة . استلزم ذلك تقديم الكثير من الكراسي التي على يساري . لاحظت النائب يرشح عرقاً وغضباً قاتماً . كان يتنفس بصعوبة .

عندما انتهى طعمة من كلامه بدا حائراً أين يضع يديه اللتين شاركتاه الحديث بحيوية مدهشة . طواهما على صدره ، ثم وضعهما على فخذيه ، ثم رفع اليمنى ـ بحركة لاارادية ، كما خطر لي ـ وخبط ظهر النائب برفق . . .

جعلني حديث النائب في حيرة شديدة . استعدت ما قال ، لأكتشف عمقاً خفياً فيه ، فلم أجد . قلت لنفسي ـ عبر مشاعر خيبة وانكسار الوهم ـ تلك هي طريقة السياسيين في الحديث . اقنعت نفسي بذلك .

ما زال النائب يتنفس بصعوبة ، ووجهه يفور بذلك الغضب القاتم . ماذا حدث ؟ قلت لنفسي ، فلم أجد جواباً . ساد صمت مربك . معظم الحاضرين ـ كما لاحظت ـ احنوا رؤوسهم موحين بموت شخص عزيز عليهم ، بجو مأتم . وقف بخيت ، فاتحاً علبة سجائره ودار بها على الحاضرين . بعد قليل تكونت غيمة زرقاء فوق رؤوسنا . شعرت ان سمير يتأهب ليهمس شيئاً في أذني . تصلّب عنقي بانتظار همسه وأنفاسه ، ولكنني رأيته يعود الى استرخائه . يبدو انه خشي أن

يلفت الأنظار حين يحطم جو الصمت المشحون بالتوتر .

فجأة انطلق محمود يضحك ، يضحــك دون توقف . كتفـاه كانتـا تهتزان بايقاع منتظم كراقص الدبكة . حاول ان يسيطر على ضحكه ، فصمت قليلاً ، ثم انفجـر بضحك أشـد ، وكان ضحكـه هذه المرة برذاذ من فمـه ، وبـدمـوع غزيرة . غادر النادي محني الظهر من الضحك . ضحك طعمه بلا مرح وأمسك بيد النائب ليشركه في الضحك . اكتفى النائب بابتسامة صغيرة مريرة . أما موسى فقد ظل مكشّراً .

قال أحد الحاضرين :

ـ الزلمة مجنون .

وكان ذلك ايذاناً بانقشاع الصمت المتوتر . أخذ عدد من الحاضرين يحدثون الجالسين بجوارهم . نادى واحـد اسماعيـل ليأتي لـه بشاي . التفت موسى الى النائب وقال له :

ـ شفت الزلمة ؟ أخينا ؟

التفت النائب الى موسى وهو يبتسم ، كأنه يعتذر عن شيء ما . وجه موسى كان بلا تعبير . كان ينظر اليه فقط . كان النائب يقول انه قابل « أخينا » اليوم ، ودار حديث . قال ، انه قال له جماعتك ما فيه فايدة منهم . غضب .

ثم صمت النائب ، وانتظر بابتسامة خجولة رد فعل موسى ، الذي أخذ ينظر أمامه ، ثم قال وكأنه يخاطب الهواء :

ـ ناس منحطين يا مولانا ، باعوا أنفسهم .

ثم التفت الى النائب وأتم حديثه ، الذي لم أفهم منه شيئاً .

ضحك النائب وقال :

ـ مش لهاي الدرجة .

قال موسى بحسم :

ـ لهاي الدرجة ونص . يعني انا مش عارفه ؟

ومضى الحديث على هذا النحو الذي يستحيل فهمه بالنسبة لي . فجأة قـال النائب بصوت واضح :

ـ لا . هذي مسألة شخصية .

كان طعمة ، خلال هذا الحديث ، قد مال بجذعه الى الأمام ، وأدار وجهه في اتجاه الاثنين ـ وقد جعّد جبينه وكأنه يشارك فعلاً في الحديث . ولكن النائب وموسى تجاهلاه . حين سمع هذه العبارة قال :

ـ لكن المسائل الشخصية جزء أساسي من حياة الانسان العامة . مش ممكن نفصل الاثنين عن بعض .

قال النائب بسرعة :

ـ بنتكلم في موضوع ثاني ، موضوع ثاني .

فرد طعمه :

ـ ما أنا عارف عن مين بتتكلموا .

قال النائب :

ـ بنحكي في مسائل خاصة .

ولكن طعمة واصل التدخل . ولم يعودا يعيراه أي انتباه . حاولت ان أسأل طعمة ، الذي تصورت انه أصبح صديقي ، عمن يتكلمون . جذبت كوعه الأيسر وهمست :

ـ مين هوه ؟

جذب ذراعه من يدي : لم يرد ، ولم يلتفت إليّ .

ـ ٣ ـ

غادرنا النادي بعد ان انصرف النائب وموسى مباشرة . كنت خائفاً من مغادرة النادي ، وتمنيت لو ينسى أصحابي موضوع المرأة . ولكن سمير ، حين أصبحنا في الشارع ، تنهد ، ونظر الى ساعته ، وقال :

ـ هذا موعده .

سرنا نحو ساحة الساعة . عندما أصبحنا أمام الممر التجاري قال سمير :

ـ شفناه هون .

وتوقف . قال شفيق :

ـ مش معقول يظل واقف هون طول عمره .
قال خالد :
ـ ندوّر عليه في الممر .
قال سمير :
ـ صحيح .

من الواضح ان ما قاله شفيق لم يخطر له ، اذ تصور الرجل مزروعاً في هذا المكان منذ أن قابلوه . كان أصدقائي قد رأوه في هذا المكان ليلاً . استوقفهم وسألهم عن الوقت . ثم اقترح عليهم ان يأخذهم الى امرأة . سألوه إن كانت جميلة ، فقال لهم هنالك عدد من النساء يستطيعون ان يختاروا من بينهن التي تعجبهم . كانوا مفلسين ، فقالوا له انهم مشغولون الليلة . وسألوه عن المكان الذي يستطيعون ان يجدوه فيه اذا احتاجوه . قال لهم : في هذه المناطق .

اكتشفت ان هذه هي كل معرفتهم بالعالم السري للمرأة في عمان .

سرنا نتفحص الوجوه . حاولنا ان نتظاهر اننا مجرد متسكعين . ولكن خطواتنا وتعابير وجوهنا المتجهمة ، وحركاتنا العصبية كانت تفضحنا . مررنا أمام مطعم أبو العبد ، ثم صعدنا الى الشارع الهابط من جبل عمان . وسرنا على الرصيف المقابل للممر التجاري . مررنا أمام محلات باتا لبيع الأحذية . بعد قليل كنا نقف أمام مكتبة الاستقلال . عبر سمير الشارع الى مبنى البريد المركزي . تبعناه ، ثم توقفنا أمام المبنى ، اعترضنا طريق رجلين قادمين من ساحة الساعة . نظرنا اليهما بتدقيق ، فنظر الينا أحدهم بحدة وقال :
ـ ايش فيه ؟
من الواضح انه كان مستعداً للعراك . قال شفيق :
ـ ما فيه إشي .
وتخطيناهم . لم نكن مستعدين للشجار .
كان سمير أشدنا حماساً ، يغضب من كل تلكؤ يصدر عنا . يقول بصوت مشحون ، مختنق :

ـ بلاش نضيّع الوقت .

ويتقدمنا .

اقترح بعد قليل ان (ننظم المسألة)، معطياً لشفيق وحده الحق في الحديث مع القوّاد اذا لقيناه . وافقنا على ذلك ، رغم شعورنا بالضيق من حدة سمير وتنظيمه للمسألة الذي لا ينتهي . كان سمير هو أول من خرق النظام الذي اقترحه . قال لشفيق :

ـ الزلمة الواقف قدام محلات عصفور .

وتقدمنا سمير نحوه . بدت الدهشة ، ثم الخوف على وجه الرجل عندما رآنا ننظر اليه ، ونسير نحوه مصممين . غادر مكانه أمام الفترينا ، حتى اذا وصل الى شارع جانبي ، دخله راكضاً .

عندما بلغنا الممر التجاري ، قال سمير اننا نسينا المقهى الذي في الممر . فقال شفيق بارتياح :

ـ صحيح ، صحيح .

قال سمير :

ـ يمكن بقعد هناك .

ونحن في طريقنا للمقهى ذكّرنا سمير بأن لشفيق وحده الحق اذا رأى القواد ان يغمزه . قلت . ـ يغمزه بأي عين ؟

أردت ان أكون ساخراً ؛ فقال سمير بعصبية :

ـ مش مهم .

ثم إضاف تأكيده على حق شفيق في الغمز ، واقترح علينا ـ حقيقة المسألة انه أمرنا ـ ان لا نتحدث عن النساء في المقهى ، بل في مسائل عامة .

في ضوء المقهى الشعبي الأصفر كان وجه سمير مبللاً بالعرق ، وعيناه لامعتان . طلبنا شاياً بالنعناع ، ثم قال شفيق ان النائب المعارض مثقف بورجوازي ، وان البورجوازية تلعب دوراً تقدمياً ووطنياً في المرحلة الحالية . قال خالد ان هنالك تناقضاً بينها ، وبين تحالف الاستعمار مع الاقطاع ومع البورجوازية الاحتكارية .

قلت لنفسي . لن استفهم عن معنى هذه التعبيرات الآن ، وأخذت أفكر في المرأة التي سأضاجعها الليلة . كانت أحلام يقظتي تدور في وضع نموذجي . اسأل عن قصة حياتها ، كيف تحولت الى مومس ؟ فتروي حكاية مؤلمة . أنصحها بالتوبة . بعد تردد ، ونقاش حول حل آخر لحياتها ، توافق . نتحدث عن الكتب ، هي عن « آنسة الكاميليا » وأنا أحدثها عن « مدام بوفاري » .

انتبهت الى كأس الشاي يلسع يدي ، فوضعته على الصينية ، وأنا اصفّر متألماً . قال سمير همساً :

ــ هوه ؟

بدا الذهول واضحاً على وجه شفيق ، وقال :

ــ مين ؟

قال سمير :

ــ الزلمة . حسّيت انك بتغمز في عينك .

فقال خالد :

ــ غمزني انا .

وضحك .

قال سمير ان ضحك خالد فيه عدم تقدير للظروف ، فقال شفيق :

ــ بلاش تكون عصبي يا أخ سمير .

ــ مش عصبي .

قال سمير وصمتنا . قال شفيق :

ــ لو كان الوكت بكير ، كنا طلعنا للنّور .

قال خالد :

ــ النّور ودهم سيارة تكون معاك .

قال شفيق باستسلام :

ــ ومصاري .

قال سمير بحدة :

ــ مش قلنا يا اخي بلاش ، يعني ، نتكلم في المواضيع هذي ؟

قلت لأثير غضبه :

ــ عندك حق .

تشنج وجه سمير وهو يقول :

ــ بدهم ايانا الليلة تنام في الشرطة ، وعلى ايش ؟ منشان واحدة شرموطة ، واحدة . . .

قلت :

ــ صحيح .

ضحك شفيق :

ــ بلاش تشعلله .

في الثانية عشر ، أو قبل ذلك بقليل ، أخذ الجرسون يمسح الموائد الفارغة بفوطة مبلولة ، ثم يكوّم فوقها الكراسي . لاعبو الطاولة والورق أخذوا يتثاءبون ، فقد أوحت لهم الكراسي المقلوبة فوق الموائد بالنوم . تثاءبوا وتمطوا ، وأخذوا يتكلمون خلال التمطي :

ــ الساعة اثناعش ؟ مش معقول .

ــ سرقنا الوكت . .

ــ خايف ؟

ــ من المرة ؟ المرة في سابع حلم .

وضحك . من يخاف من امرأة ؟ بل ان مجرد قول نكتة لهذه مستوحى من الأفلام المصرية . وتحركوا نحو الباب ببطء .

أخذنا نصعد الجبل . قميصي ملتصق بجسدي ، والعرق ينساب في ظهري مثيراً احساساً بالاشمئزاز من جسدي ورغبة في النقاء والطهر . لاحظت ان يد خالد تبحث عن يدي ، فتحاشيتها . ان تضيع هذه الليلة في بحث عقيم عن امرأة . . . عن قواد شوهد مرة واحدة . . . وددت ان أبكي ، ان أطلب المغفرة من انسان ما . عشت حلم يقظة العائد من مدينة عاش فيها حياة فجور وانحلال . . . ثم يعود الى القروية الجميلة التي تحبه ، ولكنه هجرها ، يعود تائباً ، مستغفراً . . . تدخله الحماه ، وهي تقول :

ـ لن أمسك حتى تغسل كل أقذار المدينة عنك .

يخرج من الحمام طاهراً . يجلسان على قمة الجبل المشرف على وادي الأردن ، يراقبان غروب الشمس . ثم ينحل حلم اليقظة في احتجاج العقل : لا يوجد في المدينة فجور ، ولا حبيبات كالزهرات في القرية .

كنا نسير صامتين ، نلهث . اقترح شفيق ان نرتاح قليلاً . كان صوته مهجوراً ، خشناً . كنا قد وصلنا الدوار الأول من جبل عمان . جلسنا على الرصيف ، متجاورين ، محاذرين ان نلمس بعضنا ، او ان نتواصل . سمعت وقع أقدام ، ثم اقترب منا الحارس الليلي ، قال :

ـ منين جايين الشباب ؟

رد خالد :

ـ مروّحين على البيت .

ـ بسأل منين جايين ؟

رد خالد :

ـ ليش بتسأل ؟

ـ ممنوع .

ـ ايش الممنوع ؟

قال سمير :

ـ ايش اسمك ؟

ـ وشو بدك في اسمي ؟

قال شفيق :

ـ يمكن نطلع قرايب . مبين عليك كركي .

قال الحارس بلهفة :

ـ انتو كركية ؟

وتم التعارف . أخرج علبة سجايره وضيّفنا ، وقال :

ـ لا تزعلوا مني يا شباب . عندي أوامر . أقعدوا مثل ما ودكوا .

وانصرف .

قال سمير :

ــ طلع كركي .

في الطرف الآخر من الشارع فيللا ساكنة ، محاطة بالشجر والظلمة . نافذة واحدة رأيتها مضاءة ، يتسلل ضوءها عبر الأشجار خالقاً احساساً بالألفة في داخلي . قال سمير :

ــ طلع كركي .

لم يعلق احد على ذلك . قال شفيق :

ــ في بلاد العالم ، بلاد ربنا ، مش بلدنا هذه ، الواحد بمشي هو وصاحبته من غير مؤاخذة ، ولا انتقاد .

تكلم سمير بسرعة :

ــ في تشيكوسلوفاكيا ، في البلدان الاشتراكية كلها الطلاب بتجوزوا وهمه في الجامعة ، ولهم معاش من الحكومة .

واستمر شفيق كأن أحداً لم يقاطعه :

ــ لو بست صاحبتك قدام الناس ، ولا حدا بقول لك وين رايح .

قال خالد :

ــ عندنا جريمة لا تغتفر .

قال شفيق :

ــ بتعرفوا عبد الله ؟ اللي كنا بنسميه الساهي ؟ عبد الله ؟

قال خالد :

ــ عارفينه يا عمي .

قال شفيق :

ــ كان في انجلترا ، وكان مصاحب واحدة . بنت طالبة معاه . يخلص دروسه ويروح العصر لأهلها ، يقول إلهم I beg your pardon[1] ويطلع هوه واياها ويسهروا ، ويسووا السبعة وذمتها ويرجعها لبيت أهلها وجه الصبح .

---

(١) ارجو المعذرة .

بتباوسوا عند الباب وهي تقول Tomorrow please[٢] واهلها ما يفتحوا فمهم في كلمة . . .

وقاطعه خالد :

ــ ليش تبعد بعيد . في مصر البنات قاعدات في الحدائق العامة ، وبنات عائلات محترمة ، تيجي لها وبتقول : عندي رغبة يا هانم أروح أنا واياك السينما ، تقول هيه : حاضر يا افندم .

قال سمير :

ــ بتقول : حاضر يا جدع .

واستمر خالد :

ــ ويقولوا الطلاب اللي في مصر انها ما بتخليك تدفع الحساب : ازاي يا جدع ؟ ازاي كده ؟ احنا بدخلنا في الشهر الف جنيه . انا أبوي باشا .

قال شفيق :

ــ ادفعي ولا تزعلي .

قال سمير :

ــ اذن عندها سيارة .

قلت :

ــ ويمكن عندها باص .

ضحك سمير ، وقال خالد :

ــ لو اني انا . كنت قلت لها : ادفعي واقرضيني .

قلت لخالد :

ــ مفلس ؟

كان واضحاً انه عرض مني بتقديم قرض ، قال خالد :

ــ فيه ، من خير الله وخيرك .

قال شفيق :

---

(٢) غداً من فضلك .

ــ لو انا ، قلت لها لي غربتي يـا هانم وسكنيني عنـدكو . ومـا إلي حدا يـا خيتي .

قال سمير جاداً :

ــ ايش فكرك يعني ؟ بتسكنك عندها والله .

حكى شفيق عن طالب فلسطيني كان يسير في أحـد شوارع القـاهرة . فـإذا بسيارة آخر موديل تقف بجوازه ، ويخاطبه سائقها :

ــ اطلع !

ــ وين ؟

قال السائق :

ــ الهانم بدها تكلمك كلمة يا افندم .

ــ مين الهانم ؟

قال خالد :

ــ يقطع نصيبـك . اركب .

قلت :

ــ الصبر مفتاح الفرج يا عم خالد .

قال خالد :

ــ اشي بسطح يا زلمة . وين ؟ ومين الهانم ؟ وليش ، وكيف ؟ خلص اركب يا أخي وتوكل .

قال سمير :

ــ يمكن مكيدة .

وضحكنا لكلمة مكيدة .

ومضى شفيق يصف الحديقة الواسعة جـاعلاً كـل الأشجار مثمـرة ، والثمر ناضجاً ، والأثاث الفاخر (لم يصفه) والهانم امرأة تدوّخ بجمالها ، والتي تبلغ من العمر اربعين عاماً .

قال سمير :

ــ أربعين ؟ ايش أربعين ؟

ودار نقاش حول صلاحية المرأة في الأربعين . قال شفيق انها أصلح ما تكون

في هذا السن . قال خالد :

ــ انت بتفتكرها واحدة من نسوانا ؟ طول النهار بتجرف الجلة وبتطلعها عالحيطان ، وبتوكل خبز يابس ؟

ولكن شفيق تراجع عن تقديره . قال ان سنها مجرد تقْدير من جانبه ، لم يخبره الشاب عن سنها . قلت :

ــ يمكن خمسة وثلاثين .

كنت أفكر في سلطانة .

قال سمير :

ــ لا . ثلاثين .

ــ المهم .

نهضت ونهضوا ، وسرنا في اتجاه البيت . انتعشنا بالكلام والراحة . سأل سمير عما حدث بعد ذلك ، فقال شفيق :

ــ انت وذكاءك .

فألحّ سمير :

ــ لا ، يعني ، وبعدين . بعد هذا كله ؟

قال شفيق بسأم :

ــ حمّل الهدمتين اللي عنده ، وسكن عندها .

ضحك خالد وقال :

ــ والله لو مدفع هاون ما طلّعه . رسا يا عم .

قال شفيق :

ــ غطس . جنه يا عم ، ما لذّ وطاب .

قال سمير :

ــ تجوزها ؟

ــ لا .

ــ والا ايش ؟

قال خالد :

ــ ايش ؟نعم ربك خوخ ورمان وتفاح . غطس ، وما طلع. ايش بده في الجواز ؟

- ٤ -

استحممت . علّق خالد على الاستحمام قائلاً بعد المضاجعة لا بد من الاستحمام . تناولنا العشاء : مقدوس وجبنة ، ولبنة وزيتون وزيت وزعتر ؛ كله مما يصل أصحابي من أهاليهم في الكرك . أعد لنا خالد الشاي . أحسست اني قادر على مواصلة السهر لعشرين ليلة قادمة . كان يوماً طويلاً جداً ، ولكنني شعرت انني جائع للحياة .

كان قد انضم الينا شخص اسمه نضال . كان اسماً غريباً بالفعل ، ولكن خالد همس لي ان هذا ليس اسمه الحقيقي . تصورت ان ذلك يعني انه مطارد من البوليس ، وهو لذا من قلب العالم السري للشيوعيين . أحببت ان أتأكد . سألته عن عمله ، وهل هو شيوعي . نظر اليّ سمير مقرّعاً ، أما خالد وشفيق فقد احنيا رأسيهما (خجلاً كما تبين لي). علمت فيما بعد انه يعمل موظفاً صغيراً في وكالة غوث اللاجئين (الأونروا)، وانه ليس بالأهمية التي يضفيها على نفسه . كل ما في الأمر انه كان هو الذي يأتي بمنشورات الحزب لأصدقائي ، وقد رأيته يفعل ذلك فيما بعد ، بطقوس ، بدت لي ، مفتعلة .

شعرت بالتحدي ساعة دخوله . كنت أعلم انني ، خلال أيام قليلة ، سوف أستوعب كل جديد عند أصحابي ، وأنني سوف استعيد دور المثقف الأول ، والموجّه . كان ذلك يحدث بارادتهم ، ودون بذل مجهود كبير مني . ولكن ، منذ أن رأيته ، يطل علينا بوجه لا انفعال فيه (سوى تعبير ضيق)، ويصافح الأيدي المتشوقة بفتور ، ويقبل على طعام أصدقائي دون استئذان (كانوا قد وضعوا أمامه دجاجة من الدجاجات المشوية التي احضرتها ، والتي كنا قد قررنا ان نبقيها للغد لنأكلها مع العرق) مع توجيه تهمة البورجوازية لأنهم يأكلون لحم الدجاج ، وقبول أصحابي لذلك بضحكات صغيرة مرتبكة . . . عندما رأيت ذلك شعرت انني خسرت المعركة ، وبأسلوب ـ تصورته ـ غير شريف . كان سمير أكثرنا ذلة أمامه ، وأسرعنا الى الموافقة على ما يقول

أكل بنهم ، وكأن الطعام له وحده ، وانتهى قبلنا كلنا . كان قد التهم الجزء الأكبر من الدجاجة . قال له خالد ، وهو يبتسم ، وعلى وجهه تعبير استعداد التراجع وقبول للإهانة المنتظرة :

ــ نعمل لك شاي يا أستاذ نضال ؟

رد بهدوء ، ولكن الغضب كان واضحاً في نبرات صوته :

ــ ايش استاذ هذه ؟ كلنا رفاق يا رفيق .

ثم وافق في نهاية الأمر على اعداد الشاي ، على ان يغسل الابريق جيداً قبل ان يوضع الماء فيه ، وان يكون جيد الصنع . تناول علبة سجايري ، وأخذ منها سيجارة دون استئذان ، وأشعلها . غاظني ذلك ، وفعلت شيئاً تصورته طعنة في الصميم . أمسكت علبة سجايري ، وقدمت منها للآخرين بتودد ، ثم أشعلت سيجارة ، ووضعتها في جيبي . لم ألاحظ ان ما فعلته قد أزعجه ، أو حتى أثار انتباهه . لهذا السبب ناديته باسم استقلال ، فقال سمير :

ــ نضال يا أخي .

عندما أخذ يتحدث في السياسة اندهشت . تحدث بوقار واعتداد كبيرين ، وبسذاجة تقترب من البلاهة . ومع ان هذا كان منسجماً مع لهجته التي تخلو من الثقافة ، ومظهره الذي يبدو انه لم يعرف الثراء يوماً . فقد شعرت بخيبة الأمل . انتظرت ان أجد خصماً فيه قدرة وذكاء يساويان ، على الأقل ، اعتداده . كان يقول ـ ولم يكن يسمح لغيره بالتحدث ـ ان الاستعمار هو عدو الشعوب . وما فائدة الاستعمار ؟ انه يمتص دماءنا . الاستعماريون مصاصو الدماء ، مثل البق . هل فيه فائدة ؟ هل للبق فائدة ؟ طبعاً لا . يمص دمنا ، ويحرمنا من النوم ، يزعجنا ولا فائدة منه . ومضى هكذا : الاستعماريون سفاحون ، يقضون على ثورات الشعوب بالحديد والنار . . .

قال سمير بحذر :

ــ مثل نيرون .

نظر اليه نضال بغضب وقال :

ــ نيرون يا رفيق كان في عصر العبيد .

قال شفيق :
ـ المجتمع العبودي اللي بعد المشاعية البدائية .
واحتد نضال :
ــ يا رفيق ما احنا قرينا مع بعضنا كتاب تطور المجتمع ، المراحل الخمسة : المشاعية البدائية ، الاقطاع ، الرأسمالية ، ثم الاشتراكية .
قال سمير :
ــ آخر شي الاشتراكية .
قال نضال :
ــ ما تقاطعني يا رفيق لما أكون بتكلم .
اعجبت بشفيق عندما قال :
ــ ما قاطعك يا رفيق .
وكأن نضال قد انتهى من سمير ـ وتجاهل رد شفيق ـ فتوجه الى خالد ، وقال له كأنه يلومه :
ــ سمعنا انك يا رفيق كتبت قصة . بدنا نسمعها .
أصبح وجه خالد قرمزياً ، وقال :
ــ لا ، مش نافعة .
قال نضال :
ــ بدنا نسمعها .
قال سمير :
ــ اقراها ، منشان ينتقدها الرفيق نضال .
وألحّ شفيق ضاحكاً :
ــ سقت الله عليك تقراها .
قال خالد :
ــ يمكن ضيّعتها .
قال شفيق بمودة :
ــ دوّر عليها . أكيد رايح تلاقيها .
تردد خالد قليلاً ، كما يستل مدية ، استل خالد مجموعة أوراق من جيبه

الداخلي ، وأخذ يقرأ بسرعة :

إنه - والقصة مكتوبة بضمير المتكلم - بينما كان يسير في حديقة غنّاء ، البلابل تغرد على أغصانها ، والفراشات تطير جذلى بين أحواض الزهور ، والغزالة تتوسط كبد السماء ، مرسلة أشعتها الحانية على بساط الحديقة السندسي ، كأنها قبلات زوجة حنون على وجوه المتنزهين . جلس في مقهى ، أقيم بين الشجر ، وطلب كأساً من الخمر المعتّقة ، جاء بها النادل ، فأخذ يحتسيها وهو يراقب الحسان بعيونهن الغزلانية وخدودهن الأسيلة ، وأجيادهن الصيد . ولكنه كان حزيناً ، لأنه لم يجد فتاة واحدة تلتفت اليه وتشعر بوجوده .

قال لنفسه : لو كنت من أصحاب الثروات الطائلة لأحطن بي - يعني الحسناوات - إحاطة السوار بالمعصم . ولكن أنّى لي ذلك ، وأنا فقير ، لا أجد ما يكفيني قوت يومي ، وأنا رجل شريف أرفض ان استغل الكادحين لأملأ جيوبي بالنقود . فتباً لهؤلاء النساء اللواتي يفضلن اللص ، مصاص الدماء على العامل الشريف .

وبينما هو في هذه الأفكار الحزينة يرى فتاة قادمة ، كأنها الشمس المضيئة ، قد هبطت من السماء ، وأخذت تخطر بين الشجر . عيناها تلمعان ككوكبين . ونحرها صقيل كأنه الذهب النقي ، وشفتيها مثل حبتي كرز ، وصدرها ناهد . ويا للعجب ، رأت نظراته مسلطة عليها فابتسمت له ، وأخذت تقترب . كان قلبه يرقص فرحاً . ثم وقفت أمام المائدة التي يجلس عليها ، وهي تبتسم ؛ كاشفة عن صفي أسنان كالدر المنثور ، وقالت له :

ـــ أراك وحيداً .

قال :

ـــ وحزيناً أيضاً .

قالت :

ـــ أتسمح لي أن أجلس الى مائدتك فأزيل وحدتك ، وأخفف حزنك ؟

قال :

ــ بل أرجوك ان تفعلي ذلك .

ومضت القصة تقول انه بعد حديث قصير يكتشف ان الفتاة غانية تبيع جسدها مقابل النقود . يستولي الحزن على الراوي ، ويقول لها :

ــ لقد فجعت بك .

تقول :

ــ لماذا ؟

يقول :

ــ لقد حسبتك ملاكاً هبط من السماء فإذا بك شيطان في صورة انسان .

أحنت رأسها ، فرأى الدموع تتساقط من عينيها ، ثم قالت والألم يمتزج بكلماتها ، ودموعها لا تكف عن الانسياب :

ــ انني ضحية وأنت تعتبرني مجرمة .

قال لها :

ــ كيف ؟

وحكت له عن زوجها الذي استشهد وهو يدافع عن الوطن وعن طفلتها التي مرضت بالالتهاب الرئوي ولم يكن معها ثمن الدواء ، وعن جارها الرأسمالي العفن الذي أبدى استعداده لدفع ثمن العلاج اذا بذلت له جسدها ساعة واحدة . ماذا تفعل ؟ هل تكون عفيفة ومجرمة ؟ وهكذا منحت جسدها للرجل . ومرضت الطفلة مرة أخرى ، فباعت جسدها مرة أخرى . . وهكذا : الطفلة لا تكف عن المرض ، وهي تبيع جسدها المرة بعد الأخرى .

ــ والآن ؟

لقد توفي ذلك الرأسمالي ، وطفلتها مريضة الآن . قالت :

ــ احكم علي بأنني شيطان إن استطعت الى ذلك سبيلاً . انني ضحية الظروف الاجتماعية .

واستفاض الراوي في شرح الظروف الاجتماعية ، التي دفعتها الى الخطيئة : الاستعمار ، وتحالفه مع رأس المال الاحتكاري والاقطاع . (ولسبب لا يبرره السياق شرح لها الدور التقدمي ، في مرحلة من المراحل ، الذي تلعبه الرأسمالية

الـوطنية). وأضـاف الراوي انـه لا يمكن ان تحل مشكلتهـا بشكـل أسـاسي الا بتحالف الكادحين ، تحت قيادة الطبقة ، والقضاء على الاستعمار وعملائه .

قالت :

ـ الآن عرفت طريق الخلاص .

وينهضان . يذهبان الى الطفلة المريضة ، ويأخذانها الى الطبيب فيعالجهـا ، ويعودان الى بيتها . وهناك تعلن المرأة انها سوف تمنحه جسدها :

ـ كنت أمنحه لذلك الرأسمالي العفن من أجل النقود لعلاج ابنتي ، والآن امنحك جسدي لأنني أحبك .

ولكنه يرفض ويقول :

ـ سوف يكون جسدك لي ، بعد الزواج .

كانت نهاية القصة مخيّبة للأمل . لقـد قتلت المرأة وطفلتهـا في مظاهـرة ضد الاستعمار . ماتت قبل ان يتزوجا .

ما الذي يجعلها تحمل طفلتها وهي تسير في مظاهرة تعلم ان قوات الشرطـة سوف تهاجمها ؟

كانت القصة طويلة جداً ، ولكننا تابعناها بلهفة . بعد ان أتمها سادت فترة صمت كانت عيون أصدقائي معلّقـة بوجـه نضال ، تحـاول ان تقرأه ، وتعـد نفسها لاستقبال حكمه ، والقبول به . ظلّ نضـال صامتـاً ، مسبلاً عينيـه ، ثم قال ، دون أن يوجّه كلامه لأحد :

ـ و . . . و . . . مش بطّالة .

ثم حدّق بخالد ، وقال :

ـ بس بدي أقول إشي . . اللغة ضعيفة شوية .

قاطعته بحدة :

ـ لا ، بالعكس الأسلوب جميل جُداً ، جداً .

لم يكترث بي ، ومضى يقول :

ـ شـوفوا ، احنـا الماركسيين لازم نعرف اللغـة منيـح ، لأنـه فيـه فكـرة مغلوطة ، انه احنا الماركسيين ما بنهتم في اللغة . ومتل ما بعلمنا الرفيق ستالـين

ان اللغة بناء فوقي . لا . لا . مش بناء فوقي . اللغة مهمة جداً .

قال سمير ، وهو يدقق النظر في أصابعه :

ـ اللغة ضعيفة .

وهنا اندفع شفيق يقول بحدة :

ـ ايش هذا ؟ يا أخي ليش تثبيط العزايم . قصة ممتازة جداً ، ويدفع خمسين جنيه للي بعرف يكتب مثلها .

قلت انني مصر أنها قصة رائعة . وان اللغة والأسلوب رائعان . ومرة أخرى تكلم نضال دون ان يهتم بي :

ـ شوفوا انا بدي أقول إشي . بلاش نتناقش في مسألة اللغة ، لكن بدي أقول إشي . . . احنا الماركسيين بنهتم في الظروف الموضوعية . يعني جوزها مات في الحرب . هه ؟ ايش سبب الحرب ؟ مين اللي عمل الحرب ؟ ايش هيه أسباب الحرب الاقتصادية ؟

أجاب خالد ، وقد أصبح صوته نحيلاً :

ـ أنا قلت اخليها مش متعلمه كتير .

قال شفيق بضيق :

ـ شرموطة وبدك اياها تقرا (رأس المال) .

واندفع سمير يقول بانفعال :

ـ ليش يا أخي ، ليش يعني ، بغايا باريس تلاقي أكثرهن عندهن شهادة دكتوراه .

عدا نضال ، انفجرنا جميعاً ضاحكين . عبس نضال ، وفتح سمير فمه ليضحك ، ولكنه لم يفعل . قال شفيق من خلال ضحكه :

ـ خفّف يا زلمة ، خفف . خليها بكالوريوس .

قلت :

ـ ماجستير ماشي الحال . .

وأضاف شفيق :

ـ والا ماجستير . بنترجاك يا أخ سمير .

كان سمير مهتاجاً ، فزعق :

ــ كلكوا بتعرفوا ابن العيوش ؟ والله العظيم وشرف ربنا . . .

قاطعه شفيق :

ــ صادق من غير حلفان .

واستمر سمير :

ــ انه قال، لي ، ابن العيوش انه كان بعرف شرموطة في باريس معاها توراه . في ايش يا ربي ؟ في ايش ؟ آه ، تذكرت ، معاها دكتوراه من جامعة سوربون في علم التغذية . . علم التغذية . . .

قال شفيق :

ــ هذا كان يمكن قصدها تغذّيه . كان ناقصه تغذية . زلمة كان بوكل خبزه نف ، قالت له : تعال غمّس .

قال سمير :

ــ اتركونا من المزح .

قال شفيق :

ــ ما بمزح والله . بقول انت يا أخ سمير لو ربنا يطعمك دكتوره في التغذية ، كن تربرب مثل العجل . (ثم أخذ يداعب ظهره) عظم مجروم . . لا حول ولا ة الا بالله . . .

قال نضال :

ــ يا رفاق . .

ولكن شفيق استمر وهو يداعب ظهر سمير :

ــ كيف يا أخ سمير؟ دكتوره في التغذية؟ من زمان وأنا شايف عندك نقص في غذية . حمص ابو العبد طلع من عيونّا . اصحى . . بقول لك احرص تستغلها لك وتخلّي اخوانك من غير تغذية .

قال نضال :

ــ المزح غلط لما نبحث مسائل مهمة . خلينا ننظم النقاش .

قلت لنفسي انه يحاول ان يستعيد مكانته كزعيم بين أتباع تجاهلوه . ان معنى

تنظيم النقاش ، بالنسبة له ، هو ان نمتنع جميعاً عن الحديث ، ويتكلم هو وحده . المزاح ليس مجاله للزعامة ، فهو ليس من نمط موسى . ولكن الموقف أفلت من بين يديه بسبب ارتباك سمير ، إذ قال :

ــ أنا موافق . لازم ننظم التغذية .

وانفجر الضحك والتعليقات ، وسمير يقول :

ــ كنت بدي أقول ننظم النقاش .

فزاد الضحك . قال نضال بحزم :

ــ مش هيك يا رفاق . مش هيك .

هدأ الضحك وواصل نضال :

ــ القصة بدون شك رائعة .

قال سمير :

ــ رائعة .

التفت اليه نضال ، وقال :

ــ أرجوك يا رفيق لا تقاطعني . بقول القصة رائعة . لكن لازم نناقش بعض المسائل . كنا بنقول . . .

وتكلم كثيراً . (بدا لي انه تكلم كثيراً جداً ، وانه يقول أي كلام لمجرد ان يتكلم وان يرغمنا على الصمت) . كان قد تناول سيجارتي المشتعلة ، ليشعل سيجارته ، واحتفظ بها دون ان يشعل سيجارته ، رغم تنبيهي له ، ثم أخذ يدخنها . قد يكون فعل ذلك سهواً بسبب استغراقه في الحديث ، ولكنني عزوت ذلك الى سوء النية . قلت لنفسي انه يشعر لو انه توقف عن الكلام لحظة واحدة فسوف يفلت الزمام من يده ، ويصبح على الهامش . وشعرت انه أصبح يخشى شفيق ، فلقد كان يتكلم وهو ينظر اليه كأنه يستأذنه .

رداً على ذلك أشعلت سيجارة ، وقلت لنضال :

ــ خلّي السيجارة إلك .

ولكنه لم يكن يهتم بهذه المسائل الدنيوية . واصل حديثه وكأنني لم أقل شيئاً يستحق الرد أو الاعتذار . بعد قليل أخذت اتمطى وأتثاءب ، وقلت انني مرهق

ا ، لقد استيقظت مبكراً .

ابتسم لي نضال وواصل حديثه . كانت ابتسامة مهينة ، كأنه يسكت بها طفلاً اغباً . ولكن ابتسامته كانت جميلة . بعد قليل نظر الى ساعته ـ كان سمير قد لـ يتثاءب ـ رسم تكشيرة مندهشة ، وقال :

ــ الساعة ثلاثة . . لازم امشي .

وانصرف . الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ؟ لم أسهر أبداً حتى هذا الوقت اخر في حياتي .

أخذ أصدقائي يعدون الحجرة للنوم ، وخرجت انا الى الحوش . تبعني شفيق ـ قليل . قال :

ــ مش نعسان ؟

ــ لا .

صمت وأخذ ينظر الى النجوم التي كنت أتأملها ، ثم قال :

ــ ايش حكايتك انت ونضال ؟ كنتوا متل الديوكة .

قلت :

ــ شخص غريب .

قلت : ــ كيف ؟

ــ جاهل ويتكلم كأنه آله .

قال شفيق :

ــ هوه مش هيك دايماً . لكنك استفزيته .

قلت :

ــ أنا اللي كنت استفزازي ؟

اندهشت حقاً . قال شفيق :

ــ كان مبين انك بتعامله باحتقار ، لأنه مش متعلم مثلك ، ومش مبين عليه من عائلة غنية . يا أخي هوه انسان بسيط ، لكنه مناضل .

شعرت بالطعنة التي جعلتني عاجزاً عن الكلام . لم يكن شفيق بهذه القسوة ب من قبل . قلت بتلجلج :

ــ صحيح . بس نضال هوه اللي ابتدا الاستفزاز .

صمت شفيق . كان صمته أشد ايلاماً من كلماته . حاولت ان أقول شيئاً ، ولكنني شعرت ان كل كلمة سأضيفها سوف تزيد موقفي ضعفاً . ولكنه اسعفني بعد قليل ، حين قال :

ــ أنا تضايقت منه ، بيني وبينك ، وحاولت أخليه يسكت . لكن أنت كان لازم تكون أكثر مرونة .

وضحك ، وقال :

ــ شفت الاشمئزاز على وجهك وهوه باكل الجاجة .

قلت :

ــ نسي انه فيه حدا غيره .

ضحك شفيق وقال :

ــ ما بدك تنام ؟

شعرت فجأة بالاجهاد يحط علي . دخلنا . دلني شفيق على فراشي . خلعت ملابسي ، لبست البيجامة ، وتمددت في الفراش .

ــ ٥ ــ

لم يجيء النوم . كان وجودي في حجرة معتمة ، والفراش الذي لم أتعوده قد جعلني قلقاً . افتقدت السماء ، ومراقبة النجوم . وخلال ذلك ، وعبر مجرى آخر من مجاري الذاكرة كنت استعيد كلمات شفيق . جمعت ، بنصف وعي ، دفاعي عن نفسي . من الطريقة التي كان يتنفس بها سمير علمت انه مستيقظ ، وحدست بتحفزه للكلام . حاولت تجنب ذلك . أغمضت عيوني واسترخيت . قلت لنفسي : هكذا سوف أنام بسرعة . وجانبي المحاذي لسمير حذر مترقب . سلطانة ؟ هل أراها غداً ؟ لم تستجب سلطانة لدعوتي في الانخراط في حلم يقظة . وجهها جاد ، بعيد . كان حضور سمير قوياً ، وملحاً ، فلم تجيء . انظر الى وجهها ، وجه موسى عندما اقترب مني فيه تغضنات حول عينيه ، عيناه سوداوان لامعتان . . . كان يصغي بانتباه مؤدب وتركيز عندما يحدثه أحد :

ـ يا مولانا ، ناس تجار . ناس منحلين .

صوته منغم ، وعندما يصمت يصغي بانتباه ، هكذا ، بتركيز وانتباه شديدين ، عندما تكلمني سلطانة، استمع لها باحترام وانتباه ، وجسدها عندما تقف ، جسد موسى طويل ، بلا انحناءات ، لا كرش ، ولا عُجيزة ، كأنه جسد صبي .

ـ جريس .

لماذا لا يصمت هذا السمير؟ لن أرد.. أقول ، ماذا كنت أقول ؟ جسد سلطانة : الانحناءات تبرز فجأة عندما تنهض ، عندما تنحني ، عندما تمشي ، عندما تستدير . .

ـ جريس . .

عندما قبلتها . . . أميرة منشغلة باعداد العشاء ، وجهها منصرف عنا ، منصرف عني « ايش فايدة البق ؟ بمص دمنا . . » مصاص الدماء دراكيولا . . . .

وهبطت الى النوم ، ولكن .

ـ جريس . . .

حين اغمضت عيني شعرت بدوار ، كأنني اسرفت في الشراب . سمير يتقلب بجواري مبعداً عني النوم . أمي الآن تنام وحدها على سطح الدكان ، تسمع خلال نومها بكاء بنات غيث . صرخات الدجاج النائم القصيرة الحادة : قد تصحو على نباح كلب ، أو صياح الديك ، وسوف تفكر بي ، بأخي هل هو حي أم ميت ، وبالذين ماتوا . . ثم تصلي : « يا قديسة مريم ، يا والدة الآله ، يا حنونة . . . » ثم تستيقظ تماماً عند الفجر ، حين تهرب الأشباح والأحلام والمشاريع ذات المقاصد الشريرة ، ترسم إشارة الصليب على وجهها ، تتناول ثوبها من تحت الوسادة ، يختفي في داخله وجهها ويداها ، وكل جسدها داخل الثوب الأسود الواسع ، السابغ ، ثم تنبثق منه يداها من الكمين ، ثم رأسها ، وتقف فوق الفراش ، كتلة سوداء ، مبهمة في ضوء الفجر الشحيح . صوت رشق الماء على وجهها ، صوت خفق العجين ، صوت حركة الدجاج وهو يخرج من خمه ، عتمة الدار المخلخلة بضوء أبيض ، لامع ، يمتلئ به الباب ، محدداً بإطاره

المستطيل . بحرف كفها ترسم إشارة الصليب فوق العجين . والقرية تستيقظ من فوق اسطح البيوت : أشباح تنهض من سطوح ساكنة ، وصوت سمير :

ــ جريس نمت ؟

أصمت . يقول :

ــ وين كنت بتقابل أميرة ؟

ــ بعدين ، بعدين . نام شويه .

يقول :

ــ ما انا نعسان .

ــ انا نعسان .

بعد صمت قصير يهمس :

ــ بعدها بنت ؟

ــ لا . صارت زلمه .

قال :

ــ يعني ، ما فيه حدا لعب معاها ؟

قلت :

ــ ما بعرف . نام .

ــ يا اخي انا شفتها مرة . عجيبة يا اخي والله . لما قربت منها ما كان فيه ولا شعره في جسمها ، في رجليها يعني . . . نــ . . . ا . . . عمــ . . . ــه . . .

ــ آه .

يقول :

ــ لو ان اهلها لحرفوا عنها بذبحوها ؟

ــ ما بعرف .

يصمت واعتقد انه انتهى . أحاول ان أتذكر بماذا كنت أفكر : أمي ؟ المقابر ؟ ويأتي صوته :

ــ بس هاي غلطة ظروفها ، ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، مش غلطتها . مش هيك .

ــ طبعاً .

يهمس :

ــ ما كنت خايف حدا يشوفك انت واياها ؟

ــ لا .

رفع رأسه واقترب مني وقال :

ــ كانت بتشلح قدامك ؟ احكي يا زلمة . كنتو بتناموا على الأرض ؟ بتعرف على الأرض فيها لذة .

لم أجب . قال :

ــ ما حاولت تنصحها تتوب ؟

ــ لا .

ــ ليش ؟

ــ لأني ما شفتها غير مرة واحدة . دقيقتين بس .

قال باستنكار :

ــ دقيقتين ؟ وكيف كنت بتقول . . .

قاطعته :

ــ أنا ما قلت انت اللي كنت بتقول . اسكت خليني أنام .

ـ ٦ ـ

عندما استيقظت رأيت أقدامهم تتحرك . اغمضت عيني . صوت وابور الكاز أصبح له ايقاع أغنية . وعدت الى النوم . سمعت الباب يغلق وأنا نائم ، واصدقائي يغادرون الحجرة .

كان المكان غريباً . كنت في القرية بالطبع . ولكن هذا السطح الواسع المرشوش بالماء ، والمصابيح الكهربائية ، وأغنية تذاع من راديو غير مرئي . اسمع أصواتاً غير مميزة ، ولكنني لا أرى أحداً . أنادي :

ــ شاي يا اسماعيل .

ربما جاء بالشاي قبل أن أطلبه ، أو جاء به بعد ان ناديته ، أدخله دون أن

أراه . صفّقت بيديّ وناديت :

ـــ شاي لسلطانة يا اسماعيل .

سمعت ضحكة نسائية بجواري . التفت لأرى امرأة تلبس الثياب القروية السوداء ، تغطي وجهها بردن ثوبها الواسع ، وتدير لي ظهرها . ملت نحوها وهمست :

ـــ سلطانة .

اغرقت في الضحك وكنت خائفاً ان ألمسها . كانت الأصوات غير المرئية تتصاعد . احدها ـ استطعت ان أميّزه ـ كان بوقِ سيارة . همست بالحاح :

ـــ سلطانة .

استدار الوجه نحوي . كان وجه طعمه .

ثم رأيت نفسي أسير في حقل . الوقت ربيع ، والأزهار حمراء ، زرقاء ، وردية ، بيضاء ، بيضاء لها نواة صفراء بلون التبغ النقي الأشقر ، بنفسجية . توقفت عند الزهرة البنفسجية وأخذت أتأملها . كان اسمها (سراج الغولة) . نظرت الى الحقل حولي . كان ساكناً ، وكبيراً ، وشمس دافئة ، ناعمة تغمره .

لم يكن المشهد بريئاً . أعني كان مسكوناً . أحسست به يتحرك على نحو غير مرئي ، حركة غير ملحوظة . كأن نسمة تتسلل بين سوق الأزهار ، نسمة تحتية فتجعلها ترتعش ارتعاشات طفيفة . يشبه ذلك ان يكون هنالك من يزغزغها ، فتكتم ضحكها . كان هنالك صوت يشرح ، صوت طعمه يقول :

ـــ هلق ، عمالها بتتنفس .

وكان ذلك صحيحاً . الحقل يتنفس ، ولكنه تنفس النائم . سمعته يقول :

ـــ يتخلل عالم النبات ، وينبض .

كنت أعلم انه يتحدث عن سلطانة . قلت :

ـــ طبعاً ، سلطانة . . .

يتكلم بأسلوبه التعليمي ، الحار ، المفتعل قليلاً :

ـــ قوانين الجدل . . .

قلت :

ـ سلطانة ؟

فجأة اكتشفت مصدر الصوت : الرجل . كان طعمه يتمدد بشويه النسائي بين الأزهار . نهض . قال وهو ينهض :

ـ سلطانة تتشكل .

وأخذ بسبابة اليد اليمنى ، تلك السبابة القصيرة السمينة ، يشير الى أزهار سراج الغولة البنفسجية . قال :

ـ تطلع . هذا هو الساق الأيمن ، وهذا الساق الأيسر ، وبينهما طابة صغيرة ، البطن . . .

ومضى يشرح . وأمام عيني يتشكل ـ وكأنه يستجيب لكلمات طعمة ـ جسد امرأة ، مرسوماً بأزهار سراج الغولة . مد يده عبر ردفه النسائي وأمسك زهرة من الزهرات البنفسجية . صرخت :

ـ ابعد ايدك .

واراني اصبعه . كان ملوّثاً بالدم . وسمعت أنّة متألمة . كان يقول شيئاً ما ، يتصل بشروحه الطويلة . . . ثم أصبحت انا وسلطانة وحدنا ، نسير في حقل الزهور . كنت أمسك يدها . قلت لنفسي : « هذه فرصتي . انني في حلم . » وضممتها الي . كانت تقاومني ، وأنا أحاول أن أسقطها على الأرض . قالت :

ـ اتركني . الناس رايح يشوفونا .

قلت :

ـ ما فيها شي . احنا بنحلم .

وفجأة دفعتني بقوة غير متوقعة . سقطت على ظهري ، ووقفت تطل علي . لم تكن سلطانة . كان طعمة . كان غاضباً . فمه يمتد كخط مستقيم ، وانفه منتفخ ، وعيناه تبرقان . قال بايقاع بطيء ، غاضب حد الاختناق :

ـ البورجوازية لما تشعر ان نهايتها قريبة ومحتومة . . .

قاطعته صارخاً :

ـ مش وهيه بتحلم .

واستيقظت .

كنت أحلم حلماً غريباً ، ولكنني عجزت عن تذكره . استيقظت بنشاط ، وشعور بالذنب . لقد تأخرت . عن ماذا ؟ لم أكن اعرف . وقفت تحت الدوش . تركته يغرقني . انبعثت ذكرى ـ ذكرى ؟ أم حلم ؟ ـ كنت في البحر . البحر بدا على سطح بناية ، وهنالك ورود ، ونساء . لم يكن مشهداً ، ولكن فرحاً لا مثيل له ، يبحث عن تجلياته . أين كان ذلك ؟ ربما كان في حيفا ، فوق جبل الكرمل . وأنا أرى تحتي ممتداً المدينة ، والميناء ، والبحر .

جففت جسدي . وأخذت ارتدي ملابسي ، وأنا انظر خلال الباب الذي فتحته . رأيت امرأة تلبس ثوباً أزرق ، وتتكيء بمرفقيها على حاجز الشرفة . كانت بعيدة ، فلم أستطع تمييز ملامحها . جعلتها بيضاء ممتلئة ، بشعر أشقر ، مرتدية قميص نوم أزرق ، يكشف عن النحر النقي ، وأعلى الثديين ، والشق الفاصل بينهما[1]. ثم تقمصتها ؛ اتخذت مكانها ، وزاوية نظرها : ترى حجرة معتمة ، في المنطقة البائسة التي تنحدر من جبل عمان الى حارة المهاجرين . واذا دققت النظر أكثر فسوف ترى شبحاً يتحرك . سوف تكون رؤيتها له موسومة بسوء النية التي يحملها الحي الغني للحي الفقير .

ــ « أهو لص يراقب بيتنا ليسرقه ؟ » .

ــ « أهي مومس ضاجعت العديد من الزبائن في الليلة الفائتة ؟ حتى وقت متأخر ، وهي الآن تستعد لتبحث عن صيد جديد ؟ » .

ــ « اهو قروي قادم من أعماق الريف جاء ليبحث عن عمل يأكل منه ؟ » .

أسرعت في ارتداء ملابسي . كنت أود ان اتخلص من هذه الثنائية التي أعانيها : المراقب المتعالي ، والشيء المراقب . ولكن خروجي من البيت لم

---

(١) لم اكن ادرك آنذاك ان العناصر التي ابنيها منها مستعارة من تلك المرأة التي كنا نراها من شباك القسم الداخلي وهي تحمل العجين الى الفران . حتى الوضع لم يكن وضع انسان يرى آخر يقف في مكان اعلى منه ، بل يطل عليه من فوق .

ينقذني . سرت باحساس الفضيحة التي يستثيرها سوء نية آخر مصمت ، غير قابل للمناقشة والاقناع . سرت محمّلاً بعبء عار قروي .

التفت خلفي . اختفت المرأة . امتلكت حريتي مرة أخرى الى حد ما . ما زلت أعيش شعور المراقب .

مرة أخرى أرى عمان مدينة جديدة . كنت فرحاً بمحاولة تأكيد انتمائي اليها ، بمحاولتي الدائبة ان انتصر على كبريائها ، على سوء نيتها ، وأجعلها تعاملني بندية . هذا البيت الواقع غربي مدرسة المطران . لم أغب إلاّ شهرين عنه ولكن أشجار حديقته كبرت ، أوراق الشجر التي كانت خضراء فاتحة اللون ، تكاد تكون شفّافة ، أصبحت داكنة الخضرة . أين العجوز التي كانت تجلس على الشرفة في مثل هذا الوقت كل يوم ؟ كل شخص يمر كانت ترفع قامتها من خلف حاجز الشرفة ، وتنظر اليه بعين عانس حاقدة . الأنف الحاد ، الذي تملؤه بالتجعدات حين تراقب السائر في الشارع ، هو الذي كان يوحي لي بالحقد الذي يملأ قلبها . ماذا حدث لها خلال هذين الشهرين ؟ هل ماتت ؟

ها هو القروي الذي فتح دكاناً ، واستقر في عمان . من الواضح انه لا يسعى الى الانتماء اليها ، فهو لم يبدّل ملابسه القروية : القمباز ، والكوفية ، والعقال ، والذقن غير المحلوقة .

ــ صباح الخير يا أبو محمد .

يندهش . يدقق فيّ النظر . يقول :

ــ صباح الخير يا أستاذ .

ــ كيف صحتك ؟

ينهض . تضطرب ملابسه . يصافحني . طلبت منه علبة سجاير جولدستار . ناولني اياها وأمسك بالنقود ، وقال :

ــ وين اليوم ؟

ــ رايح للجامعة في بيروت .

ــ خلصت ؟ طيب موفق ان شا الله .

قلت :

ـ شكراً .

وانصرفت .

ابطيء سيري . هل أراها ، تلك البنت الأرمنية ؟ أرى الحديقة ، والبيت الذي من طابق واحد . نباتات متسلقة تغطي السور . اشجار مشمش ولوز في الحديقة . لا حركة في البيت . رأيتها مرة تصعد ببطء من وراء السور . شعرها الأشقر أولاً ، عيناها الزرقاوان على سعتهما مفتوحتان . تزدادان اتساعاً وهي تنظر الي . ماذا تريد أن تقول ؟ هل هي تدعوني ؟ تناديني : أنا لك . لا أحد في البيت . ادخل ؟ هل هي تحذرني ؟ في ذلك اليوم نفسه ـ وقد كنت في دوّامة ـ ذهبت الى سوق البخارية ، واشتريت لها زجاجة عطر بثمانية قروش . مررت العصر . اقتربت كثيراً من السور . كانت واقفة . مددت بالهدية . قلت :

ـ خذي .

كنت ارتعش ، وأعرق بجنون ، وحلقي جاف . اندهشت البنت حقيقة . دققت النظر في ـ كأنها لم ترني من قبل ، لم تصعد من خلف السور ، وعيناها تتسعان حتى كادا يحتويان وجهها كله ـ ودققت النظر في الزجاجة الصغيرة جداً . ضاقت ، هذه المرة ، عيناها ، حتى أصبحا شقين في وجهها العسلي اللون ، المشرب بالحمرة ، ومالت :

ـ ايش ؟

ملعون هذا الصوت الذي يخونني في مثل هذه اللحظات . وكذلك يدي التي كانت ترتعش . كان فمي جافاً ، ولم يكن بامكاني ، مهما جاهدت ، ان أجعل صوتي يخرج ، وهي تلح :

ـ ايش ؟

بغضب ونفاذ صبر ، وصوتي لا يخرج ، ولكن هنالك سؤالاً موجهاً إليّ ، ولا بدّ من الإجابة عليه . قلت :

ـ هـ . . هـد . . . . .

كنت أريد أن أقول : هدية .
قالت بعصبية :
ـ أنت أطرش ؟
كم كانت قاسية !
لم أقل شيئاً . مدت سبابتها :
ـ روح . . امشي . شايفه ؟
قالت ذلك بلكنة أجنبية منفّرة . قلت :
ـ مين ؟

ومددت يدي بالهدية . كانت يدي ترتعش ، وزجاجة العطر مبللة بالعرق ، فزعقت البنت دون لكنة :
ـ روح قطيعة تقطعك وتقطع أهلك .

كان لها ثديان كبيران . بدوا صلبين وشامخين . انصرفت مسرعاً ، وأنا أنظر حولي ، خوفاً أن يكون أحد قد رآني . لم يكن ذلك أقسى ما فعلت . التفتّ اليها . رأيت ذراعها ممتداً نحوي ، وسبابتها تشير الي وهي مستغرقة في ضحك يكاد يكون هستيرياً . من الواضح انها كانت تكلم أحداً ، تصف له ما حدث : والصبي المضحك الذي فعل ذلك ، ها هو هناك . لم يكن هنالك معنى آخر لضحكها وإشارتها الغريبة .

وقفت في المحطة التي يقف فيها الباص . وأخذت أراقب بيتها . كان ساكناً تماماً كأن أهله أموات . جاء الباص . صعدت اليه ، وهبطت في الرصيف المقابل لمقهى وادي النيل . اجتزت الشارع ودخلت المقهى .

كان المقهى خالياً من الزبائن ، غدا فتاة ـ تصورتها امريكية ـ تتصفح مجلة أزياء الأغلب انها فرنسية . رمقتني الفتاة بنظرة سريعة . لم يعبر وجهها عن استياء أو غضب عندما التقت عيوننا . تأملتني بوجه مؤدب ، محايد ؛ وعندما أبعدت عينيّ عنها وجلست عادت تقرأ في مجلتها . كانت تقرأ فيها باستغراق ، ولم ألاحظ عليها توتر من يشعر انه مراقب .

جاء الجرسون وقال :

ـ وين الجماعة ؟

قلت :

ـ في الشغل .

وطلبت قهوة فرنسية بالحليب . ثم أخذت اتأمل الفتاة . بين آن وآخر كانت ترفع رأسها وتنظر الي ، وعلى وجهها طيف ابتسامة ، تبعث الآمال ، ولا تشجع على الاقدام . لم تكن تبدو جميلة في البداية . كانت طويلة الأطراف ونحيلة . ذراعاها معروقان ، وعلى المعصم وظاهر اليد تبدو شرايين بارزة ، فاتحة الزرقة . كما انها كانت تفرك انفها بين الآن والآخر . وشعرها فاتح الشقرة كاد ان يكون أبيض .

مع استمرار التأمل والرغبة الجامحة ، التي تعبر عن نفسها بخجل وخوف ، اعدت بناء المكان وصياغة الفتاة . عشتهما في لحظتين متباعدتين : لحظة الوجود الحقيقي ، ولحظة مشهد سينمائي امريكي . اللحظة الثانية اكسبتني حرية في التخيّل . بدا الجرسون والمارة ، الممثلون لمجتمع مقموع ، محايدين . وأخذت الفتاة تكتسب الملامح المغوية لممثلة امريكية تجلس وحيدة في بار . الآن تصبح ممكنة في حلم يقظة عناصره الحركة البارعة ، الواثقة ، العنف والجنس .

أوقف حلم اليقظة نظرة الجرسون الثابتة . تذكرت المطاعم التي كنت أدخلها وأنا صبي . كنت أخاف من الجرسون ـ أن يأخذ نقودي دون أن يأتي لي بالطعام ، أن يقرعني لأن ملابسي لا تليق ، أن يضربني لأنني أتناول الطعام دون معرفة بأصول من المفروض أن أعرفها . . . ـ . خطر لي ان الجرسون قد ضجر مني لأن هذه هي المرة الثالثة التي أدخل فيها المقهى خلال أقل من عشرين ساعة . عاودت تذكير نفسي أنني كبير الآن ، لم اعد أخاف من خدم المطاعم ، بل أوجه اليهم الأوامر ، وانه ليس من شأنهم ان يغضبوا لدخولي المقهى أكثر من مرة في اليوم ، وان الجرسون مهموم لقلة عدد الزبائن ، لا لكثرتهم .

أصبحت متماسكاً ، ولكنني أضعت حلم اليقظة والفتاة الأمريكية . شعرت

بفراغ وضجر حقيقيين . فتحت رواية (مدام بوفاري) وواصلت القراءة . كانت مدام بوفاري تخلع الكورسيه ومشد الصدر ، تتعرى تماماً بسرعة ولهفة ، ثم تندفع نحو عشيقها الذي يتمدد على السرير . ولكنها ، مهما فعلت ، لم تكن تشعر بالاكتفاء أبداً . ثم انقطع عشيقها عن لقائها . كان خائفاً طيلة الوقت الذي يكون فيه معها . كما ان امه قد سمعت الشائعات التي تقول إن ابنها على علاقة - علاقة جسدية - بامرأة متزوجة . فأمرت ابنها ان يمتنع عن لقاء المرأة الجميلة ، فأطاع . فكرت وقررت : أمي لن تستطيع ان تمنعني من لقاء امرأة مثل مدام بوفاري .

بعد قليل دخل المقهى رجل وامرأة . كان الرجل يرتدي بذلة أنيقة من طراز قديم ، كويت بعناية ، له وجه طويل ، رقيق الملامح . يضع على رأسه كوفية بيضاء من الحرير ، تدلت من أطرافها خيوط تنتهي بكتل بيضاء صغيرة .. اعتقد ان هذا هو السبب الذي جعل القرويون يسمونها (حطة بلابل)، لأن تلك الكتل البيضاء تشبه ذلك المخروط الخشبي ذو الرأس الحديدية المدببة ، والذي كنا نلفه بخيط ونلقيه فيدور طويلاً حول نفسه مرتكزاً على الرأس المعدني . كنا نسميه بلبلاً . فوق الكوفية كان يضع عقالاً أسود رفيعاً . أما المرأة فقد كانت ريفية ، تلبس ثوباً أحمر واسعاً جداً ، وطويلاً يصل الى حذائها . وله ياقة تخفي رقبتها . وكانت تلبس فوقه جبة الفلاحات : خضراء ، دون أزرار ، واسعة الأكمام ، لها زيق مطرز من خيوط سوداء ، زيق يدور حول أطرافها ، وطرفي الكمين . أرخت شعرها بجديلتين ، تستقران على صدرها ، وشعرها من الأعلى كان مضغوطاً . فبدا أنفها كبيراً . كان لها يدان كبيرتان ، خشنتان .

كانت المرأة تمانع في دخول المقهى ، تقول :

ــ وروح المرحوم بلاش نخسّرك .

وظلت تقاوم حتى عندما أصبحا في منتصف المقهى . كان الرجل يجذب يدها بعصبية ، ووجهه يتفصد عرقاً ، وقد ارتفع جانبي أنفه ، فأصبحا على شكل زاويتين منفرجتين . كان يقول بفحيح غاضب :

ــ بلاش تفضحينا يا آدمية .

كم كان غاضباً ويعاني . وكانت المرأة خجلة ، محرجة ، وجهها قرمزي ، وتقول من خلال ضحكها المرتبك :

ـ بلاش الخسارة .

وتحاول ان تفلت يدها من يده ، متوجهة بجسدها الطويل نحو باب المقهى . كان الرجل الذي يرافقها قصيراً ، نحيلاً ، لا ترتفع قمة رأسه عن كتفها الا ببضع سنتيمترات .

أحدث الجرسون ضجة ، وهو يعيد وضع الكراسي حول أقرب الموائد الي ، ويقف أمامهما ، ويقول :

ـ شرفوا . اهلاً وسهلاً .

الأغلب انه كان يود ان ينهي هذا الموقف الكوميدي والمؤلم معاً . تمتمت المرأة بلهجة أهل جنوب الأردن . وهي تحني رأسها :

ـ بتعزم على دار أبوك . نفسك طيبة .

كانت الفتاة الأمريكية ، خلال هذا المشهد ، قد وضعت المجلة أمامها على المائدة ، وأخذت تنظر مباشرة الى المرأة القروية ورفيقها . التقى عناي بعينيها ، وابتسمت لها . رفت أجفانها عدة مرات ، وابتسمت ابتسامة صغيرة مؤدبة ، ثم أمسكت المجلة ، وأخذت تقلّب أوراقها . وبين الحين والآخر كانت تلقي نظرة سريعة الى الرجل والمرأة ـ بعد ان جلسا ـ وتمر على وجهي بسرعة ، كأنني جزء من المشهد ، ثم تعود الى مجلتها .

كان الرجل يجلس واضعاً كوعيه فوق المائدة ، ضاغطاً بكفيه على خديه ، وقد أسبل جفنيه وصمت . لاحظت انه ، تحت المائدة ، يضع قدماً فوق قدم ، وان قدمه العليا تهتز بسرعة كبيرة . كانت المرأة تحني ظهرها وتهمس للرجل ، وهو لا يستجيب حتى بالتفاتة . رفعت المرأة قامتها ونظرت الى الفتاة الأمريكية . قالت :

ـ قاعدة من حالها .

ولما لم يجب الرجل قالت :

ـ أجنبية .

ثم تنهدت ، ووضعت كفيها على المائدة كأنها تتأهب للنهوض . اجتذبتني هاتان اليدان : كانتا يدا فلاحة مارست الكنس خلف الدواب ، ولصق روث البقر على الجدران ، لتجفيفه واستعماله كوقود ، يدان امسكتا بالفأس ، والمجرفة ، والكوريك ، أصابعهما غليظة ، وغير مستقيمة . كانتا يدا أم وزوجة ، يدا امرأة قوية . أخذت تسترضي الرجل :

ـ يا خويي . انا قلت بلاش اخسّرك .

فرد الرجل بفحيح وعيناه مسبلتان :

ـ فضيحة كانت ، فضيحة .

قالت المرأة :

ـ بعد الشر يا خوي .

ثم رمقتني المرأة بنظرة عدائية ، وحدقت قليلاً في الكتاب الذي أقرأه . ثم أدارت وجهها عني وهي تتنهد ، كأنها تشكو أمري لله . تقدم الجرسون من مائدتها وأخذ ينظفها بخرقة مبلولة وعندما انتهى القى نظرة سريعة على المرأة ، ثم اقترب من الرجل وقال :

ـ نعم ؟

قال الرجل :

ـ اثنين شاي بالحليب .

حاولت المرأة ان تعترض فرمقها الرجل بنظرة رهيبة . فصمتت . لاحظت ان المرأة تضع روجاً على وجنتيها وخديها . من الواضح انها غير خبيرة بمثل هذه الأمور . بحق الله ما الذي يجعلها تفعل شيئاً كهذا ! وفكرت ببشاعة هذا الانتزاع القسري لهذه المرأة من محيطها ، وكيف انها لو كانت في القرية ، تلبس ثوبها القروي ، بين أهلها ، وفي سياق حياتها اليومية ، ولم تضع على خديها هذا الروج المضحك الذي أضفى على وجهها ملامح مهرج السيرك ، ولا هذه التسريحة القبيحة لشعرها . لبدت جميلة ، وذكية ، ومحبوبة . وانصرفت نقمتي الى هذا الرجل الذي عاملها بكل هذه القسوة لأنها لا تعرف أصول التعامل والسلوك في هذه المدينة الخاوية ـ على الأقل خاوية بالنسبة له ـ .

وجّه الي الرجل نظرة صاعقة ، فبادلته النظر، وحاولت ان أنقل خلاله كل احتجاجي على ضيق أفقه وسوء معاملته للمرأة . اضطر الرجل في نهاية الأمر ان يسبل جفنيه . عدت الى الرواية . مدام بوفاري تعاني من الضجر . تنتظر ان يحدث شيء فلا يحدث . توقفت وأخذت أصغي للحديث الدائر بجواري . لم أرفع رأسي حتى لا أشعرهما ـ الرجل والمرأة ـ انني أصغي .

قالت المرأة :

ــ آخر باص الساعة ثنتين .

لم يرد الرجل . مرت فترة صمت ، ثم قال الرجل :

ــ لو ضربني واحد في سكين ولا عملتك اليوم .

شعرت ان المرأة قد سئمت هذه الشكوى التي لا تنتهي . كانت المرأة تسترق النظر الى الفتاة الأمريكية ، فقالت دون حماس :

ــ ابعد يا شر . سلامتك يا خوي .

يبدو ان الرجل فوجىء بالبرود الذي ردت به ، فرفع رأسه وأخذ يحدق فيها ، وقال :

ــ الله لا يسلمني . أنا جبت لنفسي فضيحة .

لم تعد المرأة تنظر الى الفتاة الأمريكية . تنهدت وأخذت تنظر الى يديها . لم ترد . ومرت فترة صمت . كان الرجل ينظر الى المرأة وهي تحني رأسها وتتأمل يديها . تثاءبت ، وغطت فمها بكفها وقالت :

ــ يا رب سترك .

ثم قالت للرجل :

ــ يا الله ، حتى الحق الباص .

نظر الرجل الى ساعته وقال :

ــ لما ادفع الحساب .

قالت المرأة :

ــ تركت الأغراض في الكاراج .

ناديت الجرسون وسألته إن كان يوجد تليفون في المقهى . فقال :

ــ طبعاً .

حين ردَّ السنترال طلبت رقم سلطانة . فاجأني صوتها . لم أكن أتوقع ان تكون قد وصلت . صرخت بصوتها الثري خلال ضحكة أطلقتها :

ــ جريس ؟

قلت :

ــ كيف عرفتِ ؟

قالت :

ــ عرفت صوتك .

ثم قالت :

ــ بنظّف في البيت . كلني تراب .

قلت :

ــ يعني . . .

فقاطعتني :

ــ هّلأ . تعال عاون اختك ، وحديها . . .

ــ جاي .

دفعت الحساب ومضيت .

خلال الطريق الى بيتها كنت أفكر : انها وحدها .

الفصل الثالث

- ١ -

لم أركب سيارة اجرة ، لأنني أردت أن اتجنب لفت الأنظار الي . انظار من ؟ لم أكن اعرف ، ولكنني عندما اقتربُ من المرأة ، في هذه المدينة ، فالخوف حاضر على الدوام . العنوان الذي اعطاني اياه مسعد كان في جبل اللويبدة . وهو من الجبال التي بدأ فيها البناء حديثاً - ربما في أواسط الأربعينات - اي حين ارتفعت أسعار أرض البناء . وعندما أخذت أمانة العاصمة تدرك - مؤخراً جداً - ان المدن لا تقوم بأن يقيم أي انسان بيتاً اينما يشاء ، وكيفما يشاء ، بل لا بدّ من حد أدنى من التخطيط في هندسة المدينة . لعل هذه كلها بعض الأسباب التي جعلت جبل اللويبدة واحداً من أكثر جبال عمان دقة في التنظيم ، وأناقة في البناء . انه جبل ليس فيه مكان للفقراء . .

بيت سلطانة كان في منطقة حديثة من الجبل ، تلك المنطقة التي تقع الى الغرب من كلية تيراسانكتا . كان ذلك الجزء من الجبل أجرد ، عارياً من الخضرة ، يتكوّن معظمه من صخور كلسية . من المدهش حقاً ان يتم تسوية هذه الأرض ، فتصبح فللاً أنيقة ، محاطة بالشجر ، وبأحواض الورد . (كان الورد الجوري هو أكثر انتشاراً في حدائق الطبقة الجديدة الصاعدة ، في حين كانت النباتات المتسلقة ، والعطرية ، وعباد الشمس ، وأحواض البقدونس والنعناع الأخضر الأكثر استعمالاً في البيوت القديمة للطبقات المتوسطة والفقيرة) .

في هـذه الفترة بـالذات بـدأ غزو الـذوق الأمريكي ـ في الضـواحي والمـدن الأمريكية الصغيرة ـ يغزو المنـاطق الجديـدة في عمان ، البيـوت المتباعـدة ، التي تفصلها الحدائق المسوّرة البالغة الأناقة . . . والغريب ان اهالي عمان ، حين كانوا يفعلون ذلك كانوا يعتقدون أنهم يقلدون النمط الانجليزي في البناء .

أحسست ان أهم ما فقدته عمان ، في هـذا التقليد للنمط الأمـريكي ، هو تلك الألفة التي كانت طابع الأحياء القديمة نسبياً ، وتلك الشـوارع الضيقة التي كانت تقي المارة من صهد الشمس ، والبرودة في الشتـاء . لعنة الاوتـوسترادات الواسعة ، المكشوفة لعوامل الجو دون وقاية ، وتلك العزلـة التي تعيشها البيـوت المتجاورة . كانت عزلة تفتقد وجهها الايجابي ـ أعني الحياة الخاصة ـ . فالعزلة عن الجيران ، كان يقابلها انفتاحاً مرهقاً للعلاقات العائلية ، والقبلية .

ـ ٢ ـ

كان العثور على البيت أكثر صعوبة مما قدرت . تصورت انني بمجرد ان اتجاوز كلية تيراسانكتا بقليل سوف أجد البيت بسهولـة . ولكن عدداً من البيـوت التي ينطبق عليها الـوصف الذي ذكـره لي مسعد إمـا كانت خـالية . أو خـرج أناس تطلعوا اليّ باسترابة ، وأغلقوا الباب بسرعة .

الخطأ الذي وقعت فيه كان بسبب ان مسعد لم يقل لي ان البيت لم يكن على الشارع مباشرة . بل كان خلف البيت الثالث على يميني . كان بيتاً كبيراً ، ولكنني شعرت انه أقرب في مظهره الى بيوت القرية ، منه الى بيوت هذا الجبل الأنيق . ربما كان سبب هذا الانطباع هو السور المحيط بالبيت ، الذي يشبه أسـوار بيوت القرية : احجار صغيرة ، غير مشذّبة ، قد صفت دون انتظام ، ودون اسمنت . أو ربما كان ذلك بسبب الأعمدة الحديدية الطولية المستديـرة ، الموضـوعة بشكـل عامودي في الشباك ، وتلك القطع المستطيلة العريضة التي تتقاطع معها .

عندما اجتزت السـور ، الذي كان بـلا باب ، رأيت بـاب البيت مفتوحـاً ، وسلطانـة تقف في الداخـل . كانت تـرتـدي ثـوبـاً زهـري اللون ، يكشف عن نحرها . وقد طوت كميه فبدا ذراعاها عاريين . كما كانت تلف قطعة من القماش

الأحمر تخفي به شعرها . كانت تضع يديها على خصريها ، وتميل برأسها الى اليمين ، وهي تبتسم ابتسامة معاتبة ، غريبة عليها .

قالت ، وهي ما تزال واقفة في الداخل :

ـ ضعت يا خوي ؟

وضحكت بتلك الطلاقة التي تميّز الضحكة التلقائية . كانت تنظر الي بعينين مشعتين ـ ضحكاً أم عشقاً ؟ ـ وقالت بنبرة آمرة ، مرحة ، وهي تضم ثوبها من الخصرين ، وتجمعه بيد واحدة على بطنها :

ـ تفضل ، ادخل ، خجلان ؟

وعندما دخلت ، ومددت يدي ، أمسكت يدي الممدودة بيدها اليسرى ، واحتوتها في يدها الكبيرة ، ومالت نحوي وقبلتني على خدي .

ـ العوافي يا جريس .

كان ذلك مخيّباً لتوقعي ، اذ كانت الصورة التي في خيالي ان نحتضن بعضنا ، ونمارس الجنس على الفور . هذا لا يعني انني كنت أفضل ان تسير الأمور على هذا النحو . كان ذلك يخيفني قليلاً ، ويثير احساساً بالذنب لدي . وأخذت تنظر الي بعينيها الغريبتين . قلت :

ـ ايش هذا اللي على راسك ؟

ضحكت كثيراً ، وأمسكت بكتفي ، كأن الضحك سوف يجعلها تقع إن لم تتكيء عليّ . قالت :

ـ قول ، أولاً ، كيف حالك يا سلطانة ، قول : الحمد لله على السلامة ، امتى وصلت ؟

وحاولت تقليد صوتي :

ـ ايش هذا اللي لافّه فيه راسك يا سلطانة .

امسكت بيدها التي تتكيء بها على كتفي ، وقبلتها . قالت :

ـ مش نظيفة يا جريس .

نظرت الى اليد . رأيت جرحاً صغيراً ، احمر في الجزء من خنصرها . لم تكن حمرته حمرة جرح جاف ، بل جرح ينزف . احسست فجأة بالدوار ، بأنني في عالم

غير حقيقي . تذكرت على الفور حلم البارحة .

ــ جريس !

كان صوتها ملهوفاً . تذكرت كيف كانت تنبثق وتتشكل من زهور بنفسجية ، وطعمه يقطف احداها ، والدم يلوّث أصابعه السمينة ، ونظرت الى الجرح لأرى إن كان سوف يبوح لي بسر هذا اللغز .

ــ جريس . مالك يا حبيبي ؟

قلت :

ــ سلطانة حبيبتي ، تعالي نقعد .

ــ مالك ؟

قبلت جبينها ، وقلت :

ــ شفت الجرح مبارح في الحلم .

يبدو انها لم تسمع كلماتي بوضوح . قالت :

ــ قلت مريض ؟

لفت ذراعها حول خصري وقادتني الى كنبة ، وجلست بجواري . وضعت رأسي على كتفها . الرغبة في البوح كانت أشبه بدافع للبكاء لا يقاوم . صمتت ويدها تمسح العرق عن وجهي . احسست بسلام داخلي . وأخذت أتأمل عينيها المذهلتين . كان لبياضهما لمسة أنيقة من اللون الرمادي الخفيف . والجزء العسلي منهما كان سائلاً ، أشبه بعسل مشع ، أو ضوء عسلي سائل .

قالت :

ــ مالك ؟

قلت :

ــ عيونك اجمل عيون في الدنيا .

قالت :

ــ يا كذاب .

قلت بحرارة :

ــ والله مش كذاب ! والله مش كذاب ! والله مش كذاب !

أضفت :

ــ خليني أشوف الجرح .
مدت يدها . لم يكن هناك . قلت :
ــ ايدك التانية .
ورأيته . قبلته . قالت :
ــ أمرك عجيب غريب .
وحكيت لها الحلم الذي رأيته البارحة . كانت تصغي بذلك الاستغراق والخوف الذي يكون على وجه طفل يسمع حكاية مشوّقة . لاحظت ان تنفسها ازداد عمقاً . عندما انتهيت ، قالت :
ــ مين طعمه ؟
أحسست بفزع ، وللحظة ، حدست انها تعرف طعمه . تحدثت لها عنه . الحلم جعلني أكرهه بشكل حقيقي . صمتت . تاهت عيناها ، ويدها تداعب شعري ، ابتعدت عني .
قلت لنفسي : انها نسيتني . وبتوارد غريب قالت :
ــ جريس انساني .
قلت مفزوعاً :
ــ ليش ؟
اخذت تقبلني ، وهي تقول :
ــ انساني ، انساني ، انساني يا جريس .
كان في صوتها دموع .
انتهى هذا الموقف الميلودرامي بأسرع وأيسر مما كنت أتصور . قالت فجأة :
ــ وبعدين معاك ؟
كان التغيير في نبرة الصوت والمزاج واضحين . التفتُ اليها فرأيت تعبير طفلة مشاغبة على وجهها . قلت :
ــ ايش ؟
قالت :
ــ فيه واحده بتقعد مع حبيبها وهيه كلها تراب وعرق . .
قلت :

ـ فيه .
ـ مين ؟
ـ انت .
ضحكت .
ـ رايحة أقوم انحمم ، أولاً ، بعدين نتغدى ، رايحة أموت من الجوع .
قلت :
ـ وتنظيف البيت ؟
قالت :
ـ خلصته تقريباً . ظال شويه اميره بتخلصه .
وقفت ، ثم التفتت الي :
ـ ما سألت عن أميرة ؟
ـ لا .
قالت بنبرة حزينة :
ـ ليش ؟
قلت :
ـ ما سألت عن شيء .
وانصرفت .

جلست وحدي والعديد من الأسئلة تلح علي : متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ تعلمت ان تتكلم بهذا التأنق والذكاء ، وان تغازل ، وان تقرر كل شيء للطرف الآخر ؟ هنا كلمات وتعابير وأسلوب في التعامل لا يمكن ان يكون مصدرها القرية . ثم خطر لي . وانغرس في قلبي كطعنة : انها تعرف طعمه ؟ قالت : « طعمه ؟ » وكأنها تريد ان تقول « أنت أيضاً تعرفه ؟ » وكأنني ارتكبت خطأ ما . لم اسألها متى جاءت ، وكيف ؟ لا بد ان هزيم جاء بها في الشاحنة ، وأميرة معها . ومن الواضح ان أثاث حجرة الجلوس في القرية قد جيء به أيضاً .

أخذت اتمشى في الصالون الكبير . في الطرف الآخر باب زجاجي ، مفروض ان يؤدي الى حديقة لم توجد بعد . كان هنالك درجات من الحجر المشذب تهبط

الى الحديقة . في صدر الصالون بوفيه ، لها بابان من تحت ، ثم واجهات زجاجية من فوق . كانت ثقيلة المظهر ، مدهونة بلون بني غامق . ثم مائدة مستديرة عارية ، وحولها عدد من الكراسي . يفترض انها لتناول الطعام .

كان ذلك الجزء الخلفي من الصالون . ولكن أين أميرة ؟ الساعة الآن الواحدة والنصف . لا يمكن ان تكون قد جاءت قبل التاسعة . وربما هي قد غادرت البيت بمجرد وصولها ، وتركت امها تنظّفه . أين ذهبت ؟

الجدران مدهونة بلون زهري فاتح . من المؤكد انه ليس مدهوناً بالزيت ، فأنا أعرف هذا الحرص القروي . ولكن الغريب حقاً هو هذه اللوحات ـ نسخ عنها ـ المعلقة بوفرة على الجدران ، موضوعة في إطارات كبيرة الحجم ، مطلية بلون ذهبي ، ورديئة الذوق ـ اعني الإطارات والصور ـ . كانت إطارات من الجبس ، على شكل ورود ، وأوراق العنب ، وقطوف العنب أيضاً ، وكيوبيد الذي لا مفر منه يحمل جعبة أسهم ، وقد وضع احدها في قوسه ، مهيئاً للانطلاق . وكان اللون الذهبي اللامع متنافراً الى الحد الأقصى مع اللوحات القاتمة الخضرة ، والزرقة ، يتخللها لمسات بياض ، لغابات وأنهر وثلج قليل بين بعض الأشجار .

فاجأني صوتها من الخلف :

ـ عاجبينك ؟

قلت على الفور :

ـ لا .

كانت ورائي ، تلف شعرها بفوطة اخرى ، وتلبس قميصاً زهرياً ، وفوقه روب . وقفت انظر اليها . بشرتها لدنة ، رطبة ، تتسرب منها شهوة . . لا أدري كيف ، ولكن هذه المسام المفتوحة كانت تفيض بعصارة انثوية ، شبقة ، غير مرئية .

تضرج وجهها ، وقالت بلهجة مرتبكة ان نظراتي تربكها . وعندما احتضنتها تملصت مني ، وقالت بلهوجة :

ـ الأكل ، الأكل .

خاطبت ظهرها المتجه الى المطبخ :

ــ انتِ بستان .

توقفت والتفتت :

ــ زهور وورد وعسل .

ــ مش فاهمة .

قلت :

ــ حلم امبارح .

قالت :

ــ ايوه ، ما نسيت .

وغابت .

كل شيء ملأني بالسعادة الى ان قالت :

ــ بكرة مسافرة العقبة .

كانت دهشتي والحاحي بالسؤال مفهومين . ما الذي يجعل المرأة والتي تحبني تسافر الى مدينة في أقصى الجنوب . قالت :

ــ شغل .

توقعت ان تقول المزيد ، ولكنها احنت رأسها واخذت تأكل . أغاظني ذلك ، فهل كلمة « شغل » وحدها اجابة على كل اسئلتي ؟ سألتها عن نوع الشغل ، الذي سوف تسافر من أجله ، فقالت :

ــ بضايع جاية . . .

ــ وبعدين ؟

قالت انها سوف تستلمها . قلت :

ــ وليش مسعد أو هزيم ما يروحوا بدالك ؟

قالت :

ــ ما أنت عارف ؟

ــ لا .

قالت :

ــ مسعد على الباص ، وهزيم على الترك .

ادركت انها لا تريد ان تقول الحقيقة . قلت :

ــ بدك تسافري وحدك .

قالت دون ان تنظر الي :

ــ لا طبعاً . أميرة رايحة تكون معابي .

قلت :

ــ سلطانة .

فاجأتها نبرة صوتي ، فنظرت الي بدهشة . قلت ، وأنا أحاول ان أجعل صوتي طبيعياً :

ــ بدكن تسافرن في القطار ؟

ادهشها السؤال كثيراً . القت نحوي بنظرة جانبية لم تكن ودودة ؛ قلت لنفسي : ربما كانت خائفة . ولكن ما الذي يخيفها بحق الله ؟ لقد بدأت أنا أشعر بالخوف . قالت بصوت محايد :

ــ ليش بتسأل ؟

قلت متظاهراً بأن سؤالي طبيعي تماماً :

ــ حتى أودعكوا .

قالت :

ــ لا مش في القطار .

وكأنها خافت ان أواصل اسئلتي أضافت :

ــ في سيارة .

ــ باص ؟

قالت :

ــ سيارة .

ــ تاكسي ؟

ــ لا .

وصمتنا . صوت تناول الطعام وحده كان يسمع . اخافني هذا الصمت ، اشعرني بان وجودي غير مبرر . قلت :

ــ أميرة وينها ؟

ابتسمت وأمسكت بيدي .

ــ هلأ فطنت انها مش موجونة ؟

ــ لا ، طبعاً .

قالت :

ــ راحت في شغل وراجعة .

شيء ما حدث ـ لا أعرف ما هو على وجه التحديد ـ جعل حديثنا متكلفاً . حتى حين جلسنا متجاورين ، نشرب الشاي ، ورأسها على كتفي شعرت ان بقائي لم يعد مرغوباً فيه . جعلني ذلك عاجزاً عن التركيز . كانت تقبل خدي وتقول :

ــ علامك ؟

ولكن من نبرة صوتها شعرت انها تعرف تماماً ما بي ، وانها تطلب مني ان أكون البادىء في طلب الانصراف .

عندما أعلنت عن رغبتي في الانصراف بدت مندهشة دهشة حقيقية .

قالت :

ــ وين رايح ؟ هلق أميرة بتيجي .

ولكنني شعرت في اعماقي انني مطالب بالانصراف . فانصرفت . قالت انها ستعود بعد أسبوع أو أقل . قلت :

ــ أسبوع ؟

قالت :

ــ كلمني بعد أربع أو خمس تيام بالتليفون .

قلت :

ــ رايح اتصل .

قالت ، وإن أرادت ان تتصل هي بي ؟ قلت انني عادة اجلس في الصباح في مقهى وادي النيل .

ــ فيه تليفون ؟

قلت :

ــ فيه ، بس ما بعرف رقمه .

قالت :

ـ بسيطة .

عانقتني . كنت وأنا اعانقها بارداً كلوح الثلج[1] .

في طريقي الى مقهى وادي النيل حيث كنت أتوقع ان أجد اصدقائي ، اخذت اتخفف شيئاً فشيئاً من الحالة السوداوية التي كنت فيها . ففقدت هواجسي الواحد بعد الآخر . وبدا لي ، وأنا أسير في هذا الحر ، انني غادرت لتوي جنة ، وانني اعود الى ذلك الجو المقبض من أحلام لا تتحقق . حتى ذلك العالم السري للشيوعيين الذي فتنني ، في البداية ، غرق في ذلك الجو المقبض الذي خلقه نضال ، وقسوة شفيق معي .

وجدت أصدقائي في المقهى يشربون القهوة الفرنسية مع الحليب . تكلموا معاً حين رأوني :

ـ وين كنت ؟

قلت انني كنت أزور أقاربي .

ـ تغذيت ؟

سألني شفيق . قلت :

ـ تغذيت عندهم .

شعرت بالود الذي يحمله سؤاله ، وعلمت انه نادم لقسوته البارحة معي .

قال لي شفيق :

ـ ايش بتشرب ؟

ضحكت ، وقلت :

ـ يعني .

ضحك ، ونادى الجرسون :

---

(١) حين قلت ذلك ، فيما بعد ، لسمحه ، قالت :

ـ لا يا شيخ ؟ بتحسْبني هبله ؟

كانت مقتنعة انني في ذلك اليوم مارست الجنس مع سلطانة ساعات طويلة . وانا أسأل نفسي الآن : لماذا لم افعل ذلك ؟

ـ هات قهوة فرنساوي بالحليب .

بعد قليل همس لي شفيق :

ـ موسى بده يشوفك في الدائرة . الساعة عشرة .

ـ اي دائرة ؟

قال :

ـ وزارة الخارجية .

وفجأة استعاد عالم الشيوعيين السري اغواءه .

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

كانت وزارة الخارجية في الطابق الأرضي ، وفوقها مباشرة كانت رئاسة الوزراء . دخلت حجرة موسى في الساعة العاشرة بالضبط . رفع رأسه عن الأوراق التي أمامه . ابتسم بود وصافحني بحرارة . احسست أننا أصبحنا أصدقاء ، وانني لست بحاجة للتكلف معه .

نادى الفرّاش وسألني :

ــ ايش بتشرب ؟

قلت له أفضل الشاي . قال للفراش :

ــ هات واحد شاي وقهوتي .

علمت فيما بعد انه لا يشرب القهوة إلّا مرة ، مغلية جيداً ، ودون سكر ، قال لي وهو عابس :

ــ رايح أكون معاك بعد دقيقة .

وأخذ يقرأ الأوراق التي أمامه ، ثم يكتب بسرعة مذهلة ، ثم يضع الورقة في ملف . حين جاء الفراش يحمل الشاي والقهوة كان موسى قد انتهى من وضع الأوراق في الملف . سلمها للفراش وقال :

ــ اعطيها ليوسف بك .

ثم أخذت شخصيته تتضح أمامي .

سألني عن مشاريعي للمستقبل ، فقلت له انني سوف أواصل الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت . قلت ذلك متحرجاً لخشيتي ان يسحب كراهيته لأمريكا على الجامعة . ولكنه تحدث عن مزايا الجامعة الأمريكية في بيروت ، وعن مزايا التعليم الجامعي بشكل عام . قال :

ــ احنا راحت علينا .

اندهشت ، لأنني تصورته حائزاً على شهادة جامعية .

كان حديثنا ينقطع بشكل متكرر بالعديد من التليفونات ، التي يكون فيها ، في الغالب ، مستمعاً ، والعدد الكبير الذين كانوا يدخلون حجرته . جعلني ذلك أشعر انني أمام شخصية لن تستطيع ان تختلي بها ، أو ان تحكي لها اسرارك الخاصة . كنت أتصوّر الشيوعي انفعالياً ، مليئاً بالعواطف الحارة ، مثل أصدقائي الثلاثة . بل كنت أتصور انهم في المستويات العليا أشد انفعالاً ، وحماساً . ولكن هذه الشخصية الاجتماعية ، اللبقة ، المتحفظة بدت غريبة .

شعرت انني مطالب ان أسرد كل معارفي النظرية والسياسية عن الشيوعية ، ففعلت ، وأضفت اليها أفكاراً طرأت لي وأنا أتحدث . وقد اكتشفت ، فيما بعد ، ان هذا أسوأ اسلوب لكسب صداقة انسان ، حتى لو كان شيوعياً .

كان لموسى ذلك الأسلوب في الحديث الذي يميز الموظفين القدماء : استعمال عبارات التفخيم في المخاطبة ، وتكرار عبارات بعينها كنت أظنها من مخلفات العهد العثماني . كان يتخاطب بهذه اللغة في التليفون ، ومع بعض الذين يدخلون مكتبه . وكان يمزج ذلك بلهجة أردنية عامية ، لم يعد المتعلمون يتخاطبون بها .

عندما كنت أتحدث اليه كان يصغي بانتباه وأدب مبالغ فيهما . وعندما انهكني الكلام ، وجاء دوره ليقول شيئاً تبين لي بوضوح انه لم يسمع كلمة واحدة مما قلته . قال :

ــ حضرتك قاري كثير .

قلت :

ــ بالعكس مش لاقي كتب .

قال :

ـ مثل ما تفضلت ، أول عن آخر ، هدف الواحد يخدم بلده ويحررها . ولا أنا غلطان ؟

وافقته رغم انني لا أذكر انني قلت شيئاً كهذا . ولكنني فجعت حقيقة : هل كلهم هكذا ؟ نضال ، ثم موسى ، ثم أصدقائي . . .

الجلسة طالت ، ومعظم الوقت كان موسى منشغلاً عني ، وهو يحتفظ بي كالأسير في حجرته . أزعجني انه لم يسألني إن كان عندي عمل آخر ؛ كما انه لم يقدمني الى زواره الذين كان ينصرف اليهم دون التفات حتى لوجودي . رغم ذلك ، فلقد طلب لي ، خلال الجلسة ، شاي ، ثم كازوزة ، ثم قهوة . .

بلغت الساعة الواحدة ، وأنا على هذه الحال[1]. وفجأة قال لي :

ـ رد الباب .

نهضت وأغلقت الباب . قال :

ـ سكايرك خلصت ؟

قلت :

ـ ما بدخن كثير .

ضرب جرساً وجاء الفراش . طلب منه ان يأتي لي بعلبة سجاير جولد ستار وبفنجانين قهوة سادة ، بعد ان سألني :

ـ بتشربها بسكر ؟

قلت :

ـ سادة .

قال للفراش :

---

(١) انني اسأل نفسي الآن : لماذا لم احزم امري واتصرف ؟ لماذا بقيت ، حيث كان الاستمرار في الجلوس اهانة ؟ لا استطيع ان اجيب اجابة قاطعة . الأغلب انني كنت اشعر انني امر في امتحان ، تمهيداً لعوالم سرية مبهمة . لم يكن من المعقول ان اجلس طيلة اربعة ساعات ثم لا يحدث شيء . وكنت متلهفاً الى حد الموت لأن اخرج من دائرة الضجر .

ــ رد الباب .

ثم قدم لي سيجارة وأشعلها ، ثم أشعل سيجارة لنفسه ، وقال وهو يضحك :

ــ زهّقتك يمكن ؟

لم أرد . فقال :

ــ الله وكيلك في هالحالة . . .

دخل الفرّاش ووضع القهوة وعلبة السجاير أمامي ، ثم وضع القهوة أمام موسى الذي قال له :

ـ الله يخليك ما تدخل حدا عليي .

قال الفراش :

ـ أمرك يا موسى بك .

ذاب غضبي تماماً ، ولكنني تماسكت . من غير المعقول ان أنسى انه تجاهلني لثلاث ساعات . تكلم عن طعمة . سألني :

ــ بتعرفه من زمان ؟

قلت له انني لم أره إلاّ قبل البارحة ، ولا أعرف عنه شيئاً . قال :

ــ لاحظت انك معجب فيه .

قلت انه مثقف ، قال :

ــ صحيح ، لذلك خطورته أكثر . زلمة معادي للحزب .

ــ سمعت .

قال وكأنه ينهي الموضوع :

ــ خليك حذر منه .

صمت وأخذ يشرب قهوته . بعد قليل تكلم عن أصدقائي فقال انهم غير ناضجين ، تنقصهم الخبرة . ثم استدرك :

ــ سمير أكثرهم نضج . مبين بتعب على نفسه .

انني أمام مهزلة حقيقية . منعت نفسي من الضحك بصعوبة . قلت لنفسي : يجب أن أتماسك وأكون حذراً . ذكر موسى اسم قريتي ، وقال :

ـ أنا عارف أنكم قبيلة اقطاعية كبيرة ، وإلكم نفوذ .

رغم ان هنالك عائلة فقيرة أخرى تتألف من رجل عجوز وزوجته ، بالإضافة الى أمي وأنا ، هم كل قبيلتنا في القرية ، ولكنني لم أحاول ان أصلح معلومات موسى . أضاف :

ـ طبعاً احنا كشيوعيين ما بنهتم بالعائلات الاقطاعية ، لكن بنحاول نستفيد من نفوذها .

قلت :

ـ طبعاً .

وقبل ان أذكر مثال الشيوعيين الصينيين سبقني اليه . قال :

ـ لا تنس يا رفيق ان الشيوعيين الصينيين أجّلوا رفع شعار مصادرة أرض الاقطاعيين لفترة ، حتى يستفيدوا من الامكانيات الثورية لأولاد الاقطاعيين المثقفين . كمان ممكن نستفيد من الامكانيات الثورية ، للبورجوازية المتفسخة .

كان موسى يكثر من اقتباس التعابير الشيوعية ، ينطقها بفصحى متقعرة ، تبدو غريبة في سياق اللهجة العامية التي يستعملها ، والتي لا تشبه لغة المثقفين التي أصبحت وسطاً بين العامية والفصحى . وقد أثار اعجابي بالفعل مجموعة المفارقات التي يتسم بها موسى : وقار الشيوخ ولغتهم التقليدية ومحافظتهم على المظاهر ، وفي التعالي عن كل ما هو شخصي وانفعالي ، وتلك العبارات الشيوعية الجديدة والمدهشة للغاية ، وكذلك الجمع بين الشكل الغلامي والملابس ذات الطابع الوقور للموظفين القدماء بما فيها استعمال حمالات البنطلون بدلاً من الحزام ؛ وكذلك المزيج من التعالي التقليدي لكبار الموظفين ، والتعامل النّدي والناضج مع ابناء الطبقات الدنيا ـ كما حدث مع اسماعيل ، فراش النادي ، وفراش مكتبه الذي كان يعامله دون تكليف[1] .

---

(١) اعتقد ان الذي لمسني بعمق نوع من الصلابة والاصالة يستحيل اختراقها . عرفته وتابعت اخباره لأكثر من عشرين سنة ؛ اثبت تماسكاً نادراً في مواقفه السياسية ، وثباتاً في متابعة النضال . لم يخضع للاغراءات ، رغم الحاحها ؛ ولكن رغم هذا ظلت ثقافته السياسية محدودة ، كما ان موقعه الحزبي لم يتقدم كثيراً .

أضاف بعد قليل :

ــ لكن البورجوازية ، في أوقات الاستقلال الناجز ، بتؤيد النضال ضد الاستعمار . . مصالحهم ملاعين الوالدين . . مصالح . . . تجار . . . واحنا بنستفيد منهم . .

صمت . وعلى التو أصبح عابساً وبعيداً ، وقد ارتسم على وجهه تعبير اشمئزاز ، والتفت برأسه نحو الشباك الذي على يمينه . استمرّ في هذا الالتفات وكأن النظر ليس هدفه وانما غيظ وتقزز من ذلك ، وما وراثه .

تلامس الشباك أغصان شجرة مشمش ، حجبت المنظر الذي وراءها ـ جزءاً من الجبل ـ سوى ذلك لم أكن استطيع ان أرى سوى طريقاً جانبياً خالياً من المارة ، وجانباً مائلا من سطح بيت قرميدي ، ومساحة صخرية من الأرض ، وقطعة من السماء لامعة ، تكاد تكون بللورية بيضاء .

كان المنظر كله يطل علينا . شعرت كأنني في جوف بئر . فجأة التفت اليّ موسى وقال :

ــ بتعرف طبعاً أميرة ؟

لم يكن سؤالاً ، بل تقريراً لحقيقة . قلت :

ــ ايش ؟

رغم انني سمعته بوضوح ، ولكن سؤاله كان مذهلاً . قال :

ــ أميرة ؟ أكيد بتعرفها ؟

قلت له انها من قريتنا ، وأنا أعرفها بالطبع ، ولكنني مندهش من معرفته بها . قال انها « مسوية مشكلة كبيرة مع المنحرفين والبورجوازيين المتفسخين . » قلت له :

ــ مش فاهم .

قال :

ــ ما أنا رايح افهمك .

وبدأ بسؤال :

ـ عارف طعمة ؟ انسان منحرف وعدو للحزب . . .
قلت :
ـ عارفه .
أشعلت سيجارة . وللتوّ تأكدت ان حدسي كان صادقاً : سلطانة تعرف طعمة إذاً ؟ كان ذلك مؤلماً . . مؤلماً جداً . .

وأخذ موسى يتحدث قائلاً انه هو أصل البلاء . البنت كانت بتشتغل خدامة ، أنت عارف ؟ وفي طريقها الى السوق كانت تمر قرب بيت طعمة . تصور رجل في هذا السن ويشغل نفسه بطفلة . استدرجها الى بيته وأفسدها تماماً . طبعاً كان أجبن ان يفض بكارتها ، ولكنه علمها كيف تكون مومساً . كان قد اتفق انه سوف يعطيها قرشاً مقابل كل قبلة .

قال :
ـ انت بتعرف أحمد ، النائب اللي . . .
قلت :
ـ طبعاً ، طبعاً .
قال انه متزوج ، ولكنه يقضي معظم وقته في مكتبه . ومكتبه مجهز للسكن ، وكل أصدقائه يزورونه في المكتب ، وفي أحيان كثيرة ينام فيه . أخذ طعمة ، الذي كان يزور النائب كثيراً ، يتحدث عن علاقة بفتاة جميلة . ردد ذلك كثيراً الى أن قال له النائب مرة :
ـ هاتها يا اخي .
المهم انها جاءت . اسقوها جن بالليمون ودخل معها النائب . وحين خرج كان غاضباً جداً . قال لطعمة :
ـ هذي بنت يا عكروت .
فقال طعمة :
ـ ما دامت ماشية في هالطريق لازم حدا يفتحها انت ولا غيرك .
وأصبحت تتردد على شقة النائب ، والنائب لا يعرف كيف يتخلص منها ، حتى تعرف عليها شاب منحل ، وكيل لاحدى الشركات الأمريكية ، فطار

صوابه . جعلها تتخلى عن عملهـا واستأجـر لها حجـرة عند خياطة عـلى طريق المحـطة . وفي كل يـوم كانت تـأتي لها سيـارة عند العصر وتعـود بهـا عنـد وجـه الصبح . حملت البنت وأجريت لها عملية اجهاض ، وعادت الأمـور الى وضعها الطبيعي . ولكن البنت دوبلت .

ــ قلت :

ــ ايش ؟

ضحك وقال :

ــ ما بتعرف معنى دوبلت ؟ رايح احكي لك .

قال ان الولد التافه ، صديق أميرة ، استأجر لها شقة . كان يغيب كثيـراً ، وأخذت أميرة تستقبل زبائن . كلهم على مستوى عال . وفي أحد الأيام فوجئت بطعمة يطرق الباب عليها ، وجرى بينهما حوار طريف ـ كما اخبرت صديقها فيما بعد ـ . حاول طعمة ان يقبلها . فقالت له :

ــ البوسة بقرش ؟

وأبعدته عنها . قال لها :

ــ مش أنا سبب العزّ اللي انتِ فيه ؟

سألته إن كان يزيد ثمن القوادة . ارتبك الرجل ، وتلعثم ، وقال :

ــ يا أميرة انا بحبك .

فسألته :

ــ اللي بحب واحدة ، بوخذها لناس ثانيين يناموا معها ؟

ريقه نشف . قال :

ــ تسمحي يا ست أميرة تشربيني فنجان قهوة .

قالت :

ــ أمرك .

خرجت وفي يدها دينار ونصف ، وضعتها في يده ، وقالت :

ــ ثمن القوادة والقهوة . خذها وما تخليني أشوف خلقتك مرة ثانية . سامع ؟

ألقى النقود على الأرض وخرج وهو يقول :

ـ مش غريب عليك . شرموطة .

ضحكت ضحكة ـ كما قال طعمة ـ لا تضحكها إلاّ فاجرة .

المهم ان أميرة واجهت مشكلة مع صديقها بعد ان علم انها تستقبل آخرين في شقتها . قالت له ان عملها يقتضي ذلك . ولم يزدني موسى ايضاحاً عن طبيعة عملها .

نظر موسى الى ساعته فقال انها اقتربت من الثانية ، ووقف . دعاني الى الغداء فاعتذرت ، كما تقضي اللياقة الأردنية[٤]. شدّد العزيمة ، فكررت الاعتذار . ولكنه قال بحسم :

ـ بلاش يكون عندك رواسب بورجوازية .

وددت ان أقول ان تلك رواسب اقطاعية ، ولكن الموقف لم يكن مناسباً . فسرنا سوية صامتين الى مطعم السنترال .

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مطعم السنترال . بدا لي فخماً ، كأنه منقول من العالم السحري للأفلام الأمريكية . طلب زجاجتين من البيرة دون ان يستأذنني ، ولم أجد فرصة للاعتذار ، اذ تصورت البيرة غالية جداً في هذا المكان . كان جميع الجرسونات يعرفونه ، ويعاملونه بمودة واحترام ؛ كما كان يعرف اسماءهم ، ويتحدث معهم بألفة . عدد كبير من الحاضرين حيّوه ، وبعضهم صافحه .

رأيت الفتاة الأمريكية التي كانت تجلس في مقهى وادي النيل بصحبة شاب ، وأمام كل منهما قدح بيرة ممتلىء حتى نصفه . كان الشاب يتحدث الانجليزية بطلاقة ، ودون توقف ، والفتاة تدقق النظر في كأس البيرة ، وتدور بسبابتها حول حافة الكأس ، ثم ترفع رأسها فجأة ، وتنظر اليه . أصبحت جذّابة بشكل ملفت

---

(٤) تقتضي اللياقة الأردنية ان تدعى الى الطعام فترفض ، فيصر الداعي وتصر أنت على الرفض ، الى ان يرغمك على القبول ، والكريم الحقيقي هو من يلح في دعوتك مستعيناً بالقوة العضلية حتى يمزّق جزءاً من ملابسك .

للنظر . بدت حزينة وضجرة . قدّرت انها تضيق بحديث الشاب الذي لم ينقطع منذ ان دخلنا .

أكلنا صامتين . اختار موسى طعامه ـ وطعامي أيضاً ـ بعد نقاش طويل مع الجرسون حول الأطعمة الموجودة ، وأكثرها طزاجة . نصحنا الجرسون بالموزات مع الصلصة الحمراء والرز . لاحظت ان موسى يأكل بتأنق مفرط ، ودون شهية ؛ وانه لم يأكل إلاّ جزءاً قليلاً . أما أنا فقد أكلت طعامي مع كل المقبلات والسلطات التي جاء بها الجرسون .

فجأة دفع موسى كرسيه ، ونهض ليصافح رجلاً سميناً ، أبيض الشعر ، ذا وجه أحمر جداً ، وكابي الحمرة . كان الرجل يلهث . قال لموسى انه يود ان يراه لأمر ضروري ، واتفقا ان يمر موسى على بيته في الساعة الثامنة ، واعتذر عن الجلوس معنا .

كان وجه موسى قد أصبح ودوداً وجذاباً وهو يتحدث مع الرجل . وعندما أدار الرجل ظهره ، وسار الى مائدته بمشية عجوزة ، بقدمين متباعدتين عاد التعبير العابس على الفور الى وجهه . سألته عن الرجل فتظاهر بعدم سماع سؤالي(٥). فلم أكرر سؤالي . قال :

ــ نشرب قهوة .

لم اعترض . تعلمت ان أوافق على كل اقتراحاته . كانت أوامر . شربنا القهوة صامتين .

اندهشت عندما رأيت الفتاة الأمريكية قد أصبحت شديدة الحيوية : تتحدث ، وتقهقه ، وتكثر من الحركة . لم يكن الشاب سعيداً ـ كما تصورت ـ بهذا التحول . كان ينظر حوله ، ويبتسم ، ويقول شيئاً ، وهو ينظر حوله . اجتذب الاثنان انظار موسى ، وأخذ يراقبهما . رآه الشاب فنهض فجأة وجاء الينا . صافحنا ، وقال لموسى انه يريد أن يراه . قال موسى ، دون ان يغيّر تعبيره العابس :

(٥) علمت فيما بعد ان الرجل وزير خارجية سابق .

ـ مر بكره على الدائرة .

تريّث الشاب قليلاً ، ثم انصرف .

غادرنا المطعم ، وفي الشارع وقف موسى يتأمل سيارات الاجرة ، فاقتربت واحدة ، دخلها موسى وجذبني الى داخلها ، وقال للسائق :

ـ اطلع فينا يا أبو غازي .

قال السائق :

ـ على البيت موسى بك ؟

أخذ السائق يتحدث وعيناه تراقبان الطريق :

ـ ابني يا موسى بك ما قبلوه في المدرسة . قلت والله ما فيه غيرك يدبر النا المدير .

سأله موسى عن اسم المدير ، وعندما أخبره ، قال موسى :

ـ مر علي بكره في الدائرة ، بكون كلمته .

بعد فترة صمت قال السائق :

ـ سمعنا انك رايح تترشح للبرلمان في الدورة الجاية .

قال موسى :

ـ لحينها فرج .

حين دخلنا البيت نادى موسى ان يأتوا لنا ببطيخ مثلج . حجرة الجلوس كانت فخمة وقبيحة ، موسومة بالثراء الريفي ونقص العناية . كنبات هائلة الحجم من الستيل قد بهت قشرها الذهبي ، منجدة بمخمل أزرق . كانت صلبة القاعدة ، وهنالك صوفا طويلة تبلغ حوالي ثلاثة أمتار طولاً مغطّاة بمخمل قهوائي اللون ، ومساند للظهر مستطيلة ، من نفس اللون . استغربت وجود السجادة في هذا الجو الحار ، من الواضح انها سجادة فاخرة ، ولكنها غير معتنى بها . في مواضع كثيرة من السجادة والكنبات كنت أشاهد بقعاً سوداء لم يحاول احد إزالتها . على الجدار خدوش وأشكال انسانية مرسومة بقلم رصاص ، لها أنوف طويلة متعرجة وعيون جاحظة بلا أجفان .

في صدر الحجرة ، على الجدار المقابل للباب ، صورة زيتية كبيرة الحجم

لرجل له نظرة غاضبة ، يطالع الكاميرا بتهديد حقيقي . له انف هائل وجبين متسع وشاربان كثيفان فوق لحية سوداء مستديرة ، بدت كأنها قطع قار جافة ملصقة . كان يضع على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً ؛ وعلى صدره علقت نياشين عديدة كنت عاجزاً عن تمييزها . تحت الصورة مباشرة كانت قطعة مربعة من المخمل الأسود معلّقة ، مطرزاً عليها بخيوط ذهبية خمسة أبيات من الشعر في مدح صاحب البيت ، تقول انه مجاهد وطني لا طمعاً في المال ولا الجاه لأنه يملك منهما الكثير(٦)، ولكن بسبب حبه للخير ، واحتقاراً لهذه الدار وحباً في الجنة التي وعد الله بها المجاهدون . وهم أكرم خلق الله ، باستثناء النبي محمد . وقد كتب اسم الشاعر بحروف من القصب الأبيض ، ولم أستطع التعرف عليه .

كان هنالك زاوية في الحجرة للنحاسيات : مائدة خشبية وضعت فوقها صينية كبيرة من النحاس الأصفر ، قد غطّي سطحها بنقوش دقيقة على شكل ارابيسك وفوقها صفت دلال القهوة التقليدية ، أربعة ، تتدرج في الحجم من أكبرها ، التي على الطرف ، الى أصغرها التي كانت على الطرف الآخر . في وسط الصينية كان بَرج قهوة ، ذا لون فضي كاب ، وله يد طويلة من الخشب الأسود . بجوار المائدة مزهرية نحاسية هائلة الحجم ، موضوعة فوق طرابيزة منخفضة ، لها قوائم قصيرة ، غليظة .

في الخارج كنت أسمع هرولة أطفال ، ونداءات نسائية ، وبكاء طفل ارتفع فجأة ثاقباً ، مثيراً للأعصاب ، صمت فجأة . بعد قليل جاء البطيخ المثلج ، كميات كبيرة منه . أدخلته فتاة نحيلة ، تسكنها عفاريت . دخلت بخطوات راقصة ، ووضعت البطيخ أمامنا وهي تنحني ببطء . نظرت اليّ مباشرة وقالت :

ــ كايد فتح جاعورته ..

قال موسى :

---

(٦) كان والد موسى زعيم عشيرة كبيرة ، ومالكاً لأراضي واسعة جداً ، وقد قام بدور بارز ضد الانجليز ، وشارك خلال حياته في كل المجالس التشريعية والبرلمات الأردنية .

ــ ايش ماله ؟

قالت :

ــ بده احمله .

قال موسى :

ــ احمليه .

قالت :

ــ حملته شوية هذ خيلي ، ثقيل مثل العجل .

وقفت قليلاً ، وتنهدت كأنها لم تعد تحتمل . من الواضح انها تقلد امرأة أكبر منها سناً ، ثم انصرفت .

قال موسى ان للمسألة جانبها السياسي . قلت :

ــ كيف يعني ؟

قال ان النائب وقع ضحية ابتزاز . في البداية كانت المسألة معقولة . جاء بعض أقارب أميرة فأعطاهم بعض النقود . بين آن وآخر كانوا يأتون للنائب يطالبونه ان يساعدهم في ادخال احد الأقارب الى الجيش ، أو توظيف آخر في الحكومة ، أو ادخال طالب احدى مدارس عمان . كان ذلك كله معقولاً . ولكن المسألة بدأت تأخذ منحى خطيراً .

جاءت القهوة . احسست بالغثيان بمجرد أن شممت رائحة القهوة القوية ، المخلوطة بالهيل . ربما كان فنجان القهوة العاشر الذي أشربه خلال أربع ساعات . الرشفة الأولى لسعت فمي . كانت الصبية ـ الأغلب انها في العاشرة ـ كانت واقفة تراقبني . قالت :

ــ مش عاجبيتك القهوة .

ابتسمت لها وقلت :

ــ ساخنة .

قالت :

ــ خليها تبرد .

وانصرفت .

قال موسى : المسألة دخلت في السياسة . بدأت جهات معينة تهدد النائب وتطالبه بأشياء . انه مهدد بالسجن عشر سنوات على الأقل لاغتصاب فتاة قاصر ، وان على النائب ان يفعل أشياء عديدة لاتقاء الفضيحة . وهنالك شيء في صالح النائب . طعمة ؟

قلت :

ــ طعمة . عارفه .

قال موسى ، رغم ان طعمة منحرف ، وعدو للحزب رفض ان يشهد مع البنت . بل انهم هددوه ان يتهموه بها وان يأتوا بشهود على ذلك ، ولكنه أصرّ على الرفض وبيني وبينك كان موقفه أصلب من موقف النائب . ولكن التهديد مستمر على النائب .

قلت :

ــ مش فاهم . مين اللي بهدد ؟

صمت موسى ، كأنه لم يسمع سؤالي . وأخذ يشرب قهوته بأناقة وبطء . كان واضحاً انه مستمتع بشربها . وكان يدخن سيجارته بنهم ، ويخرج دخاناً كثيفاً من منخريه الواسعين . كنت مصراً هذه المرة ألاّ أدعه يتجاهل سؤالي . انتظرت قليلاً ثم قلت :

ــ ما قلت لي . مين اللي بهدد ؟

قال دون ان ينظر اليّ :

ــ رايح أقول إلك .

بدا هذا الوعد وكأنه تأجيلٌ للحديث . لم يكن واضحاً إن كان سيقول ذلك الآن ، أم فيما بعد . وصمتنا . انتهينا من شرب القهوة ، وقدم لي سيجارة وأشعل هو سيجارة من عقب سيجارته ، وبقينا صامتين . نظرت الى ساعتي . كانت تشير الى الخامسة .

سألته فجأة :

ــ ايش فيه في العقبة ؟

فوجىء وقال :

ـ العقبة ؟

قلت :

ـ أميرة سافرت اليوم للعقبة .

لم أذكر سلطانة .

قال بذهول :

ـ هيه المسألة وصّلت للعقبة !

في البداية قال لي موسى ان كل ما دار بيننا يجب ان يظل سراً . برقت عيناه ، وقال :

ـ سر يعني سر .

قلت :

ـ مثل ما بدك .

قال لأن المسألة خطيرة . واستفاض في الشرح : على مقربة من مدينة العقبة وعلى الخليج مباشرة هنالك مخيم مقام . أقامه رجال في قمة السلطة . وضعه الجغرافي انه يقابل مرفأ ايلات الاسرائيلي . وبين المرفأ الاسرائيلي والمخيم اتصالات مباشرة بواسطة زوارق اسرائيلية مسلحة .

كان موسى يقطّر معلوماته تقطيراً . قال انه في الصحراء المحيطة بمدينة العقبة يجد الانسان احجاراً على شكل البيضة ، مختلفة الأحجام . إذا كسرت هذه الحجر فسوف تجد في قلبها قطعة من الماس . المشكلة انه إذا جرى كسر هذه الحجر بدون خبرة فالغالب ان يتحطم الماس الذي في داخلها ويختلط بقطع الحجارة الصغيرة . وأحياناً أخرى يكون القلب الماسي غير ناضج ويحتاج الى وسائل معقدة لانضاجه . واسرائيل تملك الأجهزة لذلك : لقطع الحجارة بالشكل الصحيح ، وانضاج الماس . لذلك يقوم العاملون في المخيم بجمع هذه الأحجار ، ووضعها في أكياس معدة خصّيصاً لذلك ، وتقوم الزوارق الاسرائيلية باستلامها وادخالها اسرائيل عبر مرفأ ايلات .

جاءت الصبية بالشاي . وضعته وقالت :

ـ دبيت كايد كتلة . .

قال لها موسى وهو يبتسم :

ـ حرام عليك .

قالت :

ـ يحرّم جلده عن عظمه . حرق ديكي .

قال موسى منهياً الحوار :

ـ ما دام هيك بستاهل .

كان في الشاي طعم الهيل . انصرفت الفتاة ، وواصل موسى حديثه . قال ان هذا ليس كل شيء . الحشيش . عارف الحشيش ؟ قلت : عارفه . قال ان البدو يأتون به من تركيا ولبنان ، عبر صحراء بادية الشام ، ويسلمونه للمخيم . ومن هناك يتم نقله الى اسرائيل ، التي تنقله الى صحراء النقب ، وهناك تسلّمه الى بدو سينا ، لادخاله الى مصر . وهنالك عمليات أخرى صغيرة كبيع المواشي والحبوب لاسرائيل . وشراء بعض البضائع الاسرائيلية .

قلت :

ـ والحكومة ؟

كنت أعلم ان سؤالي ساذج ، ولكنني كنت متلهفاً للحصول على أكبر قدر من المعلومات ـ هذه المعلومات المدهشة ـ . توقعت ان يقول لي موسى ان الحكومة ضالعة في هذه العملية ، ولكنه قال :

ـ الوزارة ، ما الوزارة ؟

قلت :

ـ آه .

قال :

ـ غلبانة . فيه صراع في أعلى مستويات السلطة ، ولازم مجموعة تصفّي الثانية ، جماعة المخيم واحدة من المجموعات .

تذكرت وقلت :

ـ والتهديد ؟ مين اللي يهدد النائب ؟

قال موسى :

ـ متذكر واحنا قاعدين في مطعم السنترال . . .

قاطعته :

ـ البنت الأمريكانية . . .

ضحك وقال :

ـ مبين عليك مش قليل . ايوه هيه والولد اللي معاها .

رداً على نظرتي المتسائلة ، قال :

ـ نعم . المخابرات الأمريكية .

قلت :

ـ ايش بدهم من أحمد ؟

قال :

ـ عملية كبيرة . مستعدين يقدموا له كل الوثائق عن مخيم العقبة ، على أساس يطرحها في البرلمان ، ويسقط الحكومة ويجيبوا حكومة تابعة إلهم . وبدهم مشروعاتهم تمشي . . .

وصمتنا صمتاً طويلاً . كنت بحاجة لأستوعب كل هذه الحقائق . كنت أعيش نشوة توسع وتنوع العالم السري ، وأرى أميرة والفتاة الأمريكية في إطار دراما غريبة ومثيرة ، أشارك فيها . وسلطانة ؟ بدت محاطة بغموض جعلني أشتاق لها . . سأجعلها تقف معي ، معنا . . . ولكن فلأتوقف عن هذا . ان الساعات القليلة التي أمضيتها مع موسى أنضجتني ، وجعلتني أدرك الفارق بين أحلام اليقظة الجنسية ، والحقائق الواقعية الصلبة .

انتبهت . كان موسى يتكلم . قلت :

ـ ايش ؟

قال :

ـ أما عندكو خوري صفيق .

قلت :

ـ الخوري صليبا ؟

قال :

ـ اسمه صليبا ؟

قلت

ـ ايوه ، صليبا . وين شفته ؟

قال انه كان يجلس ـ اعني موسى ـ فدخل صليبا وأميرة وواحد قال انه عمها ، اسمه ايش ؟

قلت :

ـ مسعد .

قال ، تذكرت الآن مسعد ، ورجل آخر له سن ذهبية . ذكر موسى آخرين لم أستطع التعرف عليهم . والحكاية التي رواها كانت غريبة بالفعل ، فقد اقتحم الأب صليبا المكان ، يتبعه الآخرون ، وهو يقول :

ـ هوه وينه ؟ وينه ؟

وعندما اشارت أميرة الى النائب ، قال :

ـ انت . . انت . . يا عرة الرجال . . !

صمت النائب خوفاً ودهشة ، وأخذ صليبا يهدد :

ـ شوف ، والله العظيم ، وثوب كهنوتي انه دمك ودم عشيرتك من أكبر واحد لأزغر واحد ما بكفيني . فتّح عينك ! انت قدام رجال ، مش قدام حريم . والله في اصبعي هذا (ومدّ سبابة يده اليمين الطويلة الغليظة الى وجه النائب حتى اصطدمت بأنفه) شايفه ؟ في اصبعي هذا لأقلع عيونك الثنتين ، والعن أمك فوق أبوك .

واستمر الأب صليبا قائلاً :

ـ بنت من جيل بناتك . . .

ولم يتوقف حتى تدخلت أميرة :

ـ فيه حكومة ، وفيه رب .

قلت لموسى انني متأكد أن الخوري صليبا خالي الذهن من كل ملابسات المسألة ، وانه يعتقد انه يدافع عن بنت مسكينة اعتدي عليها ، وانه استعمل في عملية الابتزاز دون وعي منه . هنالك ظروف خاصة أعرفها ، وتجعلني متأكداً مما أقول .

هل قلت أكثر مما يجب ؟ ولكن مهما حدث فلن أقول شيئاً عن سلطانة . لم يقل موسى أكثر من كلمة واحدة :

ـ ممكن .

في نهاية الأمر شرح لي موسى السبب في هذا اللقاء الطويل جداً . قال انت واحد منا ، وهو لا يريدني ان أكون طرفاً في هذا الموضوع .

قلت :

ـ أنا ما إلي علاقة . كيف رايح أكون طرف ؟

قال ان النائب في البرلمان يريد ان يلتقي بي ، ويطلب مني ان استعمل نفوذ عشيرتي في تهديد أميرة وأهلها واسكاتهم .

ضحكت ، فالتفت الي موسى بدهشة . قلت أنني آسف ، ولكن عشيرتي لا تسكن القرية . هنالك أمي العجوز ، وعائلة أخرى متوسطة الحال ، وعجوز أخرى تعيش في بيت صغير ، ومصدر رزقها ديناران يبعث بهما ابنها الذي يعمل جندياً في الجيش . وهؤلاء جميعاً ليس لهم أي نفوذ . أما العشيرة فهي تسكن في مكان آخر .

لم تدهش موسى هذه المعلومات ، ولم يعلق عليها . قال ان النائب يريد مقابلتي غداً مساء ، وسوف يكون موسى معي . يريدني ألاّ أعد النائب بشيء ، إلاّ إذا أبدى استعداده لإثارة موضوع مخيم العقبة . طبعاً يهمنا ان يستمر النائب في معارضته ، ولكن ـ إذا كان وطنياً حقاً ـ فعليه ان يكشف مسألة المخيم ، والدور الذي تقوم به المخابرات الأمريكية .

وانصرفت على ان نلتقي في السابعة مساء غداً ، في مكتب النائب .

غادرته في السابعة .

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

في الحجرة لقيت أصدقائي يستعدون للخروج . قال شفيق عندما رآني داخلاً :

ـ وين يا ابن آدم . وين انت ؟

قلت لشفيق :

ـ ما انت عارف .

قال :

ـ من ساعتها ؟

لم يحاول خالد ان يسأل ، وانما قال :

ـ اشلح هدومك وخذ لك دوش ، وأنا بسوّي لك شاي .

كان الدوش منعشاً . خرجت منه جائعاً . أكلت قطعة من الجبن مع خبز وخيار ، ثم شربت الشاي . همس لي سمير ، ونحن في الخارج :

ـ مسائل سرية ؟

لم أفهم . قلت :

ـ ايش ؟

قال :

ـ يعني انت وموسى ؟

قلت :

ـ لا .

اعتقد سمير انني أريد ان ابدو غامضاً ومهماً .

وصلنا النادي في الساعة الثامنة . جلسنا وحدنا في الفسحة ، وطلبنا عصير ليمون . كان الجميع قد نقلوا كراسيهم الى الفسحة ، وكونوا مجموعات دائرية . ما زال استرخاء نوم ما بعد الغداء في وجوه الجالسين ، وفي أصواتهم .

اشتعلت الأضواء فأصبح الفضاء أسود . بلادة تحط على المكان .

انبعثت حيوية في المكان عندما دخل شاب أنيق ، له عينان تشتعلان وتبرقان وهو يصافح الحاضرين بصخب . علمت بعد قليل ان اسمه سالم ، وهو ابن احد زعماء القبائل في الشمال ، الذي أصبح وزيراً قبل وفاته . وقد تخرج سالم من الجامعة السورية محامياً ، وفتح مكتباً في شارع السلط .

كان هذا النمط من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة السورية في دمشق قد شاع في عمان مؤخراً . يتّسمون بالأناقة في اللباس ، وبأنك لا تستطيع اتمام جملة واحدة في حضورهم ، إذ لا يتوقفون عن الكلام . يعرفون كل شيء ، خاصة خفايا السياسة ، وما يجهلونه فهو لا يستحق ان يعرف . كانوا يحتفظون بطابع مناقشات مقاهي رأس بيروت ، والمعارك الكلامية المتبادلة بين القوميين العرب والبعثيين والشيوعيين . وكان للشيوعيين سمات خاصة : يحملون باعتزاز كل انتصارات الشيوعيين في العالم ، ويحتفظون بذكرى لقاءات مع قادة الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني (خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا الشاوي) عندما كان موحّداً . كما انهم قد قرأوا بعناية ما كتبه قدري قلعجي عن مقاومة الشيوعيين الفرنسيين للاحتلال النازي ، وغير ذلك من الكتب التي كانت تعيد رواية التاريخ من وجهة نظر ماركسية .

وكانت لهم حكاياتهم التي كانت تلهب اخيلتنا ، ونعتبرها أطرف وأعمق حديث يمكن ان يقال في السياسة . هنالك تلك العبارة الشهيرة التي قالها القائد الشيوعي الفرنسي : « ان الذين كانوا يهتفون بالأمس يحيا المارشال يهتفون اليوم

يحيا الجنرال»، ويوضحون لك ان المارشال هو بيتان والجنرال هو دي جول. ويحكون لك عن كتاب فكتور كرافشنكو (آثرت الحرية) والبراهين الدامغة التي لديهم ان هذا الكتاب قد تمّ تأليفه في مقر وكالة المخابرات الأمريكية . لقد ثبت ذلك من سير الدعوى التي أقامها المؤلف ضد صحيفة سي سوار الفرنسية . الشهود الذين أتى بهم ثبت انهم شهود زور من خلال الاستجواب البارع الذي قام به محامو الدفاع الخ . . .

كان سالم نموذجاً متطرفا لهذا النمط . يجوب الفسحة كأنه راقص ، لا يكاد يجلس حتى يقف زاعقاً . حتى كأس الليمون شربها وهو واقف . عندما انتهى مدّها بأقصى ذراعه وقال :

ــ خذ يا اسماعيل .

أمسكها الفرّاش وانصرف .

كانت آراؤه ، بالنسبة لي ، غريبة وجذّابة جداً ، حيث كل شيء يبدو جديداً وواضحاً جداً .. عندما أحاول ان أستعيد آراءه الآن اعجب لنفسي . فقد كانت تدور حول فكرة واحدة : ان البشر ينقسمون الى قسمين : الشيوعيون قسم ، والقسم الآخر عملاء لمجموعة من الجنرالات الفرنسيين . من الواضح ان السبب وراء تشكل هذه الأفكار هو ان عاصر ـ في سوريا ولبنان ـ فترة جلاء القوات الفرنسية عن البلدين ، وقرأ الأدبيات الشيوعية في تلك الفترة ، فتأثر بها ، ولم يستطع ان يستوعب فكرة انه أصبح الآن يعيش في بلد آخر ، له ظرف مختلف .

كان يقول :

ــ طبعاً عارفين الكتائب ؟ الأم فرنسا ! الأم الحنون . . .

ويضحك . يضيع صوته ليعود في الطرف الآخر من الفسحة :

. . العصبة التيتوية طبعاً . معروفين . انكشف ارتباطهم بالدوائر الفرنسية واليوغسلافية .

ويذكر العديد من الأسماء التي لا أعرف عنها إلاّ القليل . ثم يرتفع صوته محتجاً :

ــ اخوان عمر فاخوري قال !

أحنى رأسه ، وكانت عيناه تلمعان بضوء غريب . قال :

ـ خذوا مثال بسيط . . . مثال بسيط . . حسني الزعيم . واذا مش عاجبكم الكولونيل حسني الزعيم . استفاد من النقمة الشعبية بعد الحرب الفلسطينية وعمل انقلابه العسكري . وبعدين يا مولانا اتفاقيات عسكرية سرية مع فرنسا ، وأسلحة . . منين ؟ . . من فرنسا . . ومين حسني الزعيم هذا ؟ واحد من الضباط اللي ساندوا حكومة فيشي في سوريا ، واحد من عملاء الفاشست الفرنسيين . بعد هيك صديق شخصي لديغول . يوم مع بيتان ويوم مع ديغول .

وكما توقعت ردد عبارة جاك دي كلو عن الذين كانوا يهتفون لبيتان واليوم يهتفون لديغول .

ثم انتقل الى الحديث عن فكرة سمّاها (السيد الغني والسيد الفقير). كانت غريبة بالفعل . قال :

ـ فرنسا أصبحت بلد فقير . استعمار صغير . بلد شبه تابع . سيد ، لكن مسكين ، فقير . هلأ إجا دور السيد الكبير يصفّي التركة . لا . لا . انت يا فرنسا مسكينة وفقيرة وشحادة ، ما بتقدري تحتفظي في مستعمراتك ولا في عملائك .. ايش رأيك نساعدك ؟ طبعاً لوجه الله ، مساعدة بريئة لوجه الله والانسانية ولسواد عيون شراميط باريس .

يضحك.يقهقه . ثم يواصل :

ـ ها ؟ ايش رأيك يا فرنسا ؟ لا . لا . يا مدام فرنسا ، لازم احنا نمسك الحكاية كلها . صحيح انك رابح توخذي جزء بسيط من الغنيمة . لكن لا تنسي انه احسن من بلاش . الرمد ولا العمى .

ثم أخذ يسرد قائمة طويلة من الأسماء ـ من السياسيين السابقين والحاليين الذين تحولوا من خدمة فرنسا الى خدمة أمريكا . كان محمود يجلس قريباً منا ، والى جواره يجلس بخيت . خبطه بخيت على ظهره وقال :

ـ هاه ؟ كيف الأحوال ؟

قال محمود بسرعة :

ـ أهلاً بخيت .

قالها بسرعة ، دون ان ينظر اليه وعيناه تتابعان سالم . التفت اليهما سالم واقترب من محمود ، وقال :

ــ هاه ، يا مولانا المحترم ، ما فيش أفلام اميركية جديدة ؟

وضحك . وضع يده على رقبة محمود التي حاول ان يخفيها داخل قميصه ، وأحنى ظهره ، وهو يضحك بارتباك . احنى سالم رأسه حتى بدا وكأنه ينوي ان يهمس شيئاً في اذن محمود ، وأخذ يجذب رأس محمود اليه باليد التي تمسك بالعنق وقال :

ــ شوف ، الأفلام الأميركية بتختلف في شيء واحد : عدد القتلى المطلوبين حتى يتجوز البطل البنت الحلوة . هيك في أميركا . بدفعوا السياق روس بني آدمين . مثل أبوك ما يروح يخطب لك واحدة ، وهذا مجرد إفتراض ، لأنه مش رايح يلاقي واحدة تقبلك . . مثل أبوك ما يروح يخطب لك واحدة ويدفع لأبو العروس المنكود الحظ والسيء الطالع سياق عشرين راس غنم . . .

ويضحك . استقام وقال مخاطباً محمود :

ــ اسمع يا كونت دي شاي . اللي مثلك مش رايح يتجوز في أميركا لأنك مش ممكن تذبح فرخة . أبوك دبر حاله لما اشتغل عميل زغير للفرنسيين ، لكن هلأ مدام فرنسا شريك مسكين . . .

ما أربكني بالفعل هو انه حين تحدث عن فرنسا كان صوته مليئاً بالتعاطف كأنها طفل صغير يعذّبه انسان شرير .

الواقع انني لا أستطيع استعادة كل ما قاله سالم في تلك الليلة ، ولكنني أتذكر انطباعي . لقد ذكر سالم قائمة طويلة جداً من أسماء عملاء الدول الغربية ، خاصة فرنسا ، حتى تكوّن لدي احساس بان العمالة لدولة قدر لا يُرد . شعرت انني قد أكون عميلاً دون ان أعلم ، وخاصة انني ذاهب للدراسة في جامعة امريكية . أردت ان اتأكد .

كنت قد عرفت الوسيلة التي اجتلب بها انتباه سالم . يكفي ان اتحرك حتى يهاجمني . كان ينقض على كل شيء يتحرك . احدثت ضجة بجر الكرسي الذي

أجلس عليه الى الأمام ، ووضعت يدي على كتف سمير الذي فوجىء والتفت إليّ محدثاً ضجة بكرسيه . قلت بصوت يستطيع الجميع سماعه :

ــ كيف صحتك ؟

كان سمير ينظر الي بذهول . وفي اللحظة ذاتها توقف سالم عن الكلام . كنت أعلم انه ينظر الي ، وحاولت الا ارتبك وهو يتجه نحوي . توقف أمامي وأخذ يحدّق بي . كانت عيناه تبرقانِ . انحنى ، فرأيت الشعر داخل أنفه ، ولاحظت ان الطرف الأيمن لأنفه ، والعضلة التي تجاورها يرتعشان ارتعاشات سريعة . قال :

ــ مين الأخ ؟

نهضت وصافحته . وعرفني شفيق ، ثم أضاف :

ــ انسان مناضل .

نظر إليّ سالم بتمعن ، ثم قال :

ــ لازم يا عزيزي المارشال تبذل جهود كبيرة جداً حتى تكفّر عن سيئات العائلة الكريمة .

قال ذلك بصوت وقور خشن ، ثم ارتفع صوته وأصبح حاداً :

ــ من دخول الانجليز والفرنسيين والعائلة الكريمة بتقوم في دور بارز في الخيانة . قريبك أبو ميخائيل كان عميل للفرنسيين والانجليز في وقت واحد . قروش ، قروش يا عم . ركب مع ديغول في سيارة واحدة في بيروت . هاه ؟ والضابط الفرنسي سلام قف ! سلام تعظيم ! هاه ؟ والليرات نازلة رش مثل المطر . . هاه ؟

وامسك بشعري وأخذ يردد :

ــ يا عزيزي المارشال جريسوفسكي ، يا عزيزي المارشال جريسوفسكي . قاتلك الله . .

أحسست بقدر من الزهو ، وباحترام جديد نحو أقاربي الذين ذكر اسماءهم . وأنا بالطبع كنت أعلم ان أبو ميخائيل ركب مع ديغول في سيارة واحدة ؛ غير انه لم يخطر لي قط انه أصبح بذلك عميلاً من ذلك النمط من العملاء الذين نقرأ عنهم في النشرات السرية .

لم يتوقف سالم عن سرد التاريخ الغريب لعشيرتي حتى ناداه الفرّاش وقال له

ان هنـاك شخصاً يـريده عـلى التليفون . فخـرج مسرعـاً ولم يعد . خـلال ذلك لاحـظت ان طعمة كـان يجلس قـرب السـور المنخفض ، المطل عـلى السـاحـة والجامع ، مديراً ظهره للحاضرين ؛ ولكنه كـان غالبيـة الوقت يـدير وجهـه الينا متابعاً حديث سالم ، ولم ينطق خلال ذلك بكلمة واحدة .

بعد ان غادر سالم النادي ساد صمت أحسست بوطأته منذ اللحظة الأولى . كـان الحاضـرون يعانـون من هذا الصمت الـذي حط فجأة ، أو من الانقـطاع المفاجىء لذلك الصخب المتصل والحركة الدائبة . وهنالك الكثيرون الذين كانوا يرون في صخب سالم وحركته الغريبة أمراً مضحكاً ، ولكنهم أخفوا ذلك بانطواء على الذات . فمن كان منهم على استعداد لمواجهة سالم وأنصـاره في مجال التنـدر والسخرية ؟ محمود ؟ ولكن محمود كان منكمشاً ، يخفي رقبتـه في ياقـة قميصه ، محني الكتفين ، ذراعيه مصلوبين على صـدره . كان بـاختصار يعيش حـالة ذعـر حقيقية .

كنت أختنق . اقترحت ان ننهض فوافق أصدقائي .

ـ ٢ ـ

لم نعثر على القوّاد . بحثنا عنه في كل مكـان : حارة المهـاجرين ، الجسر ، شـارع الملك طلال ، الممـر التجـاري ، المقهى الـذي في الممـر ، شـارع وادي السير . . . قلبنا الدنيا ولم نجده . كنا مـرهقين ومتـوترين ، ولهـذا عندمـا اقترح شفيق ان نذهب الى مطعم جبري لنأكل كنافة بالجبنة وافقنا دون تردد .

اجتـذب انتباهي ان هنـالك عـدداً من النسـاء الأنيقـات في المطعم . رأيت واحدة تأكل الآيس كريم بـأن تمد لسانها ، وتضع مـا في الملعقة عليـه ثم تبتلع لسانها ، لتكرر العملية مرة أخرى . كان من الواضح انها تفعل ذلك حتى تحافظ على مكياجها . كانت هنالك امرأة تدخن ، وتخرج الدخـان من منخريهـا خطين متوازيين . كان على وجهها تعبير اشمئزاز وضيق ، من ذلك النوع الذي يجعلك تعتقد انها ولدت بذلك التعبير . عندما كانت تتكلم تلتوي الشفتان ويتعمق تعبير الاشمئزاز حتى انك تظن انه موجه اليك بالذات . كان يجلس معها رجل متوتر ،

لا يكف عن تحريك كرسيه ، أو مد راسه حتى يبرهن لها انه يصغي لكل كلمة تقولها ؛ وكان يستجيب لكل ما تفعله بضحكات خائفة ، معتذرة . بين آن وآخر يستفسر إن كان هنالك شيء يضايقها . لكثرة حركته اعتقد الجرسون أكثر من مرة ان الرجل يناديه ، فيقترب منه ، ثم يكتشف ان الرجل فوجيء به ، فيتراجع الجرسون معتذراً .

قالت المرأة :

ـ ا . . ف . . . ت حر .

ضحكِ الرجل بحرجاً ، كأنه هو الذي سبَّب الحر ، وقال :

ـ والله حر . شوب . افت . من الظهر وهيه نار .

لم ترد المرأة . قهقه الرجل فجأة ، وأشار بسبابته الى مروحة يد كانت أمام المرأة ، وقال :

ـ المروحة .

هذا الجو الذي بدا لنا متأنقاً أشعرنا أننا دخلاء ، وولّد في داخلنا عداء فأخذنا نتصرف كأننا فلاحون قادمون لتونا الى المدينة . أمام هذا الاحتقار المتخيَّل احسسنا بود وألفة نحو بعضنا لا نحسّها في الأحوال العادية . قال شفيق للجرسون :

ـ نص كنافة .

ـ مثله .

ـ مثله .

قال خالد :

ـ أنا آيس كريم .

قال شفيق :

ـ مقطوع النصيب . امه فطمته على شو اسمه ؟ ايس كريم ؟

أتى الجرسون بالطلبات ، فقال له خالد :

ـ قطمة خبز اغمس فيها .

انفجرنا ضاحكين .

مدّ الجرسون عنقه متسائلاً ، فقال خالد :

ـ قطعة خبز أغمّس فيها . ربنا يخلي لك عيالك .

انصرف الجرسون ، ونحن نضحك ، شفيق واصل الضحك بقوة ، وأخذت دموعه تسيل على جانبي أنفه . قال :

ـ قطعت قلبي من الضحك . ربنا يجازيك يا خالد .

صاح خالد فجأة :

ـ ووه . . ووه . . ربنا يسخطكو من ربع زادكو ساقع . حطوه عَ النار شويه .

ضحكنا ، ونحن نضغط أكفنا على بطوننا . المرأة التي تشكو من الحر نظرت الينا بدهشة ، وقد زال من وجهها تعبير الاشمئزاز . بل ان تعبيراً شبه ضاحك ، خفيف الظل ارتسم على وجهها .

غادرنا المطعم . اتجهنا الى الممر التجاري ، نتظاهر أمام أنفسنا أننا نتسكع بلا هدف . ثم انتهينا الى الطرف الآخر منه وسرنا في شارع وادي السير . توقفنا أمام مبنى البريد ، ثم الممر التجاري . كنا خائفين من فشلنا ، من تلك اللهفة المصممة التي قد تنتهي بالفشل .

توقفنا أمام احدى المكتبات ، وقد علقت على خيط داخل الفترينا الصحف اللبنانية والسورية . أخذنا نقرأ العناوين وعيوننا تنتقل بسرعة الى الممر التجاري ، ثم تعود الى الصحف . قرأ سمير بصوت مرتفع : « هيئة الأمم تبحث مشكلة تعويض اللاجئين . . » .

قال خالد :

ـ من الفين سنة وهيه تبحث التعويضات .

واستمر سمير يقرأ : « يطير ، يقابل ، يجتمع ، يصرّح ، يستقبل ، يودّع ، يستقبل . . . » .

قال خالد :

ـ واستقبله هاشاً باشاً .

وضحكنا ، وقد تذكرنا قصة عضو البرلمان الذي قال : « الشريف عبد الله

استقبل الهاشا باشا ».

واصلنا السير صامتين . كل جملة يلقيها أحدنا تقابل بردود فعل باردة . وكان الشارع قد أصبح شبه خال . أصبح لخطواتنا أصداء موقعة .

بعد مضي ما يزيد على ساعة من مسيرتنا لم نعد نستطيع التظاهر بأننا مجرد متسكعين . التظاهر قد أرهقنا وأصبحت أحاديثنا مناقشات جارحة . لهذا نُظمنا البحث . كل أثنين يسيران سوياً . قال سمير :

ـ لقيناه ، لقيناه ؛ ما لقيناه ندور على غيره .

قال شفيق :

ـ احنا عارفين حدا غيره .

قال سمير :

ـ بنعرفوا من وجوههم .

قال خالد بحدة :

ـ مكتوب عليها ؟

قلت وقد أزعجني هذا النقاش :

ـ بلاش نختلف . احنا وجهدنا .

احنى شفيق رأسه وقال ان هذا كلام معقول . دخلنا الممر التجاري . شعرت ان هنالك أعيناً تراقبنا . جلسنا في المقهى الشعبي . كان مزدحماً بالروّاد . كانت الضجة لا تطاق . طلبنا شاياً لأننا لم نستطع ان نفكر في شيء آخر . بعد قليل خفتت الضجة ، أو ربما تمثّلت ايقاعها واعتدتها . كنا خائفين فصمتنا . شرب شفيق من الشاي . فكشّر وقال :

ـ يحرق ديكه ، مثل النار بلسع .

ارتفعت أصوات تهدد بشجار . نظرنا باستنكار . ثم هدأت الضجة فقال شفيق :

ـ شوب والله .

وكأنه أصدر أمراً . خلع سمير جاكتته وفعلنا مثله . أخرج سمير ورقة من جيب جاكتته الداخلي وأخذ يهوّي بها . مدّ شفيق يده وأمسك بيد سمير التي تهوّي

بالورقة ، فتوقفت عن الحركة ، ويبدا الذهول على وجه سمير وهو ينظر الى يد شفيق .

قال شفيق بحدّة :

ــ ايش مخك يا زلمة ؟

اكتشفنا ، واكتشف سمير ، الى ان الورقة التي يهوّي بها كان جريدة الحزب الشيوعي السرية (المقاومة الشعبية). رأينا الشعار بوضوح ، المنجل والمطرقة مرسومة بخط أسود عريض . ابتسمنا نعتذر لسمير عن غلطته . وضعها داخل قميصه ، بين القميص والفانيلة بسرعة ، وضحك مرتبكاً . قال :

ــ لو واحد . . .

قلت :

ــ لا . لا . ما حدا . .

قال سمير :

ــ بقول لو .

دفعنا الحساب وغادرنا المقهى بسرعة . قال سمير لشفيق :

ــ زعلت ؟

قال شفيق :

ــ انا ازعل ؟ يمكن انت مش عارفني .

ادركت ان شفيق يرد اتهاماً بالجبن . قلت :

ــ لكن لازم يكون عندنا يقظة ثورية .

كان سمير مبتئساً . قال :

ــ غلطت .

قال خالد :

ــ صار خير .

صوت سمير نصف الباكي اربكني . أدرك شفيق ان الكآبة سوف تسيطر علينا ، إن لم نغيّر الموضوع . قال بمرح :

ــ الافلاس يا رفاق بدا يضرب أطنابه .

قال خالد بانفعال :

ـ كل واحد بكره يقدم ورقة سلفة .
احسست ان علي ان أقول شيئاً . قلت :
ـ لا تهتموا . انا معايي مصاري .
قال شفيق :
ـ خلّي قريشاتك معاك . ملحقين عليهن .
قال خالد :
ـ اطّمن . حتى لو خلصت مصاريك ما احنا رايحين نخليك تسافر .
قال شفيق :
ـ وجودك ضروري يا رفيق جريس .
وهكذا زال الحرج في داخلي . كنت الوحيد الذي يملك نقوداً يمكن ان استغني عنها . قال سمير :
ـ والله يا رفاق عمرنا ما بنصير أصحاب أموال .
قال شفيق :
ـ اصحاب أموال ؟ قول عمر الواحد ما يملّي بطنه .
قال خالد :
ـ اللهم الا في الديموقراطية الشعبية .
قال سمير :
ـ لا ، لا ، هذا موضوع ثاني . في الديموقراطية الشعبية بكفّي انّا بنعيش احرار . بكفّي انه إلواحد ضامن مستقبله ومستقبل أولاده .
قلت :
ـ آه يا اخي الواحد بده يضمن مستقبل أولاده .
وضحكنا . خالد وحده واصل ضحكاً لم يستطع السيطرة عليه . توقف وتوقفنا ، وقال خالد خلال ضحكه :
ـ تصوّروا ، تصوّروا ، سمير بابا ، سمير بابا . . .
انفصل شفيق عنا ، قائلاً :
ـ دقيقة .
سار مسرعاً ، تخطّى رجلاً يسير على مهل ، ثم استدار فجأة واصبح في

مواجهته . نشأ موقف مضحك . شفيق والرجل الآخر حاولا ان يفسح كل منهما الطريق للآخر ليمر ، ولكنهما تحركا يميناً ويساراً سوية . تكرر ذلك أكثر من مرة ، ثم انفلت شفيق وهو يضحك ـ والرجل الآخر كان يضحك ـ وعاد الينا . قال :

ـ حسّبته . . .

واستغرق في الضحك . ثم قال :

ـ الواحد قال . . . ملعون الوالدين طمس .

قال خالد :

ـ يا بخت المتجوزين .

ساعة الساحة تشير الى الحادية عشرة ، كنت أشعر بانطفاء الرغبة ، ولكن تصميماً ملحّاً في داخلي كان يدفعني الى مواصلة البحث عن المرأة .

ـ ٣ ـ

ما كدنا نشعل الضوء ، ونستعد لخلع ملابسنا حتى رأينا نضال يدفع الباب ويدخل . كان يرافقه شاب آخر قدّمه الينا بقوله :

ـ الشاعر المناضل عبد الجبار .

ثم أضاف بعتاب صارم :

ـ وين يا رفاق ؟

قال خالد :

ـ كنا . . .

واستمر نضال :

ـ من ساعة ونص تقريباً واحنا بنستناكوا يا رفاق . لا هذه مش صحيحة والا ايش يا رفيق سمير ؟

قال سمير :

ـ كنا في النادي .

كان الشاعر شديد الارتباك . ظلّ واقفاً في مكانه يبتسم بخجل وحرج ، ان قال له نضال :

ــ ليش مستحي ؟ هذول رفاق .

ازداد ارتباكه ، فتقدم وصافحنا بعينين مسبلتـين . وعندما جلس حاول ان يشغل أقل حيّز ممكن . ضم ركبتيه الى صدره وطوقهما بذراعيه . قال نضال بجدية غاضبة :

ــ اقدم لك الرفاق سمير وشفيق وخالد و . . .

كان يشير بيده اليّ ويهزهـا ، كأنـه يقول لي : « هيـا ! اكشف عن اسمك » فقلت :

ــ جريس .

فأكمل نضال كلامه :

ــ جريس ؟ جريس .

وضيّق عينيه كأن اسمي قد سبّب له ألماً مفاجئاً في المعدة فـانسحب وجهه ، وأخذ يصغي اليه . ثم توجّه الى عبد الجبار وقال :

ــ الرفيق خالد من كتاب القصة الممتازين ، ولازم تستفيدوا من بعضكم . يا رفيق خالد ، هات القصة سمّعها للرفيق عبد الجبار .

كان عبد الجبار يعود الى ارتباكه بمجرد أن نتوجه اليه بالحديث أو بالاهتمام . قدمت له سيجارة فاحمرّ وجهه وقال :

ــ شكراً .

فقال له نضال :

ــ بلاش الأساليب البورجوازية هاي يا رفيق .

فضحك وتناول السيجارة . وعندما قدمنا له الشاي لم يغيّر من جلسته . أخذ ينقل كأس الشاي من الأرض ، يمر به بين ركبتيـه، ثم يشربـه باقتراب فمه من الكأس .

بعد تردّد ، بدأ خالـد يقرأ قصتـه . كان نضـال يقاطعـه بين الحـين والآخر موضحاً الدلالات ومنبهاً الى الأحداث القادمة . فعندمـا قرأ خـالد الجـزء الذي يصف فيه الفتاة وهي تدخل الحديقة وتنظر الى الراوي ، قال نضـال :

ــ ما كان بعرف انها شرموطة .

رغم انني قررت الا اصطدم بنضال ـ بعد حديث شفيق معي عنه ـ إلّا أنني لم أعد أطيق سماع تعليقاته . فنهضت وخرجت الى الحوش .

الخروج من ذلك الجو الحار ، الخانق بالروائح كان نعمة حقيقية . برودة خفيفة تشيع في الجو ، وظلمة خالصة نقية ، والنجوم تشع بقوة ، والصمت . احسست بجسدي يرتوي بعذوبة الليل . ماذا أفعل مع نضال هذا ؟ قلت لنفسي . تسرب نضال الى داخلي فحدست معاناته . انه انسان حسّاس حدّ المرض ، ومعتد بنفسه ، وقد جرحته بعمق . أدركت انه يعرف سخف سلوكه ، ولكنه يتقصد هذا السخف حتى يرد على ما يعتقده من إهانة وجهتها له .

ثم خطرت لي صورة عبد الجبار في جلسته وارتباكه . لقد أحببته بحق . كان نقاء محضاً . عندها شعرت انني اسيء اليه بخروجي من الحجرة خلال قراءة القصة . دخلت الحجرة . كان خالد يقرأ الفقرات الأخيرة للقصة ، تلك الفقرات التي لم احببها . كنت أشعر أن خالداً آخر يكتب . ذلك الذي يريد أن يستمتع بامرأة جميلة دون ان يرتبط بها . كنت أفكر بسلطانة . حلمت كثيراً بها كزوجة ، ولم يخطر بخيالي قط ان تموت .

قلت لعبد الجبار بعد ان جلست :

ـ أنا سامع القصة قبل هيك .

رمش بعينيه ولم يقل شيئاً .

عندما انتهى خالد من قراءة القصة طواها بعناية ، وهو يحني رأسه ، ووضعها في جيب جاكتته الداخلي التي كانت ممتدة خلفه . توجه شفيق الى عبد الجبار وسأله :

ـ ايش رأي الرفيق ؟

نهض عبد الجبار فجأة وصافح خالد بحرارة ، وقال :

ـ عظيمة . . يعني فظيعة .

تبين لي انه أصغر سناً مما تصورت في البداية . بعد أن انتهى من مصافحة خالد عاد الى الجلوس بنفس جلسته السابقة ، وهو أشد ارتباكاً . نظرت اليه فرأيت كتفيه ينحنيان تحت عبء نظرتي . قلت :

ــ هّلأ بدنا نسمع قصيدة من الرفيق عبد الجبار .

قال :

ــ والله ، يعني . . .

قلت :

ــ ايش ؟

قال :

ــ مش حافظ .

ثم وافق في نهاية الأمر ان يقرأ لنا قصيدة بعد الحاح طويل ، أخرج ورقة من جيبه وأخذ يقرأ . كان طيلة الوقت ينظر الى الورقة . قرأ بوضوح ودون ارتباك .

كانت القصيدة تدور حول البؤس داخل المخيم الفلسطيني : هذه المرأة العجوز المحنية الظهر ، المجعّدة الوجه كانت تعيش في نعيم قبل ان تطرد من يافا ولكنها الآن تعيش في خيمة تخنقها في الحر ، وتجمدها في الشتاء .

عندما انتهى الشاعر قال شفيق :

ــ قصيدة فظيعة ، ممتازة .

ابتسم نضال ، وأحنى رأسه ، وكأن المديح موجّه اليه . قال سمير بحماس :

ــ فن رفيع يا اخي .

قال نضال :

ــ تصوروا يعني لو كان الرفيق عبد الجبار بعث هاي القصيدة لجريدة من الجرايد الصفراء كان طبعاً . . .

فقاطعه سمير وقال كمن يسمّع درساً :

ــ طبعاً مش رايحة تنشرها .

وأخذ نضال يقارن بين هذا الشعر الثوري وشعر ابو نواس الذي يصف الخمر والنساء والفحش ، يصف الحياة البورجوازية المنحلة ، والحياة في قصور الخلفاء . لسبب غير مفهوم رأى سمير ان يعارض نضال ـ وذلك يحدث للمرة الأولى أمامي ـ ويقول :

ـ لكن أبو نواس سلس متين شعره .
قال نضال بحسم :
ـ والرفيق عبد الجبار شعره سلس متين .

الفصل الخامس

- ١ -

في الساعة السابعة مساء وصلت مكتب النائب . كان في الطابق الثالث من بناية في شارع السلط . توقفت وأنا ألهث الى ان استعدت تنفسي الطبيعي ثم ضغطت على الجرس ، وعلى الفور انفتح الباب . كان النائب نفسه هو الذي فتحه . قلت :

ــ موسى . . .

ولكن الرجل استقبلني بحرارة وقال :

ــ موسى جوه .

الحجرة التي دخلتها كانت أشبه بحجرة انتظار في عيادة طبيب : كنبات قديمة مصفوفة لصق الجدران الأربعة ، وطرابيزة طويلة ، منخفضة ، فوقها مجموعة من الجرائد والمجلات . على الجدران صور للمسجد الأقصى على خلفية مدينة القدس . كانت صورة فوتوغرافية . ونسخ عن صور زيتية لصحراء ، وخيام سوداء ، وجمال ، وبدو يركبون الخيول .

كان يفصل الحجرة عن الحجرة التالية باب خشبي أشقر . عندما انفتح رأيت فخامة لم أتوقعها . كان الجدار المواجه للداخل مغطى بستائر بنية غامقة من المخمل ، والأرض مفروشة بسجاد ذي ألوان هادئة . والحجرة كانت مقسومة الى قسمين : الأول ، على يسار الداخل . مكتب كبير جداً في الطرف ، له لون

القهوة المحمّصة ، سطحه مغطى بمخمل أخضر ، وفوقه لوح من الزجاج السميك . ظننته في أول الأمر بيانو . ووراءه كرسي جلدي ، وأمامه عدد من الكنبات الفخمة . أما القسم الآخر ، الذي على يمين الداخل ، فقد كان صالوناً كبيراً تحيطه كنبات أنيقة ، بين كل اثنتين طرابيزة خشبية فوقها لوح زجاج . في نهاية الصالون باب خشبي يؤدي الى الداخل .

لم أر موسى إلاّ حين وقف . صافحني بمودة وألفة ، وقال :

ـ دقيق في مواعيدك .

وضحك .

ابتسم النائب لي حين جلست وقال :

ـ أهلاً وسهلاً استاذ جريس .

ـ شكراً .

قلت . وترقبت الخطوة التالية . لم يكن موسى ينظر الى أي منا . كان يتأمل صورة معلّقة على الجدار الذي يواجهه . التفت الي النائب فأصبح وجهه قريباً مني . عن قرب لم استطع ان أرى بؤبؤي عينيه . كانا ممتزجين بالسواد . ومن هذا القرب بدا لي أحول ؛ له نظرة أعمى يعتقد انه ينظر اليك ، في حين ، تلاحظ ، ان عينيه تنظران الى داخله . قال :

ـ نشرب ويسكي قبل الأكل ؟

وهو يفرد مسافة صغيرة بين ابهامه وسبابته . فتصورت اننا سوف نشرب في كؤوس صغيرة جداً . قلت :

ـ مثل ما بتحب .

قهقه النائب دون سبب واضح وقال :

ـ مثل ما بتحب انت . انت الضيف .

ثم قال بلهجة جادة :

ـ بتشرب جن ؟

وقد ضيّق المسافة بين ابهامه وسبابته ، احتفظ بيده وبفمه مفتوحين قليلاً في

انتظار اجابتي . قلت :

ــ يعني مثل . . .

قاطعني موسى قائلاً :

ــ ويسكي ، ويسكي !

فتح النائب خزانة صغيرة ، أضيئت من الداخل ، وأخرج منها أكبر زجاجة ويسكي رأيتها في حياتي . وضعها على المائدة المنخفضة الموضوعة بيني وبين موسى . امسكها موسى من عنقها ، وأخذ يتفحصها ، ثم قال :

ــ كوين ماري . منين لك هاي ؟

قال النائب :

ــ اجتني هدية .

لم أكن أتصور ان مذاق الويسكي سيء الى هذا الحد . كنت أتصور ان طعمه سوف يكون أشبه بطعم الليمون . نفذت لسعته الى أنفي واستقرت كالنار في معدتي . ابتسم لي النائب وهو يحمل كأس الويسكي في يده . كان الخجل يبدو على وجهه حين قال لي :

ــ مشروب بورجوازي . لا تؤاخذنا .

الجرعات القليلة من الويسكي جعلتني أكثر جرأة . كنت أعلم ان النائب يسخر مني ، فقلت :

ــ بتسمح لي بشوية ميه ثورية اخفّفه .

رغم سوء مذاق الويسكي فقد قررت ان أواصل الشرب . لكنني بدلاً من النشوة التي كنت انظرها احسست بدوار . قررت ان اتماسك وأبدو طبيعياً ، وان لا أتكلم كثيراً . ولكن الدوار اشتد . وعندما كنت أتكلم اسأل نفسي : هل يسمعونني ؟

حاولت ان أركز انتباهي على الحديث الدائر ، ولكنه كان يدور حول مسائل غير مفهومة . شعرت بالاهانة . نظرت الى ساعتي ، فابتسم لي النائب وقال :

ــ شرفت .

نظرت الى موسى فقال :

ـ بكّير . الساعة ثمانية .

عندما نظرت الى ساعتي تصورت انها بلغت الثانية عشرة الا ثلثاً . قلت :

ـ بس ؟

بعد قليل وضع أمامنا على الطرابيزة الطعام خادم يلبس قمبازاً حريرياً . بدا شكله غريباً . ثم اكتشفت ان مصدر الغرابة هو لأن الخادم يلبس قمبازاً في حين ان رأسه عارياً . لقد تعودت رؤية القمباز مع الكوفية والعقال . وضع أمامنا كمية كبيرة من اللحم المقطّع رأس العصفور والمقلي بالسمن والبصل . كان هنالك سلطة ، وجبنة بيضاء ، وبيض مسلوق ، وزيتون ، ومقدوس . أكلت دون توقف . لم أكن استطيع ان أتوقف . شعرت انني ازداد جوعاً وأنا آكل .

قال لي النائب :

ـ إن شاء الله رايح تواصل تعليمك ؟

بدا وكأنه ينبهني الى شناعة اقبالي على الطعام . كان موسى ينظر الي بغرابة . توقفت عن الأكل وقلت :

ـ رايح بيروت .

وضحكت دون سبب .

قال النائب :

ـ بيروت ؟

قلت :

ـ آه . الجامعة الأميركية .A.U.B .

وضحكت أيضاً .

كانت الكنبة التي أجلس عليها مريحة . شعرت ، بعد الطعام ، باسترخاء فأخذت أتثاءب . الأغلب انني نمت . ولكن موسى قال شيئاً جعلني انتبه . يبدو انه تكلم كثيراً ، وكانت آخر عبارة قالها وجعلتني أتيقظ :

ـ . . رايحة تنال الثقة ؟

قال النائب :

ـ اذا شدينا حيلنا وعدّلنا قانون الاقتراع .

استوضحت من النائب عن القانون ، فقال ان القانون الحالي لمجلس النواب ينص على ان الحكومة تسقط اذا صوّت ضدها أكثر من الثلثين بواحد ، والتعديل يطالب ان تسقط الحكومة بالأغلبية العادية : نصف زائد واحد .

قال موسى شيئاً غير واضح فقلت :

ـ الوسائل البرلمانية . . .

ثم تبينت انه خير لي ان أصمت . لأن رغبة مفاجئة في التقيؤ انتابتني عندما تكلمت . أخذت ابتلع ريقي بصعوبة ، وشعرت بالحجرة تدور . سألني موسى إن كنت أشعر بتعب فهززت رأسي لأنني خفت ان أتكلم فأتقيأ . نادى موسى الخادم وطلب منه ان يأتي بعصير ليمون . جاء الخادم ، بعد قليل ، بكأس ممتلىء حتى النصف بعصير ليمون دون إضافة ماء اليه . قال موسى :

ـ اشربه مرة واحدة .

شربته فشعرت بتحسن على الفور . شعرت كأن غشاوة كانت تغطي عينيّ وزالت عنها ، قال لي موسى :

ـ أحسن ؟

فقلت :

ـ احسن .

قال موسى ، موجّهاً حديثه الى النائب :

ـ جريس عنده فكرة عن الموضوع .

فالتفت النائب إليّ وقال :

ـ والله العظيم اني حشرت في هذه المسألة حشراً ، وأنا بعيد عنها وما إلي فيها أي علاقة . يعني . . يعني . حتى البنت عمري ما شفتها في حياتي الا لما جابها الأب المحترم . .

ضحك موسى وقال :

ـ قال ، عمره ما شافها في حياته .

ضحك النائب وقال :

ـ مؤامرة ضدي .

قال موسى :

ـ جريس عارف كل شيء . ادخل في الموضوع .

قال النائب :

ـ يعني في ايدك اسقاط حكومة بتبيع بلادنا للمستعمرين .

سمعت شخصاً يصرخ ويعربد في الخارج ، ثم اقتحم علينا الحجرة كالقنبلة وهو يقول :

ـ سعيدة مباركة عليكم جميعاً يا رجال ولا رجال .

قال موسى :

ـ إجا ، يا رجال ولا رجال .

محاولاً تقليده بتخفيف حرف الجيم حتى يقترب من حرف الشين .

كان الشاب ضخم الجثة ، قصيراً ، له خدان مدوّران كخدود الأطفال . كان يلبس بذلة شاركسكن بيضاء . صافحه النائب وهو جالس ، وقال :

ـ أهلاً أبو برمك .

نظر الي أبو برمك وقال :

ـ مين الببو هذا ؟

قال له النائب :

ـ الأستاذ جريس . . .

ثم رمقه بنظرة ذات معنى وذكر له اسم قريتي . قال أبو برمك :

ـ وكمان استاذ ؟

نهضت ، فصافحني بيد لينة ، مبللة بالعرق وهو ينظر الى موسى ، ويكلمه ، ثم صافحه موسى باشمئزاز وهو يقول :

ـ دايما قليل أدب وفوضوي .

قهقه وهو يدندن لحناً ويرقص . كان ينحني ويمسك بيدي موسى وهو جالس ويرقص . لم يكن ينحني بالضبط (فلقد كان قصيراً جداً ، ليس أطول من موسى بكثير وموسى جالس) بل يتراجع كرشه الى الوراء ، وتبرز عجيزته . وخلال ذلك كان يردد :

ـ عزيزنا ، حبيبنا ، موسى بك ، دامْ سعده ، كان أمة وحده ، سامحك الله ، عبد الله . . .

جذب موسى يديه بعنفٍ وقال :

ـ خليك زلمه .

والنائب . خلال ذلك ، يحاول ان يجذب انتباهه بنظرات صاعقة ، وجذب طرف جاكتته ، ومناداته : « وللك ، يا حمار » ولكن أبو برمك يتفلت منه ويواصل رقصه وصخبه . قال النائب بحزم غاضب :

ـ الأستاذ جريس شاب ممتاز .

فلا يلتفت اليه ، ويقول :

ـ شرف كبير .

بعدم اكتراث ويواصل رقصه وحكاياته ، والنائب لا يكف عن مناداته . كنت أرغب بالفعل ان يعرف من انا ، ولماذا دعاني النائب هذه الليلة لأسهر في مكتبه ، وان يستعمل ستار الوطنية حتى أساعده في التنصل من عملية اغتصاب قاصر ، وان يعرف انني هنا لأضغط على أهل أميرة ، وان ينخدع ، كما انخدع النائب ، بالاعتقاد انني صدقت ما يقوله . رغبت في ذلك بالفعل لأن الجو المتوتر وصخب ابو برمك قد ارهقاني ؛ ولأنني ـ مع موسى ـ لنا لعبتنا الخاصة ، ولي ، أيضاً ، حبي الخاص لسلطانة .

استمر ابو برمك في ضجيجه ، ثم أخذ يتحدث الينا كالخطيب . كان جذعه مائلاً الى الأمام ، وعجيزته بارزة خلفه ، والعرق يغطي وجهه بعشرات النقط الرجراجة ، البرّاقة من العرق . كان يتكلم بصوت مختنق ، حاد ، شاك كصوت الأطفال المنفعلين :

ـ اليوم ، تصوروا يا اخوان ، بنشرت سيارتي على طريق صويلح . وقّفت تاكسي وضربنا تليفون . لقيت ما عندي ريزيزف . المهم ، تصوروا ، الوسخ ابن الشرموطة مأمون مرّ في سيارته من قدامي وما وقف . بتقول ما شافني ؟ (لم يقل احد ذلك) ما شافني قال . .

وصرخ :

ـ عيني إجت في عينه ، مثل ما أنا شايفكوا . .

ثم أخذ يذرع الحجرة بخطوات راقصة . كانت هنالك نقطة عرق كبيرة تقف على طرف أنفه ، تتأرجح استعداداً للسقوط ولكنها لا تسقط . تابعتها بلهفة . كنت أرغب ان يتخلص منها . كان يقول :

ـ يا سلام يا اخوان . . تاتا تم . . . تراتاترم . . ت تتم . . . تم . . .

ويرقص ويتكلم :

ـ مبارح كنت في نادي عمان . رقصت مع واحدة . يا حبيب الله !

ثم أخذ يقلّد صوت المرأة :

Oh, please, please, kiss me my darling. (1)

ومضى :

ـ تصوروا ما كنت بعرفها . أما ايش يا مولانا ، إشي فخم . مش مثل صاحبتك عميره والا خميرة . . .

زعق النائب وقد احتقن وجهه بالغضب :

ـ اخرس يا اخي .

ضحك أبو برمك وقال :

ـ بعدك بتحبها ؟

أشار النائب إليّ :

ـ الأستاذ جريس .

قهقه أبو برمك وقال لي :

حضرتك متعصب ؟ خلوه علي .

ضحك النائب بمرارة وقال لموسى :

ـ ايش رأيك في ها البغل اللي قدامك ؟

فضحك ابو برمك بطيبة وقال :

ـ اتركوه إلي ، أنا الليلة مواعد واحدة تخليه يكفر في الأب شربل ، القديس اللي لسّه الميه بتنقط من جسمه . . .

---

(١) ارجوك ، ارجوك ، قبّلني يا حبيبي .

أمسك النائب بيد الشاب وأخذ يجذبه ، فأخذ أبو برمك يزغزغ النائب تحت أبطيه وفي خصريه ، فيتلوى النائب كالراقصة ، بينما وجهه قاتم ، عابس . نهض النائب فجأة ودفع ابو برمك بعنف أمامه ، وأبو برمك يلتفت الينا بذهول ضاحك . قال النائب :

ـ تعال معايي جوه أقول لك كلمة . .

سأل أبو برمك :

ـ فيه شي ؟

ثم التفت الينا وقال :

ـ مبين فيه شي .

ثم وضع يده المبللة بالعرق على رأسي وقال :

ـ باي ، باي ، لمدة دقيقتين .

موسى ألقى رأسه على مسند الكنبة ، وأخذ ينظر الى السقف ، كان غاضباً ، فقلت :

ـ الدنيا حر .

ردّ دون أن يحوّل عينيه عن السقف :

ـ نار .

ثم استقام جذعه والتفت الي وقال :

ـ تقوم كمان شويه ؟

قلت :

ـ أحسن .

كانت ستائر القطيفة الحمراء تنتفخ بالهواء الخارجي وتتلوى ، كأنها مصابة بمغص . فكرت ان أميرة قد جلست في هذه الحجرة في أول مرة ، فتغيّرت مصائر كثيرين . لحظة التقاء الذكر مع الأنثى ، حتى لو كانت تلك الأنثى خادمة لا يزيد عمرها عن أربع عشر عاماً ، تغيّر العالم . امرأة مرصودة لتغيير المصائر . لماذا لم اخترها هي ؟ ولكن من الذي اختار الآخر : أنا أم سلطانة ؟

اندفع أبو برمك كالقنبلة . وتبعه النائب على مهل . تصورت ان أبو برمك

سوف يواصل اندفاعه حتى يصل الى نهاية الحجرة . كان هذا مدى الانـدفاع . ولكنه توقف أمامي وقال :

ــ يا سيد مرقس !

فكرت ان أذكره باسمي ولكنني عدلت عن ذلك . كان وجهه غاضباً ، وعيناه تحدّقان بي بشراسة . قال :

ــ ما كفتكوا المصاري اللي أخذتوها ، وجاي هلأ بدك مصاري ؟ ويعدين ؟ هذا اسمه ابتزاز . . .

سار نحوه النائب وقال :

ــ يا حمار . انقلع بره .

أخذ أبو برمك يتكلم برجاء :

ــ كلمتين وماشي .

ثم التفت الي وقال :

ــ قديش بدك يا مرقس افندي ؟ بس هاي رايح تكون . . . .

صفعه النائب على وجهه وقال :

ــ غور ، انقلع .

ظل النائب يتبعه . وهو يدفعه حتى اخرجه . في الحجرة الخارجية سمعت صوت صفعة وأمر بالخروج فوراً .

عاد النائب يلهث ، وحيداً ؛ وجلس محني الرأس ، لا ينظر الى أحد منا . قدرت ان موسى سوف يتكلم ، ولكنه نظر الي وابتسم ، وقال :

ــ شفت ؟

التفت الينا النائب وقال :

ــ سكران . أنا متأسف يا أستاذ مرقس .

ضحك موسى ، فقال له النائب وهو يبتسم :

ــ ايش صار ؟

قال موسى :

ــ ولا شي .

قال النائب :

ـ اشربوا يا جماعة ، الليل في أوله .

قال موسى :

ـ اللي شربناه بكفّي .

أخذ النائب يتحدث . قال :

ـ انت بتعرف انجليزي منيح ، مش هيك ؟ ليش بسأل ، لأنه فيه عندي جرايد انجليزية ، فيها مقالات بتفضح الحكومة . بدنا اياك ـ بتكلم باسم الحركة الوطنية طبعاً ـ تترجمها ، وطبعاً رايح ندفع لك .

قلت :

ـ لا .

قال :

ـ يا سيد خذها واعطيها للرفاق .

قال موسى :

ـ رايح اكلمك بصراحة . جريس انسان ملتزم ، ومش مسموح يكون إلك صلة مباشرة فيه . لما بدك إشي منه اتصل في الحزب ، وانت عارف في مين تتصل . سامعني .

ونهض ، ونهضت .

ـ ٢ ـ

لا أدري كيف نمت . ولكنني استيقظت عند الفجر ، والجميع نيام ، وتقيأت . في حلقي وأنفي ألم ، وطعم مر . عدت الى الفراش ونمت . استيقظت في العاشرة صباحاً . شعرت بدوار . نهضت وحاولت ان اتقيأ فلم استطع . دخلت دورة المياه ، فاكتشفت أنني مصاب باسهال .

أعددت شاياً . كان هنالك بقايا خبز وقطعة جبنة أكلتها مع الشاي . للطعام مذاق مر . نظرت الى الشرفة البعيدة حيث تقف الفتاة عادة بملابسها الزرقاء . كانت الشرفة خالية ومحايدة . اعتبرت ذلك حظاً سيئاً ، وان يومي سوف يكون مليئاً بالاحباطات .

سرت في الشارع . ضوء الشمس كان قوياً ، ولم استطع رؤية الشارع بوضوح . جلست في مقهى صغير . طلبت قهوة دون سكر . جاءني به الجرسون مع كوب ماء مثلّج . قال :

ـ ايش مالك ؟

قلت :

ـ دايخ .

قال لي :

ـ سلامتك . اجيب لك اسبيرين ؟

قلت :

ـ لو تسمح .

دفعت الحساب وأنا أشعر بتحسن بعد ان شربت الاسبيرين والقهوة . من دكان يبيع الخضار اشتريت ليمونة كبيرة . قشرتها وأكلتها . استولت علي يقظة باهرة .

أمام بيت قريبي أدركت ، لأول مرة ، انني سوف أزورهم بالفعل . داهمني الضيق لما ينتظرني عند زيارة الأقارب : رائحة النظافة[1]، الوجوه التي تحمل الادانة ، إدانة قاطعة ونهائية التي تجعلك تحس بالوحدة « انت حر » ولأنك حر فأنت لا تنتمي الينا «ورِّينا اسنانك حتى نعرف انت بتدخن والا لأ » ورغم أنك لا تدخن ولكنك مدان : « أنا شو بخصني ؟ دخّن وذنبك على جنبك » . . والنظرات المستنكرة ، تمضي في استنكارها حتى تصبح غائمة لا ترى ـ انت لم تعد موجوداً ، فكيف تراك ؟ ـ الخطايا التي لا تُغفر ، ولا تنسى ، تظل دوماً معلّقة في

(١) ما زلت حتى الآن اعيش كابوس البيوت اللامعة بالنظافة . ترتبط في ذهني بالايدي المتورمة الحمراء ، والوجوه الغاضبة الحاقدة ، والأوامر التي تجعل الحركة عصبية ومراقبة « نظف الكندره قبل ما تدخل . ادخل بسرعة حتى الذبان ما يدخل » خليك واقف الاوضة ما نشفت . . . بالتقديس لنظافة البيت حد الخيانة والوشاية : « يا ماما خليل رمى الخبز على الارض . لا والله يا ماما هيه اللي شدت ايدي وخلتني اوقّع الخبز . . . » وترتبط رائحة النظافة في خيالي برائحة الفقر ، والتظاهر الطقسي ، الاحتفالي بالثراء .

الهواء تهدد بالسقوط على رأسك في كل لحظه ، تتخلل كل كلمة تقال ، كل ايماءة ، وكل حركة وايماءة . . آلهة منتقمة . . وأشعة الشمس في الحوش المبلّط صورة ثابتة لملل وخوف طويلين ، وحذاء طفل على الأرض ، وجورب قديم ، ولعبة مكسورة ، ورائحة لا تنسى . . يجب ان أعود . .

طرقت الباب . صوت حركة مبهمة في الداخل . ما زال الوقت متسع لأنجو . حذاء طفل وصفيحة ماء لمسح الأرضية . النظرة التي تجاهد ان تخفي الضيق فتفشل ، الضيق بسبب دخول انسان قد يلوّث الأرض الممسوحة بأقدامه ، قد يسبب خللاً في الميزانية المحسوبة بالمليم . . اهرب ، لا تتوقف . قدماي لا تطيعان . انفتح الباب فجأة . خلفه طفل وطفلة يقولان معاً :

ــ عمو جريس ، عمو جريس .

وامهما تقف في منتصف الحوش تقول :

ــ اهلين وسهلين .

ما أرهب تلك اللحظات التي تعقب انحسار موجة الترحيب الأولى ، اللحظات التي تطالبني بالانصراف . استقبلتني بلجيا بوجه عرقان ، وأنف منتفخ بالاجهاد والغضب المكبوت ، وجسد مبلل (بلجيا وكل نساء العائلة لا يخطرن في خيالي الا مبللات) وشعر منكوش ، ونحرها عار حتى اعلى الثديين (اللحم المبذول ، اللين ، العرقان ، المقزّز : لحم المحارم) . قبلتني بشفتين جافتين على خدي وقالت :

ــ كيف حالك يا جريس ؟

ادخلتني حجرة الجلوس . غابت وعادت بعد قليل بصينية عليها فنجان قهوة واحد . وأنا أعرف هذه القهوة التي تتحول الى ماء بني اللون اذا لم أشربها على الفور . سؤالها الأول ـ شعرت ـ له طابع استنكاري : لماذا جئت الى عمان ما دامت الاجازة الدراسية لم تنته ؟ واين اسكن ؟ لماذا لم اسكن عندهم ؟ سألتها عن صحتها فقالت انها في صحة جيدة . ولكن ظهرها يؤلمها . تمسك يدي وتجعلني أضغط على المكان الذي يؤلمها . عندما ضغطت أنّت :

ــ ايّ .

وأضافت :

ـ هون الوجع .

وسألتها عن ابن العم غانم . قالت انه في صحة جيدة ، ولكنه يدخّن كثيراً . احياناً ، عندما ينام في الليل ، يصبح صدره كالصّفارة . قالت :

ـ صدره مزّك ، مزّك . . . .

قدمت لي علبة الحلوى الطفلة عزيزة . رأيت يدي بلجيا الكبيرتين تنضغطان على ركبتيها . رأيت اللون الوردي يهرب من أظافرها ليصبح أبيض . تناولت قطعة التوفي . تابعت عيناها يدي وهما تنزعان الغلاف الورقي الشمعي ، وأنا استخرج قطعة الحلوى ، ثم تتابعني العينان وانا أضعها في فمي . وشهدت شيئاً غريباً يحدث وهي تراقبني . انفتح فمها قليلاً . وانكشفت اسنانها البيضاء المتسقة . ثم أغلقت فمها وبدأت حركة ابتلاع تنتفخ بها رقبتها قليلاً ، ثم تتقلص . وخلال ذلك كانت عيناها تتأملان حركة فمي بنظرة ثابتة .

ثم تنهدت ، وأحنت رأسها ، وأخذت تنظر الى يديها اللتين تستقران على بطنها . كانت تلك هي اللحظة المأساوية التي تسبق الوداع . كان المطلوب في تلك اللحظة ان أنهض بشكل مفاجىء ، فترفع نحوي وجهاً جنائزياً ، وتقول بذلك الصوت الذي تتخلله التنهدات :

ـ خليك قاعد .

فأصرّ على الانصراف ، وتقول هي ، وهي تسبقني الى باب الحوش أن علي ان ابقى للغداء ، فأقول انه لا بد لي أن أنصرف وفي الحال ، فتقول هي ، وهي تفسح الطريق لخروجي ، انها لا تعتبر هذه زيارة ، وانني يجب ان أزورهم مرة أخرى . ولكن ما حدث كان خلاف ذلك . خطر لي ، وهي محنية الرأس ، تتنهد وتعد وجهاً جنائزياً لتوديعي الخاطر التالي : كيف تكون في السرير مع زوجها ؟ وفي اللحظة ذاتها أحسست بمعدتي تثور ، والرغبة في التقيؤ تعاودني . ولكن الخاطر ألحّ علي وأخذ مساره الخاص به . حاولت ان اتخيّلها وهي تندفع في ممارسة الجنس بشبق وعربدة ، فلم استطع . لم أرها ـ خلال ممارسة الجنس ـ الا وهي تحمل هذا الوجه الحزين ، البارد . أحسست بالضحك يكبس عليّ .

لقد حررتني هذه الصورة من كابوسية الموقف . لذا قرّرت أن أبقى للغداء وليحدث ما يحدث . انني استعيد ، الآن ، ذلك الموقف ، واسأل نفسي : ما الذي جعلني أبقى في هذا الجو الكئيب ، في بيت أناس لا يرغبون في وجودي ؟ اهي الرغبة في إهانة الذات ، أم هي اعلان الثورة على قيم السلوك المحترم التي تقدّسها العائلة ؟

لا أدري السبب .

كانت الطفلة قد وضعت علبة الحلوى على كرسي خشبي قريب من الباب ، ووقفت تنظر الى أمها . ولاحظت ان ثديي الأم الكبيرين أخذا يدفعان الثوب ببطء الى الأمام . قدرت انها تتأهب للنهوض ، وحتى لا تفعل ـ لأن ذلك معناه ان أودعها ـ امسكت بيد الطفلة وجذبتها بقوة نحوي . حاولت ان تقاوم ولكنها فشلت . قلت :

ـ بتروحي المدرسة ؟

قالت الطفلة بعصبية :

ـ اتركني .

قلت :

ـ مش رايح اتركك الا لما تقولي انتِ في أي صف .

ألقت الأم ظهرها على مسند الكنبة وأسبلت جفنيها . بدت كالنائمة لولا ذلك الانتفاخ في منتصف الأنف . وكان ذلك يدهشني في النساء . أعني كيف يستطعن نفخ ذلك الجزء الصلب من الأنف ، بينما تظل طاقتا الأنف على حالهما . وصدر صوتها ، وهي ما تزال مغمضة العينين :

ـ قولي لعمك في أي صف انتِ .

كان صوتها هادئاً جداً ، ولكنه يفتقد التلوين الأنثوي . كان يمكن ان يكون صوت رجل .

أخذت الطفلة تصرخ :

ـ اتركني ! بقول إلك اتركني !

نظرت بلجيا الى أصابعها وقالت :

ــ يا خوي بتتضايق وبتبكي بسرعة .

نهضت وحملت صينية القهوة وخرجت . بدت من الخلف سمينة . كان وجهها خالياً من التعبير ، كأنها تجاهد مأساة مفجعة . ولكنني أصررت على البقاء . قالت وهي خارجة :

ــ خليك قاعد .

بدا من نبرة صوتها وكأنه سؤال ، وكان ذلك يشير بأقصى قدر من الوضوح الى معنى واضح : « ماذا يبقيك ؟ هيا انصرف ! » .

جلست وحيداً . كانت الطفلة قد انصرفت مسرعة . اشعلت سيجارة وأخذت أفكر : ماذا أفعل الآن ؟ هل انصرف ؟ نهضت ودخلت المطبخ . رأيت بلجيا تجلس مقرفصة وقد انكشف فخذاها . اعمياني بصلابتهما ولمعانهما . كانت تمسح المياه المتجمعة تحت مغسلة المطبخ . قلت لنفسي : من كان يظن ان لبلجيا مثل هذين الفخذين ؟ رفعت رأسها ولقتني واقفاً . كانت مندهشة ، وجهها احمر وعرقان من الجهد . قلت على الفور :

ــ نسيت أقول إلك . شفت عمتك ام غانم ، وبتسلم عليكو .

قالت ببرود :

ــ الله يسلمك . شفتها ؟ مبسوطة ؟

تكوّنت الحكاية في رأسي بسرعة خارقة . قلت انني مررت ببيت عمتها ـ هكذا تسمى الحماة هنا ـ قبل ان أسافر ، وقلت لها انني مسافر الى عمان ؛ اذا كانت تريد ان ترسل شيئاً ، فقالت : اسألهم ، اذا كانوا يريدون شيئاً فسوف أرسله لهم .

كانت بلجيا تركع على ركبتيها . وتتكيء بيديها على الممسحة فوق الأرض ، وترفع وجهها نحوي . كانت تصغي متجمدة . وعندما انتهيت ، نهضت بخفة واقتربت مني وأخذت تزعق . في البداية قالت :

ــ هيك قالت ؟

قلت لها :

ـ آه .

ـ مش عارفه ايش بنعتاز .

وبدأ الزعيق . كأن رذاذاً من فمها يتساقط على وجهي . قالت ان عمتها تعرف تماماً ما هم بحاجة اليه ، ولكنها ـ أي العمة ـ تتظاهر بانها ليست عندها أدنى فكرة عن الموضوع . كان صدرها يرتفع وينخفض بانفعالها . ثم صمتت فجأة ، ونظرت حولها وقالت :

ـ رفعت صوتي . يمكن الجيران سمعوني .

ولكن انفعالها لم يستهلك بعد . واصلت كلامها بصوت أقل ارتفاعاً ، ولكن مشحون بالانفعال حتى الاختناق . استحلفتني بروح المرحوم والدي ان اتبعها . امسكت بيدي وأدخلتني المطبخ ، وارتني صفيحة رفعتها أمام وجهي بيديها الاثنتين ، وقالت :

ـ شم ؛ وروح المرحوم تشم .

فشممت . قالت :

ـ صدقت ؟

لم أقل شيئاً لأنني لم أعرف ما هو مطلوب مني . علمت بعد قليل انه كان علي ان استنتج ان السمن البلدي مخلوط بشحوم حيوانية ، وانه رغم ذلك فانه لم يتبق ما يكفي لطبختين .

قالت :

ـ مش بس هيك . بتصدق انه صار إلنا اسبوع بنشتري خبز من السوق ؟

وأخرجت رغيفاً من النملية وأرتني اياه . وقالت :

ـ صدقت ؟

قلت :

ـ خبز من السوق .

قالت :

ـ الله وكيلك من السوق .

ومضت : والبرغل ؟ اقترضت من الجارات . مرة ولثنتين وثلاثة . ولكنها

خجلت . هي خجولة ـ واعتبرتني عارفاً بذلك ـ لذلك امتنعت عن الاقتراض من جارتها . انها تطبخ الرز الآن . كل يوم رز ، تشتريه من السوق ؛ ومنـذ شهر لم تطبخ كبة ، رغم ان غانم نفسه فيها . ورغم هذا كله فهل تقصّر هي مع عمتها ؟ انها لا تكف عن ارسـال الهدايـا لعمتها . مـرة سلة عنب . وموز ؟ تصـور مـرة أرسلت لهم موزاً فطبخوه مع لبن حـامض . وعلى كـل فهي ليست بحاجـة لأن تقول كل هذا ، لأنني أكثر الناس معرفة بها .

قلت ان كل أهل القرية يحسدون عمتها لأن لابنها مثل هذه الزوجة . قلت هذا وقد أخذت أشعر بالارهاق لهذه الحكاية السخيفة التي اخترعتها، والتي خلقت كل هذا الضجيج .

كنت أنوي الانصراف عندما امسكت يدي وأخذت تعد الهدايا التي أرسلتها الى عمتها : جبة جوخ عندما توفي المرحوم ، عصابة لرأسها ، خمسة كلسونات لم تعرف عمتها كيف تستعملها فباعتها ، وحذاء . قالت : أين القصور إذن ؟

قلت :

ـ ما فيه قصور .

قالت :

ـ وحياة ربنا ، وجراحات يسوع الحي ، والا يعدمني نـور عيوني اني بحب عمتي مثل ما بحب أمي ، ويمكن أكثر .

قلت ان الجميع يشهدون بذلك .

وعادت بي الى حجرة الجلوس . وأجلستني ، ووقفت أمـامي ، تضع يـديها على خصرها ، واستمرت تقول : هل يعرف كم مرة أعطيت نقوداً للقسيس لكي يصلّي على روح المرحوم عمها ؟

قلت :

ـ طبعاً . . .

ولم تدعني أتم . قالت انها نسيت كم مرة لكثرة ما دفعت . سألتني ان كنت أشك في كلامها . قلت :

ـ مصدقك .

كان الطفلان خلال تنقلنا بين المطبخ وحجرة الجلوس يأتيان الينا ، يطرحان أمام الأم مشاكل فقهية خالصة : هل يجوز ان تستولي عزيزة على لعبة وليم ، وان تضربه أيضاً ؟ وتقول عزيزة :

ــ كذاب والله يا ماما كذاب . كان رايح يكسرها . .

قال وليم :

ــ كذابة . أكذب واحدة .

وبعد قليل جاء وليم ليهمس لأمه

ــ عزيزة قاعدة بتاكل .

عند ذلك فقدت بلجيا اتزانها وهرولت نحو المطبخ . سمعت صرخة عالية ، أصوات صفعات ، وبكاء . ورغم ان المسألة انتهت عند هذا الحد فلم يكف الطفلان عن الوشاية ، والشكوى من بعضهما .

ما جعل مشهد الطفلين مؤلماً وجارحاً هو البرود وروح التقوى اللذين يطرحان بهما شكاويهما . لم يكن فيهما مرح الطفولة ولا انفعالها الجامح . وتخيّلت الكراهية التي تملأ قلب الطفلين ، وأحلام اليقظة بالانتقام والتي تدور حول الاكتشاف المفاجيء لخطيئة رهيبة ارتكبها الطفل الآخر ، والعقاب الرهيب الذي سوف يناله . لن يلجأ احد منهما الى حب الآخر ، أو الى تسامح الأم ، بل الى قانون صارم يسحق كل من يقف في طريقه . سيتفوقان في الدراسة ، ولن يعيشا قصة حب أبداً .

عادت بلجيا تلهث ، غاضبة . وجلست مكشّرة ، انتفخ انفها كله وامتلأ بتجعدات كبيرة ، وتصلب الفم . كانت مخيفة حقاً ، ونهضت استعداداً للانصراف . رمقتني بنظرة نارية ، وقالت :

ــ خليك .

لم يكن رجاء ، بل أمراً . جلست أبادلها الصمت . فجأة قالت :

ــ انت مش غريب ، ما لحقت اعمل لك غدا .

لا بدّ انها في حالة يائسة حتى تقول شيئاً كهذا . كان هذا يعني انها وافقت أن

أبقى للغداء . في تلك اللحظة رغبت بقوة في الانصراف . ولكن الطريق كان مسدوداً أمامي .

خرجت بلجيا دون ان تقول شيئاً . كان الصمت مريباً . شعرتُ بوحدة وارهاق حادين ، ورغبت ان أغادر هذا المكان بسرعة .

في الثانية والربع جاء غانم . عند دخوله اعترض طريقه الطفلان ، وصرخا ، وهما يقفان وقفة تهيؤ ، بصوت واحد :

ـ Welcome papa (اهلاً بابا) .

لم يبد عليه انه سرّ بهذا الترحيب . أمسك بكتفي الطفلين وأبعدهما عن طريقه ، وهو ينظر إليّ . صافحني وقال :

ـ سمعت انك هانا من زمان .

قلت :

ـ صار لي يومين ثلاثة .

قال انه مرّ بجراج القرية وعلم انني جئت عمان منذ فترة . ثم أضاف انهم اتصلوا به ، في الدائرة ، بالتليفون (كان يعمل موظفاً في وزارة المالية) للاستشارة . اكتشفت انهم يريدون ان يشتروا تراكتور لحراثة الأرض وحاصدة . ثم قال ، وكأنه يخاطب نفسه انه لم يكن يتصور ان مسعد سوف يكبر الى هذا الحد .

اختفى الطفلان . وكنت اسمع أصوات ارتطام الملاعق بأطباق الصيني قادمة من المطبخ . شعرت بالجوع فجأة . خطر لي ان احكي لغانم حكاية مسعد وسلطانة وأميرة ، وكل ما يتعلق بهما . ولكن الجوع الذي هبط كصداع مفاجيء ، والرغبة الملحة في الانصراف منعاني .

قال غانم :

ـ قالوا لي في الجاراج انها شركة .

قلت :

ـ مين المشاركين ؟

قال :

ـ ما بعرف . ليش ما تشتركوا معاهم بدال مصاريكم ما هيه نايمة .

قلت :

ـ مش عارف . امي . . .

قال :

ـ انت صاحب الشور . كبير العيلة .

وابتسم .

جاءت الزوجة بالطعام . كان فاصوليا خضراء وأرز ، وسلطة . وضعت بلجيا كمية كبيرة من الرز في طبقي ، وقليلاً من الفاصوليا ، ولدهشتي ، قطعة كبيرة من اللحم . اكتشفت ، بمجرد اصطدام الملعقة بها ، انها قطعة عظم كبيرة ، التصقت بها قطعة رقيقة من اللحم . لاحظ غانم ذلك بطرف عينه ، فتناول قطعتين من اللحم ووضعهما في طبقي . شخصت عينا بلجيا ، ثم أحنت رأسها ، وكأنها تعتذر . لقد انكشفت مؤامرتها ، وهي تعلم ان غانم قد غضب .

كان الطفلان قد جلسا معنا على المائدة ، وكانت الأم تراقبهما بتلك النظرة الصارمة ، الرادعة ، وكان الطفلان يراقبان بعضهما ، ويختلسان النظر الى أمهما . شعرت بالتوتر والكراهية المتبادلة بين الأطراف الثلاثة يخترقاني كالإهانة . بالنسبة للثلاثة . كانت لحظة تناول الطعام لحظة شبق ولحظة خوف من العقاب ، كل انسان فيها وحيد ؛ وحيد يشق طريقه ، وسط جو مشحون بالحقد ، والعنف المقموع ، الذي تحوّل الى جبن ونميمة . كنت أراقبهم خلال تناول الطعام ، وهم يراقبون بعضهم بعيون هاربة ، مراوغة ، ووجوه صارمة ، متحفزة للإدانة . تشخص العيون فجأة ، وتتوقف الأيدي ـ في منتصف طريقها الى الفم ـ والأفواه ـ نصف مفتوحة ـ عند المضغ ، وكأنها تتأهب لاطلاق صرخة فزع مدوّية ، والأنوف تضمر وتستطيل كأنها تقول : « بلغت بك الجرأة الى هذا الحد ؟ » . . . مشهد نموذجي في فيلم رعب ، يتشكل ، عندما تمتد يد الى قطعة لحم .

كنت أريد الاسراع بالهرب . كان تثاؤب غانم بعد انتهائه من الطعام إيذاناً .

بهروب دون تعقيدات . ولكن بلجيا أصرت ان أبقى حتى أشرب القهوة . وكان ذلك مضحكاً ، بعد كل هذا الحرص . ولكنها اعتبرت شـرب القهوة في المـرتبة الأولى من الأهمية ، القهوة التي تصنعهـا هي بالـذات ، والتي تتحول الى سـائل أصفر ، شاحب بعد ثوان قليلة من صبها .

الفصل السادس

- ١ -

في المساء لم نذهب الى النادي . بدأنا بحثنا مبكراً عن القواد . اتفقنا على أسلوب جديد في البحث عنه : ان يسير كل واحد منا في شارع تم تحديده ، فإذا التقى بالقواد يصحبه الى الممر التجاري حيث سنلتقي بعد ساعة واحدة .

أعتقد أنني الوحيد الذي لم يقم بالمهمة الموكولة اليه . قلت لنفسي انه من المستحيل أن أتعرف على القواد . وحتى لو تعرفت عليه فلسوف ارتبك ولن أجرؤ على التحدث اليه . لقد قال لي أصحابي انه ما علي سوى أن أسير في الشارع ، وسوف يعرف القواد ، من نظراتي ، انني أبحث عن امرأة . قلت لنفسي « هو ربنا ؟ » وركبت باص جبل اللويبدة . نزلت عند خزان المياه ، وتجولت في الجبل .

على جانبي الشارع تقوم بيوت من طابق واحد ، أو طابقين ، تحيطها حدائق حديثة العهد . كنت أرى الأضواء الكهربائية تلوّن زجاج النوافذ بصفرة لامعة ، تتسرب عبر أوراق الشجر بألفة عتيقة لبيوت قديمة في روايات القرن التاسع عشر . كان ورق الشجر القاتم الخضرة وهو يتلقى بفتور ناعس الضوء القادم من الشبابيك ، هو الذي بعث الاحساس بالألفة .

أواصل السير . صوت موسيقى راقصة . وراء احدى النوافذ يمرق وجه امرأة ، منظر جانبي للوجه ، ثم يختفي ، تاركاً لوعة ، وشعوراً بالنفي . اسمع

أصوات ارتطام سكاكين وشوك بالأطباق . أمام أحد البيوت أرى سائقاً ينام داخل سيارة خاصة . يقبل نحوي شبان وبنات . يقول أحدهم شيئاً ، فيضحك الآخرون ضحكة سريعة كالانفجار ، تنتهي ، وتظل وراءها ذيول ضحكات نسائية ناعمة كأنها قصاصات من الحرير . ضوء الشارع الشحيح يلغي تفاصيل وجوه النساء ، ويخلق وهم فتنة خارقة .

من بعيد رأيت ضوء بقالية أنيقة ، تشع أنوارها بقوة . دخلتها . كل شيء فيها أنيق كالبقاليات في السينما الأمريكية . راقبت نفسي : السيجارة في فمي ، وأنا أقول للبقال :

ـ علبة جولد ستار .

وأخرج يدي مليئة بالنقود ، وأتناول العلبة باليد الأخرى . يتناول البقال سبعة قروش ، ثمنها الرسمي . اعتقدت انه سيأخذ أكثر من ذلك . بدوت لنفسي ممثلاً في فيلم امريكي . غادرت البقالية باحساس من تتابع الكاميرا حركته ، وتلتقط كل تعابير وجهه .

توغلت في الجبل حيث البيوت ما زالت في طور البناء . يكربني الصمت والظلمة فأعود الى الجانب المضيء من الجبل . تندفع سيارة بقربي ، اسمع من داخلها صوت فيروز مثقلاً باللوعة يغني « حاجة تعاتبني يئست من العتاب » وتبتعد السيارة ويظل الايقاع في داخلي .

عدت الى الممر التجاري بعد ساعة ، بالضبط . بعد قليل رأيت خالد قادماً من شارع المحطة . خاطبني قبل ان يصل :

ـ خالي الوفاض .

لم يسألني عن نتيجة بحثي .

بعد قليل جاء شفيق . كان متجهماً . لم يقل شيئاً . قال خالد :

ـ ايش يا عم شفيق ؟

قال شفيق :

ـ ما فيه فايدة . وين سمير ؟

ـ بعده ما إجا .

قلت :

ـ على الله تضبط معاه .

بعد مضي نصف ساعة جاء سمير عرقاناً ، مفتوح الفم قليلاً ، يلهث . سرنا ، وأخذ سمير يتحدث دون ان يسأله احد . قال انه رأى القواد . توقفنا فجأة ونظرنا اليه . قال خالد :

ـ طيب ، وينه ؟

قال سمير انه رآه عن بعد ، وتبعه . رأى سيارة خاصة تقف بجواره ، فدخلها ومضى .

واصلنا السير . قال سمير انه رأى امرأة محجبة . اشتبه فيها ، فسار وراءها ، وهو يردد :

قل للمليحة في الخمار الأسود   ماذا فعلت بزاهد متعبد

قلت :

ـ ايش فعلت ؟

نظر الي ، ثم قال انه سبقها ، ثم استدار وواجهها . نظر الى عينيها وهو يضع يده على شعره . قال خالد :

ـ ليش حطيت ايدك على شعرك ؟

قال سمير :

ـ يعني مسا الخير .

قلت :

ـ واذا كنت لابس حطه ؟

قال :

ـ برفع طرفها ، وبخليه على رأسي ، واذا كانت ، يعني ، واحدة منهن بتقوم بتمشي ورايي .

قال خالد :

ـ طيب . . . طيب ، واذا كنت لابس برنيطة ؟

ـ برنيطة ؟ برفع طرفها وبغمز المرة في عيني .

ـ وبعدين ؟

قال سمير :

ـ بعدين بتمشي ورايي .

قال خالد :

ـ لو كنت ، كنت ، كنت . . .

تردد قليلاً ، ثم قال :

ـ لابس ايشارب ؟

هنا فقط ضحك سمير .

قال شفيق بضيق :

ـ وبعدين ايش صار في النهاية ؟

لم يكن للسؤال داع ، فها هو سمير أمامنا . فأخذنا نصعد جبل عمان صامتين . قال شفيق بعد قليل :

ـ اتعبنا رجلينا يا اخوان على الفاضي .

ثم أخذ يضحك :

ـ اما والله محسوبكو استهميت ، وكل ما أشوف واحد لابس بنطلون أصفر الحقه وأطل في وجهه ، وارجع بخفي حنين .

قال سمير انه لا حل لنا الا الزواج ، ولكن ذلك لن يتم الا في الديموقراطية الشعبية . قال شفيق :

ـ بذكوا الصحيح والا ابن عمه ؟

ـ الصحيح .

قال :

ـ الحل في ايدينا .

فضحكنا . بعد فترة صمت ، ضحك سمير وهو يردد :

ـ في ايدينا ، في ايدينا .

سرنا صامتين . دخلنا الحجرة . أخذ سمير يعد الشاي : قال خالد انه أدخل بعض التعديلات على قصته . ربما كانت هذه هي المرة الخامسة التي يفعل فيها

ذلك . ولم تكن تعديلات ، في حقيقة الأمر ، بل اضافات . أغلبها مزيد من الوصف لمفاتن المرأة ، أو جمال الحديقة .

قرأ القصة بشكلها الجديد امتدحناها دون حماس ، وأخذنا نتثاءب . اقترح شفيق ان نقرأ مقطعاً من رواية غوركي (الام). انفتح الكتاب تلقائياً على خطبة بافل أمام المحكمة . أخذ شفيق يقرأ ، ثم يتوقف ليقول : « روعة ، روعة ». تنتهي الخطبة ، فيقول سمير بحماس :

ــ تعاد ، تعاد .

يتنهد شفيق ويعيد قراءة الخطبة :

« ــ حضرات الشهود .

ــ انت أمام المحكمة ».

قرأناها مرات عديدة من قبل ، وعدا بعض التفاصيل الصغيرة ، كنا نعيد نفس المشهد .

نمنا . وأنا أتوقع يوماً جديداً حافلاً..

ــ ٢ ــ

ارتديت ملابسي بسرعة في الصباح . جلست في مقهى (وادي النيل). كانت بعض الوجوه مألوفة . معظم أصحابها يجلسون صامتين ، يدخنون ويراقبون الشارع من خلف الزجاج . طلبت قهوة فرنسية بالحليب ، وتابعت القراءة في رواية (مدام بوفاري). كانت ذاهبة الى بيت عشيقها الثاني لتقترض منه نقوداً ، اعتذر لها بأسلوب فهمت منه انه لا يريد اقراضها ، وألمح انه قد قرر انهاء العلاقة بينهما . فعادت الى بيتها وهي في حالة نفسية سيئة . شعرت بالحنق بسبب نذالة هذا العاشق . منعني توتري من مواصلة الجلوس . دفعت الحساب وأخذت أذرع الشوارع دون هدف . نسيت مدام بوفاري وعشيقها النذل ، ولكن التوتر بقي يخنقني ، يدفعني الى مواصلة السير دون توقف .

كانت صورة مدام بوفاري تطفو أمامي : امرأة قصيرة ، متناسقة الملامح ، مبذولة لممارسة الجنس . تبينت ان ما كان يوترني هو الغيرة : اختارت مدام

بوفاري ذلك الوغد عشيقاً ، ولم تلتفت إليّ ، رغم أنه طردها من بيته . كان ذلك مؤلماً ، ومضحكاً في الوقت ذاته .

- ٣ -

كنا نبحث عن القواد ، فلقينا سعد . قال شفيق :

ـ أظن هذاك هوه . الماشي قدام .

كان يسير أمامنا . أسرعنا حتى تجاوزناه ، ثم التفتنا الى الخلف دفعة واحدة . صحت :

ـ سعد .

تصافحنا بحرارة . سألته عن وجهته ، فقال انه ذاهب الى بيت يوسف الطحّان . وأضاف ان عوده يسكن عنده . اندهشت : عودة له بيت في عمان ، فما الذي يدعوه للسكنى عند يوسف ؟ لم أقل ذلك . كان سعد قد اقترح ان نرافقه ، فقلت :

ـ أمر أسلم على يوسف .

وافق أصدقائي ان يرافقونا ، خاصة عندما عرفوا ان عودة هـوا أبو أميرة . وخلال الطريق حكى لي سعد ما حدث له خلال السنتين الماضيتين ، بعد ان غادر القرية . بدأ أول الأمر يبيع الحلوى على عربة يد ، في أسواق عمان . كان مكسبه قليلاً . ثم جاءت الحرب الفلسطينية فاشترك مع المجاهدين ، وكسب (قرشين). فتح دكاناً في جبل عمان ، وبنى حجرة خلفه ينام فيها .

سألته :

ـ صار لك زمان بعيد عن القرية ؟

قال :

ـ من يوم ما طلعت منها ما رجعت . من سنتين ونص . اعوذ بالله اني ارجع الها ، اعوذ بالله ، اعوذ بالله .

كان قد أحب سمحة . افهمته آمنة ان سمحة بنت مدارس ؛ سوف تتعلم ، ولن تتزوج الآن . باع الأرض واشترى فرساً معتقداً انه بذلك سوف يكسب قلب

سمحة . ولكنه أصبح سخرية الجميع ، وضاعت نقوده كلها ، فتسلل هارباً من القرية في فجر احد الأيام ، ولم يعد .

وواصل سعد :

ــ بتعرف يا استاذ جريس قيمة الانسان في قروشه .

واستمر يتحدث دون توقف حتى وصلنا بيت يوسف . طرق سعد الباب فأتانا صوت يوسف من الداخل :

ــ خش . تفضل .

وفتح يوسف الباب . لم يتغير فيه شيء . ما زال ضخماً ، طويلاً ، قاتم السمرة ، عيناه تضحكان . كان حاسر الرأس ، وقد حلق شعره كله عدا قذلة في منتصف أعلى الجبين . صاح :

ــ أهلاً ، اهلاً ، عمي جريس ! عشنا وشفناك .

صافح الجميع بحرارة ، ودعاني الى الدخول . كان يتمتع بحيوية مدهشة . انفتح الباب على فسحة ، تنفتح عليها ثلاث حجرات . كانت واحدة منها مضاءة ، قادنا يوسف اليها .

كان المطبخ على يسار الداخل ، في داخله جلست امرأة ، رأسها محنية ، كأنها تتأمل يديها المستقرتين على فخذيها . شعرها كستنائي ، ينساب دون نظام ، تدلت منه خصل في الهواء ، تكاد تلامس فخذيها . وأخرى على وجهها . كان الشعر حياً ، يرشح عنفاً . وفي انحناءة ذلك الجسد ، والمنظر الجانبي للوجه ، وبروز الثدي شحنة من الطاقة الانثوية المتحفزة أصابتني كصدمة تيار كهربائي .

دخلت الحجرة وصافحت عودة ، وزوجة يوسف التي قبلتني على خدي . في تلك اللحظة ، وقبل ان أجلس ، أدركت ان الفتاة الجالسة في المطبخ كانت أميرة .

كانت الحجرة تشبه حجرات الضيوف في بيوت القرية الميسورة . لصق الجدران ألقيت أبسطة تتخللها خطوط عريضة بيضاء وسوداء ، وفوقها فرشات ، وضع بينها عدد من الوسائد ، وغطيت بأبسطة صوفية ملونة بالأحمر والأصفر

والأزرق . كان اللون الأحمر طاغياً . أما الجدران فقد زيّنت كيفما اتفق : قطع سوداء وخضراء من المخمل طرّزت بزهور حمراء وبيضاء ، صورة أبو زيد الهلالي يشرع سيفاً ، ويركب فرساً بيضاء ، سمينة جداً ، مناظر طبيعية (أشجار هائلة خضراء وبيوت من قرميد أحمر ، ونهر أزرق يغطيه زبد أبيض) منتزعة من احد التقاويم ، صور ملوّنة لتشرتشل وهتلر وجورج الخامس وام كلثوم وعبد الوهاب ، وصور شمسية للعائلة ، مجتمعة وأفراداً .

سألتني مرثا ، زوجة يوسف ، عن صحة أمي ، وعن سبب مجيئي فقلت لها ان صحة أمي جيدة وانني قادم لعمل بشأن دخولي الجامعة . كان يوسف يسأل أصدقائي عن عائلاتهم وأبائهم . اكتشف انه يعرفهم ، وقد أدهشه ذلك وأسعده . ثم التفت الي :

ـ خلصت مدرسة ؟ علمت من يومين بس، قال لي عودة ، قلت : لا حول بالله ، لازم نبارك للزلمة . وين ناوي ؟

كان ذلك الحديث المتقطع ، السريع جزءاً من شخصيته . اذ كانت حيويته تفيض عبره ، فيبدو كلامه وكأنه مزيج من المرح والجد .

قلت :

ـ ناوي اكمل في الجامعة الأميركية في بيروت .

قال :

ـ الموفق ربنا .

ثم سأل سعد عن عمله ، فتحدثنا بعض الوقت . التفت الينا كأنه تذكر شيئاً ما فجأة ، وقال لزوجته :

ـ عشا للضيوف يا أم خليل . الأستاذ جريس عزيز علينا وزمان ما شفناه ، والأساتذة أول مرة بشرفونا .

قلت :

ـ مكتور الخير . وحياة خليل متعشيّن .

أكد أصحابي قولي ، فقال يوسف :

ـ يا ابن آدم ضيف المسا ما له عشا . من حواضر البيت . شقفة جبنة ، زر

لبنة وعَ الماشي . من حواضر البيت .

فأكدت له مرة أخرى اننا تعشينا . قال :

ـ يمكن بعد شوية تجوعوا .

أتى يوسف الى عمان من خلال تجارة الحبوب . احتفظ ببيته في القرية وأرضه ، واشترى بيتاً في عمان وفتح دكاناً . وكان يزيد ثروته هنا وهناك . يشتري مزيداً من الأرض ، ويتوسع في تجارته في عمان . أضاف اليها فيما بعد تجارة شراء وبيع أراضي البناء في عمان .

التفت يوسف الى أصحابي وقال :

ـ انتوا المتعلمين أظن بتقولوا ربنا مش موجود .

خوفاً من اندفاع سمير قلت :

ـ ما فيه حدا بقول هيك .

قال سعد :

ـ لا ، يا ابو خليل ، هذول الطبيعيين اللي بقولوا .

قال يوسف :

ـ الشيوعيين مش طبيعيين .

الأخبار تنتشر بسرعة في عمان ، كما في القرية . قلت :

ـ لا .

ضحك يوسف وقال :

ـ أنا كنت طبيعي مثلكو . كنت أقول اذا كان ربنا خلقنا ، طيب هوه مين اللي خلقه ؟ طيب ليش خلقنا ؟

قلت :

ـ احنا مش طبيعيين .

قال وهو يضحك :

ـ ما انا غارف . انتو شيوعيين .

قالت أم خليل :

ـ صحيح يا جريس ؟

قاطعها يوسف :

ـ كنت بقول : ليش ربنا خلقنا ؟ للتعب والجوع ؟ لكن لما ربنا اطعمني عرفت انه موجود ، وفهمت .

واندفع سمير :

ـ يعني موجود لأنه اطعمك ؟

اغرق يوسف في الضحك وقال :

ـ كلامي اختبار إلكو . قلت ارمي كلمتي واشوف ايش بتقولوا .

شاركناه الضحك . أضاف :

ـ جيل نجاسة . انا عارف الأستاذ (وأشار بسبابته الى سمير) ايش في فكره . بقول لو كان ربنا موجود ليش ما يخلي الناس كلها شيوعية ، كل واحد مثل الثاني ! انا عارفكو الشباب .

قالت ام خليل :

ـ لا . يقطع الشيوعية واللي جابوها . بقولوا عن مريم العذرا انها مره مثل كل النسوان .

نظر الينا يوسف بعينين ضاحكتين وقال :

ـ شايفين الجهل ! مش مريم العذرا يا ام خليل ، هذول بقولوا ربنا ذاته مش موجود .

قالت :

ـ شرهم عليهم .

ومضى يوسف يتحدث بصخب وحيوية :

ـ جاهله . طيب ، جاوبيني : ليش فيه غني ، وفيه فقير اذا كان ربنا موجود ، هه ؟ ردي .

قالت أم خليل وهي تضحك :

ـ حكمة ربنا .

التفت الينا يوسف وقال :

ـ شايفين الجهل ؟

ثم قال لزوجته :

ـ الشيوعين بقولوا : ليش حكمة ربنا تكون هيك ؟

قالت :

ـ دخلنا في الكفر !

ثم التفت الينا وقال بلهجة جادة :

ـ اسمع يا استاذ سمير ، الفكر الكثير بخربط المخ . ربنا ايش بقول في الكتاب المقدس ؟ من عرق جبينك تأكل خبزك . حتى عند المسلمين بقولوا : اسعوا في مناكبها . الغربيين فهموا هذا الكلام ، ليل نهار بشتغلوا ، واحنا مثل ما احنا . احنا العرب شاطرين في ايش ؟ في فلان كريم ، فلان فارس ، فلان هيك ، فلان هيك . . .

تكلم عودة لأول مرة ، قال :

ـ كنا مرة يا ابو خليل ، ولا يهون السامعين ، في القدس ، قاعدين في باب العامود . كنا جماعة كبيرة منهم ابوك الله يرحمه (يقصد أبي) وقاعدين بنحكي وبنضحك . مر من قدامنا واحد يهودي . كلمنا ، كلمناه ، وكلام جر كلام . قال : « انت خبيبي مش عرب ، انت جرب . انت خمار . قاعد يحكي ويضحك يضحك وما بشتغل . أنا في ساعة واحد بجيب جنيه » .

وحكت أم خليل عن مليونير يهودي كان مريضاً ، لم ينفع معه طب ولا دوا . مر يوماً من باب العامود فرأى عتالاً جالساً ، أمامه أربعة أرغفة خبز وثلاثة رؤوس بصل ، يأكل بشهية . فقال له اليهودي : « يا خبيبي اعطيني صحتك وخذ قروشي » .

تقبلنا الحكاية دون تعليق ، رغم ان مغزاها مخالف لما يحاول زوجها ان يثبته . قال يوسف :

ـ شوفوا عودة كان مضيّع نفسه ، وهسّاع ربنا هداه .

عبس عودة واطرق . لم يتضح لي ما عناه يوسف . قال سعد ان الأمريكان يقدرون الانسان بنقوده . مال يوسف نحوي فجأة وأمسك يدي ووضعها بين يديه وقال :

ـ أنا عمك ، وأنت مثل ابني . قديش رايح تصرف في بيروت ؟

اجريت حساباً سريعاً ، وقلت :

ـ أربع سنين . حوالي الف وخمسمائة جنيه .
رأيت عودة وسعد يحملقان بي في دهشة . قال يوسف :
ـ لما تخلّص جامعة قديش بتوخذ ؟
قلت :
ـ ثلاثين جنيه في الشهر اذا لقيت شغل .
قال :
ـ اذا لقيت . ورايح تصرفهم كلهم ، ويمكن تستدين فوقيهم . ايش رأيك تخلّي في ايد عمك الفين جنيه . نشتري تراكتور وحصادة ونشغلهن . سعد وعودة مشتركين . وكل شهر يا عمي لو ماتت ، لو ماتت ، بدخلك ستين جنيه وانت قاعد مرتاح .
في تلك اللحظة تذكرت أميرة التي تجلس وحيدة في المطبخ . قلت :
ـ وين بيت الميه ؟
وسحبت يدي من يديّ يوسف . وصفت أم خليل لي الطريق الى دورة المياه ، وخرجت . كان المطبخ مضاء . تنحنحت معلناً عن وجودي ومددت رأسي من باب المطبخ . لم يكن احد في الداخل . سرت نحو دورة المياه ، وتوقفت بعض الوقت في داخلها حتى شعرت انني أختنق . غادرتها ودخلت المطبخ . قلت لنفسي : اذا فاجأني احد فسوف أقول : انني أريد ان أغسل يدي . لم أجد احداً . فتحت الحنفية وغسلت يدي وخرجت .
حين دخلت الحجرة اكتشفت ان موضوع الحديث قد تغيّر . كان سعد ، فيما يبدو ، يعقّب بحماسة على حكاية رويت . كان يقول :
ـ كان الناس عندها شرف وذمه . مش مثل اليوم ، كل واحد يا ربي نفسي .
استغربت كلام سعد الذي ينفي كل حديث سابق .
قال يوسف موجهاً حديثه اليّ :
ـ مرة جدتك ، الله يرحمها ، خليناها لما نامت ـ كنا بنلعب شدة في داركو ـ قام ابوك ، الله يرحمه ، قال : يا عيالَ ، صار إلنا زمان ما اكلنا جاج . قمنا عَ الجاج ، وقضبنا ثلاث عتقيات . مصعنا رقابهن وحطيناهن في الطابون . عمتك

ما بتعرفها ؟ ماتت وانت بترضع ، صحّيناها . نظفتهن ورمتهن في الطابون . جدتك صحيت عَ الريحة ، قالت : سويتها يا مقرود !

واستغرق يوسف في الضحك .

حكت أم خليل عن ثلجة الجمال . ناموا والجو صحو ، وفي الصباح كان الثلج يغطي الدنيا . تثلجت الجمال ، وهيّ واقفة . وأخذ الناس يذبحونها ، ويشوون اللحم .

يبدو ان الشعور بالجوع كان جماعياً . فبمجرد ان اقترح يوسف ان نأكل وافقنا كلنا . وعندما جاء الطعام لم يتوقف الحديث .

قلت ليوسف :

ـ ما دمتو مشتاقين للقرية ليش تركتوها ؟

تنهدت ام خليل وقالت :

ـ عندك حق .

التفت الي يوسف وتكلم بجدية حزينة :

ـ شوف يا عمي ، الآدمي بدوّر عَ السترة . يستر نفسه ، ويستر عيلته ، وما يقوم يذل نفسه للناس . الواحد لازم يحسب حساب انه عياله ما يناموا من غير عشا . فاهم مقصدي ؟

قلت :

ـ صحيح .

أضاف :

ـ والا يا عمي ، هيه في الساهل ، الواحد يترك بلده وعشيرته ويرمي حاله في عمان ، لا صاحب ، ولا قريب ، والا انا غلطان ؟

قلت :

ـ لا . مش غلطان .

قال :

ـ براوه . بتعرف اني بشتاق لريحة واحد من القرية . والله العظيم انا عندي اعيش على مزابل بلدي ، ولا اسكن في قصر في عمان . في عمان صاحبك اللي

بستفيد منك . بطّل يستفيد منك ، لا يعرفك ، ولا هوه صاحبك

كان حديثاً مقبضاً بايقاعه الحزين ، وبهذا النحيب الذي تولّد فجأة . لم اصغِ . كنت أسمع : « عيال مثل الأرانب . . . حرام يموتوا من القلة . . » واقترحت ان ننصرف ولكن يوسف كان يؤخرنا ، وقد فقد حديثه كل بهجة أو مرح .

الفصل السابع

ـ ١ ـ

عثرنا على القواد في الوقت الذي لم نكن نبحث عنه . كنا متجهين الى النادي ، فأمسك بذراع شفيق ، وابتسم ، كاشفاً عن اسنان صفراء ، وقال :

ــ مرحبا يا استاذ .

تأمله شفيق قليلاً ، ثم هرب الدم من وجهه ، وأخذ يلهث ، وقال :

ــ انت ، انت . . . !

ضحك القواد وهو يكوّر كفيه ، كأنه يحمل بطيخة بينهما ، وأخذ يباعدهما وهو يهزهما ، وقال :

ــ إشي على كيفك .

كان شديد القذارة . كفاه خشنتان ، لهما لون لحاء الشجر الجاف . يرتدي بنطلوناً من الخاكي الحائل ، الناصل ، وحذاء دون جوارب . كانت البسمة ملتصقة بوجهه كأنها ملمح ثابت ، وكانت تشكّل مع أسنانه الصفراء ، وشاربه الخفيف ، وشفتيه الرقيقتين المبلولتين تعبير تواطؤ ذليل وبذيء .

استوقف شفيق سيارة أجرة ، وجلس القوّاد بجوار السائق ، وأخذ يوجهه . اخترقنا شارع الملك طلال وحي المهاجرين ، ثم درنا يميناً ، وغادرنا السيارة قرب بركة السباحة . تصورت ان القواد سيتجه بنا يساراً ، الى الجبل النظيف . ولكنه

هبط بنا يميناً الى سيل عمان . سرنا بمحاذاة سور البركة ، واجتزنا السيل الضيق بقفزة ، ثم واصلنا السير بين كروم العنب .

كان الظلام كثيفاً أصم ، واضواء حارة المهاجرين عمشاء ، توحي بمكان مهجور . وكان سيرنا بطيئاً بسبب وعورة الطريق ، والظلام . وكنا صامتين . حاول شفيق أن يبدد الصمت ونحن نجتاز السيل ، اذ قال :

ــ سيل عمان الخالد .

أصدرنا أصواتاً من أنوفنا تدل اننا تذوقنا النكتة . كان فمي جافاً . وضع سمير يده على كتفي وهمس :

ــ خايف ؟

أبعدت يده المبلولة ، المرتعشة عن كتفي . كنت عصبياً جداً . احسست بتنفسه قريباً من اذني ، همس :

ــ شد حيلك .

قلت بضيق :

ــ اسكت يا اخي .

لم أكن عصبياً بسبب الخوف فقط ، بل لخيبة الأمل . المرأة ـ الحلم في هذا المكان الموحش ؟

صوت مذياع مقهى بعيد يتلو نشرة الأخبار . حاولت ان أركز السمع لمتابعة ما يذيع ، فلم استطع . أخذنا نسير بين مزارع (كنت أعرف من رؤيتها السابقة في وضح النهار انها مزارع خضار) ذات أسوار ، بعضها من الحجر الدبش ، وبعضها الآخر من الأسلاك الشائكة ، الملتفة حول اعمدة خشبية قصيرة . من المزارع كنا نسمع أصواتاً مبهمة ، وخشخشة انسياب الزواحف بين الأعشاب الجافة .

قال القواد :

ــ اوعوا اللبص .

أبصرنا بركاً سوداء ، صغيرة ، تنعكس النجوم في مائها . أخذنا نقفز من

فوقها ، ورغم ذلك شعرت بحذائي قد تلوّث ، وبالماء قد تسرب الى داخله . اشعرني ذلك بالضيق والقذارة . بعد قليل انتهينا من المزارع ، وسرنا في درب ترابية ، تتلوى بين مجموعة من الأكواخ الصغيرة ، المبنية من الطين والقصب . كانت مضاءة من الداخل بلمبات كاز ، يتسرب منها ضوء أصفر ، معتم . عبر شبابيكها المربعة كنا نرى ظلال ساكنيها تتحرك بسرعة البرق . أطل رأس من احدى تلك الشبابيك . يبدو انه قال شيئاً ، لأن خالد قال :

ـ مين ؟

التفت اليه القواد وقال :

ـ خليك ماشي على طول .

كان صوته طبيعياً . أصواتنا الخائفة وصمتنا جعلته يتخذ موقف الآمر . قال خالد وكأنه يعتذر :

ـ حسّبته بكلمني .

لم يرد القواد . كان يتقدمنا قليلاً ، ويلتفت بين الحين والآخر الينا ، ثم يواصل سيره . سأله سمير :

ـ مطولين ؟

كان يلهث . قال القواد :

ـ لا . وصلنا .

عبر الضوء المنساب من باب كوخ مفتوح ، انبثق صبي يعدو على امتداد الضوء المتسرب من الباب ، ثم غاب في الظلام . صوت أقدامه استمر في سمعي ، ثم في خيالي . استطعت ان أرى امرأة في الداخل ، كبيرة الحجم ، تجلس صامتة على الأرض ، تحيط بها هالة ضوء اعمش من الخلف . بدت في صمتها تجسيداً مصمتاً لتلميحات بذيئة . بدت مستباحة لنا .

سمعت صوتاً نسائياً ينادي :

ـ يا بنت . . .

فترة صمت مرت ، ثم ارتفع صوتها مرة أخرى :

ـ يا مقصوفة الرقبة .

وعندما صمت النداء ارتفع صوت بكاء طفل . انفجر زاعقاً فجأة ، ملوياً ، وسط سكون مشحون بالتربص ، كانفجار قنبلة .

واصلنا السير ، وحاصرنا الصمت . ظلّ صوت المرأة في ذاكرتي ، مختنقاً ، لاهثاً . كان فيه بحة خشنة لسعتني كالنار . لأول مرة أشعر بالرغبة صافية ، خالصة من كل الانفعالات التي تثيرها امرأة مشتهاة ومحبوبة . امتزج ذلك برائحة العرق ، بلحم يفوح سخونة ، ناراً مشتعلة تحت الجلد الناعم ، الزلق ، وبرائحة النبيذ في الفم . وشاع ذلك الاحساس في امتداد الليل . أصبح له ملمس . كل ما كان يحيط بي أصبح مشحوناً به ، وشعرت انني محتوى داخل ضباب كثيف ، من ذوب أجساد هو رغبة محضة .

تخلل ذلك الاحساس كل ما حولي ، واستحالت أصوات الليل الى امرأة تفح بسعير رغبتها . وبدا القواد الذي يتقدمنا في ضوء جديد . كان الرسول الصارم لهذا العالم ، وتسلل الي سلم جديد من القيم ، يقف في قمته رجل يفقد ذاته في عمان الحياة المحترمة ، الرتيبة ، ليستعيدها في هذا العالم الذي يفح شبقاً .

أخذ الطريق يصعد بنا . وأخذنا بعد قليل نسير في طريق مترب واسع . أصبحت الأكواخ تحتنا . وفي ضوء الليل الشحيح كنا نستطيع ان نرى هياكلها المعتمة ، ومربعات أسقفها . وفي داخلها أجساد هامسة ، مبحوحة بالرغبة ، تدعوني ، وأنا لا أستجيب ، مستسلماً لخطوات قائدنا ، واحساس بأن فرصاً تفلت من بين أصابعي ، وسأندم لأنني لم أبادر للامساك بها .

همست :

ـ مطولين ؟

لم يجب احد . لم يسمعني احد . سببت الكلمة ألماً في حلقي الجاف .

توقفنا أمام بوابة خشبية كبيرة ، في منتصفها باب صغير . كانت مكسوة بصفيح . طرقها القواد بقبضة يده . سمعنا صوت رجل من الداخل يقول : « مين ؟ » ثم سمعنا صوت خطواته تقترب من الباب ، ثم كرر سؤاله : « مين ؟ » والقواد لا يجيب .

ساد صمت في جانبي الباب . ثم قال الرجل الذي في الداخل بصوت مسموع ، ولكنه هامس :

ــ مين عَ الباب ؟

قال القواد بنفاذ صبر :

ــ افتح يا اخي .

انفتحت البوابة الصغيرة ، احنى القواد رأسه ومرق منها ، وتبعناه . كنت أول من دخل . يبدو اننا دخلنا الى حظيرة مواش . استطعت ان اميِّز في الظلمة هيكل جمل وعدد من البقرات وحيوان أقل حجماً ، ربما كان حماراً صغيراً . شممت رائحة روث الدواب ، وسمعت الأصوات الخافتة ، المتصلة لحركة الحيوانات غير المرئية .

لم يكن للرجل الذي فتح لنا الباب أثر . سار القواد أمامنا وتبعناه . انتهينا الى بوابة أخرى ، والى حوش آخر ، يفصل بينه وبين الحظيرة سور مرتفع . على يميننا أبواب مغلقة ، مضاءة من الداخل ، وفي مواجهتنا أيضاً كان باب مضاء من الداخل .

قال لنا القواد :

ــ استنوا دقيقة .

واختفى ، دون أن ينفتح باب من تلك الأبواب التي على يميننا أو في مواجهتنا . بدت لنا عبارة القواد وكأنها أمر بالحركة ، بان نقوم بفعل ما . تحركنا دون ان نبتعد عن بعضنا . اصطدمت بأحد أصدقائي فلم نقل شيئاً . تبينت بعد قليل انه سمير . عرفت ذلك من حركته المعتادة عندما يكون متوتراً ، إذ يرفع يده ويفرك أنفه .

تنحنح شفيق بقوة ، كان ذلك نمطاً من التهريج لإزالة الخوف مُن قلوبنا . خمنت ان ذلك سوف يجعل سمير يقول شيئاً . أوحى اليّ بذلك اضطراب تنفسه . قال لي بعد قليل بهمس :

ــ خايف ؟

ألاّ يكف عن ترديد هذا السؤال ؟ احسست انني على وشك ان انفجر به . امسكت بكتفه وقلت بهمس مختنق كالفحيح :

ــ اسكت يا اخي !

فتنحنح واخذ يفرك أنفه .

كـان الضوء يتسرب من شقوق الأبـواب ، ولكنـه لم يكن يصـل الى أرض الحوش . كانت الظلمة كاملة حولنا . احسست بالضوء في الداخـل يضع حـداً فاصلاً بيننا وبين حفل يدور في الداخل ، في صمت ، تمارس فيه طقوس غريبة ، واستعراضات وممارسات جسدية فاجرة وصـارمة ؛ يسيـطر على المحتفلين هـوس الاندماج الكامل . النساء كبيرات الأجساد ، بعيون واسعة ، سوداء ، وقحـة ، محاطة بالكحل . والرجال عابسون ، يقتحمون النساء بذلك الغضب الكـامن ، المصمم ، الواثق ، وكأنهم ينفّذون حكماً بالقتل .

كل شيء يحدث في ذلك الحفل جاد وصامت .

بدا لي انني أعيش ذكرى قديمة ، عشتها منذ آلاف السنين ، واختزنتها خلايا الـذاكرة منـذ تلك العهود السحيقـة . لم تكن ذكرى تستعـاد في تلك الحجـرات المغلقة ، الصامتة ، المضاءة بوهج قاتم ، يخفي الأسرار في داخله ، وهج يوحي ويشير الى عالم غامض في داخله . . . بل بدا وكان هذا الحفل مستمر منـذ آلاف السنين ، منطوعن عالمنا ، يحاذيه ، دون ان يتواصل معه .

كان الضوء يحتجب من وراء أحد الأبواب ، فأشعر بالخوف . احسست بان هنالك من يراقبنا ، عين بيضاء ، صارمة ، متعالية ، تريد ان تتأكد ان كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعة ، حسب تدبير مرسوم مقدماً . وخطر لي : هل هي مؤامرة اعدت للسخـرية بنـا ؟ هل ستنفتـح الأبواب فجـأة ، لينبثق منها جمهـور تقي ، ورع ، غاضب . سوف يسحقنا بسبب الخطايا التي جئنا لاقترافها ؟

ولكن لماذا ؟

وشعرت بذلك الخوف الأصم ، الذي ينتابني أمام الشر الخالص ، الذي لا تبرير له ، ذلك القدر الذي يضع قانونه ويعاقبك طبقاً له . وهـو ليس قانـوناً ،

بل نزوة شريرة . وددت ان أقول شيئاً لأصحابي لأتخلص من عبء الموقف .

أخذت أدقق النظر في المكان . بعد ان اعتادت عيناي الظلام تبين لي ان هنالك عدداً كبيراً من الناس يجلسون ، أو يقفون ، أو يتجولون في الحوش . كان أصحابي الثلاثة يقفون أمامي كأعمدة سوداء . ولكن الآخرين ؟ من يكونون ؟ ماذا يريدون ؟ هل هم جزء من ذلك التدبير ؟ استطعت ان أرى وجه أحدهم ، للحظة ، عندما جذب نفساً من السيجارة التي في يده ، فأضاءت وجهه . كان يخفيها في كفه ، فيما يبدو . ولكن ، لماذا هذا الصمت ؟

لاحظت بعد قليل ان الجالسين يتهامسون . عزوت ذلك ، في البداية ، الى حركة الدواب في الحظيرة المجاورة . ولكنني ، بتتبع حركة الرؤوس الملفعة بالكوفيات البيضاء ، تبينت مصدر الهمس . ربما كان الخوف هو الذي جعلني أتصور اننا موضوع ذلك الهمس . لم أفطن الى ان الآخرين عاجزون عن رؤيتنا كعجزنا عن رؤيتهم .

همست :

ــ شفيق .

قال بصوت رائق

ــ طوّل العرض .

اراحني صوته .

أشعل احدهم سيجارة بواسطة سيجارة مشتعلة في كف جاره . وعندما أضاء وهج السجارة وجهه لبعض الوقت ، تخيّلت انني اعرف صاحب ذلك الوجه . حاولت ان اتذكر .

تصورت ان القواد قد تأخر علينا وقتاً طويلاً جداً . بدأت أتوتر . الغضب أبعد عني شعور الخوف . ثم خطر لي ان احدد موقعنا . تذكرت القهوة ، في شارع المهاجرين ، بواجهتها الزجاجية . اين نحن منها الآن ؟ انها فوقنا دون ريب ، ولكن هل تقع الى شرقنا ، أم الى غربنا ؟ لم استطع معرفة ذلك . وسألت نفسي ، إن كنا سوف نعود من نفس الطريق الذي جئنا منه . من الأفضل ان

نوالي صعودنا الى حارة المهاجرين ، نجتازها ، ثم نصعد جبل عمان من جهته الجنوبية ، بدلاً من ان نذهب جنوباً ، ثم شرقاً ، ثم شمالاً ، ثم غرباً الى جبل عمان . ما الذي ، إذن ، جعل القواد يجيء بنا من تلك الطريق الطويلة المعقدة ؟ ثم سئمت هذه الخواطر وأخذت أراقب من حولي .

انفتح باب على يسارنا ، وفي هالة من الضوء الأصفر الخاثر ، خرج الينا القواد . فتح الباب وأغلقه دون تعجل . بدت الحجرة ، للحظة ، جوها مليء بدخان السجاير ، ولون أحمر قاتم كالضباب حجب الرؤية . سار نحونا ، كأنه كان يعلم انه سيجدنا حيث تركنا ، وقال :

ــ تفضلوا .

قال ذلك بصوت طبيعي تماماً كأنه يدعونا لتناول الطعام . حدثت حركة عامة بين الجالسين ، وعلا الهمس . أحد الجالسين ضحك ضحكة صغيرة نفذت اليّ كالسكين ، وشاركه آخر . خطر لي : ماذا يفعل هؤلاء الجالسون ؟ جئنا قبلهم ، وها نحن ندخل قبلهم . هل جاءوا ليكونوا مجرد شهود على فضيحتنا ؟ لم يفعلوا شيئاً سوى الصمت . والتجاهل ، وضحكات السخرية والهمس المريب . تجسدوا أمامي كضمير اجتماعي .

تبعنا القواد الى حجرة كانت على يميننا . فتح لنا الباب رجل طويل جداً ، محني قليلاً ، يرتدي جلباباً أبيض . استدار واختفى بمجرد أن رآنا . الحجرة التي دخلناها كانت خالية من الأثاث ، عدا حصيرة طويت واسندت الى احد الجدران . كان هنالك ، أيضاً ، زير ماء ، كبير الحجم ، أغلقت فوهته بقطعة مسطحة من الخشب أصبح لونها اسمر . حول الزير تكونت دائرة سوداء من نشع المياه . أرضية الحجرة كانت من الطين ، وأما الجدران فيبدو انها لم تدهن قط ، ما زال القش والطين بادياً ، وكان لبعض القشات لمعة . كان السقف مكوناً من القصّيب الذي يستقر على جسور خشبية ، وكان أسود . النافذة الوحيدة كانت مغلقة بلوح خشبي .

على يسارنا ممر ضيق ، طويل ومظلم . في نهايته ضوء خافت ، أصفر ؛ ضوء سراج . نادى القواد :

ـــ يا عبد !

انبثق الرجل الذي فتح لنا الباب . كان يمسك رغيف خبز بيده ، وبيده الأخرى حبة طماطم ، قد استهلك جزءاً منها . استمر في الأكل دون ان يبدو عليه انه لاحظ وجودنا . استطعت ان أرى وجهه بوضوح . كان أبيض ، ذلك البياض المرضي ، عظامه بارزة ، طويلاً ونحيلاً . تغطي الوجه مئات التجاعيد الدقيقة . له شفتان رقيقتان ، وأنف حاد ، طويل ، ينحني طرفه الى الأسفل . المخيف عيناه : لامعتان ، بياضهما ناصع كطبق الصيني النظيف .

تهامس هو والقواد ، ثم ألقى نحوي نظرة ـ بدت غاضبة ـ احسست بها كاللطمة . ثم دخل الاثنان الممر ، واختفيا . الى متى سوف يستمر هذا الانتظار !

قال شفيق بضيق :

ـــ وبعدين ؟

وفي تلك اللحظة أطل رأس امرأة من طرف الممر . شعرها كستنائي كثيف ، ووجهها كبير ، مطلي بالبودرة . تقدمت خطوة ، وقال سمير :

ـــ هاي هيه .

وقفت المرأة للحظة ، تطالعنا باندهاش . كانت ترتدي ثوباً احمر ، شفافاً ، يصل الى كاحليها ؛ وكان كل ما فيها كبير . ثدياها ، وقد انكشف نصفهما الأعلى فوق ياقة الثوب ، الذي غطى الصدر بثنيات متجاورة ، وبطنها الكبير وكأنها حبلى ، وفخذاها اللذان بدا حجمهما الهائل من تحت الثوب ، وذراعاها العاريتان ، المستديرتان .

تأملتنا المرأة قليلاً ، ثم ضحكت وقالت بصوت ثري :

ـــ يوه !

وعادت الى الممر ، واجزاء جسدها تتفكك وتلتئم ، وهي منطلقة فيها يشبه العدو . سمعت ضحكة امرأة ، ثم صوتها ، وهي تقول كلاماً غير واضح ؛ ثم تسأل بجرس مختلف :

ـــ مين ؟

ردّ عليها صوت نسائي آخر ، حاد ، من خلال ضحك بدا لي مفتعلاً ، بكلام لم استطع تميزه . في تلك اللحظة عاد الرجل الشاحب الطويل . اتجه الى الزير وغرف منه وأخذ يشرب . خلال شربه ، كانت تفاحة آدم ، المحاطة بجلد مترهل وعروق بارزة ، ترتفع وتنخفض ، اعاد الكوز الى مكانه ، وتمطى ، وتجشأ . ثم نظر الينا بمعاتبة وهو يحرك حاجبيه ، وابتسم . كانت له بسمة جميلة ، اذ بدت أسنان بيضاء ، صقلية ، لامعة . اخرجت علبة سجايري ، فتحتها ومددتها له . تناول منها سيجارة ، وقال :

ـ بدها سيكارة .

اشعلتها له . كانت يدي ترتعش . لاحظت انه لاحظ ذلك . قدمت العلبة لأصدقائي فتناول كل منهم سيجارة . جذب الرجل نفساً عميقاً من السيجارة ، واخرجه من فتحتي انفه . قال :

ـ من الصبح ما أكلت !

خطر لي ان أنصحه بتناول طعامه بانتظام ، لأنه من الواضح انه يحتاج الى غذاء جيد . ثم عدلت .

قلت :

ـ وين راح الـ . . .

ولم أعرف ماذا اسميه . أجاب الرجل وابتسامته تتسع :

ـ جاي .

الرجل يمتلك حس الفكاهة . شعرت بمودة نحوه . قال وهو يفتح عينيه على سعتهما :

ـ بنات مثل الورد .

قلت :

ـ يعني . . .

قاطعني :

ـ وحياتكو مش لكل الناس .

سأله سمير :

ـ وين راح الأخ يا استاذ ؟
أشار الرجل بيده في اتجاه الممر ، فقال سمير :
ـ مطول ؟
فقال الرجل بجدية :
ـ دقيقة واحدة .
ألقى الممر نحونا شاباً أنيقاً ، وسيماً . كان يسير بتمهل ، ويضع سيجارة في طرف فمه . عندما رآنا احنى رأسه وخرج مسرعاً . تبعه القواد ، محاولاً ان يسبقه . قلنا للقواد :
ـ طوّلت .
لم يرد.
كان الشاب قد خرج من الحجرة ، وتبعه القواد .
خطا من الممر شاب آخر ، في فمه سيجارة أيضاً . كان يزرر بنطلونه . ازرار قميصه الثلاثة العليا ما تزال مفكوكة . تأملنا بنظرة غاضبة وغادر المكان باستعجال . سمعت الهمس يرتفع في الحوش ، وضحكات متفرقة .
سار الرجل الطويل الى الباب ، وأطل برأسه منه . قال موجهاً كلامه الى الذين يجلسون في الحوش :
ـ خلو عندكو دم . عيب .
ارتفعت ضحكات أخرى ، وقال صوت من الخارج :
ـ عيب ؟
وضحك . قال الرجل :
ـ طيب انا بعرف شغلي معاك . بس نخلص من الزباين .
لم يكن الرجل جاداً في تهديده. ناداه احدهم :
ـ تعال أقول لك كلمة .
وضحك . ثم أضاف :
ـ تعال شوف شغلك معايي .
وانطلق ضحك عام . قال الرجل :

ـــ اما بياخة .

وأغلق الباب واستدار نحونا . قال :

ـــ اما قلة أدب .

لم يكن الرجل جاداً . بدا وكأنه يجاهد لمنع نفسه من الضحك . قلت لنفسي : الرجل يمتلك حس فكاهة بالتأكيد .

انفتح الباب ودخل القواد . كان لوجهه ، في تلك اللحظة ، تعبيراً غائباً ، منشغلاً ، كأنه لا يرانا . توقف أمام سمير وقال :

ـــ ايدكو على المصاري .

قال شفيق :

ـــ هسّا ؟ بعد الـ . . .

قال القواد وهو يمد يده :

ـــ لا . هّلا . كل واحد دينار .

قال شفيق باستنكار :

ـــ دينار !

قال القواد :

ـــ أيوه دينار . بدكوا ببلاش ، من غير مصاري ؟

قال شفيق :

ـــ المرة اللي فاتت دفعنا نص دينار .

قال القواد :

ـــ احنا في الحاضر .

تدخل سمير وقال بصوت مختنق :

ـــ يا استاذ نحكي لك بصراحة . ما فيه ولا واحد منا معاه دينار .

قال القواد :

ـــ عطلتونا يا جماعة .

واستمر سمير :

ـــ والله العظيم ، والله العظيم . . .

قال شفيق لسمير بغضب :

ـ اسكت .

ثم توجه الى القواد :

ـ نص دينار ، والا السلام عليكو ، احنا ماشيين .

واستدار نحو الباب .

قال سمير بحرارة ومراضاة :

ـ وقف يا شفيق . والله العظيم ، والله العظيم مرتين انه ما فيه واحد منا معاه دينار ، والا يعني . . .

قال القواد بغضب :

ـ يا اخي ، طيب ، نص دينار ، نص دينار ، على كل حال صرتوا واصلين . الواحد بتعلم .

تناول النقود منا وهو مقطب ، متألم . أعاد عدها ، ثم وضعها في جيب قميصه . قال :

ـ اثنين ، اثنين . اثنين يدخلوا واثنين يستنوا .

قفز سمير في اتجاه الممر ، ثم توقف ونظر خلفه . قال لنا القواد وهو يحدّق في سمير :

ـ كمان واحد .

ردد سمير :

ـ كمان واحد .

دفعني شفيق وقال :

ـ ادخل معاه .

رفضت ، فألح :

ـ ادخل يا اخي .

رفضت ، ولكن خالد وشفيق دفعاني باتجاه الممر . قال خالد :

ـ ادخل يا ابن آدم . كل واحد رايح يخش .

قال شفيق :

ـ ما بدها رسميات .

الحجرة التي أدخلني اليها القواد كانت مربعة ، صغيرة ، عالية السقف ، لها شباك مربع في أعلى الجدار المواجه للباب . على الجدران الصفت العديد من الصور الملونة ، المنتزعة من المجلات المصرية : ماري كويني بشعر أشقر وافر ، مفروق من منتصف الرأس ، وعينين خضراوين ، تنظران بحياد ؛ فريد الأطرش يرتدي قميص كاروهات بنفسجي ، عيناه الجاحظتان حالمتان ، خائفتان ، وفمه واسع جداً ، فاتن حمامة منزعجة ، تحلق بتساؤل ؛ امرأة عارية الظهر ، يبدو المنظر الجانبي لوجهها . صورة كبيرة ذات ألوان حمراء وذهبية للملكة اليزابيث . كانت تضع تاجاً على رأسها الذهبي وتبتسم .

فوجئت بالمرأة . كانت سمراء سمينة (أكلهن سمينات ؟) تتكوم على فرشة سمراء (ربما من القذارة) ملقاة لصق الجدار . كانت أرضية الحجرة من الطين ، مغطاة بحصيرة . ملابس المرأة معلقة بمسامير على الجدار ، وفي ركن الحجرة زير ماء صغير .

كانت المرأة عارية عدا سوتيان احمر يخفي ثدييها ، وكلسون احمر . كانت تتمدد على ظهرها ، وعيناها تطالعان السقف . احترت ماذا أفعل . أدارت المرأة رأسها وأخذت تطالعني في صمت . ثم فجأة ، تناولت روباً أحمر حريرياً ، كان مكوّماً على الحصيرة ، قرب الفرشة ، وصرخت بذعر :

ـ يوه !

وغطت جسدها بالروب ، وأخذت تنظر بعينين عسليتين ، كبيرتين ، كعيني الجمل . تصورت ان خطأً ما قد حدث حين دخلت هذه الحجرة ، وخطر لي ان انسحب . ثم ابتسمت . وتحولت الابتسامة الى ضحكة ، أخفتها بكف كبيرة خشنة .

تقدمت خطوة ، وقلت :

ـ مسا الخير .

كان قلبي ينبض بعنف . ضحكت . اغرقت في الضحك ، وقالت خلال

ذلك :

ــ الخير .

قلت :

ــ ليش بتضحكي ؟

قالت :

ــ خضيتني .

قلتْ :

ــ آسف .

ثم جلست بجوارها على طرف الفرشة . بحثت عن كلام أقوله لها ، ولكن خيبة عقلت لساني . أهذه هي المرأة الحلم . مالت على جنبها ، وضغطت ببطنها على ظهري بايقاع ، وقالت :

ــ أول مرة بتعمل مع ستات ؟

قلت كاذباً :

ــ لا .

كانت رائحة عرقها نفّاذة . نظرت اليها . تحت أنفها تشكل شارب من العرق ، على شكل حبيبات . امسكت يدي بكف مبلولة وأخذت تداعبها ، وأنا حائر فيما علي أن أفعله . جذبت يدي وقالت :

ــ يوه ، ما تشلح هدومك .

نهضت وأخذت أخلع ملابسي باستعجال وأكومها على الحضيرة . كانت تراقبني بعينين محايدتين . اقتربت منها وأنا أشعر بعبء جسدي العاري . اشعرتني عيناها الباردتان ان منظري مضحك .

تمددت بجوارها وقلت :

ــ ايش اسمك ؟

قالت :

ــ سوسو ؟

قلت :

ـ كيف حالك ؟

شعرت اني أقول كلاماً سخيفاً . ازداد شعوري بذلك عندما تجاهلت سؤالي ، أخذت أداعب كتفها . تنهدت ، وظل جسدها مسترخياً ونظرتها معلقة في السقف . كان ذلك مخيباً الى أقصى حد . قلت :

ـ مالك ؟

قالت :

ـ استعجل يا حبيبي .

قلت بغضب :

ـ ليش بدك استعجل ؟

ابتسمت وقالت :

ـ لأني مشتاقة إلك !

وأحاطت عنقي بذراع سمينة قوية . وقبلتني . احسست انها تركت على خدي بقعة من الماء . قالت :

ـ وانت ؟

قلت :

ـ مشتاق .

بحثت عن مكان جاف في وجهها لأقبله . قبلتها على وجنتها ؛ رغم ذلك احسست بشفتي مبلولتين . مددت يدي وأزحت الروب الذي تغطي به جسدها . لم يكن ذلك سهلاً . قالت :

ـ يوه ، عيب .

ثم قررت في النهاية ان تتخلى عن الروب . جذبته من فوق جسدها وألقته لصق الجدار . مددت يدي وداعبت بطنها . كان كبيراً ، وليّناً ، كطشت كبير من العجين الطري الخمران .

أخذت تضحك ، وقالت :

ـ بتدغدغني .

ابعدت يدي وقلت :

ـ اشلحي السوتيان .

قالت وهي تهز سبابتها في وجهي :

ـ لا ، لا ، لا ، لا .

قلت :

ـ ليش ؟

ولكنها أصرت على الرفض . فازددت الحاحاً . تنهدت وقالت :

ـ طيب .

واخرجت احد ثدييها ، وامسكته بكفها . غير انني الححت :

ـ لا ، لا ، لازم تشلحيه .

كانت المسألة ، بالنسبة لي ، مسألة كرامة في المحل الأول . ولكنها أصرّت على الرفض . عندها هددت بارتداء ملابسي ومغادرة المكان . عند ذاك فقط ادارت لي ظهرها وطلبت مني فك السوتيان .

عندما جذبت السوتيان سال ثدياها ، وادهشتني ضخامتهما ، وطراوتهما . امسكت بهما ، ثم انسابت يدي الى فخذيها الهائلين . انزلقت يدي فوقهما وابتلت . كانت مستسلمة لمداعباتي دون حركة . عيناها شاردتان . قدرت انها من الممكن ان تكون غاضبة بسبب الحاحي عليها لتخلع السوتيان . نظرت الى وجهها ، محاولاً ان اقرأه ، وقلت :

ـ ليش ساكتة ؟ .

كان من الواضح انها لم تسمع سؤالي ، فأعدته بغضب .

استدارت وضمتني اليها بقوة ، وقالت :

ـ ساكتة ؟ يا تقبرني .

كان لها قوة جسدية هائلة . استسلمت لها ، فانحنت فوقي وأخذت تداعب شعري . ثم عادت الى حركاتها العنيفة . امسكت رأسي بين كفيها ، وانحنت وقبلتني . وقالت :

ـ أموت في عيونك .

وغشتني رائحة جسدها ، كيد تكتم أنفاسي . كررت :

ــ عيونك . اموت في عيونك .

اخذت اتصرف كطفل مشاكس . قلت :

ــ عيوني مش حلوات .

وسط ضحك صاخب ، وعنف جسدي أكدت لي ان عيني جميلتان ، وانها عشقتني بسببهما . همست :

ــ يا تقبرني .

وأخذت تقبل عيني . ابعدتها قليلاً . وطلبت منها ان تحكي لي قصة حياتها . بدا واضحاً انها لم تفهم سؤالي . فغيّرت صيغة سؤالي وقلت لها انني أريد منها ان تشرح لي الظروف التي قادتها الى هذا المصير . ماذا حدث بالتحديد وشعرت ان ذلك سوف يكون تعويضاً رائعاً عن خيبة أملي .

صمتت وشردت عيناها ، وداعبت يدها شعري : ملأتني بالضجر : أهكذا يتجسد الحلم الذي ألهب خيالي ؟ أهذا كل ما يمكن ان يمنحه جسد المرأة وحديثها ؟

قالت فجأة :

ــ استعجل يا حبيبي .

قلت بغضب :

ــ ليش ؟ زهقت مني ؟

قالت وهي تتنهد بعمق :

ــ لا . لكن خايفة جوزي ييجي .

قلت بصوت مجروح :

ــ أنا أهبل ، تقولي لي جوزك ؟

كنت اعرف انني مزعج ، وانني أضايقها . قالت :

ــ يالاه ، يا حبيبي . . يا ألله منك .

كانت منزعجة حقيقة .

كانت تحتي مغمضة العينين ، فمها مفتوحاً ، وكنت أجاهد لأؤجل لحظة الانتهاء . في الجدار ثقب مظلم . قد يخرج منه عقرب ويلدغني . قطعة صغيرة

من الورق ، أو خرقة يمكن ان يسداه . هل تميت لدغة العقرب ؟ لدغت ابي عقرب . كان متمدداً في وسط الدار ، أمام موقد النار ، يده ، المجاورة للنار ممدودة ومعصوبة بقطعة قماش ابيض . تلك كانت اليد التي لدغتها العقرب . كانت اليمنى .

احسست باختلاجتها تحتي وانتهى كل شيء . كانت يدا أبي الملدوغة تمتد من تحت اللحاف ، وكان الزوار بلحاهم البيضاء الطويلة ينظرون أمامهم بصرامة وصمت .

كانت المرأة تضحك . قبلتني وأنا ممدد على ظهري ، كانت أنفاسها ثقيلة ، ولفمها رائحة غريبة ، وقد تساقط شعرها على وجهي . قالت هامسة :

ــ بدك مرة ثانية . بس ما تطوّل . هه ؟

قلت :

ــ لا ما بدي .

قالت :

ــ اخص عليك . زعلان ؟

لم أجب . قالت :

ــ زعلان يا حبوبي ؟

واخذت تضمني . احسست بطعم اصباغها الثقيلة على شفتي ، وفي حلقي . كان ذلك أشبه بطعم الصابون . نهضت واغتسلت . ثم تناولت قميصي ، فجذبت القميص من يدي ، واحتوتني بين ذراعيها . حاولت ان أقاوم ، ولكن ذلك كان دون جدوى أمام قوتها الجسدية الهائلة . استثارتني فاستسلمت .

عندما ارتديت ملابسي ، قالت :

ــ مبسوط ؟

قلت :

ــ ايوه .

وقد أحسست بالرغبة تلح علي مرة أخرى .

ـ لسّا زعلان ؟

قلت :

ـ لا .

وكنت صادقاً .

عندما خرجت كان ثلاثتهم في انتظاري ، مستعدين للمغادرة . نظروا الي بتساؤل . قال شفيق :

ـ مين انبسطت منك .

قدّرت ان الساعة بلغت الواحدة . هل ما زال الرجال الغامضون في الحوش ؟ نظرت الى ساعتي . فوجئت . كانت الثامنة والنصف فقط ؟ قربتها من اذني لأتأكد انها ما زالت تعمل . دقاتها منتظمة . ولكن هل هذا معقول ؟ هل تم لقاؤنا بالقواد ، ومسيرتنا الطويلة ، والانتظار ، والمرأة . . . كل ذلك في ساعة ونصف ؟ خطر لي ، اننا لو توجهنا الى البيت في هذه اللحظة لعوضت الساعة عن بطئها ، وأصبحت الواحدة بعد منتصف الليل .

قبل ان نصل الى الباب وقف القواد بيننا وبينه قال :

ـ ايوه يا اخوان .

قال شفيق :

ـ خير ان شا الله ؟

ـ كل واحد عشرين قرش .

قال خالد :

ـ ايش ؟

قال القواد :

ـ عشرين قرش . ما انتو عارفين .

قلت :

ـ ايش عارفين ؟

قال شفيق :

ــ ولا عشرين مليم . فاهم ؟

علا صوت القواد :

ــ لا ، انتو زدتوها . احنا سايرناكم أكثر من اللازم . قلتوا : نص دينار ، قلنا : ماشي الحال ؛ بتقول إلكو عشرين قرش اجرتي عن الواحد ، بتقولوا مش عارف ايش . هاي مش حاله .

قال له شفيق ان النصف دينار يحتوي على اجرته . هذا ما حدث في المرة السابقة .

أخرج سمير من جيبه بضعة قروش ، واخرجت انا كمية اخرى ، ووضعناها في يد القواد . واتجهنا الى الباب . لم يستوقفنا ؛ وضع النقود في جيبه دون ان يعدها ، وقال :

ــ انا الغلطان .

ــ ٢ ــ

يبدو ان الذين كانوا في الحوش ، هؤلاء الشهود الصامتون ، المرعبون بغموضهم ، وعدم تحدد هويتهم ، قد غادروه . كانت الظلمة مصمتة ، وكنا نخوض فيها ، وكأننا نعبر سائلاً أسود . توقفت قليلاً حتى تعتاد عيناي الظلمة . حاولت ان اتعرف على شكل آدمي ؛ لم أر احداً .

يبدو انني فقدت أصحابي . لم اعد أشعر بهم حولي ، أو اسمع حركتهم . توقفت . كل خطوة بدت وكأنها سوف تؤدي بي الى حفرة ، لا قرار لها . همست :

ــ شفيق ..

لم اسمع رداً .

فجأة سمعت خلفي صوتاً :

ــ الحمد لله على السلامة يا بطل .

لماذا انا وحدي ؟ خطر لي . لماذا لم يقولوا « يا ابطال ؟ » سمعت ضحكات مكتومة ، جعلت العرق ينساب في ظهري بغزارة . ثم ساد الصمت . وأنا واقف

في مكاني ، متوقعاً عنفاً مباغتاً . خطر لي ، دون ترابط واضح ، ما قالته المرأة انها خائفة ان يفاجأها زوجها . احسست بالورطة شاملة . لو اننا اعطينا القواد ما طلب لما كنت في هذه الورطة .

ولكن أين ذهب اصحابي ؟

سمعت صوت أغنية لعبد الوهاب تذاع من الراديو . أصبح العالم معقولاً . الآن استطيع ان أواصل سيري . همست :

ــ سمير .

انه أكثر اصحابي استجابة . انتظرت رداً ، فلم أسمع شيئاً . ثم جاء ذلك الصوت الذي جمّد الدم في عروقي :

ــ استنى شويه حتى نعمل إلك زفة .

كان صوت امرأة .

هل هذا معقول ؟ امرأة ! لقد أثار تعليقها ضحكاً وتعليقاً جماعياً ! ولكن الغريب انه رغم ان عيني قد تعودتا الظلمة ، فانني لم استطع ان اميّز احداً في الحوش . لقد كان خالياً تماماً .

كان ذلك مخيفاً .

يبدو انني فقدت الاتجاه . أخذت أسير بسرعة ، وبين كل حين وآخر كنت اصطدم بالسور . ادفع بيدي ، لعل ما وصلت اليه هو البوابة ، ولكن خشونة السور كانت تقنعني بانني مخطىء . وأصحابي ؟ وامتلأت بالفزع فعلاً حين خطر لي انهم قد يكونون شركاء في هذه المؤامرة .

كان العرق قد بلل شعر رأسي ، وأخذ ينساب في عيني . هذا ما كان ينقصني . صحت وكأنني استنجد :

ــ شفيق !

ولكن صوتي خرج نحيلاً ، باكياً ، مختنقاً . وكنت ألهث . نظرت حولي . حتى الضوء الذي كان يظهر من شقوق الأبواب اختفى .

درت في هذه المتاهة ، كما بدا لي ، طويلاً . وفجأة وأنا أسرع كالمجنون ،

المهاجرين . عند المنحنى الذي اخذنا نصعد منه الى الحارة اصطدم شفيق بشخص مسرع . قال الرجل :

ــ عفواً .

وغادرنا وانطلق مسرعاً . رن الصوت في اذني رنيناً مألوفاً . انني اعرف صاحبه ، ولكن من يكون ؟ كان الوجه يظهر في لمحة ويختفي ، احاول ان امسك به ، واعرفه ، ولكنه يفلت مني . صعدنا الى البيت ، متسلقين جبل عمان من جهته الجنوبية . كانت مسيرة شاقة ، وكان سمير صامتاً . بينما خالد وسمير لا يكفان عن الكلام . قال خالد ان البنت قالت له ان عيناه جميلتان ، قال شفيق انها قالت له نفس الشيء . وانطلقا يضحكان .

قلت لسمير :

ــ ليش ساكت ؟

قال وكأنه فوجىء :

ــ مش ساكت .

في تلك اللحظة تذكرت الصوت . استعدته في ذهني ، وأدركت انه صوت سعد . سعد ؟ ما الذي جاء به ؟ قلت لنفسي : الذي جاء بنا . لم تقنعني الإجابة . شعرت بحزن لمجيء سعد الى هذا المكان .

دخلنا الحجرة . اكتشفنا ان سمير قد فك ازرار قميصه وبنطلونه قبل ان ندخل . حين أشعلنا الضوء رأيناه عارياً ، يبحث عن المنشفة . وجدها ، فلفها حول جسده واتجه الى الحمام .

ــ ٣ ــ

كنت أجلس في مقهى (وادي النيل) . كالمعتاد ، أمامي فنجان القهوة الفرنسية ، ورواية (مدام بوفاري) ، أوجه نظرات سريعة نحو فتاة تجلس مع شاب ، أراقب المارة في الشارع . بعد ليلة البارحة ، لم اعد شديد التعاطف مع مدام بوفاري . لم يعد لجسدها ذلك الاغواء . لقد رأيت جسد المرأة وخبرته : الترهل ، والعرق ، والرائحة النفاذة .

فقدت حماسي للقراءة . وحتى الفتاة التي تجلس على مائدة قريبة ، تصورت تحت ذلك الثوب ، ورغم المظهر الرياضي ، والصلابة الظاهرية ذلك الترهل . والعرق والرائحة . شعرت بكآبة عميقة ، بان كل شيء يفقد معناه . كأن حماسي للحياة كان مستمداً من صورة محددة للمرأة ، صورة جسد متماسك نظيف ، لا شعر فيه ، الا ذاك الذي على رأسها وفي حاجبيها . . . كل ما تبقى من الجسد ساطع ، صبوح ، صلب ومرن . وعندما انتهت هذه الصورة . احسست وكأن كل ما كان يربطني بالحياة قد انفصم . لا شيء بامكانه الآن ان يعيد لي صور المرأة كما تخيلتها ، ورغبت فيها .

كان ذلك يشبه الموت . ثم خطر لي خاطر ، بعث بعض العزاء في نفسي : الا يجوز ان يكون هنالك أنواع مختلفة من النساء ؟ ان تكون هنالك نساء ذات أجساد صلبة ، ورائحة طيبة ؟

لم يكن العزاء كبيراً . كانت الفكرة مجرد مقولة منطقية . المرأة الحقيقية تلك التي منحت نفسها لي البارحة . ان مجرد تذكرها ، واسترجاع ما حدث بيننا : استرجاع صورة البطن اللين كالعجين الخمران ، ورائحة الفم ، والفخذين الكبيرين ، الرجراجين ، مجرد استرجاع ذلك كان يشعرني بالقذارة ، وبالرغبة في الاستحمام . كانت رائحتها في أنفي ، وملمسها في يدي ، وطعم أصباغها في فمي ، ملتصقاً بشفتي .

جاء الجرسون مسرعاً ؛ قال :

ــ جريس ؟

قلت :

ــ ايوه .

قال :

ــ تليفون .

اسرعت نحو التليفون . كان صوت سلطانة ، قالت :

ــ جريس ؟

قلت :

ـ انا جريس .
قالت :
ـ تعال بسرعة .
قلت :
ـ فيه إشي ؟
ضحكت ، وقالت :
ـ فيه . مشتاقة إلك .
أردت أن أقول لها شيئاً رائعاً وجميلاً . كلمات حب وشوق . ولكنني لم اجرؤ . قلت :
ـ جاي بسرعة .
قالت :
ـ لا تتأخر .
قلت :
ـ وحدك ؟ من حالك ؟
ضحكت وقالت :
ـ تعال .
دفعت الحساب وأسرعت .
رغم سرعتي في السير كنت حذراً جداً من السيارات . لم أكن أريد أن يحدث لي شيء ، قبل أن أرى سلطانة .

ـ ٤ ـ

مع سلطانة رأيت وجهاً جديداً للمرأة ـ الحلم . استعدت حماسي للحياة أكثر من أي وقت مضى .
قالت عزه :
ـ وبعدين ؟ مش فاهمة ؟

قلت :

ـ بعدين .

قالت بجدة :

ـ ايه دا بالضبط ؟ بتعمل Suspense ؟[1].

(١) تشويق .

القسم الثاني

التذكر

١ ـ طعمه يتذكر

٢ ـ جريس يتذكر

٣ ـ سلطانة تتذكر

طعمة يتذكر
ـ أميرة تتذكر

ـ ١ ـ

الشرفة ترتفع عن الأرض مترين أو أقل قليلاً . هنالك درجات تصعد من الشارع الى مدخل البناية المكوّنة من ثلاثة طوابق وستة شقق . سور شرفة الشقة الواقعة على يمين الداخل يرتفع متراً . فوقه صُفّت اصص فخارية ، فيها نعناع ، ونبات كثيف العطر (يسمونه عطراً) . وورود . هنالك اصص كبيرة مزروع فيها بقدونس ورشاد ويصل أخضر وطماطم . في الصيف تكتسب النباتات لوناً رمادياً ، يزول بعد سقيها بالماء ، أو إزالة الغبار عن أعوادها ، ليعود اللون الرمادي بعد ساعات قليلة .

الشقة تطل على شارع ترابي ، يتفرع عن الشارع الذي يمر جنوبي مدرسة المطران . وقد بدأت محافظة العاصفة برصفه حديثاً ، لهذا كان جو الشارع محملاً بالتراب بشكل دائم . حجرة النوم ، في الشقة ، تطل على المنحدر الجنوبي لجبل عمان . ينساب الجبل هابطاً ، وكذلك البيوت الى حارة المهاجرين ، يليها منطقة عريضة يمر سيل عمان (الذي يجف في الصيف) في وسطها . يتلو ذلك ارتفاع جبل النظيف .

من بين المساحات الفارغة بين الأصص يستطيع العابر ، إن دقق النظر ، ان يرى وجه طعمة ـ اجزاء منه بالطبع ـ . يستطيع أن يرى عينيه تطالعان كل ما

يتحرك في الشارع .

كان يجلس على كرسي خشبي مدهـون بلون أشقر . كـان طعمة ، ببيجامته السمنية ، يبدو كبير الحجم . حين يغادر زائره الجالس على الشرفة ليرتدي بذلته ، يبدو وكأنه بتر اجزاء من جسده حين يعود .

يجلس في هذه الساعة الصباحية وحيداً يقرأ كتاباً بعنوان « اخترت الحرية » . طبعة بنجوين ، من تأليف عضو مجلس العموم البريطاني زلياكص . من الواضح انه لا يستطيع التركيز على القراءة . كان يقرأ ، ثم يكتشف انه لم يفهم ما قرأه . يكتشف ذلك حين يعيد قراءة الفقرة . يكتشف كأنه يقرأها للمرة الأولى . يضع الكتاب على افريز الشرفة . ويتأهب للنهوض لاعداد فنجان قهوة . ينهض ، ثم يعاود الجلوس .

ينظر الى الساعة . العاشرة والنصف . هذه موعد مرورها .

ـ ٢ ـ

في كـل مرة تغـافلني . ارفع رأسي ، فـأراها قـد تجاوزت الشـرفـة . أراهـا تقترب ، وحين تحاذي الشرفة ، اناديها بصوت طبيعي :

ـ وانتِ رايحة تشتري علبة سجاير إلي .

تنظر مندهشة :

ـ عندك مانع عموه ؟

ولكنني لا أرى الا ظهرها وهي مبتعدة .

الكلمات تتراقص أمام عيني . احتاج الى نظارة طبية ؟ هذه الفقرة قرأتها قبل قليل . العاشرة والنصف ودقيقتين . هل أستطيع أن أقود الجماهير وأنا عاجز عن التحكم في نفسي ؟ طفلة ، خادمة ، تشل تفكيري ، فلا استطيع التركيز ، سوف أناقش نفسي فيها بعد . ليس الآن . الساعـة العاشـرة والنصف وأربع ، وخمس دقائق .

ـ٣ـ

يتذكر . قبل ان يراها يأخذ قلبه في الخفقان بسرعة . تجاوزت الشرفة دون ان يراها . يشاهدها تصعد المرتفع المؤدي الى الطريق العام . عجيزتها تتقلص وهي تصعد ، وساقاها يتثنيان . ثم ـ أي حظ ! ـ ربما بسبب سرعتها ، مع هبوب زوبعة ، ارتفع ثوبها . اعمته لمعة الفخذين . يتذكرهما قويين ، ساطعين ، ثم ملابسها الداخلية . يتخلى عن كل وقار . يسقط الكتاب على الأرض ، ينهض مصدراً من فمه صوتاً كالصفير (متسس . . بسست) . ها هي تلتفت اليه ، مرفوعة الحاجبين ، مفتوحة الفم قليلاً . اي وجه ؟ أي صدر ؟ يقبل كفه ، ثم ينفخ القبلة نحوها ، يكوّر قبضتيه على ، مكوّناً ثديين ، ويهمس همساً عالياً :

ـــ حلوين .

تقف وتنظر اليه ، تدقق فيه النظر ، كأنها تود ان تتأكد ان ما يحدث حقيقي . ثم تستدير فجأة وتركض ، سلتها ترتفع في الهواء ثم تخبط جنبها . تختفي ، ثم تظهر ثانية ، لتغيب .

اعماه الفخذان ببريقهما . في داخله صوت ضعيف « كنت أحمق يا طعمة . فضحت نفسك »، ولكن المدير الذي في داخله جعله يسرع نحو دورة المياه . يقرفص ، يغمض عينيه ، ويستعيد ذلك البريق . تقترب حتى يحس ملمس جسدها ، رائحتها ، تلهث ، تعوي ، تصرخ طالبة المزيد . وفجأة ينتهي كل شيء . أوغست فوريل يقول العادة السرية لا ضرر منها . يشعر بارهاق جسدي ، بالاشمئزاز والقذارة . يقول لنفسه « المسألة فيزيولوجية بحتة » يجب ان يركز على القراءة الآن . يجلس ، ولكنه لا يستطيع القراءة . عيناه تراقبان الشارع .

يتخذ قراراً صارماً بان يواصل القراءة . هل نلوم الاتحاد السوفييتي اذا خلق جهازاً بوليسياً قوياً ؟ ان الغرب لا يزال يبذل جهوداً لا تتوقف للتسلل الى قلعته ، الى القيام بانقلاب داخلي ، أو تدميره من الداخل . محاكمة بوخارين ورادك ، وعدد من جنرالات الجيش الأحمر تبرهن على ذلك . ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نلوم

الاتحاد السوفييتي لأنه سحب قواته من كوريا تاركاً اليابان لقمة سائغة للمستعمرين الأمريكيين .

محاكمات موسكو . يستعيد ، في ذهنه بسرعة ، ما كتبه السفير الأمريكي في موسكو آنذاك في كتاب « بعثة الى موسكو » .

الأفكار الجديدة التي يقدمها الكتاب اثارت في داخله حماساً منعه من مواصلة القراءة ، وانساه البنت ، والاحساس بالقذارة الجسدية . شعر انه لا يستطيع الجلوس أكثر من ذلك . وفجأة رآها عائدة . احس بقلبه يهبط . لم يعد راغباً فيها ، ولكنه لن يغفر لنفسه لو تركها تمر دون ان يكلمها . وأصابته الدهشة الى حد الذهول . كانت تبتسم له . صرخ :

ـ آه يا ملعونة .

نظرت اليه ، الى عينيه مباشرة ، فاحس بالشلل . ثم انفجرت ضاحكة ، وأحنت رأسها وأخذت تركض .

ـ ٤ ـ

قالت أميرة لنفسها : انه مجنون . الا يرى شعره الأبيض ؟ لم يكن شعره ابيض ، بل خروبياً يتخلله شيب خفيف . لقد تملكها الخوف حين رأته يضع قبضتيه على صدره ويصيح : « حلوين » . كان ذلك مخيفاً بالفعل . ولكنها ، بمجرد ان غاب عن عينيها ، استولت عليها رغبة لا تقاوم بالضحك .

تأكد لها جنونه حين عادت حاملة سلة الخضار ممتلئة . كان يقف في الشرفة ، سميناً ، زائغ النظرة ؛ اختلج وجهه عندما رآها ولكنه لم يقل لها شيئاً . فغلبها الضحك واسرعت ، رغم ثقل السلة ، والألم الذي كانت تسببه وهي تخبط فخذها .

عندما اختلت لنفسها بعد الانتهاء من الغداء ، وغسل الصحون ، والاسترخاء في الحجرة الصغيرة التي كانت تنام فيها ، تذكرت الرجل المجنون .

كانت قد نسيته منذ اللحظة التي دخلت فيها البيت . استعادت كل شيء وكأنه يحدث مرة اخرى .

« منسست . . بسست. . . وترتفع قبضتاه الى صدره ». وتوقفت عن التذكر ، أصبح المشهد ثابتاً : يقف كبيراً ، قبضتاه على صدره ، ولمعة ضاحكة في عينيه ؛ تشعر فجأة بقلبها يهبط ، وبلسعة تصعد من عمق صدرها وتنغز الحلمتين . تشهق ، وتضغط على نهديها .

ثم تراه واقفاً بالباب ، طويلاً ، نحيلاً . تبعد يديها عن نهديها وتبادله النظرات .

يقول هامساً :

ــ ايش بتعملي ؟

كان صوته خشناً ، مختنقاً ، تقول :

ــ ولا إشي يا استاذ احسان .

يقف ويبتلع ريقه . ترى حنجرته عبر عنقه الطويل وتهبط . ترتفع وتهبط .

ــ أنا . . .

يقول . ثم يدخل . ينحني فوقها ويمسك نهديها ويضغط عليهما بقبضتيه . تغمض عينيها ، تلهث ، وهو يلهث . ينفتح باب : فيخرج مسرعاً . يقف خارج الحجرة ، وينظر الى يمينه ، والى يساره ، ثم يتأتيء :

ــ أنا . . . انا . . .

ابتل انفه بالعرق ، وقال :

ــ بحبك . . .

وابتعد .

كانت تحس بقبضتيه على صدرها وهي مغمضة العينين . ولكنها لم تكن تفكر فيه . كانت تحلم بالرجل المجنون . كان جسدها يستجيب بايقاع بطيء لتلك البذاءة التي كوّر بها قبضتيه على صدره . كان لوجهه الكبير ملمساً فاجراً ، رأت نفسها تمد يدها وتلمسه بأصابعها .

ـ ٥ ـ

أحسّ بهبوط جسدي عام . لم يكن يرغب في شيء . كانت الأفكار التي تمر برأسه تؤلمه . الساعة الثانية عشرة . في الثانية يبدأ عمله . سار الى السرير وتمدد عليه . جاءه النوم كالاغماء .

استيقظ واقفاً ، وخطر له : « تأخرت عن العمل » وأسرع الى الحوض وغسل وجهه . كان نشيطاً وعصبياً . فوجيء ان الساعة كانت تشير الى الثانية عشرة والربع . فقط . غريب .

وتذكر القدس . القدس القديمة . كان يصعد بسرعة ، رغم صغر سنه ، الى قيادة الحزب . كان عضواً في اللجنة المنطقية لمدينة القدس . يتذكر باب العامود ، والشارع المرصوف بالحجارة الملساء الزلقة الذي ينحدر منه ، السور العريض الذي كان يستطيع ان يرى القدس الجديدة منه ثم يتذكر العودة الى حجرته في المساء . كان يخلع حذاءه فيكتشف ان السير المتواصل ، والاستغراق في العمل الحزبي ، قد جعلا أصابع قدميه تنزّ دماً .

في تلك الساعات قرأ روايات « الدم » و « الفولاذ سقّيناه » و « مخلوقات كانت رجالاً » . وكان النوم يداهمه وهو يقرأ . لم يكن قط يعاني هذا التمزق الذي يعانيه الآن . لم يكن يتخذ قرارات لا يستطيع تنفيذها . كان ينهض نشيطاً في الصباح ، وكل شيء واضح ومحدد . ورغم هذا فقد كان يومه مليئاً بالمفاجآت .

ثم أطلقوا عليه ـ قادة الحزب ـ صفات من نوع : منحرف ، تيتوي ، عدو للحزب . ثم تجميده ، ثم فصله . حدث كل ذلك بسرعة ، وبشكل غير متوقع . حتى آخر لحظة كان يعتقد ان الرطانة المذهبية لن تقرر مصيره . كل ما حدث انه قال بعض كلمات نصف مازح ثم ، من خلال الاستفزاز ، دافع عنها . وغادر الاجتماع . لم يتغير فيه شيء ، ما زال هو ذاته . وعاد الى حجرته في المساء وأعاد قراءة كراس « الاستراتيجية والتكتيك » لستالن . وكما يحدث في كل مرة يقرأ فيها شيئاً لستالن ، يتوهج ذهنه ، وتبدو الأشياء ـ بمعنى من المعاني ـ في ضوء جديد . أي انه يصبح للأحداث اليومية ، لمظاهر الحياة العادية اسماء

ومدلولات جديدة .

لهذا السبب نام متأخراً . استيقظ على خبط عنيف ومتصل على الباب . « الشرطة » قال لنفسه . وسار الى الباب مخدّراً بالنوم ، لم يتملكه الرعب بعد . وعندما فتح الباب كان الرفيق أحمد يقف خلفه .

ظلّ واقفاً بالباب يحاول ان يفهم . فعندما يزوره عضو في المكتب السياسي ، في هذه الساعة المبكرة ، فلا بدّ ان شيئاً خطيراً قد حدث . أراد أن يقول ويسأل عن أشياء كثيرة ، ولكن الرفيق أحمد قال :

ــ خليني ادخل .

قال ذلك بلهجة جافة ، قاطعة ، نفذت إليه كاللطمة . كان الوجه هادئاً ، ولكنه خال من الود . قال طعمة بصوت مرتعش :

ــ اتفضل .

وهو يشعر بخوف حقيقي . ابتعد عن الباب ، ودخل أحمد . جلس ، وأخذ ينظر الى صورة على الجدار ، متربة وغير واضحة . قال طعمة :

ــ بتشرب شاي يا رفيق .

قال أحمد :

ــ اقعد بدي أكلمك في موضوع .

قال طعمة :

ــ اغسل وجهي . اطرد النوم .

وضحك .

دخل ، وأشعل موقد الكاز ، ووضع ابريق الشاي فوقه . ثم رشق وجهه بالماء . كان خائفاً . كان يضع الشاي والسكر في الماء الذي اقترب من درجة الغليان عندما رأى أحمد يقف أمامه . قال :

ــ أنا مستعجل .

لم يقل ذلك بتلك الصرامة التي تميّز القائد الحزبي ، بل بغضب كامن ، محمّل بافتقاد المودة . قال طعمة :

ــ نص دقيقة يا رفيق .

جلسا يشربان الشاي . على الفور بدأ الرفيق أحمد بالأسئلة . قال له ان هنالك معلومات ان له صلات بضباط مصريين يعسكرون في منطقة الخليل . كان ذلك صحيحاً . ولكنه سبق ان قدم تقريراً وافياً عن ذلك . لقد تعرف ببعض الضباط المصريين . اثنان منهم كانا شيوعيين سابقين (أعضاء في التنظيم الشيوعي المصري : الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني « حدتو »). استقالا من التنظيم بعد أن تبنى التنظيم قرار تقسيم فلسطين . كانا يعتقدان ان « حدتو » اتخذت هذا الموقف لأن امينها العام ، هنري كورييل ، يهودي . كانا يقولان انه صهيوني متستر . يقولان ذلك بحماس ، ويضيفان ان عندهما ما يثبت ذلك . وانه ، على أية حال ، لا فرق بين اليهود والصهاينة . كان طعمة يحتد ، ويدور نقاش طويل . يقول طعمة : هنالك فارق بين اليهودي والصهيوني ، بل هما متناقضان . هنالك حلف بين الصهيونية والرجعية العربية ؛ ومن هذا المنطلق فهنالك تحالف بين الشعب اليهوذي والشعوب العربية .

كان النقاش يستمر طويلاً ، وحاداً ؛ ولكن الضابطين كانا يعاملاه بمودة . لقد حكى كل ذلك بالتفصيل . فاندهش من أسئلة الرفيق أحمد حول هذا الموضوع . ولكنه أخذ يجيب عليها باستفاضة :

ـ لسّا بتقابلهم ؟

سأل أحمد .

ـ حالياً ؟ نادر جداً .

ـ إمتى آخر مرة ؟

حاول طعمة ان يتذكر ، ثم قال :

ـ من شهرين ، ثلاثة . . .

قال أحمد بحسم :

ـ شهرين والا ثلاثة ؟

وما أهمية التحديد ؟ قال طعمة لنفسه . الرفاق ، والرفيق أحمد بالذات ، يعرفون كل التفاصيل . قال :

ـ ثلاثة .

قال احمد :

ـ لا يا رفيق . من شهر ونص .

ـ يمكن .

قال أحمد بغضب حقيقي :

ـ يمكن . هاه ؟

ثم ساد صمت كان خلاله الرفيق أحمد يركّز نظراته على طعمة ، نظرات ثابتة ، مدققة ، لائمة ، وخلال ذلك كان طعمة يزداد ارتباكاً . ثم أخذ أحمد يسأله عن زيارة قام بها طعمة الى دمشق وبيروت . كان واضحاً من الاستجواب انه يتهمه بإقامة صلات ، دون علم الحزب ، مع مجموعة من المثقفين انفصلت عن الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني ، خلال حرب فلسطين لأنها كانت تعارض قرار التقسيم ، وإقامة دولة يهودية في فلسطين . كما أيّدوا دخول الجيوش العربية لفلسطين .

كان طعمة يدرك ان عليه ان يغضب ويستنكر هذه الاتهامات التي لا أساس لها . ولكن الخوف والخجل لجماه . الخوف من ماذا ؟ والخجل لأي سبب ؟ هذا ما عجز عن الإجابة عليه . كان يشعر فقط بأن عقله مشلول تماماً ؛ أو ربما إرادته ، على الأصح . فلقد كانت الردود جاهزة في ذهنه ، ولكنها تحتاج الى حماس غاضب لتخرج ؛ وهذا ما كان عاجزاً عنه تماماً .

عاد أحمد الى الصمت والتحديق . أشعل طعمة سيجارة ، وتناول كأس الشاي الذي أصبح فاتراً . لم تكن تلك حركة حكيمة . فقد بدا واضحاً ان يده ترتعش ، وان تلك الارتعاشة سوف تكون البرهان الأكيد على صحة الاتهامات الموجهة اليه . كان يعرف كيف يتم تفسير مثل هذه الوقائع ، ويعرف جيداً كيف تتحول الى حكايات متماسكة ، ثم الى اسطورة تحكى كدليل على يقظة الحزب ، وقدرته على اكتشاف العملاء في داخله .

كلما ازداد ادراكاً للمأزق الخرافي الذي هو فيه ، كان خوفه وخجله يتزايدان . لقد استعاد هذا الموقف عشرات المرات ، وكان يدرك في كل مرة انه لو ردّ بقوة

وغضب لبقي أحد قادة الحزب حتى الآن .

ـ وايش حكاية دول عربية رجعية ودول وطنية ؟

قال أحمد فجأة .

ـ مش فاهم .

قال طعمة . فقال أحمد :

ـ الملك فاروق وطني وفيصل . . .

كان نقاشاً طويلاً ، أنهاه أحمد بقرار تجميده .

أصبحت الأمور أكثر سوءاً : الجميع يتجنبونه ، أو ـ إن اضطروا لذلك ـ يقابلونه بفتور . وتسربت اليه الشائعات ، انه على علاقة بالأجهزة الأمنية . كان رد فعله مزيداً من الارتباك والخجل . لم يخطر له ان يغضب ، أو أن يتخذ موقفاً هجومياً من الحزب . كان يأمل كثيراً ان الوقت سوف يأتي ، الذي سيكتشف فيه الحزب الخطأ الذي ارتكبه بحقه . كما تكونت لديه خطة أخرى ، كانت مزيجاً من المشروع الذاتي وحلم اليقظة . قرّر ان يقرأ جميع الأدبيات الماركسية ، باللغتين الانجليزية والعربية ، التي يستطيع الحصول عليها . وقرّر ان يتابع أخبار السياسة وأدق تطوراتها ، وان يقيم ، في الوقت ذاته ، أوسع العلاقات مع أفراد من كل الطبقات . كان يهدف من وراء ذلك ان يجتذب العشرات الى الفكر الماركسي . عند ذاك سوف يدرك الحزب اية خسارة قد خسرها بفصله ، وسيسعى لاستعادته . عليه ان يكون دائماً على أعلى درجة من الاستعداد لاستقبال تلك اللحظة .

في البداية ، انصرف يقرأ بتركيز شديد ، ولساعات طويلة . تبين له ان كل كتاب يقرأه كان كشفاً جديداً ؛ وأدرك ان النشاط الحزبي قد أبعده عن الاطلاع على الكثير من مجالات المعرفة . أدهشه ان كل كتاب جديد يعيد إليه المقولات الماركسية أكثر صفاء ووضوحاً .

خطر له ان يكتب تقريراً عن ذلك الى الحزب . ولكنه في كل مرة كان يبدأ في كتابة ذلك التقرير يكتشف ان ليس عنده أفكاراً كافية تبرر كتابة ذلك التقرير .

فيتوقف ، على ان يقوم بكتابته بعد ان يتسع اطلاعه .

لم يكتب ذلك التقرير قط . كثرة القراءة جعلت الأفكار أقل تحدداً ، والحكم أكثر صعوبة . بالإضافة الى ذلك ، منعه الخجل من إعادة المحاولة . تصور الاشمئزاز وعبارات السخرية التي سوف يتلقون بها هذا التقرير ، فشعر بذلك الشلل الذي سيطر عليه عندما واجهه أحمد باتهاماته . كان يملك دفاعاً كاملاً ومتماسكاً حين يخلو لنفسه . ولكنه كان يعلم انه عاجز عن المواجهة . كان يهرب من المواجهة باعداد نفسه ثقافياً وبتوسيع صلاته مع العديد من الشبان . سوف يأتي يوم يحتاج فيه الحزب اليه ، فعليه ان يستعد .

ولكن مشروعه لم يمضِ كما قدّر له . بالنسبة لاجتذاب الشبان للماركسية ، لم تكن المسألة سهلة . كان يشعر انه يغتصب حقاً ليس له حين يتحدث عن الماركسية للآخرين . اعتقد ان مستمعيه يخفون سؤالاً لا يستطيع الاجابة عليه : إذا كنت ماركسياً حقيقياً فلماذا فصلوك من الحزب الشيوعي ؟ كان يعاني في تلك اللحظة احساس من ضُبط بفعل مخجل . كان الخجل يستولي عليه ، وتتشتت أفكاره .

مشكلة أخرى كانت تقلقه وهي انه لم يعد يستطيع التركيز حين يقرأ . كانت احلام اليقظة تتولد وتسيطر عليه فيكتشف ان ما قرأه لم يستقر منه في ذهنه شيء . حين يعيد القراءة يتبين له ان أفكاراً مدهشة قد تجاوزها ، وبدا كأنه يقرأها للمرة الأولى . في البداية كانت أحلام اليقظة تدور حول اللحظة التي يكتشف فيها الحزب الخطأ الذي ارتكبه بحقه ، وحين يكتشف الحزب ان طعمة ، رغم فصله ، فقد استطاع ان يجتذب الى الحزب عشرات من الكوادر المثقفة والمدربة على العمل السياسي .

كانت بنية الحلم ثابتة ، تكرر نفسها في كل مرة .

أخذت ترافق ذلك الحلم احلام أخرى ، لم تكن ثابتة ، وإن اتخذت نسقاً محدداً . تبدأ بكلمات عاطفية مع امرأة غير محددة ، ثم تتحول الى مشاهد جنسية مع نساء أخريات ، أكثر سمنة وشبقاً من المرأة الأولى . أحلام الجنس هذه اقنعته

بصحة موقف الحزب ، اقناعاً غامضاً ، لم يناقشه مع نفسه ، ولكنه تسرب الى داخله وسيطر عليه .

حين انتقل من القدس الى عمان ، وأصبح مدرساً للغة الانجليزية ، اعتقد انه سيبدأ حياة جديدة . ولكنه اكتشف انه بعد مضي فترة قصيرة ، وبعد ان اتخذت حياته طابعاً مستقراً ، انه يكرر نفس نمط الحياة التي كان يحياها في القدس . كان يتوقع ان يغيّره المكان الجديد ، ان يعد له مفاجآت تلغي ماضيه ، وتجعله انساناً جديداً . ولكن الحزب موجود هنا ، في عمان ، كما هو موجود في القدس ، والعداء الذي يواجهه به في عمان هو ذاته ، وأصبح احساسه بأنه يمارس حقاً مغتصباً حين يتحدث عن الماركسية أكثر حدة .

عذبته ، في البداية ، علاقات مع أناس يبطنون له الاحتقار والعداء ، ويعاملونه بذلك التهذيب البارد الذي لا يتيح مجالاً لعلاقة انسانية عميقة . ولكن هذه العلاقات صاغته وأعادت تشكيله . لقد أصبح ، هو نفسه ، يشعر بنفور عميق ، وباشمئزاز جسدي من أية علاقة حميمة . بل لم يعد يطيق تلك الأنماط التي تعاملك ببرودة تلقائية ، وتتحدث اليك بما في قلبها . عندما كان يلتقي بشخص من هذا النمط كان يشعر بارهاق وتوتر ، ثم يصيبه ملل يجعل الاستمرار في الحديث مستحيلاً كان يقاوم ملله ، دون فائدة ، فينظر في ساعته ويقول :

ـ تأخرت ، عن اذنك .

وينطلق مسرعاً .

وعندما عاد الى القدس أصرّت أمه عليه ان يتزوج ، فقال :

ـ فيه عندك عروس ؟

قالها نصف مازح . فقالت ان العروس جاهزة ، وعرفته على معلمة مدرسة . فتن بالفتاة . كانت جميلة بالفعل . ولكن هذا لم يكن كل شيء . أدهشته بذكائها وبرغبتها في ان تعرف . كانت تحسن الاصغاء . التقى بها على انفراد أكثر من مرة ، وكان اعجابه بها يتزايد . ولكن شيئاً ما أخذ يزعجه منها . لم تكن من النوع الذي يتمنّع أو يخطط . اعتبرت ان زواجهما أصبح مسألة مفروغاً منها . وكانت

تسمح له ، دون مقاومة ، ان يمسك يدها . ولم تثر عندما قبلها ، لم تشاركه العناق ، ولكنها - عندما قبلها على خدها - ابتسمت ، واحمرّ وجهها ، وقالت ، وهي تبعده برفق ، نصف ممازحة :

- يا عيبك .

ثم أخذ يشعر بنفور منها ، خاصة عندما بدأت هي تمسك بيده ، وعندما أحسّ انها تريد ان تختلي به ، فقدّر انها تود ان يقبلها .

وفي أحد الأيام ، وقد اقتربت اجازته على الانتهاء ، رأى وجهها مرهقاً . سألها عن السبب فقالت ان عندها اضطراب في المعدة ، وانتفاخ . عاد الى البيت وأخبر أمه انه مسافر - قبل ان تنتهي اجازته - كما قال لأمه انه صرف النظر عن موضوع الزواج . ردّ بعصبية عندما سألته عن السبب ، وغادر القدس بشعور من نجا من ورطة .

الأنماط الوحيدة ، التي كان يرتاح في الجلوس معها ، كانت تلك الأنماط الباردة ، المتعالية ، التي تعامله بتهذيب ، وهو يعلم انها تبطن احتقاراً له . كان يشعر أمامها بأفكاره تتدفق ، وبلسانه يصبح ذلقاً ، وبأنه يعيش جواً درامياً متوهجاً . وأدرك ، وإن يكن لم يصغ ذلك بوضوح ولم يصارح نفسه به ، ان هذا النمط من العلاقات هو السائد بين الناس ، وانه ، هو وحده ، علامة النضوج الاجتماعي . فكلما ارتفع مقام الانسان الاجتماعي ، وازداد احترام الناس له ، كلما اتسمت العلاقة به بذلك البرود . ولاحظ طعمة ان الأنماط التي تحتل منصباً هاماً ، وتتميز بالانفتاح والود ، يُنظر اليها بنوع من الاحتقار المبطّن ، باعتبار انها تعاني خللاً عقلياً ما .

والغريب ان طعمة ، رغم ذلك ، كان يحلم بعلاقة حميمة مع تلك الشخصيات ذات العواطف الباردة ، وكان يفقد تماسكه أمامها ، ويحاول بكل الوسائل ان يجعلها ترضى عنه .

وكان يحلم نفس الحلم بالنسبة للنساء . كان يحلم بامرأة تمنحه جسدها بانطلاق ، وبدون مقابل . ولم يخطر له قط ان ذلك كان متاحاً له مع معلمة

المدرسة . كان يعشق النساء ـ بسرعة ـ اللواتي يقابلهن بالمناسبات الاجتماعية . يحلم بان ينفرد بهن ، رغم معرفته ان ذلك مستحيل .

ربما كان هذا هو السبب الذي كان يجعله يفقد توازنه كلما مرت أميرة أمامه ، أو خطرت في خياله . كانت مثيرة الى أبعد حد ، ولكنها مستحيلة . تمر به شامخة ، بارزة الصدر ، تهتز عجيزتها بذلك التحدي والتلقائية التي تميز فتاة تمتلك حرية الحركة . كانت تبدو حرة ، وقوية ، وغير قابلة للاخضاع . بهذا تصبح موضوعاً لحلم يقظة متكرر . كانت حرة الى حد يستحيل معه امتلاكها ، ولكنها خادمة ، وغريبة ، فهي غير صالحة كزوجة له .

وعندما كان يناديها ، لم يكن يتصور انها سوف تستجيب . كان يصرخ فقط .

ـ ٦ ـ

كانت أميرة مرهقة ، بسبب العمل المجهد الذي يكاد يستمر طيلة النهار ، وبسبب هذا التيار من الانفعالات الطازجة ، والقوية ، التي تجتاحها . عندما تستجيب لها ينتهي العالم الذي حولها ، وتفقد الاحساس بذلك الالحاح المطالب بالاستجابة السريعة الذي يصدر عن أسيادها أصحاب البيت .

عندما كانت تغمض عينيها ، وتندمج كلياً بتلك الانفعالات ، يبرز أمامها ذلك الرجل الغريب ، بعينيه الواسعتين المبلولتين ، بخضرتهما الفاتحة . عينان توحيان بالجنون . وكانت تستعيد ، في خيالها ، جسده الضخم ، القوي ، الناعم ، لصق جسدها ، فيصبح للتذكر ملمساً . ثم يأتي الخوف مبهماً ، ولكنه خانق ، فيعيدها الى العالم المحيط بها .

تتمدد فوق الفرشة المطروحة على الأرض ، وتلف جسدها بالشرشف . تتمدد على ظهرها ، مسترخية ، والنوم يزحف اليها . ثم تبدأ انفعالات غريبة تجتاحها ، تزحف من احشائها فتلهث ، تعتصر قلبها ، فتميل على جنبها ، ترفع ركبتيها حتى تصبحان قريبتين من صدرها ، وتحني راسها . تصبح طفلة في رحم أمها . في تلك اللحظة يذوب الرجل في الشرشف والفرشة . يحيطان بجسدها

فيبعثان موجات متتالية من الرغبة ، تصعد من احشائها الى حلقها .

عندما انفتح الباب ـ وكأن ذلك متوقعاً ـ عرفت انه الصبي . كان يقف طويلاً ، نحيلاً ، بيجامته البيضاء تجعله يبدو كشبح . وكان صامتاً استمر ذلك بضعة دقائق والصبي لا يتحرك . قالت بصوت طبيعي ، هادىء :

ـ مأمون .

أخذ يتأتىء :

ـ بـ . . بـ . . . بـ . . بحبك .

قالت :

ـ ايش بدك ؟

تأتأ :

ـ يعني ، يعني ، بدي اتجوزك .

صمتت . وطال الصمت . اشفقت عليه ، فقالت بحنو :

ـ روح لأوضتك لتشوفك أمك .

قال :

ـ بابا وماما طلعوا يسهروا .

كانت تعلم ذلك .

قال :

ـ وأنا بدي اتجوزك .

قالت :

ـ تعال .

رفعت الشرشف فتمدد بجوارها . فكت أزرار جاكتة بيجامته وأخذت تداعب جسده . كان الصبي يضحكها . قالت له :

ـ كلك عظام .

أحست به يحاول ان يقول شيئاً ، ولكن ما يصدر عنه كان أشبه بالنباح . فجأة قبلها . قالت :

ـ وبعدين معاك ؟

قال :

ـ ز . . زا . . زا . . زعلتِ ؟

قبلته على خده وقالت :

ـ بمزح معاك .

وكأن تلك العبارة كانت ايذاناً بالبدء . اندفع نحوها وتمدد فوقها وسكن . أحست به ثقيلاً ، فقالت :

ـ خنقتني يا مأمون .

واختلج جسدها فسقط بجوارها . مالت نحوه وقبلته . قالت ، وهي تضحك ، وتتكيء على كوعها :

ـ خنقتني .

قال :

ـ ما بتحبيني ؟

قالت :

ـ بكفي هيك . روح نام .

مالت نحوه وقبلته على جبينه ، وقالت :

ـ روح نام يا مأمون .

رأته يقف ، يزرر جاكتة بيجامته ، ثم يخرج . وداهمها الضحك .

ـ ٧ ـ

لم تر الرجل جالساً على الشرفة . اقتربت منه ببطء ، وفجأة رأته يصعد من وراء حاجز الشرفة . قالت :

ـ يه .

من الواضح انه كان يترصدها من بين قوارير الزرع . قال :

ـ اسسست يا بنت .

نظرت اليه وهي تمشي ببطء . قال :

ــ خدي اشتري لي علبة سكاير غولد ستار .

ومد يده بالقطعة المعدنية . مدت يدها وتناولتها ، وأخذت تركض ، وفستانها يرتفع عن فخذيها . راقبها طعمة حتى اختفت .

عندما عادت لم تجده جالساً على الشرفة . توقفت أمام الشرفة ، وتحيرت ماذا تفعل . نادت :

ــ عموه !

برز وجهه من شباك الشرفة ، فقال لها :

ــ اطلعي الدرج .

صعدت الدرج بسرعة ، ودخلت من باب البناية . باب شقة الرجل ، كان مفتوحاً ، ولكن لا أثر للرجل . وقفت خارج الشقة ، تحمل السلة في يد ، وفي اليد الأخرى علبة السجاير ، وباقي العشرة قروش . أطلت برأسها داخل الشقة ، فأدهشتها الفوضى البادية . نادت :

ــ عموه .

رأته يطل من الباب الذي يؤدي من الصالة الى الداخل . كان يحمل في يده قطعة شيكولاته . قال لها :

ــ ادخلي ، ادخلي .

قالت :

ــ هذي السكاير وهذا الباقي .

اقترب منها وأمسك بمعصم يدها التي تحمل السكاير وجذبها الى الداخل ، وأغلق الباب ، وقال :

ــ خذي هذه .

ومد لها قطعة الشيكولاته ، وقال بالحاح :

ــ ما تستحي . خذيها .

كان ما يزال يمسك بمعصمها . فوضعت السلة المليئة بالخضار على الأرض ، وأمسكت بقطة الحلوى . ووقفا هكذا . كانت عيناها معلقتان بوجهه ، وهو ينظر اليها بعينين ضاحكتين . قال لها :

ـ خايفة ؟

قالت :

ـ مستعجلة .

وعندما أخذ يداعب ظهرها بكفه الكبير وقفت جامدة كأنها لوح خشب . ثم مال نحوها وأخذ يقبلها . وعندما توقف كانت ما تزال يدها اليمنى ممسكة بعلبة السجاير ، ويدها اليسرى ممسكة بقطة الشيكولاته ، قالت :

ـ سكايرك .

تناول علبة السجاير وقال :

ـ شكراً .

قالت :

ـ الباقي .

قال :

ـ خليه إلك . بكره تجيبي لي علبة سكاير كمان ؟

هزّت رأسها ، وتناولت السلة وخرجت .

شعر طعمة بالبلل بين ساقيه ، فأسرع الى الحمام واغتسل . تمدد على السرير واسترخى .

ـ ٨ ـ

في ذلك الارتخاء ، الأشبه بالغيبوبة ، قال لنفسه « المسألة فيزيولوجية » . كانت أية حركة أو فكرة تسبب له اجهاداً يكاد يكون ألماً . لذلك لم يتابع الفكرة . كرّر « المسألة فيزيولوجية » ثم نام .

نام دقائق قليلة ، ثم صحا نشيطاً . وكأن الفكرة ولدت خلال نومه ، تشكلت ووقفت منتظرة لحظة يقظته . كانت الفكرة جادة بقدر ما هي معزية . قال لنفسه انه لا يمكن طرح مسألة الجنس ، بالنسبة للمكافحين ، على مستوى واحد . فالثوري المحترف ، الذي يستغرق في العمل سبع عشرة ساعة يومياً . لا

تصبح المسألة بالنسبة له ذات موضوع . فهو لا يمتلك الوقت ولا الجهد الفائض . أما عضو الحزب العادي الذي يعمل ساعتين ، أو ساعة في اليوم ، وقد تمر أياماً لا يعمل فيها شيئاً . . . فمن الخطأ وضيق الأفق ان نطالبه بالامتناع عن التفكير في الجنس أو ممارسته . أن نطالبه بذلك ، بالامتناع عن ممارسة احتياج فيزيولوجي ، يشبه ان نطالبه بالامتناع عن الأكل والشرب .

نهض من السرير (الفكرة دفعته الى الحركة) وأخذ يتمشى . يجب علينا ان نكون مرنين . ثم ، ماذا نعنيه عندما نقول ان المسألة فيزيولوجية ؟ هنالك الهرمونات ، وحاجات الجسد العضوية ، ونظرية التطور . هنالك الغرائز أيضاً . (يقال انه لا يوجد هنالك غرائز) .

حين تخطر له أفكار جليلة كهذه . فانها تنتظم على شكل خطبة موجهة الى جمهور محدد : كوادر حزبية مسؤولة ، بعضهم عمال قد تمرسوا بالنضال والنظرية ، ومثقفون بورجوازيون ضيقو الأفق ، ولكن الجميع يصغون اليه باعجاب ، يحاولون ان يعترضوا فلا يجدون ما يقولونه .

يتم ذلك في اجتماع سرّي .

أخذ يصغي لصوته ، في خياله ، وهو يلقي خطبته باعجاب . وأخذت الأفكار تتولد بسرعة . ورأى الكلام يجتاحه . كان وعاء لكلام يندفع ولا يستطيع ايقافه ، أو السيطرة عليه . فرغم ان معرفته محدودة جداً بهذه « المسألة الفيزيولوجية » فانه راقب نفسه ـ باعجاب ـ وهو يندفع في شرح وجهة نظره باسلوب علمي ، مليء بمصطلحات ليس عنده أدنى فكرة عن معناها .

حاول ان يقرأ لكنه لم يستطع التركيز بسبب هذه الفكرة التي كانت تتسع حتى تكاد تشمل كل معلوماته النظرية . كل ما يخطر له من أفكار أخذ يتخذ دلالات جديدة ، ويندرج في سياق هذه الفكرة .

اكتشف انه قد ارتدى ملابسه ، دون ان يفطن الى ذلك . ساعة يده كانت تشير الى الحادية عشرة وبضع دقائق . جلس على الشرفة وحاول ان يقرأ ؛ ولكن ملابسه الكاملة كانت تدفعه الى الخروج . أين يذهب ؟ وما زال هنالك ثلاث

ساعات على بدء العمل .

أصبح في الشارع وهو لم يحسم مسألة مغادرة البيت . قال لنفسه : ما دمت قد خرجت ، فلأتمشى قليلاً ، ثم أعود الى البيت . ولكن قدماه قادتاه الى الشارع المحاذي لمدرسة المطران من جهة الغرب ، ثم استدار يساراً ، ثم يميناً ، وأخذ يهبط جبل عمان الى قلب المدينة .

الساعة ما زالت الحادية عشرة والربع . هل هذا معقول ؟ سأل أحد المارة عن الوقت ، فقال له انها الحادية عشرة وعشر دقائق . وتولاه ارهاق تمضية ثلاث ساعات بلا هدف .

سار في زحمة الشارع ، عيناه تلتقطان النساء ، وتحدقان بهن بنهم لم يعتده . اعجبته هذه الظاهرة الجديدة : الحجاب الملوّن ، الشفاف ، الذي تضعه النساء على وجوههن . الملامح تبدو من خلف تحت الأحجبة أكثر أنوثة ، تبدو محمّلة برغبة مختنقة . أحب العيون الشابة التي تنظر في عينيه مباشرة ، دون خوف ، وبنداء يلمسه في العمق . لقد حرّر القناع الوجوه من ذلك الارتباك الانثوي ، الذي يبدو في وجوه النساء السافرات . لن تستطيع التعرف على وجه تحت الحجاب ، مهما كان شفافاً . هذا ما يمنحهن تلك الحرية .

رأى مكتبة . قرر أن يدخلها ليرى إن كان هنالك كتباً جديدة ؛ ثم أدرك ان توتره لا يسمح له بالوقوف ومطالعة الكتب . نظر الى الساعة . هل هذا معقول ؟ الساعة بلغت الثانية عشرة والنصف. وكأنها ارادت ، خطر له عبوراً ، ان تعوض عن بطئها القاتل في البداية . اتجه الى المطعم الذي افتتح منذ عهد قريب في الممر التجاري .

طلب لحمة مشوية ، ونظر الى ساعته . كانت تشير الى الواحدة إلاّ ربعاً . عليه ان ينتهي من تناول الطعام في الثانية الا ثلثاً . حسب : خمسة وأربعون دقيقة ، ثم اكتشف خطأه ، فرحاً ، خمسة وخمسون دقيقة .

اشتاق الى انسان يجلس معه وهو يتناول الطعام . حين يتناول الطعام وحيداً يشعر بالضجر ، وبفقدان الشهية . ولكنه ، وبمجرد أن وُضع الطعام أمامه أحسّ

بأنه جائع جداً . تبدت له ، للحظات ، ساعة الغروب في القرية ، والرجال يتهيأون للطعام ، جادين عابسين ، وأصوات النساء تصدر صادحة من داخل الدور المعتمة ، والنعاج والبقر عائلة من المراعي . كانت امه تقول : القدس تخنقني . كان حنينها الى القرية مثيراً للشفقة .

غروب القرية كان يستمر زمناً طويلاً . تغيب الشمس وتظل السماء مضيئة .

- ٩ -

استيقظت من نومها مرتعبة . احست بيد تضغط على عنقها تكاد تخنقها . اليقظة لم تخلصها من الكابوس . ثم تبينت ان الصبي ينام بجوارها . احست بالضيق : « كل ليلة ، كل ليلة » كانت مرهقة ونعسانة . قررت ان تحسم المسألة معه ، تطلب منه ان ينصرف الآن ، ولا يعود أبداً . سمعته يقول بصوته الوديع ، الخجول ، وبتأتأته المعهودة :

ـ شفتك نايمة ما حبيت اصحيكي .

امتلأ قلبها بالحنان ، فضمته اليها وقبلته . همس .

ـ زعلانة ، يعني ، مني ؟

قالت والدموع تخنقها :

ـ لا . ليش ازعل منك ؟

قال :

ـ بتحبيني ؟

قبلته وقالت :

ـ بحبك .

جذبته بيد ، وباليد الأخرى أخذت تحسس رأسه . كانت تصدر عنه أصوات ، كأنه يعاني صعوبة في البلع . وعندما قبلته ابتلت شفتيها بالدموع : « الصبي يبكي . ما الذي يبكيه ؟ » قالت :

ـ « ايش مالك يا مأمون ؟ » .

قال بصوت يخنقه البكاء :

ـ « انا . . . انا . . بحبك ».

قالت :

ـ «هذا اللي بخليك تبكي ؟ » .

قال :

ـ « انتِ ما بتحبيني . . ».

ـ « مين قال لك ؟ ».

وأخذت تضمه اليها وتقبّله . في لحظة تحول الحنان الى رغبة . استثيرت واستثارت الصبي . وعند لمس فخذها البلل ، واحست بالصبي يرتخي ويتمدد على ظهره أدركت انه انتهى . حدث له ما حدث للرجل السمين ، ولصبية القرية عندما كانوا يضمونها حتى تحس بالبلل ويتراخ اجسادهم .

انحنت فوق الصبي الذي كان يتمدد على ظهره ، مسحت العرق عن وجهه بيدها ، ثم قبلته على جبينه . قالت :

ـ « قوم نام يا حبيبي ».

نهض ، وغادر الحجرة ، وأغلق الباب خلفه دون أن يقول كلمة واحدة .

ـ ١٠ ـ

كان الانتظار عذاباً لا يطاق . ترك الباب مفتوحاً . سيبدو مغلقاً ، ولكن يكفي ان تضغط دفته اليسرى برفق حتى ينفتح . وارتفع غضبه « ها انا ذا في الخامسة والثلاثين من عمري . . ولا شيء . . لم أفعل شيئاً ولن أفعل شيئاً . لم اكتب . لست مناضلاً ، لست حتى منحلاً . عاجز حتى عن اغواء خادمة . انني مجرد شيء عتيق وصديء . . . سوف أصبح اضحوكة . لا فائدة . مجرد مثقف منحل . نعم ، منحل . ليتني على الأقل اعرف كيف انحل . ولكنني عاجز عن تطبيق خادمة . مجرد مراهق ، في الخامسة والثلاثين من عمره . حين كان أبي في الخامسة والثلاثين من عمره كان عنده ستة أولاد . وأنا أكبر دون أن أزداد حكمة . أكبر في السن والحجم ، وفي داخلي . . . . ».

ولكن الباب انفتح ببطء ، ودخلت أميرة تحمل سلتها الممتلئة بالطماطم والخيار وورق العنب واللحمة المفرومة وتفاح وعنب . في يدها اليمنى كانت تحمل علبة سجاير غولد ستار .

احتضنها وقال :

ـ دفعت منك ؟

وضعت سلتها على الأرض ، وانفلتت منه مبتعدة . قالت :

ـ الباب .

قال :

ـ آه صحيح .

وأسرع وأغلق الباب ، وحملها الى السرير . اخرج أحد ثدييها بيده وأخذ يرضعه ، فانطلقت تضحك . قبّل فمها ليمنعها من الضحك ، ولكن ضحكها تواصل . ابتعد قليلاً حتى يتوقف ضحكها . توقفت وأخذت تنظر اليه بعينين بنيتين ضاحكتين ثم مدت يدها وداعبت صدره . قالت :

ـ شعر .

قال :

ـ كل الزلام . . .

فقاطعته :

ـ بعرف .

امسكت ثديه وقالت :

ـ مثل بز المرة .

وضحكت .

مد يده وأخذ يداعب ظهرها . أغمضت عينيها واستسلمت لمداعباته . تكن تلك الصورة المثلى للعملية الجنسية مع امرأة ليست مومساً ، بالنسبة لطعمة . كانت ساكنة ، كأنها ماتت . غير ان ذلك لم يدم طويلاً . لأنها ، وهي مغمضة العينين ، رفعت رأسها وقبّلت خده ، ثم اندفعت ، وهي تئن ، واحتضنته ، وبايقاع قوي ، عنيف ، أخذ جسدها يصدم جسده . لم تتوقف عندما انتهى .

حاول ان يبعدها ، ولكنه فشل . ثم فجأة ضمته وهي تطلق صرخات خافتة ، مختنقة ، ضمته بقوة شلته تماماً ، وأخذت عضلات جسدها ترتعش ، ثم استرخت . تمددت على ظهرها وعيناها مغمضتان . كانت تتنفس بعمق . وشفتاها منفرجتين قليلاً . وكان الدم قد هرب من وجهها .

بمجرد ان افلتته نهض واغتسل ولبس برنس الحمام وتمدد بجوارها . أصبح يخشاها . لذلك رغب ان تسرع في الانصراف . فتحت عينيها وابتسمت . جمالها المذهل اخترق استرخاءه . احس انه يحبها ، يحبها الى درجة انه لا يريدها ان تبتعد عنه . امسكت بطرف الروب وأخذت تتفرج على جسده العاري . لمست بسبابتها صرته فكاد يغرق في الضحك .

قالت :

ــ كلك شعر .

وهي ترفع سبابتها الى صدره .

قال وهو يغالب الضحك :

ــ كل الناس عليهم شعر .

قالت :

ــ أنا لا .

قال :

ــ يعني الزلام .

قالت :

ــ انت فلسطيني ؟

ــ بتحبي الفلسطينين ؟

قالت :

ــ ما بحبهم ولا بكرههم .

كان حبه لها قد تجاوز لحظة السكون . كان بحاجة الى ان يلمسها . مال نحوها وقبلها . لم تستجب له ، بل مضت تعاين جسده باستغراق . حاول ان يضمها اليه فقالت :

ـ بعدين .
ابتعد عنها مجروحاً بصدها . قالت :
ـ انت بتضحّك .
قال :
ـ بضحّك ؟
نهضت . سوت ملابسها ، ولبست حذاءها . تناولت سلتها ، فتبعها ووضع عشرة قروش في يدها . وضعتها في جيبها دون ان تنظر اليها . عند الباب قالت :
ـ بكره .

ـ ١١ ـ

كان شوقه الى مجيئها يزداد . بمجرد ان تدفع الباب وتدخل يشعر ان شيئاً مستحيلاً ، شيئاً لا يستحقه ، وليس جديراً به يحدث . فيحملها بين يديه ويلقيها على السرير . لم يخطر له ان يطلب اليها ان تخلع ملابسها . كان يدرك انها تمنح نفسها حسب شروطها ، وانه لا يستطيع حتى الاعتراض .
يقول لها احياناً:
ـ تأخري شوية .
تسأل بدهشة :
ـ ليش ؟
يقول :
ـ نحكي مع بعضنا .
تقول بلهجة قاطعة :
ـ عن ايش نحكي ؟
يقول :
ـ عني ، عنك ، عن اهلك . . يعني عن اللي بتشتغلي عندهم .
تنظر بثبات وتقول :
ـ انت بتضحّك .

لم تكن تحب الكلام . عندما كان يحدثها أو يسألها كانت ردودها جارحة . عندما كانا يتهيان ، تروح تتأمل بوجه جاد جسده . راسمة بسبابتها خطوطاً على جلده . احياناً تقول وكأنها اكتشفت اعجوبة ، بصوت طفلي :

ـ هون ، هون ، ما فيه شعر .

أصبح ذلك يثيره بقوة ، وعندما يحاول ان يضمها اليه ، كانت تبعده وتنهض وتنصرف . كانت تغادره وهو في حالة رغبة . فكان يتمدد على سريره ، بأحاسيس مختلطة ، ثم ينام دقائق قليلة لينهض ويواصل القراءة .

في أحد الأيام ، شعر وهي تدخل شقته انه لم يعد يرغب فيها . لم يبدُ عليها ان لاحظتْ ذلك . وكان في السرير أكثر جرأة ، وأقل استغراقاً . كان يراقب نفسه ويراقبها . رأى في لهفتها الجسدية فعلاً مزعجاً ومبتذلاً . وعندما كانت تتأهب للانصراف لم يتبعها الى الباب ، ونسي ان يضع القروش العشرة في يدها . بدت له مثيرة للشفقة ، خاصة عندما قالت :

ـ بكره .

لم يكن يملك الجرأة ليقول لها انه لا يريد رؤيتها مرة أخرى . وفي اليوم التالي . لم تجيء . شعر بأنه محظوظ . لقد غابت في الوقت الذي لم يعد يرغب فيها . قرأ بتركيز لم يتوفر له منذ فترة طويلة . انفتح الباب ـ فلقد تركه مفتوحاً ـ فشعر بالرعب . كان جاره . قال له :

ـ شفت الباب مفتوح .

شكره ، ودعاه للدخول ، وعندما رفض ، كما هو متوقع ، اغلق الباب . عاد الى القراءة ، وهو متمدد على السرير . كانت هذه من المرات القلائل في هذا الصيف ، التي لم يقرأ فيها وهو جالس على الشرفة . كان خائفاً ان تفاجأه وهو جالس . كان بحاجة الى حماية نفسه بجدران . شعر انه لو جلس على الشرفة فسوف يصبح معرضاً لأذى مجهول المصدر .

عندما غادر الشقة متجهاً الى عمله ، مستعجلاً ، كان يسير بشعور الناجي . ولكنه بمجرد ان اخذ يهبط جبل عمان شعر بنوع من خيبة الأمل .

في اليوم التالي لم تجيء أيضاً . لم يكن يرغب بمجيئها ، ولكنه ترك الباب مفتوحاً . وعندما تأكد من انها لن تجيء ، فلقد بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف ، استجمع شجاعته وخرج الى الشرفة . وعندما استعد للمغادرة لم يكن قادراً على تحديد مشاعره : هل هو حقاً سعيد بعدم مجيئها ام لا .

وفي هذا اليوم ارتكب خطأه القاتل . الذي سيدفع ثمنه طيلة عمره ، يدفعه احتقاراً من الآخرين ، واحتقاراً للذات ، يدفعه ندماً وخزياً . وقد حدث ذلك على النحو التالي . انتهى من التدريس في الخامسة . هبط من جبل الحسين الى شارع السلط .

لم يكن هبوط الجبل في هذه الساعة ممتعاً . لم يكن الجبل ، آنذاك ، كالجبال الأخرى تكسوه البيوت ذات الحدائق ، والأشجار ، بل كان ما يزال يحتفظ بطابعه الصحراوي الأجرد ، تتناثر فيه الصخور الكلسية ، وبعض بيوت من الحجر الأبيض بدون حدائق . كما كانت أشعة الشمس القوية تلهب الرأس وتزغلل العينين . كان ذلك عذاباً حقيقياً يضاف الى تلك الحيرة التي كانت تتمدد وتتسع لتصبح خوفاً وقلقاً : لماذا لم تأت أميرة ؟ وهل هو سعيد بامتناعها عن المجيء .

توق للتخلص من معاناته . كان بحاجة الى حضور قوي ، يمتلك بشكل تلقائي القدرة على التعالي والاحتقار . يخلصه من معاناته . لم يكن النائب ودوداً ، ولم يرحب بفتح حوار سياسي . وكان الصمت مهيناً ومبهظاً . وما سيلوم نفسه عليه دائماً انه لم ينهض وينصرف ، بل قرر بعناد ان يكتسب احترام النائب ومودته . فأخذ يتحدث عن أميرة . جعلها ابنة جيران له ، بالغ في وصف جمالها ونهمها الجسدي . قال : ان هذه البنت لا ترتوي أبداً . ولم يوضح ، عن تعمد ، إن كانت العلاقة هي علاقة جنسية كاملة ، ام مجرد مداعبة .

بدا الاهتمام واضحاً في وجه النائب ، وإن كان يحاول اخفاءه . سأل طعمة :

ــ حب ؟

هنـا ارتكب خطأه الآخـر . قـال : من جـانبهـا ، حب ؟ نعم . ام هـو ، المسألة بالنسبة اليه فيزيولوجية خالصة . واستفاض في شرح مـا يعنيه بقـوله ان لمسألة فيزيولوجية . عندما كان يستعيد طعمة ما قاله للنائب رأى انه لم يكن يفعل شيئاً سوى ان يفتح الطريق أمام النائب ليتقدم بطلبه . إذ ما كاد ينتهي من شرح طروحاته عن العلاقة بين الجنسين حتى قال له النائب :

ــ بتقدر تجيبها اليوم ؟

شعر طعمة بجرح حقيقي . هل يغضب وينصرف ؟ ولكن لماذا ؟ كيف يبرر ذلك ؟ وأدرك النائب ما يدور في ذهن طعمة ، فقال له غاضباً : يجب ان تعاملني مثلما أعاملك . ذكّره عندما سمح له بمضاجعة مومس في مكتبه بعد سهرة حافلة . قال له : ادخلتـك قبلي اليهـا . تذكـر . . . وحكى النائب طـويلاً ، بغضب في البداية ، ثم بمودة ، ثم قطع على نفسه عهوداً ووعوداً مبهمة .

لم يكن ما قاله النائب دقيقاً ، خاصة فيما يتعلق بأنه أدخـل طعمة قبله . اذ كـان هنالـك مـومستـان : واحـدة صغيـرة وجميلة ، والأخـرى طـاعنـة في السن وسمينة . وقد رفضت المومس الجميلة الدخول الى حجرة النوم مع النائب ، ان لم يدخل طعمة مع الأخرى ، التي سمتها خالتها . رغم هذا فقد كان كلام النائب مقنعاً ، أو ، على الأقل ، لم يجد ـ كعادته في أمثال هذه المواقف ـ ما يرد به عليه . تذكر لقاءه الأخير مع الرفيق أحمد ، عندما أبلغه بتجميد عضويته في الحزب . لقد شعر بنفس الدوار والشلل الذين يعانيهما في هذه اللحظة .

عندما صمت النائب وضع كوعيه على المكتب ، ورفع كتفيه ، ودفع رأسه الى الأمام وقال :

ــ هه ؟

كانت « هه ؟ » ملحّة ، تطالب بإجابة فورية ، خاصة وهي مدعومة بـذلك الوضع الهجومي الذي اتخذه النائب . قال طعمة :

ــ بدي أقول ، يعني . .

قال النائب وجسده يندفع أكثر الى الأمام :

ــ قول !

قال طعمة :

ــ هيه مسافرة . .

ابتسم النائب بمرارة :

ــ مسافرة ؟

وامتلأ وجهه بالاشمئزاز . كان ذلك أشبه باللطمة على وجه طعمة . وهنا ارتكب أشد اخطائه شناعة . شعر ان المسألة الأساسية ، في تلك اللحظة ، هي ان يثبت انه ليس كاذباً ، فأخذ يقسم على ما قال ويكرر القسم . كان النائب محايداً وهو يصغي اليه ، ثم قال :

ــ يعني مش ممكن اليوم ؟

هنا أقسم طعمة انه سوف يجيء بها اليه في اللحظة التي تعود فيها .

رغم هياج طعمة ، في تلك اللحظة ، فقد كان يدرك انه يورط نفسه في وعد لا يستطيع ان يفي به . لأن المسألة متعلقة بالفتاة ، التي يعلم جيداً ان لا سلطة له عليها . أحب ان يستدرك ولكنه شعر انه مكبّل بوعده ، وبذلك الحضور العدواني للنائب .

جاء زوار فنهض طعمة لينصرف ، فقال له النائب :

ــ انت عارف . انا موجود كل يوم .

كان مهيناً جداً ان يقول له ذلك أمام الزائرين ، رغم انه يدرك انهم لن يكتشفوا المعنى الحقيقي لعبارته .

في اليوم التالي لم تجيء أميرة . سعد بذلك لأن عدم مجيئها يجعله في حل من وعده للنائب . ودّ لو انها لا تجيء أبداً . خطر له ان يستقيل من عمله ويذهب ليعيش في القدس . أو ان يذهب الى النائب ويقول له بصراحة انه عجز عن اقناعها بالمجيء : ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله .

ــ ١٢ ــ

أخذ يلتقي بالنائب يومياً في النادي . كان بمجرد أن تقع عيناه على طعمة يدير عنه وجهه . كان ذلك يخيف طعمة . في احدى المرات رأى نفسه في مواجهته وهو

.اخل ، فقال له النائب :

ـ اهلين بالنصاب .

حاول ان يعتذر ولكن النائب أسكته ودخل . شعر طعمة بانه خائف ومحاصر بشكل لم يعرفه من قبل . توقع أذىً مجهول المصدر والحجم يترصد به . وفكّر جدياً ان يطلب نقله الى القدس . خطر له ان يتوقف عن الذهاب الى النادي ، ولكن الكسل والعادة ، والخوف من تفسير ذلك تفسيراً يزيد من غضب النائب عليه ، جعله يزور النادي يومياً كما اعتاد .

في أحد الأيام استيقظ من نومه وهو يسمع دقاً على الباب . اندفع من سريره وفتح الباب ، ودخلت أميرة . لم يكن يراها بوضوح ، ولكنه قال بلهفة :

ـ وين هالغيبة ؟

وهو يحتضنها . يحس بها تنبض في جسده .

ـ وين كنتِ ؟

قالت :

ـ كنا بنصيف .

جذبها الى السرير ، وقال لها وهي ممددة بجواره !

ـ وين كنتو بتصيفوا ؟

قالت :

ـ في رام الله .

قال :

ـ في رام الله ؟ انبسطتِ ؟

ثم أضاف :

ـ أول شي نعمل شاي

قالت :

ـ انا بعمل .

وعندما نهضت فوجىء . لم يكن يتذكر انها طويلة الى هذا الحد ، وبهذا الجمال . تبعها الى المطبخ ، وهي تعد الشاي وسألها إن كانت تحب الفلسطينيين

الآن؟ قالت :

ــ آه ، اللي في رام الله .

قال :

ــ والباقيين ؟

قالت :

ــ اللاجئين ؟ يعني .

شربا الشاي سوياً . كان عاشقاً حقيقياً . ما الذي جعله يقول ما قاله لها ؟ لا يدري . الأغلب انه كان يود تحصين نفسه برفضها المتوقع . سألها إن كانت تستطيع ان ترافقه في زيارة الى صديق بعد الظهر لأن اليوم اجازة . قالت انها تستطيع بالطبع . وعندما ذكرها بان العائلة التي تعمل عندها قد تغضب ، قالت :

ــ همه ايش بخصهم ؟

صمت ، وأخذت هي تلح عليه ان لا ينسى . قال لنفسه ان المسألة غير معقولة . عندما جاءته في الساعة الرابعة كانت قد أصبحت امرأة ناضجة فاتنة . كانت ترتدي تنورة زرقاء ، وبلوزة بيضاء ، وقد سرحت شعرها . شعر بالاختناق : ان تكون لي عشيقة بهذا الجمال كله ، بهذه الفتنة التي لم ير لها مثيلاً من قبل ، ثم يقوم بتسليمها الى آخر . . . فتلك حماقة لا مثيل لها .

قال لها :

ــ بلاش اليوم .

تكدّر وجهها وقالت :

ــ طيب ، ليش قلت لي ؟

واخذت ترجوه وتلح عليه ، وتهدده بأنها لن تراه مرة اخرى اذا لم يأخذها في هذه الزيارة . خطر له ان يسألها إن كانت تعرف الهدف من وراء هذه الزيارة ، ولكنه لم يرغب في اهانة نفسه امامها .

جلس طعمة يتشمس في الشرفة . هذه الشمس الساطعة في منتصف كانون الثاني لها فعل المخدر . فتح طعمة كتاب ستالين عن بعض القضايا الاقتصادية ، قرأ فيه قليلاً ، ثم استغرق في حلم يقظة .

أميرة تسير في الشارع ، تخطر بجسدها الطويل ، باستداراته الناضجة : عجيزة صغيرة ولكنها متمايزة ، تكاد تكون مستقلة عن الجسد . والصدر الناهد تبرزه وهي سائرة . لا ، ليست من ذلك النمط من الفتيات . الذي يخلق لنفسه انحناءة لاخفاء الصدر . والعنق . ذلك العنق . شامخ ، مستقيم ، والنحر ، الذي كان ينبض تحت شفتيه . ثم الوجه المعجزة . العينان العسليتان تلمعان . تبرقان بوميض ساذج ، اعني تلك السذاجة المعتدة ، المكتفية بذاتها ، التي لا تستطيع ان تألفها ، أو ان تمتلكها . دائماً لها شروطها الخاصة بها ، وعلى الآخرين ان يخضعوا لها . كانت تملك تلك السذاجة الأبدية ، نقص الخبرة ، اللذين يجعلانها لا تنحني للأسماء الكبيرة ، أو للوجاهات . يشغلها شيء واحد : كيف تحقق أقصى قدر من متعتها .

تمر بجوار الشرفة ، تصعد الدرجات ، تدق الباب ، وعندما يفتحه تعبر كملكة . مستقيمة ، معتدة ، واثقة ، لا تكاد تشعر بوجوده .

ـ كيفك ؟

يقول . لا تجيب فوراً . تنظر حولها ، تفحص الأشياء ، بما فيها هو ، بنظرتها الساذجة ، المندهشة ، ثم تقول :

ـ منيحة .

يقول :

ـ فسطانك حلو .

تنظر الى فستانها بنظرة ناقدة ، تسوّيه بكفيها ، تنزلق الكفان من الصدر ، مروراً بالبطن ، والخاصرتين ، ويتوقفان عند الفخذين . تقول :

ـ حلو ؟

يؤكد لها ذلك ، فتقول :

ـ عندي أحلى منه .

يضمها ، ويقول صادقاً :

ـ القالب غالب .

ويحكي لها عن ذلك النائب المجنون الذي يريد ان يقيم علاقة معها . يقول فجأة بصوت موجوع :

ـ اميرة بحبك .

تنظر اليه وتضحك . وتقول :

ـ انت بتضحّك .

ـ لازم نتجوز .

تفهم ما يقول . يشع وجهها . وتقوده الى السرير . تقول :

ـ والنائب ؟

تكون اجابته ضحكة . يقول لها سوف يجعله يتمنى لو انه لم يولد . يغادر البيت ويتجه الى مكتب النائب . وعندما يغادر المكتب يترك النائب خلفه منطرحاً على الأرض كتلة من الثياب الممزقة ، ودماؤه تنزف .

يتثاءب ، ويواصل حلم يقظته مغمض العينين . تغيب الشمس خلف غيمة سوداء ، فيلبسه البرد على الفور . ينهض متراخياً ويتجه الى الداخل . متى رأى أميرة آخر مرة ؟ كان ذلك في الصيف ، عندما عرف اين تسكن . لقد طردته من بيتها . لقد تغيرت كثيراً .

ويتذكر ما حدث في ذلك اليوم عندما ذهب معها الى مكتب النائب . فخجل من حلم يقظته .

كان باب المكتب مفتوحاً . دخل وتبعته أميرة . أغلق باب المكتب خلفه . كان النائب واقفاً في وسط الحجرة . عندما رآهما ملأت الابتسامة وجهه . ثم انقض على أميرة ، مرحباً ، مصافحاً ، وقادها الى الحجرة الداخلية . لم ينتبه حتى لوجوده . أحسّ بالعرق يغمر جسده ، وبأنه لا يستطيع الوقوف . هل هذا

معقول ؟ وجلس على كنبة قريبة . اجتاحه غضب جامح نهض واتجه الى الحجرة الداخلية . اكتشف ان الباب المؤدي اليها مغلق . اخذ يخبط الباب بقبضة يده . خبط كثيراً ، دون ان يستجيب له احد . قال بصوت مختنق :

ـ افتح .

بدا له صوته مضحكاً . صرخ :

ـ افتح .

رأى ان موقفه هزلي ، فعاد وجلس على الكنبة . لم يكن يفكر في شيء محدد . خطر له ان يغادر المكتب . ولكن لا . ليس قبل ان يرد على هذه الإهانة . انفتح الباب المؤدي الى الحجرات الداخلية . أسرع نحوه النائب الذي كان يرتدي بنطلوناً وقميصاً ، وشعره مشعّثاً ، ويسير حافي القدمين . كان وجهه اسود من الغضب . اقترب من طعمة ، الذي ابتسم له ، وصفعه على وجهه وأخذ يجذب شعره ، وهو يقول :

ـ ولك يا حقير ، هذي بعدها بنت .

بنت ؟ ما معنى ذلك ؟ ثم عرف ما يعنيه ، وسبب غضبه . انها عذراء ، والأدهى من ذلك انها قاصر ، لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها بعد . استمر النائب فترة يوجه له الشتائم ، ويشد شعره ؛ ثم ، وكأنه استنفذ انفعاله ، قال بنبرة شكوى :

ـ خرب بيتي ، خرب بيتي . . . يا رجل انت هبيله ؟

في تلك اللحظة انفجر طعمة بالبكاء . اخفى وجهه بكفيه . واحنى رأسه ، وأخذ كتفاه يهتزان . أخذ النائب يطبطب على ظهره ويقول :

ـ عيب هيك يا طعمة . عيب . البكا للنسوان . . .

رفع رأسه فرأى أميرة قادمة . كان وجهها شاحباً ، أصفر كأنه مرشوش بعصفر ، وتمشي بخطوات غريبة ، اذ تباعد بين ساقيها ، وتخطو خطوات قصيرة كأنها حبلى . حاول ان يقول لها شيئاً ، ولكنها اتجهت الى باب الخروج . لم يعرف ما هو مطلوب منه بالضبط . هل يتبعها ويوصلها الى بيتها ؟ نهض ، فقال له النائب :

ـ اقعد .

فجلس على الفور . رأى النائب يسرع نحو أميرة ، يلف ذراعه حول كتفيها ، ثم مال نحوها برأسه . لم يكن واضحاً له هل كان النائب يقبلها أم يهمس في أذنها .

ـ ١٤ ـ

كانت أميرة تتمدد في حجرتها الصغيرة جداً . أحست براحة حقيقية عندما سمحت لها سيدتها ان تأوي الى حجرتها بعد وصولها البيت بقليل . قالت لها انها دائخة ، فقالت السيدة « ادخلي اوضتك ارتاحي ». وعندما تمددت شعرت باختفاء الألم بين ساقيها . يلسعها فقط عندما تتحرك . وجاءها النوم بأسرع مما تتوقع .

كان نوماً مليئاً بالكوابيس . تصحو منه على لسعة الألم ، ثم تعاود النوم على الفور . صحت فجأة على حضور غريب بدا امتداداً للكابوس . قالت بفزع :

ـ مين هذا . . . مين . . ؟

نامت للحظات ، ثم استيقظت . رأت طعمة عارياً ، يضحك ببذاءة ، ويقفز الى أعلى ليهبط فوق بطنها . تصرخ صرخة مختنقة . فيمد يده ويضعها على فمها ، فتصارعه ، فيلسعها الألم بين ساقيها . تسمع الصوت :

ـ وطّي حسك .

انه صوت مأمون . يقول :

ـ ماما بتسمعك بعدين .

قالت :

ـ مأمون ؟

قال :

ـ كنتِ بتحكي في نومك وبتقلبي . . .

قالت :

ـ مريضة .

ــ أقول ننَاما ؟

قالت :

ــ لا . تعال .

تمدد بجوارها . حاول ان يحتضنها فقالت :

ــ لا تصيبني . مجروحة .

شعرت بانتفاضة خوف تهز جسده . قالت :

ــ لا تخاف حبيبي .

وأحاطته بذراعيها . كان يرتعش . داعبت شعره وظهره . فهدأ . قال انه كتب قصيدة عن حبه لها . صمت ، وقد أخفى رأسه في نحرها ، وسكن . همس شيئاً في نحرها ، قالت :

ــ ايش ؟

قال :

ــ ما بدك تسمعيها ؟

قالت :

ــ بدي .

لم تكن تصغي ، ولكن همسه المبحوح ، وأنفاسه التي تداعب نحرها ، أثارت رغبتها . ضمته اليها بقوة وأحاطته بجسدها ، وفجأة لهثت وانفجر الألم والمتعة سوياً ، ثم استلقت على ظهرها تلهث .

قالت له :

ــ روح لاوضتك .

قال :

ــ بدي اتجوزك .

قالت :

ــ بعدين . روح لاوضتك .

ونامت على الفور .

في الليلة التالية انتظرته بلهفة . وعندما دخل اليها علمته كيف يمارس الجنس الكامل .

ـ ١٥ ـ

اندهش طعمة انه حين التقى بالنائب ، في النادي ، بعد ذلك الموقف في مكتبه ، كان النائب ودوداً . عاتبه لأنه لم يعد يزوره . وتبادلا أحاديث طويلة في السياسة . كانت أسئلة النائب وصفاؤه قد جعلت طعمة يتكلم كثيراً ، دون توقف . وعندما زاره عصر اليوم التالي في مكتبه عامله النائب بالفة ، واستبقاه للسهرة . جاء ثلاثة آخرون . أكلوا وشربوا ، ثم جاءت امرأة متأنقة جداً . أصرّ النائب ان يكون طعمة أول من يدخل معها .

في طريق عودته ـ عاد سيراً على الأقدام ـ الى البيت شعر ان النائب قد قدّم له اعتذاراً كافياً . وأدرك أيضاً بوضوح انه لم يعد من حقه ان يزور النائب بعد الآن .

عليه الآن ان يبدأ من جديد .

وفي لمحة اضاءة خاطفة ادرك معنى عبارة « أن يبدأ من جديد » . عليه ان يبدأ الكتابة .

جريس يتذكر

ـ ١ ـ

المكان : شقة في بناية تطل على ميدان الدقي ، في القاهرة . تحتوي على حجرتين وصالة . تنفصل حجرة النوم والحمام والمطبخ عن بقية الشقة (الصالة وحجرة الجلوس) بمدخل ، يعلوه قوس ، ومختف خلف ستارة . أثاث الشقة غير متناسق ، تم جمعه من مزادات ، وبيوت أصدقاء . . وبعضه مجهول الهوية .

الكتب في كل مكان . ذهبت جهود الخادمة أم محمد الدؤوبة وجهود عزة المتشنجة هباء في وضع نظام للكتب . كانت تتكاثر ، وتزحف الى كل مكان في الشقة . امتلأت بها المكتبات الثلاث وتكدست فوق المكتب العريض جداً . تكدست الى حد انه لم يبق لجريس ، حين يكتب ، الا مكاناً ضيقاً جداً .

شرح لأم محمد السبب الذي يجعله يمنعها من تنظيم الكتب المكدسة فوق المكتب . قال لها انها لو غيرت تنظيم الكتب لما استطاع ان يستدل عليها . لن يعرف أين وضعت هذا الكتاب أو ذاك ، وسوف تكون مشكلة حقيقية إن لم يستطع العثور عليه .

كان مقتنعاً بما يقول ، رغم ان قوله لم يكن دقيقاً . فقد كان ، في كثير من الأحيان ، يضطر الى شراء الكتاب الواحد أكثر من مرة لأنه لم يستطع العثور عليه ، عندما أصبحت عزة ضيفة دائمة على الشقة استمعت بنظرة يقظة الى تفسيره

للأسباب التي جعلته يمنع ام محمد من تنظيم الكتب الموجودة فوق المكتب .

صرخت :

ــ أم محمد .

كانت الصرخة قوية فجاءت أم محمد مسرعة ، متصورة ان كارثة قد حدثت . كانت عزة تمتلك حس فكاهة ذكي وسريع الالتقاط ، فعندما رأت وجه ام محمد المنزعج أطلقت ضحكة طلقة ، ثم قالت :

ــ تعالي ساعديني يا أم محمد نرتب الكتب .

نظرت ام محمد الى جريس ، فالمفترض انه سيد البيت ، وقالت :

ــ الأستاذ قال لي ، ما الخبطشي الكتب .

قالت عزة :

ــ هيه ناقصه لخبطة .

رأت ام محمد ان جريس لم يعد سيداً حقيقياً ، وان عزة أصبحت هي صاحبة الحول والطول ، فعاونت عزة في تنظيم الكتب .

تبين لجريس ، بعد ان تم تنظيم الكتب انه يستطيع الاستدلال على الكتب التي يحتاجها بسهولة أكبر ، بقراءة العناوين على كعب الكتاب . كما اكتشف العديد من الكتب التي لم يكن يعلم انه يمتلكها ، كما اكتشف كتباً أخرى اعتقد ان أصدقاءه استعاروها ، دون اذن منه (بكلمة أدق ، سرقوها) . توجه نحو عزة ، التي كانت تقف قرب الباب ، فقالت :

ــ عارفة ، بدك تبوسني . . .

قال :

ــ لا . كنت رايح الحمام .

قالت :

ــ كذاب .

ضمها اليه وقبّلها . قالت :

ــ كنت عارفة .

قال :

ـ عرفت ازاي ؟

وضعت سبابتها على جبينها ، وقالت :

ـ هنا مخ . مش مهلبية .

ـ ٢ ـ

تعرف جريس على عزة في تلك المظاهرة الطلابية ، التي انتهت في ميدان التحرير ، واحتلت الميدان ، واعتصمت فيه حتى الفجر . ثم جاءت قوات الأمن المركزي واعتقلت الطلبة المعتصمين . كان قد مضى على آخر مرة رأى فيها سلطانة سبعة عشر عاماً . وكان يجلس في مقهى (ايزائيفتش) يراقب المظاهرة . ثم خفق قلبه بشدة عندما رآها بين الطلبة . كان لها طلعة : العنق الشامخ ، والصدر البارز ، والقامة الطويلة المشوقة . والوجه . كان لها ذلك الوجه الجاد ، الذي يجعلك ترغب في الضحك والمعابثة وأنت تتأمل جديته . كان وجهاً متحركاً ، منفعلاً ، لا يعرف السكون لحظة . كان وجهاً لا يرى ذاته ، اعني لا تراقب صاحبتها نفسها ، بل يستغرق في اللحظة كأن الآخرين لا وجود .

هنالك بعض النساء اللواتي يستجبن لكل نظرة ، حتى ولو كنت تطالعهن من الخلف . تسير احداهن أمامك فتراقبها من الخلف . تنخرط في حركة العجيزة ، في المشهد الجانبي للثدي ، في صفحة الوجه ، والساقين . . تنخرط الى درجة اللمس . ثم فجأة تلتفت اليك . تلتقي عيونكما ، فتقرأ التحرج واللوم ، فتشعر ان عليك ان تركض مبتعداً .

لم تكن عزة من هذا النمط من النساء . لم يكن جسدها ينفصل عنها ، ليستجيب ، رغماً عنها ، لعين شبقة . عندما تستجيب لرغبة تستجيب لها بكليتها ، بالجسد والروح . لم تعرف ثنائية الأجيال السابقة .

وكان لها طلعة . اعني ذلك الاشعاع ، الذي يخترقك رغم الزحام حولك . اعني انك تراها على الفور ، وهي بين الكثيرين ، منشغلة ، مستغرقة . مستغرقة بهم ، ومنفصلة عنهم كأنها تقف وحدها .

وأحس جريس انه ينفصل عن أصدقائه ، الجالسين معه في المقهى ، عن جموع الطلبة ، عن اليافطات والشعارات المكتوبة عليها ، وعن النقاش السياسي الدائر . بشكل ما شعر انه وتلك الفتاة وحيدين . كان توقه اليها قد غزا جسده كله .

وعندما استجابت عزة له ، بعد ملابسات كثيرة ، وضع استجابتها في اطار نظرية صاغها ببطء . تقول النظرية انه لا يمكنك ان ترغب بكل ذلك الاندفاع والتوق ، ان تعشق على التو وبتركيز يلغي العالم من حولك ، بل يلغي شعورك بجسدك ، وبالممارسات الاجتماعية التي يمليها الوضع واللحظة ، حتى تجد ذلك الانسان المرغوب قد استجاب لك .

ثم أجرى توسيعاً وتطويراً لتلك النظرية . ما الذي يجعل ممثل أو ممثلة تستقطب اهتمامك دون سائر الممثلات والممثلين ؟ وفي السينما ، عندما شاهد بيتر اوتول في فيلم « بيكيت » رآه يمتص بحضوره كل ما ومن حوله ، وحاول تفسير ذلك . عند انبثاق تلك النظرية فقط توصل الى الحل الذي يرضى عنه . قال انه التركيز العالي للشعور ، الذي يجعله لا يعيش الدور فقط ، بل ويرغب ، في حدة ، بأن يوصله للآخرين .

كانت نظريته تشكو بعض النواقص . ماذا لو لم يستجب الطرف الآخر ؟ وماذا لو كانت استجابته سلبية ؟ عشرات الأجوبة ، غير المقنعة نشأت ، مما جعله يحيلها الى لحظة حدس تهبط وحدها .

حاول ان يتأكد من نظريته بشكل تجريبي فسأل عزة ، إن كانت قد شعرت به ، قبل ان تراه . قال لها انه كان يراقبها من المقهى بلهفة وشوق ، فهل شعرت به ؟ قالت :

ـ لا .

قال :

ـ لا ؟ لا ازاي ؟

قالت :

ـ انت مخك طاير . حا احب واحد ازاي قبل ما أشوفه ، وقبل ما أعرف انه موجود .

قال لها :

ـ بواسطة التليباتي .

وشرح انهم في الاتحاد السوفييتي يجرون تجارب عليها .

حاصرها الحاحه ، فقبلت فمه ، وقالت :

ـ اسكت ، اسكت .

ثم وضعت سبابتها على شفتيه .

بدأت نظريته تفتقد اقتناعه بها . ورغم ذلك استمر يشرحها لأصدقائه ، ولاحظ انه أثار اعجابهم .

هكذا أصبحت عزة تزوره في البيت ، مع بعض زملائها وزميلاتها احياناً ، وفي معظم الأحيان وحدها . في حضور زملائها وزميلاتها تكون ودودة معه ، وعندما تجيء وحدها كانت تتراوح ، في موقفها منه ، بين اندفاع العاشقة وعصبية الرفض .

كان يحبها على كلتا الحالتين .

ـ ٣ ـ

كان جريس يتمدد على صوفا عريضة ، مرتدياً بيجامته ، يضع كوعاً على مخدة ، وينظر الى عزة . وكانت عزة تجلس على كنبة اسطمبولي ، تمد ساقيها باستقامة ، وتجلس على طرف الكرسي ، يميل ظهرها الى الوراء ، ويرتكز كتفاها ورأسها على مسند الكنبة . كانت تلبس بنطلون جينز وقميصاً أبيض ، ينسدل فوق البنطلون .

كان جريس يستطيع ان يرى اجزاء من بطنها وظهرها في جلستها تلك ، اذ ينزلق القميص عن قطاع عرضي من ظهرها وبطنها . وقطاعات طولية بين أزرار القميص ، ثم نحرها ومنبت النهدين من فتحة القميص ، التي لها شكل سبعة .

كانت في هذه الجلسة ، تعلن عن حالة وموقف . اذ تجلس هكذا عندما

تكون مستغرقة في شيء ما ، شيء يجعلها عصبية . كان ذلك يرغمه على الصمت . قال لها مرة ان هذه الجلسة سوف تسبب لها انزلاقاً غضروفياً . نظرت اليه وكأنها استيقظت من غفوة وقالت :

ــ مش فاهمة . يعني ايه ؟،

ــ انزلاق غضروفي .

ــ يعني أيه ؟

شرح لها ، بقدر معرفته ، الانزلاق الغضروفي . قالت :

ــ فهمت .

ولم تغيّر جلستها . سألها إن كانت تحب ان تصاب بانزلاق غضروفي . عادت الى استغراقها ، وقالت :

ــ مش مهم ، مش مهم .

لاحظ جريس ان ساقيها طويلتين ، ومتناسقتين . ثم تذكر انه لاحظ هذا من قبل أكثر من مرة . لم يكن يحب ذلك الاحساس ، ان يكتشف شيئاً اكتشفه من قبل .

قال جريس :

ــ بتفكري في ايه ؟

قالت :

ــ سلطانة .

وتوقفت . لقد كشفت سرها .

ــ ٤ ــ

كان جريس قد بدأ يكتب رواية ، عنوانها « الخادمة »، جعل أميرة بطلتها . قال لعزة ان الرواية قد خطرت له كإجابة على سؤال ، سبق وان طرحته عليه : لماذا لا تعود الى الأردن ؟

قرأت عزة بعض فصول الرواية ، وحكى لها كثيراً عن تفصيلات لم يوردها .

كانت تصغي بنهم . ولكن الشخصية التي استولت على اهتمامها كانت شخصية سلطانة . اكثرت من السؤال عنها ، ومن التعليق عليها . كانت مفتونة بها .

أعادت عزة سلطانة اليه حتى استعاد عشقه لها . كبرت وانبعثت ذكريات منسية عنها ، وكبر حجمها . قال لعزة : سوف أعيد كتابة الرواية . قالت :

ــ وحايكون عنوانها سلطانة .

ضحك جريس وقال :

ــ انت واثقة من نفسك قوي .

لم ترد . قال لها ان الرواية قد بنيت واكتسبت نسقاً ، وبموجبه لا يمكن الا لأميرة ان تكون بطلتها . قالت :

ــ شكرا .

وصمتا .

كانت سلطانة تملأ خيال عزة . تكاد تكون موضوع حديثها الوحيد في هذه الأيام الأخيرة . تأتي احياناً ، وتبدأ على الفور في وصف سلطانة ، وتلقي مزيداً من الأسئلة عنها . يقول جريس :

ــ يا فتاح ، يا عليم . مش تقولي السلام عليكو ، الأول .

ولكنها تسكته بعصبية وتجعله يرضخ لأسئلتها .

في أحيان تتصرف بحكمة . وكان هذا ، في الحقيقة ، نادراً جداً . تبدأ بالحديث عن السياسة ، والاعتقالات ، عن آخر النكات عن انور السادات ، ثم تقول فجأة :

ــ بالمناسبة ، ايه اخبار روايتك ؟

يقول جريس :

ــ بتبوس ايدك .

ويمسك يدها ويقبلها ، فتجذبها وتقول :

ــ بلاش استظراف . جاوب على سؤالي .

يقول شاكياً :

ــ سلطانة !

فتضحك وتقول :

ــ بالضبط .

حين أعاد جريس كتابة الرواية أصبح عنوانها « سلطانة »، كما تنبأت عزة . فقد اكتشف أمراً أذهله ، وكاد يرتكب حماقة إنباء عزة به ، لولا أنه تمالك نفسه في آخر لحظة . لقد استعاد منظر عزة وهي تقف في ميدان التحرير ، بين الطلبة . احس بقلبه ينبض بقوة ، كأنه يعيش المشهد مرة أخرى . حاول الا ينظر الى عزة حتى لا تضيع الرؤيا . يدقق النظر في عزة الواقفة في الميدان : ثم فجأة تتحرك ، تنتفض . يتذكر ما خطر له ، ونسيه على الفور . خطر له : « هذه سلطانة ».

امتلأ حماساً لهذه الخاطرة ، ورأى نفسه واقفاً . ثم عاود الجلوس .

كانت عزة تتأمله ، دون انفعال ، ثم قالت بهدوء :

ــ شكلك بيضحّك .

ــ تعرفي ؟

كاد ان ينبأها . ثم صمت .

قالت :

ــ مالك ؟

قال :

ــ ما فيش .

ــ ٩ ــ

إذا كان التذكر يحمل قدراً من الإرادة ، فان ذلك لم يكن تذكراً بهذا المعنى اذ انصرفت عزة في الرابعة ، ونام ، كعادته ، بعد الغداء . . كان يشعر بالارهاق . دون سبب واضح ، واستغرق في النوم بمجرد ان دخل السرير . كان يركب اتوبيساً من النوع الفاخر ، حيث الجميع جالسون . ولكن راكباً سخيفاً كان يقف ، يدوس الزرار الموضوع على يمينه ، فيدق الجرس . يدق بالحاح . كان جريس غاضباً جداً . قال للراكب :

ــ في عرضك . كفاية .

ولكن ما أثار غضب جريس حقاً ، هو ان الركاب المتأنقين للغاية رأوا في مزاح الرجل الثقيل ظرفاً من نوع نادر . كانوا يكرون استحسانهم كلما دق الجرس . كانت فتاة تجلس قريباً من جريس ، تقول لصاحبتها بحماس :

ــ انه يدق جرس عصرنا .

ونظرت الى جريس بعينين بنيتين ، شفافتين . كأنهما ضوء سائل ؛ والجزء الأبيض كان به لمسة رمادية ، فاخرة . كانت تنظر اليه تطالبه بابداء الاعجاب ، وبالضحك لما يقوم به الراكب الثقيل الظل . قال :

ــ سلطانة .

وازداد رنين الجرس . وأدرك جريس ان الراكب السمج يحتج على تبادل الحديث مع الفتاة ، فقال جريس بتحدٍ للفتاة :

ــ صاحبك دمه تقيل .

اقتربت بوجهها وقالت بهمس :

ــ حكمت .

ثم وضعت سبابتها على شفتيها ، داعية جريس الى الصمت . كان جريس يختنق من الغيظ . قال بحدة :

ــ رجاء الصمت . رحمانينوف يعزف البيانو لكونتشيرتو رقم ٢ .

ونهض .

أشعل الضوء ، ونظر الى الساعة . بحق الله ، ماذا حدث ؟ انها الواحدة . رأى الليل في الخارج . وقال : الواحدة بعد منتصف الليل . نمت سبع ساعات . سبع ساعات ؟ واعاد الحساب ، بل تسع ساعات . ما كان عليه إلاّ أن يتأمل هذه الحقيقة حتى يشعر بالنشاط يدب في أوصاله ، على شكل رغبة في المشي ، أو القفز .

خرج الى الصالة وبمجرد ان اشعل الضوء رأى الأوراق المدسوسة من تحت عقب الباب :

« ضربنا جرساً يجعل الأموات تستيقظ . ما الحكاية ؟ » محمد .

« وجدناكم فلم نزركم » . نحن يحيى .

« مشتاقة لك جداً ، جداً » . بطة .

أعد القهوة بمزاج . أضاف اليها الهيل وجوزة الطيب . ثم ركبه عفريت المشي . كانت الذكريات تتوقف بمجرد ان يقف . لم تكن الذكريات صوراً ثابتة ، كصورة فوتوغرافية ، بل كانت تبرز وتطالب ان توضع في كلمات . تثبت الصورة منتظرة عندما يتوقف ليشعل سيجارة ، لا تبتعد . الا انها تطالب أن توضع في كلمات . وبمجرد ان يخطو تنساب الكلمات .

كان الجد الأكبر عواد بن يوسف ينام على فرشته التي لم يره جريس يغادرها قط . أميرة تقف مطلة عليه . قد تكون في السابعة والثامنة من عمرها . تمد ذراعها ، تهزها في وجهه . كان الرجل العجوز قد تبرز في فراشه . يستعيد صورة أميرة ، وهي تصرخ به :

ـ عملتها مرة ثانية ؟

يحاول الرجل ان يستند على كوعه ؛ يفشل ، فيعاود الكرة . يغوص تحت اللحاف ، ويصعد ؛ ثم يغوص ويصعد . أرنبة انفه تسقط ، حاجباه الأسودان يلتقيان ويبتعدان . تواصل أميرة صراخها ، وهز ذراعها في وجه العجوز ، وهي تحني جسدها قليلاً نحوه :

ـ ايش هذا ؟ ايش يعني ! هو ما فيه حكومة في عمان !

الرجل العجوز يغوص ويصعد ، كأنه حوت . سلطانة تقف في الخارج ، تراقب ما يحدث . زوجها واقف ينظر الى الأفق ، الى التلة المقابلة . تزعق سلطانة بالبنت :

ـ ابعدي يا مقلوعة العين .

تلتفت اميرة نحوها وتقول شاكية :

ـ بحسّب ما فيه حكومة في عمان !

تقول سلطانة :

ـ اتركيه . هري جريس جاي يلعب معاكي .

تلتفت الى زوجها ، وتنفجر ضحكة مكتومة ، وتقول :

ـ ماني عارفة من وين بتجيب هالكلام . . .

الزوج عابس ، لا يلتفت .

تنحني سلطانة وتقبّل جريس على خده . وتقول :

ـ كيف أمك ؟

ـ زينه .

ـ جاي تلعب انت وأميرة ؟

ما زالت منحنية عليه . تبتسم وتقول :

ـ نجوزك أميرة .

قال :

ـ لما أقول لأمي .

تضحك وتقبله . قالت أميرة :

ـ بده يتجوزك انتِ يمه .

يحمر وجه سلطانة .

أمه تقف أمام قدر اللحم . الحطب يشتعل والقدر يفور برغوته البيضاء الخاثرة . تمسك قطعة اللحم بيدها وتقول :

ـ ما استوت بعدها .

وجهها احمر عرقان . تقول وهي تجس قطعة اللحم بأصابعها الطويلة الحمراء :

ـ والله لو حطينا عواد بن يوسف عَ النار كان استوى .

كان جريس يندهشْ ، عندما يسمعها تقول هذا . يتصور دائماً انهم لو وضعوا عواد في ماء مغلي لذاب . كان باطنا كفيه احمرين وناعمين كالحرير . تبدوان وكأنهما مصبوغتان بالدم . وكان ذراعاه خاليين من الشعر ، ممتلئين ، تهبط عضلاتهما الى أسفل ، وكأنهما ممتلئتان بالماء .

حلم يقظة جعل خطوات جريس تبطيء ، حتى توقف أمام موقد الغاز . أشعله ووضع كنكة القهوة فوقه . وأخذ يستعيدُ الصورة لتثبت . تقول سلطانة : نجوزك أميرة ؟ فيقول : لما اقول لأمي . تضحك سلطانة ، تنحني عليه وتقبله . من فتحة الثوب يرى النحر ، والصدر ، الذي يبرز قليلاً ، ثم يغور في ذلك

السرداب الذي يبدأ من منبت الثديين . تقول أميرة :

ـ هذا بله يتجوزك انتِ .

يحمر وجه سلطانة . اشتهى (في هذه اللحظة ام تلك ؟) ان تضمه ، ان يمد فمه الى النحر ، والصدر الى منبت الثديين . بعد سبع ثماني ، تسع ؟ سنوات فاجأها : بجذب حزام الروب الحريري ، وانفرج عن نهدين ناصعي البياض ، ملمسها الصلب ، المرن في يديه (حتى هذه اللحظة). شهقت ، وضمت الروب حول جسدها ، وهمست :

ـ جريس !

وسبابتها تشير الى الحجرة . قال :

ـ مين ؟

همست :

ـ مسعد .

ثم أخذت تنظر في وجهه . كان خائفاً ويعلم انها ترى ذلك في وجهه . قبلته على خده ، وابتسمت :

ـ تعال نقعد جوه .

في الداخل ، في حجرة الجلوس حكت له عن مشروع تجاري كبير ستشارك فيه ، هي ومسعد طبعاً ، وسيكون مقره مرفأ العقبة . صمتت لحركة اقدام في الخارج ، ثم نهضت وهي تقول :

ـ مسعد .

قبل ان تخرج قالت :

ـ بدك تسلم عليه ؟

هز رأسه نفياً . ابتسمت بفهم وتواطؤ ، وخرجت . عادت بعد قليل وهي تضحك . قالت :

ـ مشّيته .

تردد قليلاً ، ثم سألها :

ـ بتحبي مسعد ؟

كان يعتقد ان هنالك علاقة جسدية بينها وبين مسعد . هزت رأسها ، وانتصب جسدها بكبرياء . قالت :

ــ مين مسعد ؟ هذا خدام تحت رجلي .

رأت الدهشة والاعجاب في وجه جريس فقالت :

ــ انت مش عارف حبيبتك سلطانة .

قالت له سمحه :

ــ بتعرف مسعد ؟ بتقعد ، وهوه واقف بره ، مع الضيوف وبتنادي : مسعد اعمل إلنا قهوة .

ــ وجوزها ؟

سأل جريس . فقالت سمحة :

ــ منعته يترك القرية . خالتي فاجرة .

يستعيد جريس صورتها ، وهي تقول « مين مسعد هذا ! » ويتذكر على الفور منظر عزة ، عن بعد ، وهي تقف بين الطلبة . لقد اعتقد ، للحظة خاطفة ، انها سلطانة .

كان جريس يسرع في مشيته . منذ البداية وهو يؤجل تلك اللحظة . تبدو كرصيد ثمين يلجأ اليه عندما تفلس خزائنه . في الليلة التي سبقت تلك اللحظة عرف جريس جسد المرأة لأول مرة في حياته . التقى هو وأصحابه بالقواد فأخذهم الى بيت دعارة سري . كانت التجربة خيبة أمل حقيقية . كانت امرأة مترهلة ، ولكنه تصور ان كل النساء هكذا . بريق خارجي ، وجسد مترهل عندما يخلعن ثيابهن . الغريب انه ، رغم ذلك ، كان يحلم بامرأة مختلفة . كان حلم المرأة الفاتنة الجميلة ، التي ليس لها جسداً مترهلاً يفرض نفسه عليه ، ويفتت صورة المرأة المترهلة ، بجسدها المبلول الذي يفوح بصنة العرق .

وفي اليوم التالي ، وهو جالس في مقهى (وادي النيل)، كلمته سلطانة بالتليفون ، وطلبت منه أن يأتي فوراً . أسرع الى بيتها ، وقد نسي ان يدفع حساب القهوة . استقبلته سلطانة وهي تلبس روباً حريرياً وردياً . لاحظ على الفور جسدها المستقيم الممشوق وصدرها الناهد . قالت :

ـ جريس !

وقبلته على خده . ثم نظر اليها ، الى وجهها وعنقها وخطر له انها لن تكون مترهلة من الداخل . جذب الحزام الحريري ، فانفتح الروب عن شق من اللحم الساطع ، وملأ بنهديها قبضتيه . كانا صلبين ، مرنين ، كحيوانين حيين . قال لنفسه : انها امرأة مختلفة . شهقت سلطانة وقالت : « جريس »، ثم اشارت بسبابتها الى باب حجرة مغلق ، وقالت : « مسعد » وادخلته الى حجرة الجلوس .

يتذكر جريس المشهد ، ويستعيده بتلك اللهفة ، التي تجعله يعيشه أيضاً . عندما قالت : « مسعد تحت رجليي » انتصب جذعها باعتداد . لاحظ أن نهديها قد اندفعا الى الأمام : كرتين منفصلتين ، والحلمتان تتشكلان بوضوح . اشتاقت يداه الى احتوائهما ، تذكر صدها ساعة دخوله ، فقاوم رغبته .

نظرت اليه مبتسمة فمال نحوها قليلاً . لم يستطع ان يلمسها . تشكّل حاجز من الخوف بينهما ، عندما قالت : « مسعد تحت رجليي ». قال :

ـ وين اميرة ؟

قالت بحياد :

ـ ما بشوفها .

قال :

ـ ما بتشوفيها ؟

قالت بضيق :

ـ دايرة .

هي تقول ذلك عن ابنتها ؟ قال جريس لنفسه . تكاد تصفها بأنها مومس . لا يكاد يعرف هذه المرأة . سألته فجأة

ـ انت بتشوفها ؟

قال بقطع :

ـ انا ؟ لا .

قالت :

ـ لكن عندك علومها .

قـالت ذلك ، وهي تحني راسهـا ، وبهدوء كـأنها تقرر حقيقـة لا تحتـاج الى نقاش . لم يجب . هل كان عليه ان يجيب ؟ كانت تتأمل أصابع يديها باستغراق . قالت هامسة :

ــ احكي لي عنها .

كان عليه ان يقاوم . هنالك أسرار يجب الا يبـوح بها . وهنـالك اللبـاقة . ولكن صمتها ، المتوقـع إجابـة كان يلح عليـه . يعلم انه لا يمكن ان يستمـر في صمته . قال :

ــ انتِ ما بتعرفي ؟

قالت :

ــ مش كل شيء .

شعر انه لو استمر في صمته فعليه ان ينصرف . كل شيء الا هذا . قال ، في محاولة لتأجيل اللحظة :

ــ عندكو قهوة ؟

قالت بذلك الهدوء الثقيل ، الملح :

ــ بعدين القهوة . بعد شوية رايح نتغدى .

اخذ يتكلم . جعلته يقول كل شيء .

كانت تصغي اليه بحياد . عندما حكى لها عن زيارة صليبا للنائب وتهديـده له ، انتفضت ، وقالت :

ــ الخوري صليبا ؟

قال :

ــ أبونا صليبا .

قالت وكأنها تكلم نفسها :

ــ حقير !

ـ كانت أول امرأة في القرية اسمعها تقول كلمة كهذه . سـألها ، إن لم تكن تعرف كل ذلك . قالت :

ــ لا ، طبعاً . ما ناقصنا مصاري .

صمتت طويلاً ، ثم تنفست بعمق ، وقالت :

ــ كلها عمايل مسعد .

قال :

ــ مسعد ؟

قالت :

ــ غير أخرب بيته .

ثم أضافت بعد قليل :

ــ هيه السافلة .

ــ مين ؟

قالت بهمس :

ــ اميرة . صار اللي صار ، تستر على حالها . لازم تفضحنا وتفضح نفسها ؟ كلبة .

ثم ابتسمت له . مدت يدها وأخذت تداعب شعره . كان ذلك ممتعاً ؛ ولكنه ودّ لو يبكي .

ثم امسكت بيده ، وقالت :

ــ قوم معايي نحضر الغدا .

عندما وقفت ضمها اليه وقال :

ــ بحبك .

وضعت رأسها على كتفه ، عند التقاء العنق بالكتف . قال :

ــ حبيبتي .

لم تقل شيئاً . ثم رفعت رأسها ونظرت في وجهه . بيدها مسحت العرق عن وجهه . كانت حركة أم قروية تتأمل وجه ابنها . بأصابعها اخذت تزيل العرق عن وجهه ، ثم قالت :

ــ ميته من الجوع . تعال نحضّر الأكل .

- ٦ -

في مسيرته من باب الشقة ، مروراً بالصالة ، حتى باب المطبخ كان جريس يعيش ندم اللحظات الضائعة . حين كان يسترجع لحظاته مع سلطانة كان يشعر انها جميعها لحظات غير مكتملة . وذلك يعني انها وقائع مبتورة ، كان بالامكان اغناؤها بتفاصيل ونهايات . كانت لحظات فقيرة دراميا . وذلك يعني أيضاً انه - في لقائه مع سلطانة - لم يرها وما حولها بدقة . هنالك تفاصيل ، حين يستعيدها الآن ، يكتشف انه لم يتم تسجيلها في الذاكرة . لهذا كان يعيد بناءها عبر احلام اليقظة .

حتى تلك اللحظة الملتهبة في العلاقة . هل يستطيع ان يصف حجرة نومها ، والليلة التي قضاها فيها . يتذكرها حجرة واسعة ، تختفي جدرانها وراء ستائر مخملية حمراء ، لا ترى شباكاً أو باباً . ماذا أيضاً ؟ لا يستطيع أن يتذكر . يقفز عن هذه الليلة كأنها لم تحدث . هل حدثت ؟

وذلك الحوار وهما يفطران . لا يتذكره بالضبط ، ولكنه كان شيئاً كهذا ، لا يستطيع ان يستعيد حتى اللهجة .

قال :

ـ لن أسافر الى بيروت .

كان ذلك فيما يبدو رداً على سؤال لها عن موعد سفره لاكمال دراسته في الجامعة . تذهل وتسأل عن السبب (هل قالت : « ليش ما بدك تسافر ؟ أم اكتفت بالقول : « لشو ؟ » . . .) قال :

ـ رايح اظل هون .

ـ تظل هون ؟

ـ اتجوزك .

من المؤكد ان الحوار لم يكن هكذا . ولكنه يذكر قولها :

ـ ما أنا متجوزة .

يتذكر انه استيقظ من نومه عندما قبلته . فقالت :

ـ صحّيتك من النوم ؟ يقطعني .
قال :
ـ لا . . .
فضحكت وقالت :
ـ نام .
يتذكر الفتاة ، التي رآها في الحلم . يشعر بالغيرة والغيظ . يضحك : انه مجرد حلم . ماذا لو تزوجها ؟ قالت :
ـ ما أنا متجوزة .
كأنه لا يعرف ذلك . تكلمت طويلاً : ضرورة ان يتعلم . قال :
ـ لكني بحبك .
قالت انها سوف تزوره في بيروت . قال انه يريد ان يكون بجانبها دائماً . كانت طيلة الوقت تضحك .
قالت سمحة :
ـ كان فيه شيء بينك وبين خالتي ؟
قلت :
ـ كان بدي اتجوزها .
اندهشت :
ـ كيف ؟ هذه اكبر منك بخمسطعش سنة . متى ؟ وايش قالت هيه ؟
قلت :
ـ ضحكت ، وقالت : لازم اتعلم .
تنفست سمحة الصعداء كأننا نجونا من الكارثة سوياً . قالت :
ـ حكمت كان بده يتجوزها . يمكن منشان هيك قتلوه .
ـ كيف قتلوه ؟
قالت :
ـ ما حدا بعرف . لقيوه مقتول على شط العقبة .
ويحاول جريس ان يتصور سلطانة عندما رأته مقتولاً . هل استسلمت ، أم

ثـارت على الشيـخ ؟ سمحـة تعلم وأنـا أعلم من قتله . لقـد أصبحت عشيقـة للشيخ . هذا ما قالته سمحة ، وما يعرفه الكثيرون في عمان .

لا يدري جريس متى نام . بلغت الساعة السابعة وهو يتمشى . أحس بألم في ظهره . قال لنفسه : سوف اتمدد قليلاً ، ثم اعاود السير . ولكنـه استيقظ فرأى عزة جالسة على طرف السرير .

في غبشة النوم وعتمة الحجرة بدت عزة امتداداً لحلم ، أو ، ربما ، تجسيـداً لهاجس . كان عليه ان يستعيد انه في القاهرة ، وان هذه هي شقته ، ليعيد تنظيم حجرة النوم طبقاً لذلك ، وليقول :

ــ عزة .

قالت :

ــ امتى نمت مبارح ؟

قال :

ــ مش عارف . بتسألي ليه ؟

قالت :

ــ الساعة تنين تقريباً .

حتى دون ان يراها بوضوح ، قال لنفسه ان شيئاً ما قد تغير في عزة .

قال :

ــ قهوة حبيبتي ، الله يخليكِ .

نهضت برخاوة . يبدو انه عاود النوم . أيقظته :

ــ اصحى بقى .

ــ بوسيني .

ضحكت :

ــ اقرع ونزهي . بتتشرط ؟

قال :

ــ لا لو تسمحي يعني .

جذبها الى جواره ، وأخذ يقبّل وجهها بشكل منهجي ، كل جزء فيه ، ابتدأ

من الجبين حتى نهاية الذقن . قالت :

ــ وبعدين معاك ؟ القهوة .

صبت له فنجان قهوة ، وقالت : « اشرب » ثم فتحت الشيش ودخل ضوء قوي الى الحجرة ، حمى عينيه منه بيده ، وشرب رشفة من القهوة . شعر برغبة قوية بسيجارة .

ــ حبيبتي ، ولعي لي سيجارة .

قالت :

ــ مش عايزني اجوزك كمان ؟

قال :

تبقي عملتِ اللي عليكِ . قال عزة : فيه إلك جواب ، وجرانين .

وخلال ذلك كان يشعر ان شيئاً ما قد تغير في عزة ، جعلها بعيدة عنه . خرجت الى الصالة وعادت بسيجارة مشتعلة . قالت :

ــ تفضل مسيو .

كانت الرسالة من سمحة . بدأتها بالأشواق ، وتذكير بكسله في كتابة الرسائل « مع انك كاتب ، مثل ما بقولوا » ولكن ما تلا ذلك كان غريباً على سمحة .

كتبت : « والله تقلطنا ، وصرنا نتكلم ماركسية وما ماركسية ، ونتكلم عن بعث الجوهر الثوري للماركسية . بتعرف كلام مين هذا ؟ صدق ، أو لا تصدق ، كلام خالتي العزيزة سلطانة . والحكاية من البداية للنهاية انه خالتي زارتني . قلت لها :

ــ انت ما بتكبري ؟

صارت في الخمسين ، وتقول بنت عشرين ، وكل يوم بتزيد حلاوة وشباب .

قالت لي :

ــ اخص عليك . بدك تحسديني .

ــ عين الحسود فيها عود .

وتذكرناك . وضحكنا كثيراً . قلت لها ان جريس كان بحبك . قالت كان

بـلـه يتجوزني . وحكت كيف انـ ـك تسافـر للجامعـة . بيني وبينك خـالتي ما بتفوت ، وخصوصاً وانها صارت في العلالي . وعندها اسطول سيارات ، وعازمة على ان تبعث الجوهر الثوري للماركسية .

كيف ؟

الجرايد التي أرسلها اليك ستوضح كل شيء . قالت قـريتِ حديثي في مجلة وجريدة مش عارف أيش ؟ قلت لها لو ان الواحدة قرأت في اليوم عشرين ساعة ما بلحق على ما يكتبه الفلسطينيون . أصبح وجهها احمر كأنها مراهقة ، فقلت :

ــ صرتِ كاتبة ؟

فأخرجت الجريدة والمجلة من حقيبتها . وأخذت اقرأ . قلت بعد قليل :

ــ انت بورجوازية وطنية ؟

قالت بتواضع شديد :

ــ بقولوا علي هيك .

قا ـت في عقلي : تهريب الحشيش من العقبة الى اسرائيل ، ثم من خلال بدو السياهي الى مصر ، وتهريب الألماز الى اسرائيـل ، والتآمر على أحمد المسـاعـد واخراجه من البرلمان . . كلها هذه وطنية . لم أقل لها ذلك طبعـاً ولكن الضحك غلبني . فقالت :

ــ ليش بتضحكي ؟ بورجوازية ونص .

قلت لها :

ــ يا خالتي ، انا بضحك على الوطنية .

هؤلاء الفلسـطينيون عجيبـون جداً يـا جريس . هـل يضحّون بـالمئات من شبابهم ليقولوا ان مشروع خـالتي ، كبورجـوازية وطنيـة ، يتعارض جـذرياً مـع المشروع الصهيوني ؟ لست أدري ، اهم يضحكون علينا أم على أنفسهم .

وسألتها عن الجوهر الثوري للماركسية فقالت :

ــ ارجعي الى كتاب لنين (الدولة والثورة).

تقدمنا وصرنا مثقفين يا جريس يا أخوي .

وكررت سمحة أكاذيبها ان أمي وأمي آمنة في صحة جيدة ، ويهديان السلام الي ، رغم معرفتي انهما توفيتا ، وفي شهر واحد تقريباً ، منذ سنتين على الأقل .

رغم محاولة سمحة المزاح ، فلقد أحس جريس انها تعاني غيرة حقيقية من خالتها . ان الاكثار من استعمال الكلمات القروية كان يهدف بوضوح الى خلق تضامن بينهما ضد سلطانة ، والى التذكير بالمنشأ الوضيع لها . هل بلغت سلطانة من الأهمية الاجتماعية ، وهل ما زالت تحتفظ بجمال يبرر تلك الغيرة ؟ كان يكفي أن ينظر الى صور سلطانة في المجلة الفلسطينية حتى يجد الاجابة على اسئلته .

أخذ يتأمل الصور قبل أن يقرأ حتى العناوين ، تأملها مشفقاً ان تكون سلطانة جميلة ما تزال ، كما يتذكرها ، وكما تصفها سمحة . لو كانت كذلك فان الندم على فقدانها سوف يخالط كل لحظة من لحظات حياته ، مثلما يخالطها الخوف من الموت .

تحت العنوان مباشرة صورة كبيرة لها ، بعرض صفحتي المجلة ، وتحتل النصف الأعلى من الصفحتين . كان منظراً جانبياً لوجهها ، مطبوع على أرضية بيضاء . العنق الطويل عار ، يميل الى الأمام قليلاً ، وحول قاعدته قلادة من خرزات كبيرة ، تنساب على نحرها العاري ، وتستقر على بروز ثدييها .

قالت عزة شيئاً من الخارج لم يسمعه . قال :
ــ نعم ؟
ــ بتفطر ؟
ــ كمان خمسة .

لقد نسي عزة . اعني لم يعد حضورها جزءاً من اللحظة . كانت غائبة وأزعجه ان تذكّره بوجودها .

قال :
ــ كمان ربع ساعة يعني .
واستغرقته الصورة مرة أخرى .

كـان وجهها يميـل قليلاً نحـو الكاميـرا ، فتبدو عينهـا الأخـرى وجـزءاً من وجنتها . فستانها ينحسر حتى يصل قريباً من الكتف ، يستدير على أعلى ظهرهـا بقوس ، ثم يشكل رقم سبعةٍ ، قاعـدته منبت الثـديين ، كـاشفاً منـظراً جانبيـاً لنحرها ، مع ميل ناحية الكاميرا . قال لنفسه : « اليد » لأنه يعرف ان اليد هي أكثر اجزاء الجسد دلالة على الطبقة والمستوى الاجتماعي لصاحبتها .

لم تكن الأيدي موجودة . بترهـا المصور . بحث في الصـور الأخرى . هـل اخفت يديها عن قصد ؟ لا . انها هنا ، واضحة كأنها تجيب على تساؤله ، جميلة كأنها رد مفحم على محاولته تشويه سلطانة . كانت تلك اليد الكبيرة ، التي تبـدو أصابعها الطويلة وكأنها تسيل من تلك الكف . كانت يداً لها ذلـك الانفصال ، الوعي بذاتها ، كما ليد مطران تعود ان يقدم يده بشكل تلقـائي الى ابناء كنيستـه ليقبّلوتها .

كانت الصورة جميلة بقدر ما هي مخيبة . كانت صـورة لامرأة فـاخرة ، امرأة من نساء البلاط اللواتي يتمتعن بسلطة مطلقة ، والتي لا ينجح رسامو البلاط الا في اقتنـاص الضخامـة والأنوثـة والبراءة ، مسـدلين الستـار على مكـائدهـا ، وصلابتها الفولاذية وتدبيرها الحاذق . هذا ما كان يوحي به العنق الطويل ، المائل ميلاً خفيفاً الى الأمام ، كاشفاً ارستقراطية عريقة ، ورقّة مفتقدة بين بنات الأجيال الجديدة . ولكنها لم تكن سلطانة . ليست سلطانة التي يتذكرها .

دقق النظر ، لا ليتأكد انها سلطانة ، بل لينفي ذلك حتى لا يعيش الندم طيلة ايامه . نادى :

ـ عزة ، تعالي بصي . . .

قالت :

ـ بحضر الفطار .

كان يريد ان يشرح لها السبب الذي يجعله يعتقد ان الصورة ليست لسلطانة ,فجأة ، وكأن الصورة تعدّل وضعها لتصبح نصف بروفيل ، رأى سلطانـة تطل ن الصورة ، تطل من الذاكرة،وقد انكشف الروب ـ للحظة ـ عن نحرها وقطاع

طولي من صدرها وبطنها . كانت سلطانة بالفعل . وكان ذلك اعترافاً مؤلماً .

ــ ايه الدوشة اللي عاملها ؟

انتفض وثم تمالك نفسه :

ــ تعالي شوفي صورة سلطانة .

قالت :

ــ بعدين .

كانت تعتقد انه يمزح . قال :

ــ بتكلم جد .

تطلعت بحذر الى وجهه والى الصورة . وفجأة خطفت المجلة من يده واخذت تتأمل الصورة .

قال :

ــ عزة . انت غريبة النهاردة .

وكان يعني ان عزة انكمشت فجأة . الرقبة قصرت ونحلت . وبدا ان انسجاماً ما ، كان يسم جسدها وسلوكها ، قد تحطم . الثديان كبرا فجذباها الى تحت ، الى أنوثة مطواعة . انوثة مستسلمة للجذب الى أسفل : يجذبها الردفان الثقيلان ، والثديان . واما العنق الذي ارتفع وحاول ان يتمرد ، صاعداً الى الأعلى ، فقد بدا يائساً في محاولته : نحيلاً ، وهشاً .

رفعت عزة رأسها وقالت :

ــ قلت ايه ؟

ودون ان تدع مجالاً للرد أضافت :

ــ دي حلوة بجد . كنت متصوراها . . يعني كده . . .

قاطعها جريس :

ــ فتو ايه .

قال جريس لنفسه : « هذه الفتاة ليست تلقائية . انها تتصنع ذلك » . بدت عزة لجريس مثيرة للشفقة .

أفطرا في صمت . جريس يستعيد كلمات سلطانة : « أنا فلاحة ، وأشعر

بالانتماء الى الأرض . قد أقبل موتي ، ولكنني لن أقبل أبداً ان أفقد قطعة أرض ». لا شك انها كانت مهرجة رائعة ، وهي تقول ذلك ، ولا شك ، أيضاً ، ان المحرر قد بذل مجهوداً حقيقياً في صياغة عبارات سلطانة . لقد أدارت رأسه فجاهد ليصنع منها شاعرة .

لاحظ جريس ان عزة تلقي نحوه بنظرة خائفة ، وانها تحاول استرضاءه . سجل ذلك ، دون ان يحاول تفسيره . كان مستغرقاً في تذكر سلطانة . اقترح عليها الخروج قالت :

ـ والرواية ؟

قال لها ، وهو يحاول ان يسيطر على اعصابه ، ان الوقت طويل أمامه ، ولا يشعر برغبة في الكتابة . لم يحب ذلك التكريس الانثوي لمصلحة الرجل . كأنها تقول : « لا أهمية لأي شيء سوى عملك . انا يمكن الاستغناء عني ». لماذا تهين نفسها على هذا النحو ؟

نظر اليها ، حاول ان يستعيدها ، ولكنها كانت تمعن في الابتعاد عنه ، تغترب عنه شكلاً ومضموناً . قال :

ـ عزة . انت غريبة النهارده .

قالت :

ـ ما غريب الا الشيطان .

قبل خدها . بدا ليّنا ومطواعاً أكثر مما توقع .

في الخارج سارا صامتين . سارا طويلاً صامتين . قال لها :

ـ ساكته ليه ؟

قالت :

ـ سايباك تفكر في الرواية .

الرواية مرة أخرى ؟ اليس لها حقوق ؟

جلسا في مقهى ريش، ثم انتقلا الى الأتلييه . ناقشا الثورة الفلسطينية ، حرب الشعب ، الأسباب الداخلية للهزيمة . نسي سلطانة تماماً ، ولكن اشتاق ان يعود الى بيته وحيداً .

عندما عاد فوجيء بصورة سلطانة التي ظهرت فوق مائدة الطعام بمجرد ان أضاء نور الصالة .

-٧-

كان مرهقاً . هرب من الصورة وأخذ يخلع ملابسه وارتدى البيجامة . قال لنفسه : سوف اتمدد قليلاً ، حتى يزول هذا الألم من ظهري ، قال لنفسه ، ولكنه استغرق في النوم على الفور .

كان نوماً بلا أحلام . بلا أحلام يذكرها . رأى وجه امه فقط ، أو هذا ما يتذكره . كانت الساعة تشير الى الثانية عشر . رأى خارج الشباك الليل وحياة غامضة ، مثيرة ، ومخيفة تولد في الليل . حياة فاتنة ، بالنسبة لجريس ، المغرم حتى الهوس بالمفاجآت ، وذلك المزيج من العنف والجنس الذي تضمره حياة الليل وتوميء اليه .

فيما بعد ، تجسد احساس جريس بحياة الليل ، بواقعة . كان يسكن في منطقة الجامعة العربية ، في بيروت . كان يجلس ، في الساعات المتأخرة من الليل ، يكتب . ونام في الثالثة بعد منتصف الليل . في الصباح وُجد الرجل الذي يسكن فوقه وزوجته مقتولين . كانا يجلسان على كنبتين متجاورتين ، باسترخاء الموت ، وأمامهما ثلاثة فناجين قهوة .

لسعته الذكرى قبل ان يبدأ مسيرته المعتادة . حين التقت به سلطانة في شارع القرية . يذكر كانت مبهورة الأنفاس ، وجهها شاحباً ، تمسك بيده . كاد ان يعانقها . قالت له : لماذا لا تزورنا ؟ وكأنها تقول : ضمني اليك . عاد الى البيت ، ونام نوماً ثقيلاً ، بلا أحلام ، كهذا النوم ، الذي استيقظ منه ، منذ دقائق .

لم يستعد الذكرى ولكنه اخذ يعيشها . لهذا السبب تجمد في وقفته ، متكئاً بيده على حافة مائدة الطعام ، وصعدت اليه صورة سلطانة . « مهرجة حقيقية » قال لنفسه ، وهو يغوص في الذكرى ، ورغبة هائلة تنبثق في داخله وحب . كان

يستعيد المرأة ـ صورة المرأة ـ عندما كانت مزيجاً من السر المغلق ، والوعد بمتعة رائعة يرافقها خوف . . . عندما لم يكن جريس قد عرف المرأة بعد .

يقرأ ـ الآن ـ في عينيها رغبة واستعداداً لمنح نفسها . لهذا السبب كانت تتحدث بصعوبة . قال : « كنت غريبة ، غريبة جداً في ذلك اليوم يا سلطانة » . كان يخاطب تلك المرأة القاعدة بجواره في حجرة الجلوس ، ترتدي الروب الحريري ، وقد رفعت رأسها باعتداد ، وبرز نهداها منفصلين ، بارزين ، محددين ، وهي تقول : « مسعد تحت رجليي » .

وأخذ يخاطبها ، أيضاً :

ــ « في ذلك اليوم كنتِ غريبة جداً يا سلطانة . كان وجهك ـ ذلك الشحوب ، ولمعة العينين الضارعتين ، المعلقتين بوجهي . والشفتان اللتان هربت منهما الدماء ـ مبهظاً بتلك الشهوة المحضة التي لا تعرف الحدود أو القيود ، تلك الشهوة التي تعلن عنْ نفسها ، صريحة ، خالصة ، لا يعوقها شيء . وخفت ، لأنك لا تمنحيني وعداً ، ولكنك تمنحين نفسك في التو ، في الشارع ؛ في زمان ومكان مستحيلين . وعذاب فمك ، وهو يطلق العبارات المختنقة ، المتقطعة . . . وعندما انصرفتِ ، وعضلاتكِ تختلج وراء الثوب ، وجسدك يسير ، وكأنه يقفز ، يرتفع . . . كان يبعث برسائل مشحونة بمغناطيس ، اتلقى موجات المغناطيس حتى ارتميت كالميت في وسط الدار ، وغرقت في غيبوبة ثقيلة . اصبتني في العمق . بحثت في كل النساء عنك . النساء وهم كنَّ ، وانتِ ، انتِ الحقيقة التي لا تتكرر ، الباقية » .

اقتربت منه سلطانة حتى كادت تلمسه .

وخاطبها :

ــ « خذيني اليك ، عبرت عشرات النساء اليكِ ، كل امرأة كانت منفية ، ملغاة بك . . احببت ، وتعذبت ، وعشت خيبة الأمل عشرات المرات . . . أما آن لي أن أصل ؟ أما حان الوقت لكي تمدي يدك الي ؟ . . . » .

ثم انمسح كل شيء . وأخذ يسرع بين باب الشقة وباب المطبخ . لا يفكر

بشيء . يصغي بعضلاته وهي تتقلص وترتخي في هذا المشي المتعجل . كان يسرع ، هارباً من انبثاقة جديدة للذاكرة . انهكته الذاكرة ، وأرجعته الى لحظة حب ورغبة لا شفاء منها .

خلال ذلك كانت سلطانة تتأهب للرد . يقاطعها بمزيد من الإسراع . تقول سلطانة :

ـ « ولكنك لم تعد . . . » .

ـ مانتي خايفة ؟

يسألها .

ـ لا . من ايش ؟

تتمدد على جانبها ، كوعها مغروس في الوسادة ، ووجهها يستقر على كفها ، وهي تنظر اليه ، ممدد على ظهره . لا يجيب ، تمد سبابتها وترسم خطوطاً حول عينيه حول شفتيه وبينهما . تقول :

ـ من ايش ؟

يقول :

ـ من الناس .

تقول :

ـ ما يهمني حدا .

ـ يعني . . يعني . .

تقول :

ـ مسعد ؟

ـ مثلاً .

ـ « ومنحتك ، يا جريس ، جسدي . وانتظرتك . . . » .

جريس يلهث :

ـ « انتظرتني قال . وحكمت ؟ والشيخ ؟ لن اغفر لك أبداً دموعك على حكمت . . .

قالت سمحة :

ــ والله يا جريس كنت ميتة ، ميتة العادة .

عندما قتلوا حبيبك ».

ــ « وانت ؟ خضت عشرات النساء نحوي ؟ ».

كان حواراً مضجراً ، لن يؤدي الى شيء ، وعندما اسكته انبثق القرار : قال : « آن لي ان اعود الى الأردن . . . اليها . . . » حاول ان يتأمل الكلمات التي صاغ بها ذلك ، ان ينظر اليه بموضوعية . ولكنه رأى نفسه يدخل حجرة الجلوس . ودون ان يشعل ضوءها تمدد على الكنبة ، وعلى التو استغرق في احلام اليقظة .

يكون نائماً في سريره . يشعر بقبلتها على فمه . يراها جالسة على حافة السرير ، تنظر اليه تهمس :

ــ القهوة .

ــ اديني بوسة الأول .

في الأردن لا يقولون ذلك « اعطيني حبة قبل هيك ؟ » . . . المهم . . . سلطانة ، ماذا بك ؟ تمايزي ! . . .

في أحلام اليقظة كانت سلطانة امرأة اخرى . ومع كل حلم يقظة كان ينبت وعي : عالمه في الأردن معادٍ لسلطانة . . سمحة ، الشيوعيون والعائلة . . . لقد نبتت قرون لجريس . . .

ولكنه يلغي ذلك ويستغرق في حلم يقظة جديد . في ذلك البيت ـ بيتها ـ الواسع جداً . يجلس على مكتبه الواسع جداً . وتدخل سلطانة ، تقول بوجه جاد :

ــ قهوة ؟

ولكن الصوت ، والنظرة الجافة لعزة . سلطانة تقول : « قهوة » لا « أهوه »! بتخفيف القاف . يجاهد لأن يستعيد صوتها . لا يستطيع . كل ذكرياته مع سلطانة بلا صوت . يستعيد صوراً ثابتة فقط

وفي داخله انفجر صوت : عالم الطفولة ، الأردن التي تحلم بها لم تعد موجودة حتى حين كنت فيها . سلطانة ليست آمنة ، ولكنها متعاملة مع اسرائيل ، ومهربة

حشيش ، حتى جسدها الحر امتهنه الشيخ الذي قتل حكمت واستباحها . حتى حين قالت ، بكل ذلك الاعتداد والثقة ، ان مسعد تحت قدميها . . . هل كانت تضرب بسيفها ؟

الانفعالات المتضاربة في داخله جعلته عاجزاً عن النوم ، أو مواصلة التمشية داخل الشقة ، أو الاستمرار في التمدد وممارسة احلام اليقظة . كان توتراً محضاً . شعر بأنه مفرغ من الداخل .

ـ ٨ ـ

لا يدري متى وكيف نام . استيقظ ، وقد كانت عزة تقبله ، وتهمس :

ـ « القهوة » .

حدث ذلك من قبل . وعانقها . قالت :

ـ حاتخنقني .

ـ حبيبتي .

كل ذلك حدث من قبل .

قالت :

ـ قبل السيجارة والقهوة خد حتة شيكولاته .

وضعت قطعة الشيكولاته في فمه . احس بدسمها وهي تذوب في فمه ، قال :

ـ عزة ، انت أروع وأجمل هبله في التاريخ المعاصر .

ـ مرسي .

ـ أعظم هبله وعبيطة في الشرقين الأوسط والأدنى .

كانت تعرف انه يتكلم هكذا عندما يكون عاشقاً . قالت :

ـ مرسي .

ـ بدال مرسي ، مرسي ، بوسيني .

قالت :

ـ القهوة .

أخذ يشرب القهوة ببطء ، ودخّن سيجارتين معها . كانت عزة تجلس على طرف السرير ، طاوية ذراعيها المتصالبين على صدرها ، ورأسها محني قليلاً . لم تكن مستغرقة في التفكير ، بل حدس انها ، على نحوٍ ما ، ألقت سؤالها ، وتجلس منتظرة الإجابة عليه . قال :

ـ ما عملتيش إلك قهوة ؟

قالت ، وهي تمد سبابتها ، وذراعها كله ، نحو فنجانها الموضوع على الطرف البعيد من الكومودينو :

ـ شربت .

قالت ذلك بهدوء شديد وصمتت محنية الرأس وكأنها تقول : لنعد الى موضوعنا . قال ، بدون تدبر :

ـ عرفت الجواب على سؤالك : ليش ما رجعت للأردن ؟

ابتسمت . لقد تكلم باللهجة الأردنية . قالت :

ـ نسيت اللهجة المصرية ؟

ولكنها لم تفقد هدوءها . ما زالت تنتظر الجواب على سؤال لم تطرحه بوضوح . ماذا يقول ؟

كان بامكانه ان يقول لها ان المسألة خاصة بتقنية الكتابة الروائية . وهي كذلك بالفعل ، في وجه من وجوهها . فان يكون للروائي مثل هذه العلاقة بإحدى شخصياته الروائية يعني انه لا يستطيع أن يصورها بشكل موضوعي ، وبالتالي ، فالعمل الروائي سيخضع لغنائية تدمر وحدته ، وقدرته على الاقناع .

يستطيع أن يقول لها ذلك ، وسوف تقتنع ، أو ستتظاهر بالاقتناع . فمن العيب على المثقف الا ينحني اجلالاً لمصطلحات مثل التقنية الروائية . ولكنها ، في أعماقها ، سوف تعلم انه يخدعها . فذلك النفور الذي أبداه نحوها بالأمس ، وذلك الاستغراق في صورة امرأة اخرى ، هي خيانة ، وإن انتهت الآن ، فلسوف تكمن في داخلها كجرح ينفتح كلما استعادت ذكراه .

قالت :

ـ سلطانة ؟

أي سؤال هو هذا ؟ قرّر أن يحكي لها الحلم الذي رآه . وان يجعله مضحكاً . حكى لها عن ذلك الأتوبيس الذي يتوقف عندما يدق الراكب جرساً . كان وجهها جاداً . قالت :

ـ أوتوبيس . . . .

كيف نسي ذلك ؟ انه بالفعل اتوبيس يعمل على خط مصر الجديدة ـ الجيزة ، من تلك الأتوبيسات الجديدة ، السريعة ، التي تقف على المحطات الرئيسية ، والذي يطلقون عليه اسم (الطوالي) .

استمر يحكي لها الحلم . لم تكن تضحك وكان هو يزداد غضباً كلما تذكر تلك الفتاة ، التي قالت : « انه يدق جرس عصرنا » . قال :

ـ كانت سخيفة بشكل . .

قالت :

ـ زعلان للدرجة دي منها ؟

ـ ايوه .

قالت :

ـ بس دا كان حلم .

قال :

ـ عارفه مين كانت الاخت دي ؟

قالت :

ـ أنا ؟

كانت خائفة بالفعل . قال :

ـ لا ، حبيبتي . كانت سلطانة .

أغرقت عزة في الضحك . بعد قليل شاركها في ضحك استغرق فيه الاثنان حتى سالت دموعهما . قالت :

ـ مش معقول .

واستمرت تضحك .

قال جريس لنفسه : ليت سمحة كانت معنا ، لتشاركنا هذا الضحك .

ويتذكر جريس في تلك اللحظة سمحة وهي تريه الصورة ، قالت :

ـ هذه صورة الشيخ .

قال بفزع حقيقي :

ـ الشيخ ؟

وأخذ يتأمله . كان يستولي على ثلاثة أرباع الصورة بشعره القصير ، ورأسه الضخم ، ولغده الهائل ، وذلك الكرش الذي يستقر على فخذيه . كان جالساً على كنبة ، وسلطانة تقف بجوار الكنبة نحيلة ، مستقيمة ، تضع يدها اليسرى على كتفه الأيمن . كانت تبتسم .

قال لسمحة :

ـ ان بلزاك شاب رقيق بالمقارنة .

قالت :

ـ لو شفته على الطبيعة . . .

ـ اكثر من هيك ؟

قالت بالعربية الفصحى :

ـ حيوان حقيقي .

قال :

ـ لكن . . .

نظرت اليه سمحة وضحكت . قالت :

ـ اسكت .

قال :

ـ عارفة ايش كنت رايح أقول ؟

قالت وقد تورد وجهها :

ـ كيف . في السرير يعني . . .

هذا بالفعل ما خطر له : كيف تحتمل هذا الوزن فوقها في السرير ؟

يخطر له ، الآن ، ان امرأة تتمدد تحت هذه الكتلة الهائلة لن تكون سلطانة التي بناها في خياله ، امرأة تمنح نفسها لمن تحب ، أو لمن ترغب فيه . أصبحت

موسساً تبيع جسدها لتثري .

قال جريس :

ـ حكيت لك عن الشيخ ؟

ـ لا .

قال :

ـ وزنه حوالي ميتين كيلو .

قالت عزة :

ـ مش فاهمة ؟ ماله ؟

سلطانة تتذكر

ـ ١ ـ

ترى حجرتها في المرآة . تبدو غريبة في المرآة . تبدو أكثر فخامة ، ولكنها ليست حجرتها . حجرة فخمة في فندق فخم .

تتأمل وجهها . كل يوم تتوقع أن ترى سنها مكتوباً على وجهها ، في شعرها ، ولكن الوجه الصبوح والشعر الكستنائي يطالعانها .

تقول أميرة : تلاتين يا ماما ؟

أقول : والا قديش ؟

نظرة تحذير في وجه حكمت ، اشارة خفية لأميرة .

ـ اذا كان عمري ، انا بنتك ، ستة وعشرين سنة .

أرى وجه حكمت في المرآة يحمر ، يقول :

ـ سلطانة اختك مش امك .

التفتت اليه بغضب :

ـ الله يجبر في خاطرك .

كأنني عمياء لا أرى ولا أعرف ما بينهما . « ولك ، مع جوز امك ؟ » تقول :

ـ الك جوز غير ابوي ؟

يرتوتان . العجوز عرفت ان بيننا علاقة يا أميرة . « وقفتها عند حدها » تقول أميرة .

ورغم مقتل حكمت ، وأميرة قد عادت اليها ، فان الالفة بين الاثنين ، ذلك التفاهم الضمني على كل شيء ، تلك الجبهة التي يكوّنانها كلما اجتمع الثلاثة ، ما زالت حتى الآن تثير جنونها .

على باب حجرتها تقول :

ــ الليلة بدي أنام وحدي .

تلك العينان الزرقاوان ، زرقتهما فاتحة تكاد تمتزج ببياض ، تلك العينان البلهاوان ، كأنهما عينا طفل ، بدا فيهما الخوف . تقول بحزم :

ــ الأم وبنتها ؟ ما بدي تدخل أوضة أميرة .

انتفخ انفه الدقيق وأخذ يعرق . تفاحة آدم تصعد وتهبط في عنقه الطويل . ترى أميرة في المرآة حاملة صينية القهوة ، وفي فمها سيجارة . تلتفت اليها :

ــ الدخان على الصبح .

ــ صباح الخير يمه . نمتِ منيح ؟

تضحك أميرة وتقول :

ــ صابحة مثل الوزدة .

ــ احسديني ياختي .

يبدو الذهول على وجه أميرة . تضحك سلطانة :

ــ بمزح معاكِ يا حبيبتي .

تدخنان وتحتسيان القهوة في صمت . قالت سلطانة :

ــ في ايش بتفكري ؟

قالت أميرة :

ــ انا بكبر وأنتِ بتزغري .

تميل على أمها وتقول وهي تريها شعرها :

ــ لذّي . فيه شيب في شعري . شايفة ؟

تلومني كأني السبب . اعرف ما تقوله لنفسها : « ما دمت حية فسوف تظل قادرة على خطف عشاقي مني » .

ــ انتِ اليوم مش طبيعية يا اميرة .

ـ حلمت حلم غريب . شفت حكمت في الحلم .
وتخرج .

نفس الغضب كان في وجهها عندما قالت لها كيف تكونين تحت هذا الغول ؟ فيه واحدة تكلم أمها هكذا ؟ هذا الغول بعد حكمت ؟ وهل تركتِ لي حكمت ؟ « فيه واحدة بتكلم بنتها هيك ؟» وتقول ، وتتنهد « مسكين عمي مسعد » وهل تعرف شيئاً عن مسعد ؟

تتمدد في السرير وتغطي وجهها .

وجه الشيخ كبيراً ، كثيفاً بالشعر . ينصت ويلهث . مسعد تقول ؛ يلهث الشيخ :

ـ بضايقك ؟ بدبره .

امسكت ملقط الشعر وأخذت تنزع الشعرات النابتة في أنفه . يئن :

ـ أي .

كانا عائدين من الشاطىء ؛ يلهث ويتصبب عرقاً . في الطرف الآخر أضواء ايلات . مسعد ؟ ما قلت إلك ؟ ويغرق في الضحك . ايش ؟ قول ! رايحة تشوفي بعينك . هنالك اغنية ، تاراراتم . . . شفت بعيني ما حدش قال لي .

تبعد الغطاء عن وجهها وتشعل سيجارة .

هذه البنت تكرهني . منذ تلك الليلة . سأنام وحدي ، قلت له ، ودخلت الحجرة . كان السرير فارغاً ؛ لم استطع النوم . هبطت من السرير . سأقول له : تعال نام جنبي ولكن لا تلمسني . ضوء حجرته ما زال مشتعلاً . دفعت الباب ودخلت . كانا عاريين . عيناه شاخصتان كأن لقمة تقف في حلقه . غطته أميرة بالشرشف ، ووقفت أمامي عارية. قالت :

ـ انا دخلت عليه .

غطّي حالك . قلت لها . الا يقول شيئاً ؟ كان يخفي رأسه وجسده في الشرشف . وأميرة تقول بشراسة :

ـ انا الغلطانة . كلميني أنا .

ـ غطّي حالك . بدي اكلمه كلمة .

ـ كلميني أنا .

قلت :

ـ أنا سلطانة يا حكمت .

قالت :

ـ سلطانة ، سلطانة ، ايش يعني سلطانة !

كان للصفعة على وجهها رنين . رأيت بقعة حمراء على خدها الأيسر . خرجت . تتذكر ، مندهشة ، انها لم تستطع النوم تلك الليلة . كانت تصغي ، تصغي حتى انها كادت تختنق وهي تحبس أنفاسها ، تريد ان تسمع صوت باب أميرة يفتح ، ويخرج منه حكمت . كانت تريد مواجهة أخيرة معه . ودت لو تستطيع النوم ، ثم تصحو وتجده بجوارها .

هل سمعت صرخة ؟ خرجت من الحجرة حافية . سارت الى باب حجرة أميرة . وضعت أذنها على الباب . لا تسمع شيئاً . تسمع صوت حكمت يهمس . تضحك اميرة . تتكلم أميرة . صوتها هادىء ، رائق . « ماذا لو رآني احد ! » تعود الى حجرتها لاهثة .

ـ ٢ ـ

عندما دخلت حجرة مسعد كانت مضاءة . كان ممدداً على ظهره ، مستغرقاً في النوم . فمه مفتوح قليلاً . لحيته لم تحلق منذ أيام . الشعرات البيض فيها تبرق في النور .

ـ مسعد ، مسعد .

ـ هاه .

وهو نائم .

ـ اصحى ، اصحى .

وهي تمسك باستدارة كتفه

حجرة الشيخ أيضاً . كان الشيخ يأكل دجاجاً ويلهث . دخلت وتبعها مسعد . اشار بيده إلى الباب ، وقال لمسعد :

ـ انت انقلع

قالت سلطانة :

ـ لا خلّيه .

ما قالته للشيخ كان من وحي اللحظة : حكمت وصلته بالوزير ، وكيف يعد لهم مكيدة . لقد حكى لأميرة كل شيء . قال الشيخ :

ـ بدبره . خليك انت يا مسعد .

خرجت .

داهمها نوم ثقيل لم تستيقظ إلا عند العصر . أسرعت الى الشاطىء . كان القارب البخاري يستعد للاقلاع . كان الشيخ يقف قرب المركب . عندما رآها ابتسم :

ـ سلطانة .

قالت :

ـ عديت الحجار ؟

وهي تنظر بقوة في عينيه . قال وهو يبتسم :

ـ كل شي محسوب حسابه .

مسعد يطالعها بنظرة بيضاء فارغة . كان خائفاً . تعرف انه كان خائفاً . حكمت كان يتجنب نظراتها . نادته ، وعندما اقترب كانت عيناه فارغتين . وقف محتاراً . قالت :

ـ قرب .

امسكت وجهه بين كفيها ونظرت في عينيه . قبلته على خده . قالت :

ـ ما حلقت لحيتك اليوم .

كان الشيخ ينظر بحدة اليها . قالت لحكمت :

ـ دير بالك على نفسك .

كان يحاول ان يقول شيئاً . تفاحة آدم تصعد وتهبط في عنقه الطويل . ولكن الكلام لا يخرج من فمه . قالت :

ـ ليش ساكت ؟

والحت :

ــ انخرست ؟

كانت الدموع تتجمع في عينيه . قال بصوت كالفحيح :

ــ بحبك انتِ .

شعرت برغبة في الهرب . قبلته ، وانصرفت . كان الشيخ ومسعد ينظران اليها بدهشة . انفجر الشيخ ضاحكاً وقال :

ــ حنيِّنة يا سلطانة .

وأمسك كوعها .

استدارت وأخذت تنظر الى المركب المبتعد . كانت الشمس تهبط في الأفق ، والماء له لون الصدأ . كان وجه الشيخ كبيراً ، صامتاً . بدا لها حزيناً وهو يطالع القارب يذوب في عتمة الماء . عيناها تتابعان كثافة معتمة ، غير محددة . عندما أضاء القارب اكتشفت انه لم يكن تلك الكتلة السوداء التي تتابعها . تقلص وجه الشيخ وقال :

ــ الله يسبعكوا .

نظرت اليه سلطانة . كان وجهه غاضباً . قالت :

ــ علامك ؟

قال :

ــ عيني عينك يخشوا ايلات .

قالت :

ــ ما حدا فاطن .

نظر اليها بحدة . تكرمش انفه وهو يرمقها غاضباً . تذكرت انها هي التي قالت ان هنالك من يتابعون حركاتهم . قالت :

ــ يا لّه نعاود . الدنيا ليّلت .

كانت خائفة . الشيخ كان يعرف انها تكذب ، قالت لنفسها . وسار بجوارها ، كتلة لاهثة ، هائلة الحجم . مالت نحوه ـ كان قصيراً ، رأسه يحاذي كتفها ـ وبحثت عن بقعة في وجهه خالية من الشعر ، فقبّلته في تلك المساحة

الواقعة بين وجنته وأنفه . ابتلت شفتاهـا بالعرق ، وأحسّت بمعدتهـا تتقلص ، وأمسكت نفسها . كانت على وشك التقيؤ . مسحت شفتيها بظاهر كفها .

كانت تعلم ان تلك كانت لحظة سقوطها . لقد إنتقم منهـا حكمت قبل ان يُقتل . سارت بجواره وهي تدرك انها ستدفع الثمن طيلة حيـاتها . لقـد تظاهـر الشيخ بتصديقها ، ثم كشف أوراقه ـ وأوراقها ـ مرة واحدة .

تمد سلطانة يدها وتشعل السيجارة. ترى نفسها في المرآة ، وهي تمد يـدها ، وتشعل السجارة . تخرج الدخـان من أنفها لتـرى نفسها تفعـل ذلك في المـرآة . تطالع وجهها وجسدها في المرآة . من خلال اعجابها بجسدها تستثار الرغبة لتشيع في جسدها كالدفء . تحس بجسدها مفرغاً ، بحاجة الى جسد آخر يملؤه ، وتحس بجسدها كموضوع رغبـة . تمد ذراعهـا الى التليفون . تتـوقف الرغبـة بمجرد ان تلمسه . تطفىء السيجارة وتحلم .

لم يكن الشيخ كما توقعت . فاجأها بعريه . لم تكن تتوقع ذلك ؟ ليس ذلك بـالضبط . ولكنها شعـرت ان كل مـا تم ، منـذ ان دخلت هي ومسعـد حجـرة الشيخ ، ليلة الأمس ، حتى الآن كان أشبه بالحلم . كأنه يحدث لامرأة أخرى . وانها ، الآن ، استيقظت . خطر لها ، للوهلة الأولى ، ان تغادر الحجرة هاربة . ولكنها ، كانت تعلم ، انها التي اختارت هذا الموقف ، اختارت هذه الكتلة الهائلة من اللحم ، اختارتها عـارية ، مبلولـة ، ذات رائحة حـرّيفة ؛ ولا تستـطيع ان تتراجع .

كان يبتسم مرتبكاً. قال وكأنه يتساءل بأدب :

ــ تشلحي .

نهضت وأمسكت يده . قالت بوجه جاد :

ــ تعال .

ضحك ، وقال :

ــ وين ؟

قالت :

ـ نتحمم .

كان الرجل مستسلماً لها . منحها ثقة بالذات ورغبة في الايذاء . قالت بحسم :

ـ يالله . قدامي .

ضحك، وقال بلهجة رخوة ، مستسلمة :

ـ والله تحممت .

قالت بعنف لم تقصده :

ـ قدامي بقول لك .

وسار أمامها يترجرج ككتلة من الجيلي . خطر لها ، وهي تتأمله ، ان هذا الجسد هو جسد امرأة سمينة جداً ، وقبيحة جداً . الجزء الأسفل من الساق نحيل ، وعجيزة هائلة . وكان له خصر . وهذه الاثداء ، ثديا امرأة يستقران على كرش هائل .

فركت جسده بالليفة . فعلت ذلك بعنف . احست بعضلات ذراعها تؤلمها ، ولكنها لم تستطع ان تتوقف . كان يتأوه :

ـ آخ بتوجعيني يا خيه .

لطمته بقبضة يدها بين عظمتي كتفيه وقالت :

ـ بطّل وحوحة !

انغرست قبضتها في كتلة استفنجية اغرتها بأن تعاود الكرة ، وتلطمه في نفس الموضع المرة بعد المرة . لم تستطع ان تتوقف ، والشيخ يتلقى ضرباتها بضحكات قصيرة وأنين متصل ، تتخلله ضراعة ان تتوقف . لم تستطع ان تتوقف . فتماسكا وتعاركا وانتهيا الى عملية جنسية كاملة مارساها فوق أرض الحمام .

شعرت وكأنها تمارس الجنس لأول مرة في حياتها . قبل ذلك ، كانت ممارسة الجنس امتداداً لحنان يملأ قلبها ، يتحول عند نقطة محددة الى رغبة . كأن ذلك الحنان تكثّف وازداد حدة . وعندما ينتهيان ، وتراه ممدداً بجوارها ، مغمض العينين ، كان الحنان يتحول إلى شفقة فتشعر برغبة في البكاء ، أمومة نادرة غريبة

تجتاحها فتشعر كأن يداً رقيقة ، ناعمة ، تداعب برقة احشاءها وقلبها . تلك الحركة في داخلها تصعد الى حلقها توقاً الى البكاء . ذلك الولد ؟ ما اسمه ؟ جريس ؟ قال لها انه لن يذهب الى الجامعة ، لن يبتعد ، سيتزوجها . كان له وجه يجعلها ترغب في البكاء والضحك معاً . عندما تتذكره الآن تشعر برغبة في الضحك .

قال سأتزوجك ، قال ذلك وكأنه سيد الموقف ، ما عليه إلاّ أن يعلن عن ارادته حتى ينحني الآخرون . يتكلم كالرجال ولحيته لم تنبت بعد . في تلك اللحظة شعرت برغبة في الضحك ، ولكنها وهي تصعد من احشائها تحولت الى دموع في عينيها .

تستعيد في فمها طعم اللحم ؛ مزيج من ملوحة العرق ، وصنة الجسد العرقان ، والدم ، فتجتاحها الرغبة كلطمة مفاجئة . تستعيد اسنانها ذلك الملمس وهي تغوص في لحم الكتف ، تكاد ، الآن ، تستعيد صرخته واختلاجة جسده . كانت تشتعل كلها . سمعته يقول :

ــ موّتيني !

وتتحول تلك الكتلة الهلامية الى عنف . وعندما انتهيا رأت فوق كتفه تلك الجروح الصغيرة تكوّن شكلاً بيضاوياً . نهضت وسارت الى الحمام . كانت تختنق برغبتها في التقيؤ . كانت في تلك الليلة ترسي أسساً لممارسات المستقبل: العنف ، الدم ، التقيؤ ؛ ثم استعادة الرغبة من خلال العنف .

يأتيها صوت اميرة قريباً :

ــ ما بدك تقومي يا ست الستات ؟

مجنونة هذه البنت والله. حنونة ومجنونة، كما يقول المثل . تقول سلطانة :

ــ قديش الساعة يا حبيبتي ؟

ــ تسعة ونص .

ــ معقولة ؟

تقول أميرة :

ـ من الصبح قهوة وسكاير . قومي افطري .

تشعر باميرة تجلس على طرف السرير . مدت يدها وجذبت الشرشف عن وجه امها ، وقالت :

ـ قومي يا اختي .

امسكت سلطانة يدها وقبّلتها ، وقالت :

ـ حنونة ومجنونة .

انحنت عليها أميرة وقبلت شفتيها . قالت :

ـ انتِ زعلانة مني ؟

وتمددت بجوارها وضمتها . قالت :

ـ لو كنت زلمة . . .

فقاطعتها سلطانة ضاحكة :

ـ يا بياختك يا ختي .

قالت أميرة :

ـ شوفوا وجهها صار احمر .

وتضحك .

اخفت سلطانة وجهها في صدر ابنتها . هذه البنت تفتقد اللياقة . تجرحها وهي تضحك . تقول :

ـ بعدكي زعلانة مني ؟

ـ انا ما بزعل منكِ .

ـ ٣ ـ

انتهت سلطانة من الافطار .

ـ ارحمي نفسك .

قالت لأميرة . لا فائدة . سوف تظل على نهمها حتى تصبح كالفيلة . مثل الشيخ .

قال : بتدبره . السرير بدعوها اليه باغواء . تعبت من الناس . من

الخروج ، من الرغبة في عيون الرجال ، الرغبة المهذبة في عيونهم ، ويصبحون كلهم متشابهين . تعبت من احتقار النساء ، ذلك التهذيب البارد .

ـ قاعدة ؟

ـ تعبانة يا اميرة .

ـ تعبانة من الكسل . اطلعي شمي شوية هوا .

ـ يمكن اطلع بعد شويه . طالعه ؟

كانت أميرة ترتدي تنورة فوق الركبة . تجيد العهر . تجلس ، ركبتاها منفرجتان . بينهما تتسلل نظرات الرجال بين الفخذين ، لتستغرق في عتمة النهاية . يصبحون نصف مجانين ، يتنازعهم الخوف والرغبة .

تقول بجرس صوتها الشاكي ، المنغم :

ـ فسطانك قصير يا أميرة .

رغم ان رد فعل البنت متوقع . تنظر اليها ضاحكة ، وتعبير بذيء يطل من وجهها وتقول :

ـ اللي بسمعك بقول عنك حجيه .

وتستقر كلماتها كالطعنة في قلب الأم . وتخرج ، فتتنفس سلطانة بعمق . كابوس زال عن صدرها . كلهم الا أنا . حجيه علي بس ! يهددها . بأي شي يهددها ؟ هو القاتل . مسعد متعبني . تقول للشيخ :

ـ مسعد ؟

يقول . جلس على الأرض أمامها ، وضع ذقنه على ركبتيها وأخذ يبوح برغبته . رفسته فانقلب على ظهره .

قالت :

ـ يهددني .

قال الشيخ :

ـ بندبره .

بعد أيام سألته :

ـ ومسعد ؟

قال :

ــ ما عرفتي ؟

ــ لا .

ــ دبرناه .

ــ كيف ؟

ضحك وقال :

ــ اسألي عليّان .

ــ بسألك انت .

همس في أذنها :

ــ سوّيناه مرة مثلكِ .

مسعد ؟ نظرت الى المخيم الصغير ، الى الصحراء المحيطة به ، الى البـ يلمع بوهج معمٍ ، وكأنها ترى ذلك للمرة الأولى . كان الشيخ يقهقه :

ــ انت واياه خوات .

قالت بغضب :

ــ اسكت .

نظر اليها الشيخ وقال :

ــ يا سبحان الله . صار وجهها أصفر .

تنهض متثاقلة ، مرهقة « صرت عجوزاً » ياختي انت بتـزغري وأنـا بكبر تتجه الى حجرة النوم « سيقتلني هذا النوم » وتتمدد على السرير . « تركنا القرية مسعد تنصير اغنياء ومحترمين . فماذا أصبحت يا مسعد ؟ زوجة عليّان ؟ لماذا نبق في القرية ؟ » دموعه تسيل ، تنساب في تجاعيد وجهه « وانت يا سلطانة ؟ ده في رقبتك . . . لا ، لا ، يا مسعد . . . الموت ، ولا حياة الذل . زوجـة عليّ تصير؟ . . . »

فلأفكر في شيء آخر ، قالت لنفسها .

- ٤ -

عادت الى البيت في الثامنة مساء . لم تكن أميرة قد عادت بعد . كان البيت خالياً وكبيراً . أرهقتها الوجوه الكثيرة التي رأتها . لم تكن بحاجة الى مجهود كبير لتسيير الأعمال . عندما تصل الى حد معين من الثراء ، وعندما تخلّف لدى الآخرين انطباعاً بالحنق والقسوة فان كل شيء يسير من تلقاء نفسه . والنقود تأتي وحدها . تزور انساناً لمجرد انها لم تره منذ فترة طويلة . تجد انها خرجت بمكاسب نقدية . يراها الناس فيعتقدون انها تريد شيئاً . يبحثون عما يمكن ان تريده منهم ، فيقدمون خدماتهم دون ان تطلب منهم ذلك أو تتوقعه .

لا أحد من هؤلاء يعاملها كامرأة جميلة ومشتهاة . الكل يفكر انها بلا عواطف ولا رغبات ، ويتصور انها قادرة على الايذاء . يتصورون انها تملك قوة تستطيع ان تسحق بها من يقف في وجهها .

ان تقضي يومها في مقابلة أناس كهؤلاء ، وان تقضيه في تحصيل مكاسب لم تتوقع ان تكون بهذا الحجم يجعلها عاجزة عن تحديد مشاعرها : هل هي سعيدة أم لا ؟ هل هي راضية عن نفسها أم لا ؟ تشعر فقط انها مرهقة ، وان العدد الكبير من فناجين القهوة التي شربتها ، والسجاير التي دخنتها خلّف احساساً بالغثيان ، وشعوراً بالذنب .

تدخل الحمام لتغسل هذه المشاعر ، لتستعيد احساساً بطزاجة الأشياء . الماء الدافيء يجعلها تشعر بذلك . وعندما يسيل الماء على جسدها الذي يغطيه الصابون كانت تحس بالصابون السائل مشبعاً بالعرق والتراب والغثيان . وحين يصبح جسدها نظيفاً ، ناعماً يزول احساسها بالذنب .

الاحساس بالطزاجة يقترن برائحة عطر الليمون ، وبالرغبة في ضم جسد سيف الدين :

جلست في حجرة نومها تجفف شعرها . دق جرس التليفون . ودت ألاّ يكون سيف الدين . تحب ان تستعيده كحلم يقظة أكثر من رغبتها في حضوره . ترفع السماعة . كان هو ، قالت :

ـ تعال بسرعة ، بسرعة .

قال :

ـ بسرعة ؟ بسرعة ؟

وأعادت السماعة الى مكانها . لم تكن تحب ان تطيل معه الحديث في التليفون ، او عموما . كان يرهقها بخوفه ، وبتكراره : هل ضجرتِ مني ؟ امشي ؟ كما كان يضحك لكل كلمة تقولها . يضحك ضحكة صغيرة عصبية ، ثم يخرج صوتاً من انفه . في السرير كان مختلفاً . كان شاباً ولا يرتوي .

ـ ٥ ـ

بعد انصراف سيف الدين بقليل جاءت أميرة . قالت :

ـ وانا داخله لقيت البوي فرند طالع .

تضحك أميرة ، وتضيف :

ـ كان بده يهرب مني .

كانت سلطانة منكسة الرأس ، تتحاشى ان تلتقي عيناها بعيني ابنتها . مدت أميرة رأسها وقالت :

ـ لدي علي . مستحية ؟

كانت البنت تقهرها . منذ حادثة حكمت وهي تعاملها بهذه الفظاظة . حتى حادثة حكمت تبدلت لتصبح حكاية مختلفة . لقد كان حكمت ، تقول أميرة ، خطيبها . فحاولت امها ان تخطفه منها ، ولما فشلت دبرت قتله . جعلت عمها مسعد يقوم بذلك . لم تكن تحب هذه السيرة ، فأخذت أميرة تصيغها على مزاجها .

جلست أميرة بجوارها وقالت :

ـ لطيف الشاب .

كانت رائحة الوسكي تفوح من فمها . ما زال في قلبها تلك الخشية الريفية من الخمر . ولكنها تجيب على سؤالها : لن يحدث أكثر مما هو حادث الآن . قالت أميرة :

ـ ليش ما بتردي عليي ؟
قالت سلطانة :
ـ ارد على ايش ؟
ـ بقول سيف شاب لطيف .
ـ عجبك ؟
تقهقه أميرة :
ـ خايفة ؟ عندي غيره يا مدام . واذا بدك . . .
نظرت اليها سلطانة وقالت :
ـ انتِ سكرانة .
فقالت أميرة بعزبلة :
ـ اهلين حجيه . كنتِ بتصلي انت وسيف الدين ؟
نهضت سلطانة وقالت بحدة :
ـ ربنا ارسلك تشقيني .
جذبتها اليها أميرة وقالت :
ـ ماما . انا مبسوطة . وما بدي ازعّلك .
تستطيع هذه البنت ان تلعب بها، كأنها طفلة . قالت سلطانة :
ـ ولا انا يا حبيبتي .
جلستا متعانقتين .
قالت أميرة فجأة :
ـ ييه نسيت .
ـ خير ؟
ـ البوي فرند ، معشوقك إجا .
ـ ما انت بتقولي شفتيه . . .
قاطعتها أميرة :
ـ لا . البوي فرند الثاني . أبوي .
نظرت سلطانة الى وجه ابنتها لتتأكد إن كانت جادة فقالت أميرة :

ـ مسعد شافه .

ـ وايش بده ؟

ـ مصاري .

ـ ليش ما إجا ؟

تقلص وجه أميرة وقالت :

ـ خلّيت مسعد يسكّنه في اوتيل فلسطين . قلت لمسعد يقول له ماما مسافرة ، ويترجع بكره .

ـ ليش عملتِ هيك ؟

ـ رايح يملا الدار قمل .

تنهدت سلطانة ولم تقل شيئاً . قالت أميرة :

ـ ايش جايبه ؟ مصاريه بتصل له .

كانت أميرة تشعر بالذنب فمضت في شكواها . لم تكن سلطانة تصغي اليها . حين هدأ صوت أميرة في اذنها قالت :

ـ نفسي يا اميرة أسافر .

ـ ومين سامعك . اطش . ابعد .

ـ أسافر واعيش على شط بحر . في كوخ زغير . اعيش طول عمري فيه .

قالت أميرة بوجه محتج :

ـ من حالك ؟

ـ منحالي .

قرصتها في كتفها وقالت :

ـ من حالك ، من حالك ؟

ـ من حالي من حالي . انا والطبيعة و . . .

قالت أميرة :

ـ انا بكمل عنكِ . الطبيعة وسيف الدين .

احمر وجه سلطانة . قالت :

ـ ولا واحد من الناس اللي هون .

ــ وسيف الدين ؟
ــ ولا واحد .
اقتربت اميرة بوجهها منها وقالت :
ــ والكذابة تروح النار ؟
قالت سلطانة :
ــ رائحة النار ، رائحة النار .
ــ وليش وجهك صار احمر ؟
دفعتها سلطانة بقوة :
ــ من غير بياخة ولك .
دق جرس التلفون . رفعت أميرة سماعة التليفون قالت :
ــ هالو . . .
ثم بلهجة محايدة :
ــ اهلاً .
ثم مدت السماعة الى امها بوجه ثقيل جهم ، وقالت :
ــ سمحة .
كانت أميرة تراقب وجه امها وهي تتكلم بالتليفون والغيرة تنهشها . هذا الفرح الذي يشيع في وجه سلطانة كلما التقت بسمحة كان يملؤها بغضب حقيقي ، لأنه دليل تواطؤ مع انسانة تبادلها الكراهية . كما كانت ترى في الحب الذي تكنّه امها لسمحة نوعاً من اهانة الذات . والا فما معنى هذا الالحاح على قرابة ، إن صحت ، جاءت نتيجة لعلاقة غير شرعية ؟

كانت سلطانة تقول انها سوف تأتي في الحال ، بعد دقائق سوف تكون عندها . فقالت أميرة بحدة :

ــ فيه حدا بزور حدا الساعة عشرة في الليل ؟
وسواء كان تأجيل الزيارة الى صباح اليوم بسبب غضب أميرة ، أو لشيء قالته سمحة ، فان المكالمة استمرت طويلاً ، ووجه سلطانة يزداد تألقاً . عندما انهت سلطانة المكالمة ، وهي ما زالت مستغرقة في سعادة احتفالية قالت أميرة :

ــ انتِ بتذلي حالك .

وأدارت وجهها الى الجانب الآخر بعيداً عن أمها . كان تنفسها ثقيلاً . قالت سلطانة :

ــ بذل حالي ؟

مرت فترة صمت . ثم قالت أميرة :

ــ ما كان ناقص عليك غير تبوسي التليفون

قالت سلطانة :

ــ انا متحيرة مع هالبنت .

عندما تتكلم سلطانة عن أميرة بضمير الغائب كانت أميرة تدرك ان امها غاضبة . قالت :

ــ متحيّرة ؟ تحيّري .

قالت سلطانة :

ــ سمحة كلمتني بتقول ان ابوك نايم عندهم . كله من عمايلك (وأخذت تقلّد صوت أميرة بتخشين صوتها وتعبير وجهها برسم تكشيرة هزلية عليه) امي مسافرة ومش رايحة تيجي الا بكره ، وقلت لعمي مسعد يسكّنه في اوتيل فلسطين .

ــ وايش وداه بيت سمحة ؟

ــ كلمها بالتليفون من الأوتيل فنزل جوزها وجابه .

اندفعت اميرة تزعق . اتهمت سمحة وزوجها انهما فعلا ذلك بقصد التشهير والاحراج . نهضت سلطانة وقالت :

ــ أنا داخلة أنام .

فأخذت أميرة تزعق خلفها :

ــ هذا اللي شاطره . انا داخلة انام . انا داخله انام . وكل الزعلة لأني قلت كلمة حق عن سيدة الحسن . . .

دخلت سلطانة حجرة نومها ، وأغلقت الباب خلفها . كانت ترتعش من الغضب . انفتح باب حجرة النوم وأطل رأس أميرة . كان رأسها وعنقها الطويل

وكتفاها ينحنيان ، وهي تزعق :

ــ ليش ما قلتِ للشرموطة هيه اللي تجيبه بكره ، والا ييجي من حاله . غير تروحي له انتِ يعني ؟

قالت سلطانة بصوت هادىء ، مشحون بالغضب :

ــ سمحة الشرموطة ؟

ــ انتِ وهيه . . .

ثم أصبح كلامها غير مفهوم . تحوّل الى صراخ متشنج ، ثم اخـذت تجذب شعرها ، وتلطم خديها . تصاعد ذلك حتى سقطت على الأرض . نهضت سلطانة ملهوفة وسحبت أميرة الى السرير وتمددت بجوارها . كانت أميرة في حالة اغماء . أخذت سلطانة تمسح العرق عن وجهها بالفوطة ، واللعاب الذي تجمع على زاويتي فمها . ثم تناولت زجاجة كولونيا ، سكبت منه في كفها وبللت به وجه ابنتها ، ثم وضعت فتحة الزجاجة قرب انف أميرة . جذبت نفساً عميقاً ، وفتحت عينين صارمتين ، ثم اغمضتهما بعناد.

همست سلطانة :

ــ أميرة ، حبيبتي أميرة .

مرى تحت جلد الوجه تيار صاعد حتى العينين ، ولكنها لم تفتح عينيها ولم تقل شيئاً قالت سلطانة :

ــ اجيب الك دكتور ؟

رفعت أميرة حاجبيها الى أعلى معلنة الرفض . قالت سلطانة :

ــ يقطعني .

وأخذت دموعها تسيل . فتحت أميرة عينيها ، نظرت في وجه أمها ، فاستدارت بجسدها . وضعت رأسها في صدر أمها ، وأخذت تبكي .

قالت سلطانة :

ــ بكفّي يا بنتي ، بكفّي .

واستمرت تبكي . قالت :

ــ بكفّي يا حبيبتي . . .

فقالت اميرة بصوت مختنق :
ـ البكا بريّحني يمه .

ـ ٦ ـ

كان النوم بعيداً . لم تكن أميرة في نومها تكف عن الحركة . لم يذلّها أحد كما أذلتها هذه البنت ، ولم يكن احد يخيفها مثلها . لم يكن الحب الذي يحرك عواطفها نحو بنتها ، بل الشفقة . رأتها تندفع نحو شيخوخة مبكرة ، لا احد يحميها ، وليست عندها معرفة كيف تأتي النقود . تعرف كيف تنفقها بسرعة وغباء . ماذا سوف يحدث لها ، عندما تصبح وحيدة ، عندما تذوب النقود ، عندما يزهد فيها الرجال ؟ لا حياة لها الا بالشرب والرجال . كان بامكانها ان تتزوج ، ان توازن بين متعتها والعمل . ولكن الرجال ، الذين رغبوا في الزواج ، ابتعدوا عندما عرفوا بعض المعلومات . حاولت اغراءها بالعمل ، ولكنها أصبحت تهديداً حقيقياً للعمل . الرجال يملأون رأسها . عندما يعجبها رجل كانت تنسى كل شيء عدا عضوه التناسلي .

عندما اخبرها سيف الدين ان أميرة دعته قائلة ان لها شقة خاصة بها ، قالت له سلطانة :

ـ ليش ما رحت معها ؟ الأم وبنتها .

قال لها :

ـ لكن انا بحبك انتِ .

قالت له :

ـ كذاب .

ـ والله العظيم .

الشفقة منعتها ان تقول له انه لم يذهب بسبب خوفه . ثم خطر لها بحدس وخبرة امرأة رأت الكثير ان هنالك علاقة بين أميرة وسيف الدين . لن تفلت أميرة عشيقاً من عشاق امها . وكأن أميرة استجابت لخواطر أمها . همست :

ـ ماما .

ــ ايوه يا حبيبتي .

ــ بدي أقول لك إشي .

كانت تنظر لأمها بوجه جعله الاجهاد والبكاء رقيقاً حساساً ، وديعاً . قالت سلطانة :

ــ لا تقولي . اني عارفه .

ــ عارفة ؟

قالت سلطانة :

ــ عارفة . ولا يهمك .

نهضت أميرة قليلاً واتكأت على كوعها وقالت :

ــ يعني عارفة عني وعن . . .

ترددت قليلاً ، فقالت سلطانة :

ــ وعن سيف الدين .

صمتتا . كانتا متواجهتين ، الواحدة تطالع وجه الأخرى . ارخت سلطانة جفنيها . قالت أميرة :

ــ بتحبيه ؟

قالت سلطانة :

ــ لا .

وهي مندهشة لهذه الغيرة الي تنهش احشاءها . قالت أميرة :

ــ طيب . ليش مسوية علاقة معاه ؟

ــ الواحدة محتاجة زلمة احياناً .

قالت أميرة :

ــ قال إلي انك بتحبيه وبتعطيه مصاري .

غضبت سلطانة وقالت :

ــ الكلب . قال إلك هيك ؟

ــ ما بتعطيه مصاري ؟

قالت سلطانة انه أعطته مرة واحدة . طلب منها نقوداً لدفع قسط السيارة ،

ووعد بردها .

ــ رجّعها ؟

ــ ما رجّعها ، وأنا نسيتها .

ثم أضافت :

ــ رايحة اطلبها منه ، ويعدين اطرده .

قالت أميرة :

تطرديه ؟

ــ رايحه اطرده .

قالت أميرة بعد فترة صمت :

ــ وأنا رايحة اطرده . البنت وأمها !

قالت سلطانة لنفسها : لقد بدأت تحوّل ما حدث لصالحها . لن يمر وقت طويل قبل ان تجعلني انا التي خطفت حبيبها . ضحكت أميرة وقالت :

ــ قال بده يتجوزني .

ــ ايش قلتِ إله ؟

قالت :

ــ ما رديت عليه .

طال الصمت بينهما . كل واحدة منهما كانت تحتشد ضد الأخرى ، ولكنهما كانتا تدركان ان الوقت غير ملائم للمعركة . قالت أميرة :

ــ بدي اروح انا أوضتي .

ــ نامي هون .

ــ ما بتتضايقي ؟

ــ لا ، حبيبتي .

أدارت لها أميرة ظهرها ، وغطت رأسها ونامت .

ــ ٧ ــ

ستكرر البنت حكايتها مع حكمت في كل مرة . ولكن سلطانة لم تعد تكترث . كانت هي والشيخ عند الشاطىء منذ الفجر . كان يتأوه طيلة الوقت

وهما يسيران نحو الشاطىء .

ـ ذبحتيني يا معودة . لديت على جسمي في المراية لقيته منقرش ابيض وأسمر واحمر وأزرق . . .

كان من الواضح انه ليس سعيداً فقط بما حدث ولكنه فخور بامرأة لا تمنح نفسها بسهولة . قالت :

ـ اسكت .

كانت تكرهه بالفعل .

قال :

ـ زعلانة ؟

قالت :

ـ لا . بس اسكت .

اصبح طفلاً مزعجاً . قال :

ـ واذا ما سكت ؟

ضحكت وقالت :

ـ انت عارف .

قال وهو يضحك :

ـ ايه والله ، اني عارف .

عندما اقتربا من البحر رأت المركب راسياً ومسعد واقفاً على الشاطىء قربه . عندما اقتربا قال مسعد :

ـ البقية في حياتكو .

كان يبتسم وهو يطالعهما بنظرة بيضاء ثابتة . قال الشيخ :

ـ من ؟

بدا مقنعاً في دهشته وتساؤله . فقال مسعد :

ـ حكمت اعطاك عمره .

قال الشيخ :

ـ اليهود سوّوها ملاعين الوالدين .

اتسعت ابتسامة مسعد وقال :

ــ اليهود .

بدا الغضب واضحاً على وجه الشيخ . قال :

ــ ليش تضحك ؟ وينه ؟

قال مسعد وقد أصبح وجهه كالقناع :

ــ في المركب .

كان وجه سلطانة أصفر ، وقد هرب الدم من شفتيها . صعدت الى المركب ، وتبعها الشيخ . كانت تتصور المركب من الداخل مجرد مكان محاط بجدار المركب الخارجي . ولكنه تبين لها انه مجموعة من الحجرات الصغيرة جداً ، والممرات الضيقة ، والسراديب . بل اكتشفت طابقاً آخر ، تحت . هبطت اليه ، والشيخ يتبعها . أشار لهما رجل يلبس بنطلوناً أصفر ، وقميصاً أزرق ، ووجهاً أحمر ، ملتهباً ، كأنه ملسوخ . عندما اقتربا منه همس :

ــ هانا .

وفتح لهما باباً صغيراً . تهيبت سلطانة الدخول . كانت خائفة من حدوث مفاجأة غير متوقعة ، مفاجأة مقترنة بالعنف . كما ان اهتزاز المركب المتصل احدث دواراً خفيفاً جعلها تشعر انها ستسقط . التفتت نحو الشيخ . رأته مبهور الأنفاس يلهث . الرعب الذي في وجهها انتقل اليه كصرخة استغاثة .

قال لها :

ــ علامك ؟

همست :

ــ خايفة .

قال :

ــ نطلع .

قالت :

ــ لا .

دخلت الحجرة الضيقة جداً . لم تستطع أن ترى شيئاً . قالت :

ــ مش شايفة !
لعبارتها جرس استغاثة . مد الرجل الذي كان يقف في الخارج ذراعه عبر نحة الباب فأضاء الحجرة ضوء اصفر ، معتم ، مرتعش . رأته ، رأت حكمت نـاك ، ممدداً على دكة خشبية . شعرت ان ساقيها يخونانها . فاتكأت على لحائط . قال لها الرجل :
ــ استريحي .
لم تفهم ما يقول . دفع كرسياً خشبياً جعل طرفه يلمس فخذيها ، وهمس :
ــ اقعدي .
استجابت لكلمته كأنه تطيع أمراً لا تستطيع عصيانه . وعيناها معلقتان بوجه حكمت . من الواضح ان الرصاصة قد أزالت شفته العليا والجزء الأسفل من نفه . بدا وكأنه مستغرق في ضحك شرير . همست :
ــ كيف صار . . . ؟
قال الرجل وهو يقترب :
ــ الرصاصة الأولانية . . .
وأدار الجسد ليريها مؤخرة رأسه ، ثم أشار باصبعه الى كتلة سوداء في أسفل الجمجمة ، وقال :
ــ صابته هانا .
ثم أشار باصبعه الى كتلة سوداء أخرى ، وقال :
ــ والثانية هانا . .
ثم أعاده الى وضعه القديم وأشار الى الدائرة السوداء في الوجه ، مقترباً باصبعه حتى لمسها ، وقال :
ــ وطلعن من هانا .
في نفس اللحظة صرخت :
ــ لا تصبيه .
لأنها تصورت ان لمس الجرح سوف يسبب ألماً لحكمت في مناطق اللحم

العارية . قال الرجل :

ـ ما صبته .

كان يتكلم بهدوء . قالت :

ـ مين طخه ؟

قال :

ـ اليهود .

قالت :

ـ كيف ؟ ايش صار ؟

نادى الشيخ :

ـ يا عزيز .

خرج الرجل دون أن يرد على سؤالها .

أخذت تنظر الى حكمت ، تراه من خلال دوارها ، من خلال احساس انها تسير في عالم كله يهتز ويترجرج ، عالم مصاب بالدوار . وأخذت تهذي : « لقد قلت لك احترس ، كن يقظاً ، ولكنك كعادتك نسيت ما قلته لك . دائماً تنسى ما أقوله لك ، وعندما اذكّرك به تبتسم . . . » ورغم ان الكلام استمر في رأسها ، كانت في أعماقها تعتقد ان كل ما يحدث هي مزحة ـ كابوس ـ وستنتهي بعد حين. كانت تحدّق في حكمت ، في واقع الأمر ، لترى متى تنتهي المزحة . ولكنها كانت تعلم أيضاً انه ميت ، وانه شبع موتاً . فعندما قلبه الرجل على وجهه ، ورأته يتحرك كله قطعة واحدة ، كأنه لوح خشب خطر لها ان هذا هو الموت . ولكن ذلك لم يَبدُ لها متعارضاً مع حدسها بأن ما يحدث هو مجرد مزحة .

ثم ازدادت الأمور اختلاطاً أمامها . تصورت حكمت يعض على شفته السفلى ، وكأنه ، في سياق ذلك المزاح الأسود الكابوسي ، يشير لأحدٍ يقف خلفها ان لا يكشف المزحة . مدت يدها وامسكت يده فأطلقت صرخة خافتة . كانت اليد باردة ، يابسة ، ذلك النوع من البرودة التي يجعل القشعريرة تنتشر على الجلد كله . شعرت في تلك اللحظة ان موته لمسها في العمق . فأخذت تنتحب .

سمعت اسمها ينادى . منذ فترة ليست بالقصيرة كانت تسمع اسمها

ينادي ، وتسمع أصواتاً تتحدث دون انقطاع ، ولكنها لم تكن تربط بين تلك الأصوات وبين ما هي فيه . سمعت :

ـ سلطانة ، يالله يا بنت أخي .

كانت تعرف الصوت ، ولكنها تفتقد معرفة دلالة توجهه اليها . ازداد نحيبها ارتفاعاً لتغرق ذلك الصوت ، لتظل وحدها . وفي داخلها الصوت الآخر مستمراً : « قلت لك احترس لنفسك : حين قلت ذلك كنت اعرف انك مهدد ، كان عليك ان تصغي لي . لم تصغ لكلامي حين قلت لك ابتعد عن أميرة . أكبر منك دمرتهم . ولكنك لم تصغ لكلامي ». وسيل من الكلمات يتدفق دون توقف .

ـ بكفّي يا سلطانة .

جاء الصوت من الخارج . تبعته حركة . اهتز المركب تحت أقدام الشيخ ، امسك بيدها ، وقال :

ـ عمر البكا ما رد ميت يا سلطانة .

كان صوته عميقاً . استسلمت ليده ونهضت . قال لها :

ـ امسحي دموعك .

غادرا المركب دون ان يكلمها احد . لاحظت عبوراً ، ودون ان تبني على ذلك اية نتيجة ، مسعد وهو ينظر اليها بدهشة .

انتبهت سلطانة الى وجود أميرة بجوارها . شعرت كأنها فضحت نفسها أمام هذه البنت المتربصة بها دائماً لتحاسبها على أبسط حركة تقوم بها . هذه البنت عقاب حقيقي لها ، عقاب من الرب ينتقم لحكمت ولكثيرين غيرهم . ثم أخذت تحلم بذلك الكوخ على شاطيء البحر . ارتسمت صورة بحر أسود صاخب ، وسماء رمادية ، وأشجار كثيرة جداً ، ساكنة ، وفروعها محملة بالثلج . وهي وحيدة . بل هنالك سمحة . خطرت لها سمحة كرفيقة عندما سمعت صوتها في سماعة التليفون الليلة . ومن أيضاً ؟ لماذا لا أحقق هذا الحلم ؟ قالت لنفسها . انها قادرة على ذلك .

صوت سيارة تمر في الشارع . سوف تكون سيارتها معها . وتجولت في داخل ذلك الكوخ . كانت متعة الحياة فيه مضاعفة بسبب هذا الجو البارد الرمادي في الخارج .

يبدو انها عاشت في قلب ذلك الكوخ أكثر مما يجب . بعد ان استعادت تفاصيله أكثر من مرة شعرت بالرغبة الى الرجل تنبثق في احشائها كالنار . تريده الآن ، هذا الولد سيف الدين . الآن . كانت ناراً يجب اطفاؤها . كادت يدها تمتد للتليفون . ثم تذكرت ان أميرة قد اختطفته منها .

تمت

دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان ص.ب ١٤/٥٥٢٨